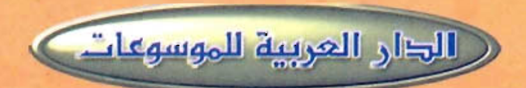
التشيع السياسي في الحجاز

من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجري

تأليف
د. أحمد النادي



التشيع السياسي في الحجاز

من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجري

اسم الكتاب: التشيع السياسي في الحجاز من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجري

المؤلف: د. أحمد النادي

الطبعة الأولى: ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

ISBN 978-614-424-159-2



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

التشيع السياسي في الحجاز

من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجري

تأليف

أ. د. أحمد النادي

الدار العربية للموسوعات

بيروت



تمهيد

● أولاً: الحجاز - تحديده وأهميته ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

■ أ- تحديد الحجاز:

الحجاز: بكسر الحاء في اللغة مأخوذ من الحَجْز، وهو اسم للحاجز لغة وللبلد المعروف اصطلاحاً، وسمي بذلك من الحجز، أي الفصل بين الشيئين[1].

ويضيف البكري نقلاً عن الخليل بن أحمد[2] أنه سمي حجازاً لأنه

---

(١) البكري: عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق/ مصطفى السقاء، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، ١/ ١٢، ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، الطبعة الأولى، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ٥/ ٣٣١.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي: نحوي، لغوي، وهو أول من استخرج العروض وحصن بها أشعار العرب، توفي بالبصرة سنة ١٧٠هـ، وصنف كتباً منها: «العروض والشواهد»، الإيقاع، «الجمل»، «العين» انظر ترجمته في ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون ت، ص: ٦٣-٦٤، ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الرومي الحموي: معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ط/ ١، بيروت - دار الكتب العلمية =

فصل بين الغور[١] وبين الشام، وبين تهامة ونجد[٢] والحجاز جبل ممتد حال بين الغور: غور تهامة و نجد، فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر، فهو حاجز بينهما[٣].

ويتفق الأصمعي[٤] والقليوبي على هذه التسمية[٥]، بينما يرى

= ١٤١١هـ-١٩٩١م، ٣/ ٣٠٠-٣٠٢، اليماني عبد الباقي بن عبد المجيد: إشارة التعيين في تراجم النحاة والغويين، تحقيق الدكتور/ عبد المجيد دياب، ط/١، الرياض - شركة الطباعة العربية السعودية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص: ١١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق، فهيم محمد شلتوت، القاهرة، توزيع مكتبة ابن تيمية مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، بدون ت، ١/ ٣١٢، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت - المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بدون ت، ص: ٥٥٣-٥٥٩.

(١) الغور: بالفتح ثم السكون، المنخفض من الأرض، قال الأزهري: الغور تهامة وما يلي اليمن، ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٢١٧، والأصح أن تكون الغور «اليمن» فيكون الحجاز قد سمي كذلك لأنه يفصل بين اليمن والشام، السيف عبدالله محمد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الطبعة الثالثة، بيروت مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص: ٣٣.

(٢) معجم ما استعجم ٢/ ١٢.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢١٨.

(٤) عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي، مشاهير علماء اللغة والأدب والنحو والتاريخ، واختلف في تاريخ وفاته، والأرجح سنة ٢١٠هـ بالبصرة، وله الكثير من الكتب، منها «نوادر الأعراب، وكتاب اللغات، والمذكر والمؤنث»، ابن النديم: الفهرست، ص: ٨٢، السيوطي: بغية الوعاة ٢/ ١١٢-١١٤.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٢/ ١٢١٩، القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ٤/ ٢٥٢، القليوبي: أحمد ابن أحمد بن سلامة: النبذة اللطيفة في بيان مقاصد الحجاز ومعالمه الشريفة، مصور =

الحميري: أنه سمي حجازاً لأنه حجز بين الغور والشام، وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة[١]، ويرى الأزهري: أنه سمي حجازاً لأن الحرار[٢] حالت بينه وبين عالية نجد[٣].

ويكاد الجغرافيون يتفقون على أن الحجاز سمي حجازاً لأنه يفصل بين شيئيين أو بين منطقتين ولكنهم يختلفون في التحديد الجغرافي للحجاز، وقد قدمت بحوث عديدة في محاولة لفهم التحديد الجغرافي للحجاز عند العرب من خلال ما كتبه الجغرافيون المسلمون في العصور المختلفة[٤].

والناظر في هذه التعريفات يجد خلافاً شديداً بين مفهوم هؤلاء

= بمركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة ميكروفيلم رقم ١٠٧٧، تاريخ عن دار الكتب المصرية برقم ٢٤٩٢، ورقة ٣ أ.

(١) الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق/ إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان ١٩٧٥م، ص: ١٨٨، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٥٢.

(٢) وهي الحرار الخمس: حرة بني سليم، حرة واقم، حرة النار، حرة شوران، وحرة ليلى، ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢١٩، الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق/ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط/ ٢، بيروت - مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص: ٦٥٣.

(٣) الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق/ عبد السلام هارون، وآخرين، القاهرة ١٩٦٤م، ٤/ ١٢٢.

(٤) مثال ذلك: البحث الذي كتبه الدكتور/ صالح أحمد العلي، بعنوان، تحديد الحجاز عند المتقدمين في الجزء الأول من السنة الثالثة من مجلة العرب، التي تصدرها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض، وقد صدر هذا العدد سنة ١٣٨٨هـ، كذلك البحث الذي كتبه الدكتور/ عبدالله ناصر الوهيبي بعنوان: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، من المجلد الأولى من السنة الأولى، من مجلد كلية الآداب - جامعة الرياض ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

المؤلفين للحجاز، وفي تحديدهم لمناطقه، ويجد تناقضاً يصعب تفسيره، والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف الحدود الإدارية لأقسام جزيرة العرب[١]، وأن هؤلاء المؤلفين قد كتبوا في عصور مختلفة، فكان كل واحد منهم متأثراً بما يسود في عصره من تقسيمات إدارية تؤثر بالتالي على التعريف الجغرافي للمنطقة التي يكتب عنها.

فمن هذه الأقوال من جعل الحجاز هو الحاجز بين اليمن والشام وبين نجد وتهامة[٢] ومنهم من جعله الحاجز بين نجد وتهامة فقط، واعتبر مكة تهامية، والمدينة حجازية، والطائف حجازية[٣]، وقيل: المدينة نجدية، وقيل تهامية، وقيل نصفها نجد ونصفها تهام[٤].

وتذكر المصادر نقلاً عن ابن الكلبي في موضع آخر: الحجاز ما

---

(١) د. صالح العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين ١/ ٢-٤، عبدالله الوهيبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ١/ ٥٥، عبدالله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز ص: ٣١.

(٢) البكري: معجم ما استعجم ١/ ١٢، الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى - مكة، ميكروفيلم رقم ٧٢٧ تاريخ عن مكتبة المتحف العراقي ببغداد، برقم ١٣٨٥، ورقة ٤، القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣ أ، ورقة ٣ ب.

(٣) الأصفهاني الحسن بن عبدالله: بلاد العرب، تحقيق/ حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، دار اليمامة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص: ١٤، ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢١٩، العباسي: أحمد بن عبد المجيد: عمدة الأخبار في مدينة المختار، تصحيح/ محمد الطيب الأنصاري، وحمد الجاسر، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، بدون. ت، ص: ٢٩٧، ابن خميس: عبدالله بن محمد: المجاز بين اليمامة والحجاز، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، بدون ت، ص: ٣٢٨.

(٤) القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣ ب.

حجز بين اليمامة والعروض[١]، وفيما بين اليمن ونجد، فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام وإلى العذيب[٢]، والطائف من نجد والمدينة من نجد[٣]، ويقول الحربي: «والطائف تدخل في نجد، لأن حدها ما بين فيد[٤] إلى المدينة، إلى أعالي أرض تميم[٥]، والطائف منها»[٦].

وقد اختلف الجغرافيون في حدود الحجاز الجغرافية، ولكن أقدم

---

(١) العروض: قرى بين الحجاز واليمن، ياقوت: معجم البلدان ٤/ ١٠٣.

(٢) العذيب: بفتح العين المهملة وضم الذال المعجمة، وسكون الياء ثم باء موحدة وهو ماء بين القادسية والمغيثة، وبينه وبين القادسية أربعة أميال، وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً، وهو وادي لبني تميم ومنزل من منازل الحج العراقي (ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٩٢).

(٣) الحربي، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق/ حمد الجاسر، الطبعة الثانية، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٤٠١هـ-١٨١م، ص: ٥٣٧، البكري: معجم ما استعجم ١/ ١٠.

(٤) فيد: بفتح الفاء، بليدة بنجد على منتصف طريق حجاج العراق من الكوفة إلى مكة قريب من سلمى أحد جبال طيء، وبها يودع الحجاج بعض أمتعتهم، وتبعد عن الكوفة بمائة وتسعة فراسخ (أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية ١٨٤٠م، ص: ٩٧، وموقعها جنوب حائل، انظر البلادي: عاتق بن غيث: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ط/ ١، مكتبة دار مكة للطباعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ٢٣٩، ٢٤٠.

(٥) نسبة إلى قبيلة تميم أشهر القبائل التي تسكن أرض نجد (كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط/ ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، ١/ ١٢٦.

(٦) المناسك، ص: ٥٣٧.

من حددها ما قاله الشافعي بأن الحجاز «مكة و المدينة واليمامة ومخاليفهما»[١]، وكذلك ما روي عن الأصمعي: «الحجاز من تخوم[٢] صنعاء إلى تخوم الشام»[٣]، وأقرب الآراء إلى التحديد الجغرافي للحجاز ما رواه الهمذاني عن ابن الكلبي الذي حدد الحجاز جنوباً بقعرة[٤] اليمن حتى أطراف بوادي الشام، أي أنه اعتبر الحجاز سلسلة جبال السروات بأكملها[٥]، التي تمتد من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها، تاركاً سهول تهامة الضيقة في الغرب، وهضبة نجد في الشرق، ويجب أن نتنبه لرواية الهمذاني، لأن بعض أقسام جبال السروات، وخاصة في جنوبها وشمالها لا تسمى حجازاً، بل إن الحجاز يقع وسط السلسلة من هذه الجبال[٦]، كما أن اسم الحجاز

(١) الفيروزآبادي: المغانمة المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر الطبعة الأولى، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ص: ١٠٢، القاموس المحيط، ص: ٦٥٣، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٥٠، السمهودي: نور الدين علي بن أحمد: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد المجيد، الطبعة الأولى، بيروت دار التراث العربي ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ٤/ ١١٨٢، العباسي: عمدة الأخبار، ص: ٢٩٦.

(٢) التخوم: بالضم الفصل بين الأرضين من العالم والحدود، وأرضنا تتاخم أرضكم: أي تحادها الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص: ١٣٩٩.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢١٩.

(٤) قعرة: من قعر كل شيء: أقصاه، والمقصود هنا أقصى بلاد اليمن، (الفيروزآبادي: القاموس، ص: ٥٩٧).

(٥) صفة جزيرة العرب، تحقيق/ محمد بن علي الأكوع، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ص: ٥٨، البكري: معجم ما استعجم ١/ ٩، الوهيبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ١/ ٦٧.

(٦) العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين ١/ ٥.



يشمل في العرف تهامة أيضاً[١]، وبذلك يكون الحجاز هو المنطقة الممتدة من خط عرض ٢٠ شمالاً إلى خط عرض ٩ْ٢ شمالاً[٢].

أما تحديد الحجاز الإداري الحديث فإنه لا يختلف كثيراً عن التحديد الجغرافي في الكتب القديمة عند العرب، فقد حدده بعض المؤلفين بقوله: «يحد الحجاز من الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق البادية الكبرى[٣]، ومن الجنوب بلاد قبيلة بني مالك الكائنة بجبال السروات المتاخمين لبلاد زهران[٤]، وشمالاً بادية الشام إلى تبوك من الداخل، ومن جهة البحر الأحمر العقبة»[٥].

■ ب - أهميته:

اكتسبت بلاد الحجاز مكانة دينية وسياسية منذ ظهور الإسلام

---

(١) الدباغ: مصطفى مراد: الجزيرة العربية، بيروت - دار الطليعة ١٣٨٢هـ -١٩٦٣م، ١/ ٦٥، الشريف: أحمد إبراهيم: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٦٨م، ص: ٣٠.

(٢) الدباغ: الجزيرة العربية ١/ ٦٥.

(٣) يعني نجد: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٣١٨.

(٤) زهران: بفتح أوله، وإسكان ثانيه، بعد راء مهملة: بلد بالسراة، وفيه الجبل المعروف بذي كشاء، البكري: معجم ما استعجم ١/ ٧٠٤، ٢/ ١١٢٩، وتقع بلاد زهران في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية في أواسط بلاد الحجاز وتهامة، وتبعد عن مدينة الطائف ١٨٠كم، ويوجد بها حوالي ٥٠٠ قرية منتشرة في كافة أنحاء بلاد زهران، ويسكنها نحو ٣٥٠ ألف نسمة تقريباً جميعهم من الحضر، (الزهراني: محمد مسفر حسين: لمحات من بلاد زهران، ط/١، نشر الرئاسة العامة لرعاية الشباب ١٤٠٣هـ، ص: ١١).

(٥) كحالة: عمر رضا: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص: ١٣١.

وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى[١]، وظلت البلاد محتفظة بمكانتها الدينية حتى اليوم وستبقى إن شاء الله إلى قيام الساعة.

فقد ظهرت في الحجاز بعض المدن التي أدت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي، وذلك باعتبارها مراكز دينية مثل مكة والمدينة أو مراكز تجارية مهمة مثل جدة وينبع المنفذين المهمين لتجارة الحجاز على البحر الأحمر، ومدينة الطائف وضواحيها التي كانت تعد مورداً تجارياً مهماً لغذاء أهل مكة وقراها من حبوب وفواكه وأمثالها.

ومكة المكرمة هي العاصمة الإسلامية وأقدم المدن التاريخية، وهي التي اعتبرت على مر الزمن عند العرب القاعدة الرئيسية لبلاد الحجاز على مر العصور، وهي في واقعها الحضاري والسياسي والاجتماعي قاعدة الحجاز وأم القرى[٢].

(١) خفاجي: أحمد عبد الحميد: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، رسالة ماجستير، آداب الإسكندرية، ١٩٦٨م، ص: ٢.

(٢) الأصفهاني: بلاد العرب، ص: ١٤، ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢١٩، الفاسي: تقي الدين محمد أحمد بن علي الحسين المكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه لجنة من كبار العلماء والأدباء ١/ ٢٦، الألوسي: محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، بغداد ١٣١٤هـ، ١/ ٩٤.

مدن الحجاز

■ مكة المكرمة:

تقع مكة في تهامة في الحجاز الجنوبي على بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر[١]، وهي عبارة عن قرية في وادٍ ضيق غير ذي زرع تحيط به الجبال من شتى الجهات[٢]، ويروى أنها سميت بذلك لأنها تملك الجبارين أي تذهب نخوتهم، وقيل: لأنها تجذب الناس إليها من قولهم: امتلك الفصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه شيئاً، وقيل: لقلة مائها[٣].

وتسمى بكة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[٤].

واختلف في معنى تسميتها بكة بالباء، فقيل: لأنها كانت تبك أعناق

---

(١) فيليب حتي: تاريخ العرب ١/ ١٢٤.

(٢) جمال سرور: تاريخ العرب ١/ ١٢٤.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/ ٤٨.

(٤) آل عمران: ٩٦.

الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم أي تدقها، وقيل لازدحام الناس بها لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً أي تزدحم[١].

وخلاصة القول أنها سميت مكة، وبكة لأن الناس يأتون إليها بكثرة ويزدحمون فيها من أجل تأدية الفريضة.

وهي مدينة قديمة أزلية البناء[٢]، وطولها من المعلاة إلى المسفلة[٣] نحو ميلين من حد الجنوب إلى جهة الشمال، ومن أسفل جبال أجياد إلى ظهر جبل قعيقعان ميل واحد[٤]، والمدينة مبنية في وسط هذا القضاء، وحجارة بنيانها من جبالها، وأسواقها قليلة، وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالمسجد الحرام، والكعبة وسط الحرم[٥].

ومكة كلها مشهد كريم، وكفاها شرفاً ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم، وأنها حرم الله الآمن، وهي منشأ النبي (ﷺ) الذي آثرهم الله بالتشريف والتكريم، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم، فهي مبتدأ نزول الوحي والتنزيل، وأول مهبط الروح الأمين جبريل (عليه السلام) وكانت مثابة أنبياء الله تعالى ورسله الأكرمين[٦].

وتقوم مكة على تجارة عريضة ساعدها على ذلك موقعها على مسافة أربعين ميلاً من ميناء جدة الواقعة على ساحل البحر الأحمر إذ كانت

---

(١) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص: ١٦-١٧.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١/ ١٣٩.

(٣) ما نزل عن المسجد الحرام يسميه أهل مكة المسفلة وما ارتفع عنه يسمى المعلاة، المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: ٧١.

(٤) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ١/ ٢٨.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق ١/ ١٣٩.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص: ٩١.

المراكب ما تكاد تنتهي من مصر واليمن إلى جدة حتى تسير منها المتاجر إلى مكة[١].

كما تقع على طريق القوافل القادمة إليها من اليمن إلى الشام الذي جعل من مكة بالنسبة لتلك القوافل محطة تجارية لوجود الماء بها، وللحصول على المؤن اللازمة لمتابعة الرحلة فضلاً عن تبادل البضائع من تجار مكة[٢].

ويذكر ابن حبير أن الطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة وأن البضائع تجبى إليها من كل مكان وتتميز بوجود كافة أنواع السلع فيها وخاصة في موسم الحج[٣].

■ المدينة المنورة:

تقع إلى الشمال من مكة في مستوى من الأرض[٤]، وهي أقل من نصفها[٥]، ويحدها من الشمال جبل أحد[٦]، وتقوم في واحة ذات تربة خصبة، ومياهها غزيرة بين حرتين، حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب، وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب فتحيط بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تتجمع في شمالها الغربي، وتسير في انحدارها مياه الأمطار التي تجعل من أرض المدينة جنة خضراء[٧]،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٥٨.

(٢) علي السليمان: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية، ص: ٨٥.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص: ٩٧.

(٤) جمال سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية، ص: ٤٨.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: ٨٠.

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق ١/١٤٣.

(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: ٨٠.

وكان لذلك أثره في الزراعة بها حيث يحيط بأكثرها بساتين ونخيل، والقرى المحيطة بها تتميز بكثرة مزارعها[١] التي تعتمد على مياه الآبار[٢].

وكانت المدينة قبل الإسلام تسمى «يثرب»[٣]، وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾[٤].

وقد سميت طيبة وطابة[٥]، وسماها الله عز وجل المدينة في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾[٦].

وبالمدينة مسجد الرسول (ﷺ)، وقد بني على عهده، ومسجد حمزة ابن عبد المطلب (رضي الله عنه)، ويقع في الناحية القبلية من جبل أحد، وبقيع الغرقد شرقي المدينة[٧]، وهو مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار (رضي الله عنهم)[٨].

■ الطائف:

مدينة صغيرة واقعة في سهل رملي محاطة بتلال منخفضة[٩]، وتقع

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: ٨٠.
(٢) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض ١/٢٨.
(٣) الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٠١.
(٤) الأحزاب: ١٣.
(٥) الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٠١.
(٦) التوبة: ١١.
(٧) ابن جبير: الرحلة، ص: ١٧٣.
(٨) المصدر السابق، ص: ١٧٤.
(٩) فائق الصواف: الدولة العثمانية وإقليم الحجاز، ص: ٣٧.

على بعد اثني عشر فرسخاً شرقي مكة[١] على ارتفاع يقرب من ستة آلاف قدم من سطح البحر[٢].

وكان اسم الطائف «وج» نسبة إلى وج بن عبد الحي من العمالقة[٣]، ثم سكنتها قبيلة ثقيف، فبنوا عليها حائطاً مطوفاً بها فسموها الطائف[٤].

وتمتاز بخصوبة أرضها حتى يقال: إنها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز[٥]، كما اشتهرت ببساتينها، وحدائقها الجميلة، ومياهها العذبة،وهوائها المعتدل، وأكثر فواكه مكة من الطائف[٦]، ولا يوجد في ديار الحجاز مكان أبرد من الطائف[٧].

ولقد استفاد أهل الطائف من الزراعة والتجارة فزادت ثرواتهم، ونمت وصارت بلدهم تقرن بمكة، فيقال: المكتين والقريتين، وهذه التسمية وردت في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٨].

وتشتهر الطائف بزرع الكروم، والنخيل والموز، وسائر الفواكه[٩]، وأكثرها ثمار الزيتون[١٠].

---

(١) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص: ٩٧، الإدريسي: نزهة المشتاق ١/ ١٤٤.
(٢) فيليب حتي: تاريخ العرب ١/ ١٢٤.
(٣) الحميري: الروض المعطار، ص: ٣٧٩.
(٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص: ٢٢.
(٥) جمال سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية، ص: ٥١.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص:٧٩، الإدريسي: نزهة المشتاق ١/ ١٤٤.
(٧) الحميري: الروض المعطار، ص: ٣٧٩.
(٨) الزخرف: ٣١.
(٩) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص: ٩٧.
(١٠) ابن حوقل: صورة الأرض ١/ ٣٢.

■ جدة:

تقع جدة إلى الغرب من مكة المكرمة[١]، وبينهما أربعون ميلاً[٢]، وهي ثغر مكة على البحر الأحمر تستقبل المراكب التجارية القادمة من اليمن ومصر، وتعتبر قبلة الحجيج القادم من عيذاب إليها[٣]، مما جعلها تحظى بالتجارة العظيمة والثراء العريض[٤]، وهي محط السفن القادمة من الهند وعدن، واليمن، وعيذاب، والقلزم[٥].

وقد وصفها الرحالة الفارسي ناصر خسرو أثناء زيارته للحجاز سنة ٤٤٢هـ-١٠٥٠م بأنها مدينة كبيرة يحيط بها سور حصين، وتقع شمال البحر الأحمر، وفيها أسواق جميلة، وقبلة مسجدها الجامع من ناحية المشرق، ولها بوابتان إحداهما شرقية تؤدي إلى مكة، والثانية غربية تؤدي إلى البحر الأحمر، ولا يوجد في جدة زروع ولا ثمار، وكل ما يحتاجه أهلها يحضرونه من القرى.

وكان أمير جدة يتبع أمير مكة[٦].

■ الجار:

تعتبر الجار ميناء المدينة، وهي آهلة عامرة، وتقع على ساحل البحر مما يلي المدينة[٧] وميناء الجار كان معروفاً قبل الإسلام، إلّا أنها في

---

(١) أيوب صبري: مرآة جزيرة العرب ١/ ١٧١.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص: ١٥٧.
(٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص: ٥١، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٥٨.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ١/ ٣١.
(٥) الحميري: الروض المعطار، ص: ١٥٧.
(٦) ناصر خسرو: سفر نامة، ص: ١٢٠.
(٧) الحميري: الروض المعطار، ص: ١٥٣.

العصر الإسلامي اكتسبت أهمية كبير حينما أصبحت أشهر ميناء في الحجاز، وتعهدها الخلفاء بالرعاية واهتموا بشأنها بعد فتح مصر فعندما فتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يحمل الطعام منها إلى المدينة عبر ساحل الجار[١]، ومن الجار إلى جدة نحو عشرة أيام في البر بطول الساحل وفيها ترسو المراكب التي تحمل الطعام من مصر[٢].

لقد حازت الجار شهرة تاريخية كبيرة بحيث كان البحر الأحمر يعرف ببحر الجار[٣]، ولقد ضعف شأنها منذ القرن الرابع الهجري حيث اختل نظام الأمن في الجار فتسلطت الأعراب عليها بالنهب والسلب وقتل أهلها[٤].

واستمرت الجار على حالها من عدم الاستقرار تستقبل المراكب القادمة من مصر، حتى أخذ الحجاج من مصر والمغرب طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس الهجري، فضعف أمر الجار وبدأ ثغر ينبع في الازدهار بقدوم سنة ٦٢١هـ-١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون الميناء الرئيسي للمدينة بعد جدة[٥].

■ ينبع:

يذكر الجغرافيون أن ينبع بلدتان إحداهما تسمى «ينبع البحر»

---

(١) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص: ٤٧.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص:١٥٣.

(٣) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص: ٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص: ٤٩.

(٥) علي السليمان: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية، ص: ١٠٧.

والأخرى تسمى «ينبع النخل»[١]، فالأولى ينبع البحر تقع على شاطئ البحر الأحمر في الجانب الشرقي منه وتبعد عن المدينة المنورة مسافة مائتين وخمسين وعشرين كيلومتراً من الجهة الغربية، وهي ميناء جيد للمدينة المنورة[٢]، ولا يوجد بها مياه عذبة، والسكان يشربون من مياه الأمطار ومن الآبار المحفورة عن طريق السيول[٣].

وقد أصبح ميناء ينبع البحر من الموانئ الحجازية الهامة منذ سنة ٦٢١هـ-١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون ميناء للمدينة، وأقاموا فيه قلعة قوية زودت بالجنود للحماية والحراسة بالإضافة إلى بعض الإصلاحات والإنشاءات التي جعلت من ينبع ثغراً هاماً من ثغور الحجاز ترسو به السفن القادمة من مصر[٤].

والبلدة الثانية ينبع النخل وتقع في الجهة الشرقية من ينبع البحر وهي عبارة عن عدة قرى صغيرة، تحاط كل قرية من هذه القرى من جهاتها الأربع بالمياه الجارية، وتقع ينبع النخل في طريق الحجاج القادمين من مصر[٥].

ويبدو من هذا العرض الجغرافي أن أكثر بلاد الحجاز عبارة عن جبال مكونة من الرمال والحجارة والوديان المنخفضة في بعض مناطقها والمحصورة بين الجبال، وبعضها الآخر عبارة عن صحراء لا تهطل بها الأمطار في بعض المواسم.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ٢/ ١١٠.

(٢) أيوب صبري: مرآة جزيرة العرب ١/ ١٩٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) علي السليمان: النشاط التجاري، ص: ١٠٤-١٠٥.

(٥) أيوب صبري: مرآة جزيرة العرب ١/ ١٩٥.

ولذا فإن محصولاتها الداخلية ليست كافية، وجبالها وصحاريها لا تنبت فيها الأعشاب بالقدر الكافي، ولذلك فإنها غير قابلة لإنتاج المحاصيل الكافية لسد احتياجات ساكنيها.

وخلاصة القول أن صفات الحجاز الطبيعية التضاريسية منها والمناخية، وموارده المائية، وموقعه الجغرافي، ما هي إلّا عوامل أثرت إلى حد بعيد في ارتباط الحجاز بمصر منذ القدم حيث كان سكان الحجاز يحصلون على احتياجاتهم من القمح والحبوب وسائر الحاجيات الضرورية؛ بل إنهم كانوا يهاجرون بكميات محدودة إلى مصر حين يتوقف هطول الأمطار ويسود الجفاف، فيلقون كل رعاية وعناية من حكام مصر وأهلها[١]، ويتضح هذا من خلال حديثنا عن علاقات مصر بالحجاز قبيل الفاطميين.

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامة، ص: ١١٢.



تعريف الشيعة ونشأتها

شيعة الرجل في اللغة تعنى أتباعه[١]، وأصل الشيعة الفرقة من الناس الذين يجتمعون على الأمر، وهي مشتقة من المشايعة بمعنى المتابعة والمطاوعة[٢].

وقد ورد ذكر الشيعة بالصيغة المفردة في القرآن الكريم أربع مرات أولاها في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[٣]، والضمير المتصل في شيعته يعود على سيدنا موسى (عليه السلام)، وشيعته هنا هم بنو إسرائيل[٤].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[٥]، أما المرة الثالثة فهي قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[٦] أي من

---

(١) الرازي: محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح ١/١٤٨.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ٨/١٨٩، ١٨٨.

(٣) القصص: ١٥.

(٤) ابن كثير: تفسير ٣/ ٣٨٣.

(٥) القصص: ١٥.

(٦) الصافات: ٨٣.

أهل دينه، والضمير يعود على سيدنا نوح (عليه السلام)، والمعنى أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) على منهج وسنة نوح (عليه السلام)[(١)].

وأخيراً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[(٢)] وهي هنا بمعنى الأمة أو الدين[(٣)].

أما معنى الشيعة في الاصطلاح فهم فرقة تنسب نفسها إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وهم معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته[(٤)]، وقد قصروا الإمامة على آل البيت، وقالوا بعصمة الأئمة من الكبائر والصغائر والخطأ[(٥)].

وعرفها الشهرستاني[(٦)]، بقوله: «هم الذين شايعوا علياً (رضي الله عنه) على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية إما جلياً أو خفياً واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده»[(٧)].

«والشيعة من وافق على أن علياً (رضي الله عنه) أفضل الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأحقهم بالإمامة وولده من بعده»[(٨)].

---

(١) ابن كثير: تفسيره ٤/ ١٣.

(٢) مريم: ٦٩.

(٣) ابن كثير: تفسيره ٣/ ١٣٢.

(٤) النوبختي: فرق الشيعة، ص: ١٧.

(٥) عفيفي عبد الرازق: مذكرة التوحيد، ص: ١٣٩.

(٦) هو الأفضل أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد شيخ أهل الكلام، برع في الفقه، ولد سنة (٤٦٧هـ-١٠٧٤م)، كان إماماً أصولياً عارفاً بالأدب والعلوم المهجورة، حج سنة (٥١٠هـ-١١١٦م)، وعظ ببغداد، توفي في مسقط رأسه شهرستان عام (٥٤٨هـ-١١٥٣م)، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٦-٢٨٨.

(٧) الملل والنحل ١/ ١١٧.

(٨) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ١١٣.

مما سبق يتضح أن معنى الشيعة يحتمل الشيعة الصالحة والشيعة السيئة، أما الصالحة فهي التي تسير على نهج قادتها الصالحين، ولا تخالفهم، كما هو الحال في سيدنا إبراهيم (عليه السلام) الذي كان يسير على نهج وسنة سيدنا نوح (عليه السلام)، أما من يعصي أمراءه الصالحين، ويكذب عليهم ولا يطيعهم في كثير من أمورهم فهم من الشيعة السيئة.

أما المعنى الاصطلاحي فيجب التوقف عنده ومناقشته مناقشة كافية وذلك من خلال ثلاثة محاور رئيسية أولها الاعتقاد بكون علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أفضل الناس بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهذا ما لم يصرح به علي (رضي الله عنه)، ولم يذكر في الكتاب والسنة حيث يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[(١)]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[(٢)]، ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): عشرة من أصحابي في الجنة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد[(٣)].

يتضح من الآيتين الكريمتين أن المعيار في الأفضلية هو السبق إلى الإسلام والمبايعة تحت الشجرة، إلى جانب الترتيب الذي نص عليه الحديث الشريف، أما المحور الثاني فهو حول القول بالوصية لعلي

---

(١) الفتح: ١٨.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) ابن حنبل: مسند ١/ ١٨٨، الترمذي: سنن ٥/ ٦٤٧، ٦٤٨، ابن حبان: صحيح ١٥/ ٤٥٤، ٤٥٨، الطبراني: المعجم الوسيط ١/ ٢٦٧، الحاكم: المستدرك ٣/ ٤٩٨، القدسي: الأحاديث المختارة ٣/ ١٠٢.

(رضي الله عنه) بالخلافة بعد وفاة الرسول (ﷺ)، ففي خطبة لعلي أثناء الشورى التي أعقبت طعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: «لو عهد إلينا رسول الله (ﷺ) عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت»[١]، فقوله هذا يدل على أن الرسول (ﷺ) لم يوص له بالخلافة من بعده، ومما يؤكد ذلك أنه تردد في قبول منصب الخلافة عندما عرض عليه عقب مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وكان يفضل أن يكون وزيراً[٢]، والمحور الثالث هو الاعتقاد بأن الخلافة يجب أن تستمر في أبناء علي (رضي الله عنه)، فمن المؤكد في كتب التاريخ والسنة أن علياً لم يوص لابنه الحسن من بعده بالخلافة، فقد «ذكر أن جندب بن عبدالله[٣] دخل على علي فسأله فقال: يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن، فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر»[٤].

ولو كانت الخلافة وراثية في أبناء علي (رضي الله عنه) فإن ذلك الأمر ينفي صفة الشورى التي ينص عليه الإسلام، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٥]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٦]، وخير مثال على مشاورة

---

(١) الطبري: تاريخ ٣/ ٣٠٠، ابن الأثير: الكامل ١/ ٤٧٩، النويري: نهاية الأرب ٥/ ٢٨٨.

(٢) الخلال: السنة ٢/ ١٦١.

(٣) هو الإمام أبو عبدالله جندب بن عبدالله بن سفيان البجلي العلقي، صاحب النبي (ﷺ) نزل الكوفة والبصرة وله أحاديث عدة، روى عنه جماعة منهم الحسن وابن سيرين، من وصاياه: «لا فاقة بعد الجنة ولا غنى بعد النار»، بقي إلى حدود سنة (٧٠هـ-٦٨٩م) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٤.

(٤) رواه الطبرني، قال عنه الهيثمي: إسناده حسن، أما الألباني فقد قال: إسناده ضعيف، الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ٦/ ٧٥.

(٥) الشورى: ٣٨.

(٦) آل عمرن: ١٥٩.

الرسول ﷺ لأصحابه ما حدث في معركة الخندق عام (٥هـ - ٦٢٦م) حيث أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق[١].

مما سبق يلخص الباحث إلى أن هناك عدداً من أصحاب علي المخلصين كانوا على خلافته (رضي الله عنه) (٣٥-٤٠هـ/ ٦٥٥-٦٦٠م)، وقد كانوا من المهاجرين والأنصار كلهم عرف له حقه، ولم ينتقصوا أحداً من إخوانه أصحاب رسول الله (ﷺ) حتى أن بعضهم لم يرض بلقب الشيعة تحرزاً عن الالتباس، ولقبوا أنفسهم بأهل السنة والجماعة[٢].

ومثال على الشيعة المخلصين شريك بن عبدالله[٣]، حيث قال له قائل: أيهما أفضل أبو بكر أم علي؟ فقال له: أبو بكر، فقال له السائل: أتقول هذا وأنت من الشيعة، فقال: نعم إنما الشيعي من يقول هذا، والله لقد رقى علي هذه الأعواد فقال: إلّا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، أفكنا نرد قوله، أفكنا نكذبه، والله ما كان كذاباً[٤].

■ نشأة الشيعة:

هناك آراء متعددة حول تحديد تاريخ نشأة الشيعة أهمها:

١ - الثامن عشر من شهر ذي الحجة من العام العاشر للهجرة منصرف الرسول (ﷺ) من حجة الوداع[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ ٢/ ٩١.

(٢) الدهلوي: شاه عبد العزيز، مختصر التحفة الاثنى عشرية، ص: ٣، ٧.

(٣) هو شريك بن عبدالله النخعي، تولى قضاء الكوفة في عهد أبي جعفر المنصور، وأقره المهدي على ذلك ثم ولاه عليها، توفي في الكوفة سنة (١٧٨هـ-٧٩٤م) ابن خياط: خليفة، تاريخ ١/ ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٥٠.

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة ٢/ ٨٦.

(٥) الحفني: عبد المنعم موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ٤/ ٥٥.

٢ - بعيد وفاة الرسول (ﷺ)[١].

٣ - أواخر خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)[٢].

٤ - عقب انتهاء معركة صفين عام (٣٧هـ-٦٥٧م)[٣].

أما من استند إلى الرأي الأول فقد برر استناده هذا إلى حديث غدير خم[٤] الذي قال فيه الرسول (ﷺ) لأصحابه:

«من كنت مولاه فعلي مولاه»[٥]، حيث فسرو ذلك بأن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) هو خليفة رسول الله (ﷺ)][٦]، ولكن المدقق لهذا الحديث يستنتج أن الرسول (ﷺ) أراد أن يوصي الصحابة بذوي قرباه ومنهم علي، خاصة إذا علمنا أن سن علي في ذلك الوقت كان ٣٣ عاماً، والعرب إلى ذلك الوقت كانت تعد السن في الرياسة، كما أن كلمة مولى لها معان كثيرة، لا يوجد من بينها ما يدل على الخلافة[٧].

ومن بين الأسباب التي جعلت الرسول (ﷺ) يقول ذلك لعلي (رضي الله عنه) أن أسامة بن زيد قال لعلي: لست مولاي إنما مولاي رسول الله، فقال

---

(١) النوبختي: فرق الشيعة، ص: ٢.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/٥٨، ٥٩، هامش المحقق.

(٣) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٥.

(٤) خم موضع بين مكة والمدينة تصب فيه عين بين الغدير والعين، وبينهما مسجد رسول الله (ﷺ) فيه شجر الأراك، لا يفارقه ماء المطر أبداً، الحموي معجم البلدان ٢/ ٣٨٩.

(٥) ابن حنبل: مسند ١/١١٨.

(٦) القرطبي: تفسير ١/٢٦٦.

(٧) من معاني المولى «ولي، عصبة، حليفة، معتق، ابن عم، ناصر»، ابن منظور: لسان العرب ١٥/٤٠٨، ٤٠٩.

الرسول: من كنت مولاه فعلي مولاه[١]، ولو كان الرسول (ﷺ) يريد أمراً كهذا لقاله على ملأ من الناس وهو الذي عاد لتوه من حجة الوداع، ولا يخفى على إنسان أهمية هذا المنصب، فضلاً عن أن علياً (رضي الله عنه) لم يذكر أن الرسول (ﷺ) قد عهد إليه بهذا الأمر، فقد سأل الأشتر النخعي علياً (رضي الله عنه): «إن كان رسول الله (ﷺ) عهد إليك عهداً فحدثنا به، قال: ما عهد إليّ رسول الله (ﷺ) عهداً لم يعده إلى الناس غير أن في قراب سيفي صحيفة فإذا فيها المؤمنون تكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده»[٢]، وإنما روى هذا الحديث في الرحبة [٣] في بداية خلافة علي (رضي الله عنه) عام (٣٥هـ-٦٥٥م)[٤]، بعد مسيره من المدينة المنورة إلى العراق.

الرأي الثاني يتحدث عن بدء ظهور التشيع بعد وفاة الرسول (ﷺ)، واعتمد أصحاب هذا الرأي على ما أورده النوبختي[٥] من أن الأمة افترقت ثلاث فرق هي شيعة علي بن أبي طالب، والأنصار بزعامة سعد بن عبادة، والمهاجرون الذين اختاروا أبا بكر الصديق[٦].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ١٥/ ٤١٠.

(٢) النسائي: السنن الكبرى ٤/ ٢٢٠.

(٣) قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة، الحموي: معجم البلدان ٣/ ٣٣.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ١٣٦.

(٥) هو أبو محمد الحسن بن موسى، متكلم فيلسوف، كان يجتمع إليه جماعة من النقلة، وكان ينسخ كثيراً من الكتب بخطه، انحاز إلى الشيعة لأن آل نوبخت معروفون بولاية علي ووده في الظاهر، له من الكتب كتاب الآراء، كتاب الديانات، وكتاب الإمامة لم يتممه، ابن النديم: الفهرست، ص: ٢٥١.

(٦) النوبختي: فرق الشيعة، ص: ٢، ٣.

ولمناقشة ذلك الرأي يجد ربنا أن نتوقف عند موقف الأمة الإسلامية عقب وفاة الرسول (ﷺ)، فقد كان ذلك حدثاً غير مألوف اقتضى من الصحابة رضوان الله عليهم التشاور والاحتكام إلى العقل خاصة أنه كان هناك من لم يصدق أن الرسول قد توفي[١]، وكان مكان التشاور هو سقيفة بني ساعدة[٢] حيث عرض كل فريق حججه[٣]، وليس كما يصوره النوبختي من كونه انقساماً وافتراقاً، أما موقف علي (رضي الله عنه) فقد كان واضحاً حيث قال: «والله ما مات رسول الله (ﷺ) موت فجأة ولا قتل قتيلاً، ولقد مكث في مرضه كل ذلك يأتيه المؤذن فيؤذن بالصلاة، فيقول: مروا أبا بكر ليصلي بالناس، ولقد تركني وهو يرى مكاني ولو عهد إليَّ شيئاً لقمت به حتى عرضت في ذلك امرأة من نسائه فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مكانك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر أن يصلي بالناس، قال لها: إنكن صواحب يوسف، فلما قبض رسول الله (ﷺ) نظر المسلمون في أمرهم، فإذا رسول الله (ﷺ) قد ولى أبا بكر أمر دينهم فوله أمره دنياهم، فبايعه المسلمون وبايعته معهم، فكنت أغزو إذا أغزاني وآخذ إذا أعطاني»[٤].

---

(١) ينظر: الطبري: تاريخ ٢/ ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) سقيفة بني ساعدة بالمدينة المنورة، وهي ضلة كانوا يجلسون تحتها، أما بنو ساعدة فهم حي من الأنصار من الخزرج منهم سعد بن عبادة، الحموي: معجم البلدان ٣/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) قال الأنصار للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير، فتكلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وذكر حق الأنصار، **وقال لهم**: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار بشير بن سعد، وأسيد بن الحضير، وبذلك كسر الأمر على سعد بن عبادة، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٢.

(٤) البيهقي: الاعتقاد، ص: ٤٠٠.

أما الرأي الثالث فهو متعلق بظهور شخصية عبدالله بن سبأ الذي أسلم زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وكان قبل ذلك يهودياً، يقول: إن يوشع بن نون وصي موسى (رضي الله عنه) فأصبح يقول في الإسلام: إن علياً (رضي الله عنه) وصيّ سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)[١].

والرأي الرابع يتعلق ببداية ظهور أولى الفرق الإسلامية وهي فرقة الخوارج التي خرجت عن جيش علي بن أبي طالب بعد الانتهاء من التحكيم، حيث قاتلها علي وانتصر عليها في معركة النهروان عام (٣٧هـ-٦٥٧م) أما الذين بقوا في جيشه فقد حملوا اسم الشيعة، وهذا واضح من هذه الرواية: «ولما خرجت الخوارج من الكوفة أتى علياً أصحابه وشيعته فبايعوه وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت، فشرط لهم فيه سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)»[٢].

ومن المرجح أن ظهور الشيعة كفكر سبق ظهورها على ميدان السياسة، وأن أول بذور التشيع هي التي زرعها عبدالله بن سبأ في عهد عثمان (رضي الله عنه)، أما الآراء التي تحدثت عن ظهور التشيع قبل ذلك التاريخ فهي لم تعتمد على أحداث أو روايات معاصرة للعهد النبوي، أو عهد أبي بكر وعمر، أو حتى قبيل ظهور شخصية عبدالله بن سبأ، وإنما نسجت تلك الروايات لإضفاء الشرعية على حركة الشيعة، وزادت تلك الروايات بعد أن تحول التشيع من الفكر في أواخر عهد عثمان إلى السياسة بعد معركة النهروان.

---

(١) ينظر: الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٥/ ٣٦٧.



أهم شخصيات الشيعة

☐ عبدالله بن سبأ:

هو أول من شهر القول بفرض إمامة علي (رضي الله عنه)[1]، ويطلق على فرقته اسم «السبئية» نسبة إليه، ويقال لها أيضاً «التبرئية» لأنها تتبرأ من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - وتنسبهم - حاشا لله - إلى الكفر والنفاق[2].

وأصل عبدالله بن سبأ من يهود صنعاء[3]، أسلم زمن عثمان (رضي الله عنه)، وكان يطلق عليه ابن السوداء، لأن أمه كانت سوداء، واستغل وجود الصحابة في الأمصار لكي يفسد بينهم ويضلل الناس[4]، فلم يقدر على ذلك[5].

---

(١) ينظر: النوبختي: فرق الشيعة، ص: ٢٢.

(٢) ينظر: الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٦.

(٣) قصة اليمن، منسوبة إلى جودة الصنعة كقولهم امرأة حسناء، والنسبة إليها صنعاني، الحموي: معجم البلدان ٣/ ٤٢٥.

(٤) ينظر: الآجري: الشريعة ٤/ ١٠٣.

(٥) الطبري: تاريخ ٢/ ٤٦٧.

ومن الجدير ذكره هنا أن مؤامرة ابن سبأ هذه في إضلال الأمة لم تكن الأولى في عهد الخلفاء الراشدين بل سبقتها مؤامرتان: الأولى في عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وهي ردة العرب التي تصدى لها أبو بكر وأفشل مخططها[١]، والثانية نالت من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ولكنها لم تنل من عزيمة الأمة الإسلامية، فبعد أن طعن أبو لؤلؤة المجوسي النصراني الفاروق بخنجره المسموم واصل الإسلام مسيرته شامخاً تحت قيادة ذي النورين عثمان بن عفان (رضي الله عنه)[٢]، وبذلك فشل المجوس والنصارى في خططهم هذا.

والآن جاء دور اليهود في عهد عثمان (رضي الله عنه)، وهذه المرة كان التخطيط والتنفيذ سرياً، بدأ بالطعن على خليفة المسلمين وتعداه إلى محاولة بذر الشقاق بين الصحابة، فبدأ عبدالله بن سبأ بأبي ذر الغفاري (رضي الله عنه)[٣] لقيه بالشام فقال له: «يا أبا ذر إلّا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله، ألّا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه[٤] دون الناس، ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله الساعة، قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه، والأمر أمره، قال: فلا تقله، قال: سأقول

---

(١) الطبري: تاريخ ٢/ ٢٩٣.

(٢) ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ١٥٤، ١٦٦.

(٣) صحابي جليل اسمه جند بن جنادة، أحد السابقين الأولين، قيل كان خامس خمسة في الإسلام، كان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، كان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل، قوالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم على حدة فيه، شهد فتح بيت المقدس مع عمر، توفي في خلافة عثمان عام (٣٢هـ-٦٥٢م)، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦، ٤٧.

(٤) احتجن المال احتجاناً إذا ضمه إلى نفسه واحتواه، الزبيدي: تاج العروس ١/ ٨٠٠٣.

مال المسلمين، وأتى ابن السوداء أبا الدرداء[(١)]، فقال له مثل ذلك، فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً، فأتى عبادة بن الصامت[(٢)]، فتعلق به عبادة، وأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر»[(٣)].

ولكن هذا المخطط فشل أيضا، لأن علياً (رضي الله عنه) تبرأ من أقوال السبئية، وبين فضل إخوانه الصحابة الكرام[(٤)]، مما جعل السبئية يتمادون في غلوهم لعلي فقال بعضهم له: أنت الإله، فأحرق علي قوماً منهم، ونفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن[(٥)]، ولما بلغ عبدالله بن سبأ نعي علي بالمدائن قال للذي نعاه: كذبت لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة وأقمت على قتله سبعين عدلاً لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ولا يموت حتى يملك الأرض[(٦)]، ويقول ابن سبأ عن علي إنه مختلف في السحاب، وإنه ينزل إلى الأرض فينتقم من أعدائه[(٧)].

---

(١) الإمام القدوة قاضي دمشق وصاحب الرسول (ﷺ)، اسمه عويمر بن عامر الأنصاري الخزرجي، تصدر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان يروى له ١٧٩ حديثاً، توفي قبل عثمان بثلاثة أعوام، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧.

(٢) الإمام القدوة أبو الوليد الأنصاري: أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين، سكن بيت المقدس، كان رجلاً طوالاً جسيماً جميلاً، مات بالرملة، عام ٣٤هـ-٦٥٤م، عن عمر ٧٢ عاماً، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ٥، ١٠.

(٣) الطبري: تاريخ ٢/ ٦١٥، ابن العربي: العواصم من القواصم، ص: ٨٦.

(٤) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٦، ٧.

(٥) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٢١، وسمى ساباط الذي بالمدائن بساباط بن باطا كان ينزله فسمي به، وهو أخو التحيرجان بن باطا الذي لقي العرب في جمع من أهل المدائن، والساباط عند العرب سقيفة بين دارين من تحتها طريق نافذ، والجمع سوابيط وسابطات، الحموي: معجم البلدان ٢/ ٤١٣.

(٦) النوبختي: فرق الشيعة، ص: ٢٣.

(٧) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٠.

مما سبق يتبين أن معتقدات عبدالله بن سبأ تدرجت من الطعن على الصحابة (ﷺ) إلى تفضيل علي عليهم، ثم جعلته وصياً للرسول (ﷺ)، وقالت برجعة الرسول مثلما يرجع عيسى ابن مريم (عليه السلام)[١]، ثم تخطت هذا الحاجز أيضاً، وقالت بألوهية علي، وأنكرت عليه الموت، فكل ذلك يخرج هذه الفرقة من دائرة الإسلام.

❑ المختار بن عبيد الله الثقفي:

كان المختار ممن خرج مع مسلم بن عقيل في الكوفة، واختفى بعد مقتل مسلم والحسين (رضي الله عنه) فأحضره عبيدالله بن زياد والي العراق، ورماه بعمود كان في يده، فشتر عينه، وحبسه، فشفع فيه قوم، فأخرجه من السجن شرط أن يخرج من الكوفة، فهرب المختار إلى مكة[٢].

وفي مكة كان المختار داخلاً في جملة ابن الزبير، منضافاً إلى بيعته منقاداً إلى إمامته على شرائط شرطها عليه لا يخالف له رأياً، ولا يعصي له أمراً، قال لابن الزبير: «إني لأعرف قوماً أستخرج لك منهم جنداً تغلب بهم أهل الشام، قال: من هم؟ قال: شيعة بني هاشم بالكوفة»، فبعثه ابن الزبير إلى الكوفة، وجعل المختار يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم ويحث على أخذ الثأر لهم والمطالبة بدمائهم، فمالت الشيعة إليهم[٣].

كان المختار يلقب بـ«كيسان»، وكيسان في رواية هو صاحب شرطة المختار، كان يقول: إن محمداً ابن الحنفية وصي علي بن أبي طالب، وإنه الإمام، وإن المختار قيمه وعامله، ويكفر من تقدم علياً، ويكفر أهل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٨.

(٢) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٣، ٤٤.

(٣) ينظر: المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٧٩، ٣٨٠.

صفين والجمل، وكان يزعم أن جبريل يأتيه بالوحي من عند الله عز وجل فيخبره ولا يراه[١].

ولما وقف محمد ابن الحنفية على ذلك تبرأ منه، وخاصة بعد أن سمع بالكرسي القديم الذي كان عنده والذي ذكر بأنه من ذخائر علي (رضي الله عنه)، ووصفه إياه بأنه بمنزلة التابوت لبني إسرائيل، حيث كان يضعه في براح[٢] الصف ويقول: قاتلوا ولكم الظفر والنصرة، وأيضاً حديث الحمامات البيض التي ظهرت في الهواء، وأخبرهم أن الملائكة تنزل على صورتهن، وأسجاعه التي ألفها[٣]، ومن أمثلتها:

«أما والذي أنزل القرآن، وبين الفرقان، وشرع الأديان، كره العصيان، لأقتلن البغاة من أزد عمان، ومذحج وهمدان، ونهد وخولان وبكر وهزان، وثعل ونبهان، وعبس وذبيان، وقيس عيلان»[٤].

نسبت إليه فرقة الكيسانية أو المختارية التي انقسمت إلى إحدى عشرة فرقة، زعمت إحداها أن محمداً ابن الحنفية حي بجبال رضوى[٥]، أسد عن يمينه ونمر عن شماله يحفظانه يأتيه رزقه غدوة وعشياً إلى وقت خروجه، وزعموا أن السبب الذي من أجله صبر على هذه الحال أن يكون مغيباً عن الخلق أن الله تعالى فيه تدبيراً لا يعلمه غيره[٦].

---

(١) ينظر: النوبختي: فرق الشيعة، ص: ٢٣.

(٢) هو المكان الذي لا سترة فيه من شجر وغيره، الفيومي: المصباح المنير ١/ ٤٢.

(٣) ينظر: الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١١٩.

(٤) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٦، ٤٧.

(٥) يقع قرب ينبع وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية ويرى من ينبع أخضر وبه مياه كثيرة وأشجار الحموي: معجم البلدان ٣/ ٥١.

(٦) الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/ ٩١، ٩٢.

وإذا كانت هذه معتقدات المختار فإنها في النهاية تلتقي مع مثيلتها السبئية خاصة بعد أن أنكرت الموت على محمد ابن الحنفية (رضي الله عنه)، وزعمت أن الوحي ينزل على المختار، فمثله كمثل مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في العام العاشر للهجرة النبوية الشريفة[١]، وبذلك يكون المختار من شجرة عبدالله بن سبأ وشيعته الغلاة خدعوه - كما يقول الإسفراييني - حيث قالوا له: «أنت حجة هذا الزمان»، وحملوه على دعوى النبوة، فادعاها عند خواصه، وزعم أن الوحي ينزل عليه[٢].

❑ بيان بن سمعان النهدي التميمي:

إن تباناً يتبن التبن بالكوفة، ثم ادعى أن محمداً الباقر بن علي بن الحسين (رضي الله عنه) أوصى له، ويقول: إن الإمام أبا هاشم بن محمد ابن الحنفية (رضي الله عنه) يرجع فيقوم بأمور الناس ويملك الأرض، وادعى بيان النبوة بعد وفاة أبي هاشم، وتأويل قول الله عز وجل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾[٣]، وكتب إلى الباقر يدعوه إلى نفسه والإقرار بنبوته ويقول له: أسلم تسلم وترتق في سلم وتنج وتغنم فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة وما على الرسول إلّا البلاغ، وقد أعذر من أنذر، فأمر الباقر رسول بيان عمر بن أبي عفيف أن يأكل قرطاسة[٤]، فأكله فمات في الحال، ولم يكتف بذلك بل قال: إن علياً إله يأتي في الظل،

---

(١) ينظر اليعقوبي: تاريخ ٢/ ١٣٠.

(٢) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٧.

(٣) آل عمران: ١٣٨.

(٤) النوبختي: فرق الشيعة، ص: ٢٨، ٣٤.

والرعد صوته والبرق تبسمه[١]، ثم ادعى أن جزءاً إلهياً قد حل به فاستحق أن يكون خليفة، وزعم أن معبوده على صورة إنسان عضواً فعضواً وجزءاً فجزءاً. وقال: يهلك كله إلّا وجهه، وتأول قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٢]، وقد اجتمعت طائفة عليه ودانت بمذهبه[٣].

كان مصير بيان وأتباعه الحرق بالنار «وأخذ خالد بن عبدالله القسري هو وخمسة عشر رجلاً من أصحابه فشدهم بأطناب القصب، وصب عليهم النفط في مسجد الكوفة، وألهب فيهم النار، فأفلت منهم رجل، فخرج بنفسه ثم التفت فرأى أصحابه تأخذهم النار، فكر راجعاً إلى أن ألقى نفسه في النار فاحترق معهم»[٤].

ويعتقد الباحث أن الخطورة هنا لا تكمن في الشخصيات قدر ما تكمن بالفكر الذي تتركه على متبعيها، فإذا كانت هذه الشخصيات قد لاقت مصيرها إما بالنفي أو القتل أو الحرق، فإن أفكارها لم تمت حيث وجدت مرتعاً خصباً لأصحاب البدع والمنحرفين طوال التاريخ يورثونها لأبنائهم دون استناد إلى عقل أو منطق، وكأنما لسان حالهم يقول كما ورد

---

(١) تتشابه هذه الفرقة مع السبئية حيث زعم عبدالله بن سبأ أن ابن ملجم لم يقتل علياً وإنما قتل شيطاناً تصور بصورة علي، وأنه مختلف في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه، وأنه ينزل إلى الأرض بعد هذا ويملأها عدلاً وينتقم من أعدائه، ولهذا إذا سمعت هذه الفرقة صوت الرعد قالوا: عليك السلام «أيها الأمير»، الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٠.

(٢) القصص: ٨٨.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٢٣.

(٤) النوبختي: فرق الشيعة، ص: ٢٨.

في القرآن الكريم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

---

(١) البقرة: ١٧٠.

بعض فرق الشيعة

■ أولاً: غلاة الشيعة[1]

وهم الذين غلو في حق أئمتهم فربما شبهوا واحداً منهم بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق[2]، وهذه بعض فرقهم:

السبئية[3] أصحاب عبدالله بن سبأ زعم أن علياً بن أبي طالب (رضي الله عنه) لم يمت ففيه الجزء الإلهي، وهو الذي يجيء في السحاب والرعد صوته والبرق تبسمه[4].

الكاملية[5] أصحاب أبي كامل كان يقول «الإمامة نور يتناسخ من

---

(١) ينظر الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٣٨، ابن حزم: الفصل ٦/٥، الدهلوي، مختصر التحفة، ص: ٩.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٠.

(٣) ينظر ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص: ١٨٧، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٢١٤، ابن حزم: الفصل ٢/ ٣٣، الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٦، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٣.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٠.

(٥) ينظر: الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص: ١٧، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٣٩، الدهلوي: مختصر، التحفة، ص: ١٠.

شخص إلى آخر، وذلك النور في شخص يكون نبوة وفي شخص يكون إمامة، وربما تتناسخ الإمامة فتصير نبوة»[١].

العلبانية (الذمية)[٢] أصحاب العلباء بن ذراع الدوسي وكان يفضل علياً على النبي (ﷺ)، ولا يكتفون بذلك بل كانوا يذمون النبي لذا سموا ذمية، وزعم العلباء أن علياً إله بعث محمداً كي يدعو له لكنه دعا إلى نفسه[٣].

المغيرية[٤] أصحاب المغيرة بن سعيد البجلي ادعى الإمامة لنفسه واستحل المحارم وغلا في حق علي غلواً كبيراً، وقال بالتشبيه مثل قوله: «إن الله تعالى صورة وجسم»[٥].

المنصورية[٦] أصحاب أبي منصور العجلي الذي زعم أن علياً هو الكسف الساقط من السماء، واستحل أصحابه قتل مخاليفهم، وأخذ أموالهم واستحلال نسائهم[٧].

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤١.

(٢) ينظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٢٣٨، الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٣، ١٤، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٥.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٢.

(٤) ينظر ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص: ١٨٧، الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ٢٣، الإسفراييني، الفرق بين الفرق، ص: ٢١٤، ابن حزم: الفصل ٤/ ٣٦، الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٠، ١١، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٣.

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٢.

(٦) ينظر: ابن رستة الأعلاق النفيسة، ص: ١٨٧، الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ٩، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٢١٤، الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٢، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٤.

(٧) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٣، ١٤٤.

الخطابية[١] أصحاب أبي الخطاب زعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وقال بألوهية جعفر بن محمد وألوهية آبائه وهم أبناء الله وأحباؤه، وقال: «الألوهية نور في النبوة، والنبوة نور في الإمامة»[٢].

الكيالية: أتباع أحمد بن الكيال تبرأ منه أتباعه ولعنوه فلما عرف ذلك منهم صرف الدعوة إلى نفسه وادعى الإمامة أولاً: ثم ادعى أنه القائم ثانياً[٣].

الهشامية[٤]: أصحاب الهشامين هشام بن الحكم وهشام بن سالم، فأما الأول فزعم أن بين معبوده وبين الأجسام تشابهاً ما، والثاني زعم أن الله تعالى على صورة إنسان[٥].

النعمانية (الشيطانية)[٦]: أصحاب محمد بن النعمان الأحول الملقب بشيطان الطاق الذي زعم أن الله تعالى نور على صورة إنسان رباني ونفى أن يكون جسماً[٧].

---

(١) ينظر ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص: ١٨٧، ١٨٨، الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ١٠، الإسفراييني، الفرق بين الفرق ٤٧، ص: ٢١٥، ابن حزم: الفصل ٢/ ٣٣، الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٢، ١٣، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣١، ٣٢.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٣، ١٤٤.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٦.

(٤) ينظر الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ٣١، الإسفراييني، الفرق بين الفرق، ص: ٤٧، ابن حزم: الفصل ٢/ ٣٣، الدهلوي: مختصر التحفة ١٥، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٢.

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٤٩، ١٥٠

(٦) ينظر: الإسفراييني، الفرق بين الفرق ٥٣، الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٥، ١٦، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٥.

(٧) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥١.

■ ثانياً: الإمامية[١]

هم القائلون بإمامة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) نصاً ظاهراً وتعييناً صادقاً[٢]، وهذه بعض فرقهم:

الحسنية: يقولون إن الحسن المجتبى هو الإمام بعد أبيه علي المرتضى، والإمام من بعده الحسن المثنى بوصية له ثم ابنه عبد الله ثم ابنه محمد الملقب بالنفس الزكية، ثم أخوه إبراهيم.

النفسية: وهي فرقة من الحسنية يقولون: «إن النفس الزكية لم يقتل بل غاب، واختفى وسيظهر بعد»[٣].

الاثنا عشرية[٤] وهي أشهر الفرق الإمامية وهم قائلون بإمامة علي الرضا بعد أبيه موسى الكاظم ثم إمامة ابنه محمد الجواد ثم علي الهادي ثم الحسن العسكري وآخرهم ابنه محمد ويزعمون أنه المهدي المنتظر[٥].

الجعفرية[٦] يقولون إن الإمام بعد الحسن العسكري أخوه جعفر، وقال بعضهم إنه لم يولد ولد للحسن العسكري، وآخرون قالوا: إن محمداً بن الحسن مات صغيراً[٧].

---

(١) ينظر: . الإسفراييني، الفرق بين الفرق ٥٣، ابن حزم: الفصل ٤/ ٨٥، الدهلوي: مختصر التحفة، ص:

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٣٠.

(٣) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٥.

(٤) ينظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٧.

(٥) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٢١.

(٦) ينظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ١٥٣.

(٧) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٢١.

الباقرية[١] يقولون إن الإمام محمد الباقر لم يمت وهو المهدي المنتظر[٢].

الناووسية[٣] أصحاب عبدالله بن ناووس البصري يقولون إن الإمام جعفر الصادق حي غائب وهو المهدي المنتظر[٤].

الإسحاقية[٥]: يعتقدون بإمامة إسحاق بن جعفر وكان في العلم والتقوى على جانب عظيم، وهناك فرقة من الغلاة تسمى الإسحاقية أيضاً تقول إن الباري حل في علي، ووقع الاختلاف بينهم في من حل الإله بعد علي[٦].

الموسوية[٧] يقطعون بإمامة موسى ويترددون في موته وحياته لذا لا يرسلون الإمامة بعده في أولاده[٨].

الرجعية: قالوا بإمامة موسى وموته ورجعته وهي إحدى الفرق الواقفية لوقفهم الإمامة على موسى الكاظم وعد إرسالها في أولاده[٩].

الممطورية[١٠]: قالوا بإمامة موسى معتقدين أنه حي وأنه المهدي،

---

(١) ينظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٥.
(٢) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٦.
(٣) ينظر ابن حزم: الفصل ١٣٨/٤، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٠.
(٤) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٦.
(٥) ينظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٢٠٢.
(٦) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٤، ٢٠.
(٧) ينظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص:٤٦.
(٨) الدهلوي: مختصر التحفة، ص:٢٠.
(٩) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٢٠.
(١٠) ينظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ٢٩، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٦، ابن حزم: الفصل ١٣٨/٤.

وقيل لهم ممطورية لأن يونس بن عبد الرحمن رئيس القطعية قال لهم: «أنتم أهون عندنا من الكلاب الممطورة» أي المبلولة بالمطر[١].

الأفطحية (العمارية)[٢]: أصحاب عبدالله بن عمار قالوا بإمامة عبدالله الأفطح أي عريض الرجلين ابن جعفر الصادق شقيق إسماعيل معتقدين موته ورجعته إذ لم يترك ولداً.

الأحمدية: يقولون بإمامة أحمد بن موسى الكاظم بعد وفاة أبيه[٣].

المفضلية (القطعية)[٤]: أصحاب مفضل بن عمرو وهم قاطعون بإمامة موسى الكاظم قاطعون بموته[٥].

المباركية[٦]: أصحاب المبارك يعتقدون أن الإمام بعد جعفر ابنه الأكبر إسماعيل ثم ابنه محمد وهو خاتم الأئمة والمهدي المنتظر.

الباطنية[٧]: من الإسماعيلية يرسلون الإمامة بعد إسماعيل بن جعفر في أولاده بنص السابق على اللاحق ويزعمون وجوب العمل بباطن الكتاب دون ظاهره[٨].

---

(١) الدهلوي: مختصر التحفة، ص:٢٠.

(٢) ينظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ٢٨، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص:٣٩.

(٣) الدهلوي: مختصر التحفة، ص:٢٠، ٢١.

(٤) ينظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ١٣، ١٧، ٢٩، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص:١٧، ٢٣٦، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٠.

(٥) الدهلوي: مختصر التحفة، ص:٢٠، ٢١.

(٦) ينظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ٢٧، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٧.

(٧) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص:٢٦٩، ابن حزم: الفصل ١٧١/٤.

(٨) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٧.

القرامطة[١]: أصحاب قرمط ومذهبهم أن إسماعيل بن جعفر خاتم الأئمة وهو حي لا يموت ويقولون بإباحة المحرمات[٢].

الشميطية[٣]: أصحاب يحيى بن أبي الشميط يزعمون أن الإمامة تعلقت بعد الصادق بكل من أبنائه الخمسة بهذا الترتيب: إسماعيل ثم محمد ثم موسى الكاظم ثم عبدالله الأفطح ثم إسحاق[٤].

■ ثالثاً: الزيدية:

هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم[٥]، وهذه بعض فرقهم:

الجارودية: أصحاب أبي الجارود زياد بن أبي زايد زعموا أن النبي (ﷺ) نص على علي، وهو الإمام بعده والناس قصروا ونصبوا أبا بكر باختيارهم فكفروا بذلك.

السليمانية: أصحاب سليمان بن جرير الذي طعن في عثمان بن عفان وأكثره هو وعائشة والزبير وطلحة (رضي الله عنهم)[٦].

---

(١) ينظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ٢٦، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٢٦٧، ابن حزم: الفصل ٤/ ١٤٣.

(٢) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٧.

(٣) ينظر الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ١٧، ٣٩، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٠.

(٤) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٧.

(٥) ينظر: ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص: ١٨٨، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٢٥، ٥٤، ابن حزم: الفصل ٤/ ٧٦، القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٣٢.

(٦) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨.

البترية (الصالحية): أصحاب كثير النواب والحسن بن صالح وسمو بترية لأن كثيراً كان يلقب بالأبتر يزعمون أن علياً أفضل الناس بعد رسول الله (ﷺ)، وقد حكي أن الحسن بن صالح كان يتبرأ من عثمان (رضي الله عنه).

النعيمية: أصحاب نعيم بن اليمان قالوا: إن الأمة مخطئة خطأ بيناً في ترك الأفضل وهو علي بن أبي طالب وتبرءوا من عثمان وكل من حارب علياً وشهدوا عليه بالكفر(١).

● موقف الشيعة من الخلافة ● :

الخلافة في اللغة مشتقة من الخلف، وخلفته خلفاً بمعنى جئت بعده، والخليفة هو الذي يستخلف ممن قبله(٢).

أما معناها في الاصطلاح فهو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به(٣).

ويطلق الشيعة على الخلافة اسم الإمامة، ويقولون: «إنها ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسل (عليهم السلام) إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله»(٤).

وقد أجمع الشيعة على أن النبي (ﷺ) نص على استخلاف علي بن

---

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص: ١٨، ١٩.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ٩/ ٨٤، ٩٠.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ١/ ١٩١.

(٤) ينظر: الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١١٧.

أبي طالب باسمه، وأظهر ذلك وأعلنه، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة الرسول (ﷺ)، وأن الإمامة لا تكون إلّا بنص وتوقيف، وأنها قرابة وأبطلوا جميعاً الاجتهاد في الأحكام، وقالوا إن الإمام لا يكون إلّا أفضل الناس، وأن علياً (رضي الله عنه) كان مصيباً في جميع أحواله، وأنه لم يخطئ في شيء من أمور الدين[١].

وذهب بعض الشيعة إلى تكفير الصحابة رضوان الله عليهم لأنهم تركوا بيعة علي (رضي الله عنه)[٢]، وذهب البعض إلى تكفير علي لأنه ترك قتال الصحابة[٣].

إن هذا الكلام الذي يتفوه به الشيعة لا يصدر إلّا عن أناس أشقياء مارقين كما قال علي (رضي الله عنه) بخصوص أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما): «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلّا مؤمن فاضل ولا يبغضهما إلّا شقي مارق، وحبهما قربة وبغضهما مروق»[٤].

وقد كان علي (رضي الله عنه) مساعداً لأبي بكر وعمر وعثمان إبان خلافتهم، وكان سوطاً بين أيديهم في إقامة الحدود[٥].

وقد قال الرسول (ﷺ): «إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة: أبا بكر وعمر، وعثمان وعلياً رحمهم الله فجعلهم أصحابي، وقال: في أصحابي كلهم خير»[٦].

---

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/ ٨٩.

(٢) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٣٠.

(٣) م.ن، ص: ٥٤.

(٤) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٧.

(٥) ينظر: ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٤٢٢.

(٦) قال الهيثمي: رجاله ثقات، مجمع الزوائد ١٠/ ١٦.

ومن الدلائل على حب علي لأصحابه أبي بكر وعمر وعثمان تسمية ثلاثة من أبنائه بأسمائهم[١]، وتزويج ابنته أم كلثوم الكبرى لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[٢].

ومن المعتقد أن الشيعة كذبوا على علي وأبنائه الذين اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، أما الشيعة فإنهم لم يعترفوا مثلهم بها، واستحقوا بذلك اسم الرافضة، فقد سألوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: أخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب، فقال زيد: إني لا أقول فيهما إلّا خيراً وما سمعت أبي يقول فيهما إلّا خيراً ففارقوه عند ذلك، حتى قال لهم رفضتموني، ومن يومئذ سموا رافضة[٣]، ومن بقي مع زيد بن علي وافقوه على مذهبه سموا زيدية[٤].

ولا يذكر مسلم مكانة وفضل أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) فقد روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه كان على حراء، فقال: «أثبت حراء فإن عليك نبياً وصديقاً وشهيداً»[٥]، وفي رواية أخرى قال: «أثبت حراء فإنه ليس عليك إلّا نبي أو صديق أو شهيد»، ويقصد الرسول بذلك نفسه (صلى الله عليه وسلم) وصحابته العشرة المبشرين بالجنة، رضوان الله عليهم[٦]، وروى ابن عمر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «من سب أصحابي فعليه لعنة الله»[٧].

---

(١) ذكر ابن قتيبة: أبا بكر وعمر من أبناء علي، المعارف، ص: ١٢٢، ١٢٧، وذكر السويدي عثمان من أبناء علي، سبائك الذهب، ص: ٧٢.

(٢) ابن قتيبة: المعارف، ص: ١٢٢.

(٣) البلاذري: أنساب الأشرف ٣/ ٤٣٦، الطبري: تاريخ ٤/ ٢٠٤، الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٣٥، ٣٦.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥٣.

(٥) ابن حبان: صحيح ١٥/ ٤٥٨.

(٦) الترمذي: سنن ١٢/ ٢٢٤.

(٧) الهيثمي: مجمع الزوائد ١٠/ ٢١.

● مبادئ الشيعة: ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

الإمامة: قال الشيعة إنها تثبت بالنص والتعيين، واختلفوا فيها اختلافاً كثيراً حتى بلغت فرقهم ثلاثمائة فرقة، وزعم أكثرهم أن الإمامة في علي بن أبي طالب وأولاده بنص النبي (ﷺ)، وتقول الإمامية إن النص جاء على إمامة اثني عشر آخرهم المهدي المنتظر[١].

العصمة: زعم الشيعة الإمامية أن الإمام يكون معصوماً من الذنوب كلها وقد أجازوا له في حال التقية أن يقول لست بإمام وهو إمام وقد أباحوا له الكذب في هذا مع قولهم بعصمته من الكذب[٢].

الرجعة: وضعها عبدالله بن سبأ عندما أقام في مصر في أواخر عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، حيث قال لأهل مصر: «العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[٣]، محمد أحق بالرجوع من عيسى»[٤].

وقال آخرون من الشيعة برجعة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) إلى الدنيا[٥]، وقال بعضهم: إنه يرجع أكثر من مرة، ووصفوه بأنه صاحب الرجعات، وقالوا: إنه دابة الأرض التي تظهر الناس قبل قيام الساعة[٦].

والرجعة - حسب اعتقاد الشيعة - ليست مقتصرة على الرسول (ﷺ)

---

(١) القنوجي: خبيئة الأكوان، ص: ٢٩، ٧٣.

(٢) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٣٤١.

(٣) القصص: ٨٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٢/٨.

(٥) ابن حزم: الفصل ٢/١١٤.

(٦) ظهير: الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، ص: ١٨٥.

وعلي (رضي الله عنه) بل تشمل جميع أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم، فالإمام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا، ويستشهدون لذلك بما حصل من معجزات ورد ذكرها في القرآن الكريم مثل قصة أصحاب الكهف[١].

■ التناسخ والحلول:

بمعنى أن الأرواح تتناسخ وتنتقل من بدن إلى بدن بعد خراب البدن الأول، وتقول بعض فرق الشيعة الباطنية: «إن روح الله تعالى كانت في آدم ثم في ابنه شيث ثم صارت إلى الأنبياء»[٢]، ويعتقد الشيعة بتناسخ الأرواح عند الأئمة أيضاً فإذا مات الإمام انتقلت روحه إلى إمام آخر[٣].

وتعدى التناسخ - حسب بعض الفرق - الأنبياء والأئمة إلى بعض شخصيات الشيعة مثل بيان بن سمعان الذي قال: «حل في علي جزء إلهي واتحد بجسده»، ثم ادعى أنه قد انتقل إليه الجزء الإلهي بنوع من التناسخ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة، وذلك الجزء هو الذي استحق به آدم (عليه السلام) سجود الملائكة[٤].

أما عبدالله بن عمرو بن حرب الكندي فقد قال: إن روح الله تناسخت في روح أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية، وتحولت إليه وحلت فيه، ثم ادعى الألوهية والنبوة معاً وأنه يعلم الغيب، فعبده شيعته لاعتقاده أن التناسخ يكون في الدنيا[٥].

البداء: وهو من مبادئهم فمثلاً إذا قالوا إنه سيكون لهم قوة وشوكة

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ١/١٩٩.

(٢) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٠.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ١/١٩٨.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٢.

(٥) م.ن، ١/١٢٨.

وظهروا ثم لا يكون الأمر على ما قالوه، قالوا: بدا لله تعالى في ذلك[١]، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى قد يريد بعض الأشياء ثم يبدو له ويندم لكونه خلاف المصلحة[٢].

ومثال ذلك ما يفعله الشيعة عند زيارتهم روضة موسى الكاظم حيث ينادون بأعلى صوت، ويقولون: «أنت الذي بدا لله فهي، يعنون ما كان بزعمهم من نصب أخيه إسماعيل إماماً بعد أبيه وموته من قبل أن ينال الإمامة ونصب أبيه إياه إماماً»[٣].

التقية: هي أن يتكلم الشيعة بما يريدون، فإذا قيل لهم في ذلك إنه ليس بحق وظهر لهم البطلان قالوا: إنما قلناه تقية وفعلناه تقية[٤].

ويريد الشيعة بالتقية إظهار شيء غير الذي يبطنونه، ويبالغون بالتمسك بها حتى جعلوها أساساً لدينهم وأصلاً من أصولهم[٥].

الغيبة: وهي القول بعدم موت الإمام، فهو حي ولكنه غائب عن أعين الناس، قالوا ذلك في علي (رضي الله عنه) إنه في السحاب، والرعد صوته، وقالوا مثله في ابنه محمد ابن الحنفية (رضي الله عنه)، وإنه في جبل رضوى من أرض الحجاز، وفيه يقول الشاعر:

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الجيش يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء[٦]

---

(١) م.ن، ١/١٢٨.

(٢) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٦.

(٣) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ٢١.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٨.

(٥) ظهير: السنة والشيعة، ص: ١٣٤.

(٦) ابن خلدون: تاريخ ١/١٩٨، ١٩٩.

ويقول بعضهم وهم الباقرية: «إن الإمام محمد الباقر لم يمت وهو المهدي المنتظر»[(١)]، وتقول الحاضرية: «إن الإمام بعد محمد الباقر ابنه زكريا وهو مختف في جبل الحاضر[(٢)] لا يخرج حتى يؤذن له»، وهناك **فرقة ثالثة تدعى الناووسية تقول**: «إن الإمام جعفر الصادق حي غائب وهو المهدي المنتظر» **وفرقة رابعة تدعي المباركية تقول**: «إن محمد بن إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق هو خاتم الأئمة وهو المهدي المنتظر»[(٣)].

وقالوا عن الإمام الحادي عشر وهو الحسن العسكري: إنه لم يمت ولا ولد له ظاهراً وهو القائم له غيبتان، وهذه هي إحدى الغيبتين، وسيظهر ويعرف ثم يغيب غيبة أخرى[(٤)].

وتعتقد الشيعة الاثنى عشرية بأن المهدي المنتظر هو محمد بن الحسن العسكري الذي دخل في سرداب بدارهم في الحلة[(٥)]، وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً، وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك، ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركباً فيهتفون باسمه

---

(١) الإسفراييني: الفرق بين الفرق، ص: ٤٥.

(٢) جبل من جبال الدهناء، والدهناء موضع من بلاد تميم مسيرة ثلاثة أيام وفيها سبعة أجبل في عرضها وهي قليلة الماء كثيرة الكلأ ليس في بلاد العرب مربع مثلها وإذا أخصبت ربعت العرب، وعند جبل الحاضر حفر سعد بن زيد مناة بن تميم بحذاء العرمة يستقي منها بالسانية، ابن منظور: لسان العرب ٤/ ٢٠٤، ١٣/ ١٦٠.

(٣) الدهلوي: مختصر التحفة، ص: ١٧.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٣٧.

(٥) بالكسر ثم التشديد، وهي في اللغة القوم النزول وفيهم كثرة، هي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد: الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٩٤.

ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية[١].

ويميل الباحث إلى بطلان تلك المبادئ والمعتقدات لأنها لا تعتمد على برهان يستدل به العاقل، وخاصة أن أصحابها قد تعددت فرقهم، حيث تأولت كل فرقة منهم حدثاً معيناً وفسرته حسب أهوائها، فمثلاً ما عدوه تقية إنما هو نفاق لأن المسلم الحق يثبت على دينه مثلما كان يفعل بلال بن رباح[٢]، وخباب بن الأرت[٣]، وسمية بنت خياط[٤]،وزوجها ياسر بن عامر[٥]، أما من يظهر خلاف ما يبطن فهو أشبه بعبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين في المدينة المنورة على عهد الرسول (ﷺ)[٦].

وبالنسبة للغيبة فهي لا تستند إلى عقل، ولم تذكر في القرآن الكريم بل على العكس من ذلك فقد نصت الكثير من الآيات القرآنية على أن الموت حق على كل إنسان مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٨]، وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٩].

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ١/١٩٩.

(٢) ابن حجر: الإصابة ١/٣٢٦.

(٣) ينظر: م.ن ٢/٢٥٨.

(٤) ينظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٤٠٩.

(٥) ابن الجوزي: صفوة الصفوة ١/٥٦٣.

(٦) الطبري: تاريخ ٢/١٠٩.

(٧) ق: ١٩.

(٨) الرحمن: ٢٦، ٢٧.

(٩) آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧.

ومما يبطل هذه المعتقدات أيضاً ما وقع به هؤلاء من الغلو في حق الأئمة، فقد قالوا عن الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري وهو المهدي المنتظر عندهم: «إنه هو عالم الغيب والشهادة تأويلاً للآية الكريمة: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[1]، وهو بزعمهم الذي يرد إليه علم الساعة ويدعون فيه أنه لا يغيب عنا وسيخبرنا بأحوالنا حين يحاسب الخلق»[2].

---

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٣٩.

الفصل الأول

حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية الشيعية

استطاع الرسول (ﷺ) أن يجعل العرب في الحجاز؛ بل في الجزيرة العربية كلها تنفض عنها رجس الجاهلية وأوزارها، فكوّن منها مجتمعاً إسلامياً موحداً تميز برسوخ العقيدة والاستشهاد في سبيلها، وقد كون لهم (ﷺ) دولة إسلامية ثابتة الدعائم والأركان، وجعل حاضرتها «**المدينة المنورة**» التي ظلت حاضرة الدولة الإسلامية طوال عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان، وبداية عهد علي (رضي الله عنهم).

وفي عهد الخلفاء الراشدين، كان أساس اختيار الخليفة هو الشورى فالخلافة لا تتعين لها أسرة معينة وإنما تنعقد عن طريق اختيار أهل الحل والعقد، وعلى هذا جرى الأمر بعد وفاة الرسول (ﷺ).

أما الأمويون فقد انتهجوا في طريقة حكمهم منهجاً سياسياً يخالف المنهج السياسي الذي اتبعه الخلفاء الراشدون، وهو الخروج بالدولة من نظام الشورى إلى نظام الوراثة مما أدى إلى قيام كثير من المعارضين لهذا المنهج السياسي، وبخاصة الحجاز الذي اشتدت به الثورات على الأمويين، وتضافر آل البيت من العلويين والعباسيين للقضاء على

الأمويين، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم فقاموا بعدة ثورات في الحجاز وأمصار إسلامية أخرى، واستطاع العباسيون القضاء على هذه الثورات، ثم عملوا إلى إضعاف شأن الحجاز حتى لا تقوم به حركات أخرى مناوئة لهم، فصار الحجاز لا يستطيع صد المغيرين عليه إلّا بمساندة خارجية، مما جعل العلويين ينشطون مرة أخرى في منتصف القرن الرابع الهجري للخروج على العباسيين والاستقلال بالحجاز.

وعلى ضوء هذه الصورة للحجاز ينصب الحديث في هذه الجزئية ليشمل خمسة مباحث جديرة بالبحث والدراسة هي:

أولاً : جهود الأمويين لإخضاع الحجاز.

ثانياً : ضعف الحجاز وعجزه عن صد المغيرين.

ثالثاً : الحجاز في ظل النفوذ العباسي.

رابعاً : غزو القرامطة للحجاز.

خامساً : استقلال الأشراف العلويين بمكة والمدينة.

■ أولاً: جهود الأمويين لإخضاع الحجاز:

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقوى والغلبة، لا عن رضا ومشورة؛ لأن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا أنصاره ومؤيديه على من خالفه من أهل الحجاز حتى تم له الأمر، ورضي الناس عنه، والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته[1].

لذا كان من الطبيعي أن ينقل الأمويون عاصمة الخلافة إلى دمشق ليكونوا وسط أنصارهم ومؤيدهم، وأصبح الحجاز ولاية تابعة للدولة

---

(١) محمد الخضري: الدولة الأموية، ص: ٥٧٢.

الأموية، يضم مكة والمدينة والطائف، ويقيم الأمير بالمدينة[١]، وكان ذلك بالنسبة للحجاز حداً فاصلاً بين عهدين، عهد كان للحجاز فيه النفوذ السياسي على سائر الأمصار باعتباره دار الهجرة، ومقر الخلافة الراشدة، وعهد فقد الحجاز فيه سلطانه السياسي، وأثر ذلك تأثيراً بالغاً على اقتصادياته منذ أن تحولت موارد الفتوح وعائدات الخراج والجزية إلى دمشق، مما جعل أهله ينقمون على الأمويين وينتظرون الفرصة المناسبة للثورة عليهم.

ولعل معاوية بن أبي سفيان كان يقدر ذلك ويخشاه، فجعل ولاية الحجاز لأفراد بيته من بني أمية، ليكون أهل الحجاز تحت أنظارهم، فاستعمل من أبناء عمومته مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، فكان يولي أحدهما إذا عزل الآخر[٢].

ويبدو أن معاوية كان يخشى أهله ويخاف أن يقع تحت رحمتهم وسلطانهم، كما فعل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فعمد إلى هذا الأسلوب، ولم يكتف بهذا بل كان يوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتحدوا في وجهة[٣] لكنه قبل وفاته عاد وقسم الحجاز إلى ولايتين فجعل على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص[٤].

وحاول معاوية أن يعوض أهل الحجاز ما فقدوه من السلطة حين أبعدهم عن الحكم فأغرقهم بالأموال والعطايا لتأليف القلوب، وشغلهم

---

(١) المصدر السابق، ص: ٥٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٣١٥، ٣٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص: ٣٤، ٣٤٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٨.

عن التفكير في القضايا السياسية والمطالبة بالخلافة[١]، وأكثر من الهدايا والهبات لكبار المهاجرين والأنصار[٢].

ويبدو أن معاوية استطاع بعطاياه السخية أن يكتسب خصومه السابقين من الهاشميين فهدأت الأمور في الحجاز إلى أن فكر معاوية في تحويل نظام الخلافة من الشورى إلى الوراثة باختيار ابنه يزيد ولياً للعهد، مما جعل الدولة الأموية تتعرض لثورة كثير من المعارضين لهذا المبدأ، فأهل الحجاز لم يألفوا نظام وراثة الحكم الذي ساد بلاد الفرس والروم، والذي تأثر به معاوية أثناء حكمه لبلاد الشام، كما أن الحجاز مهد التقاليد الإسلامية والعربية العريقة التي ترفض هذا المبدأ[٣].

وكان على رأس المعارضين كبار أبناء الصحابة وهم الحسين بن علي ابن أبي طالب، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وعبدالله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر[٤]، وكانت معارضتهم شديدة فلم يستطع معاوية برغم ما جهد أن ينال اعترافهم باستخلاف يزيد من بعده.

وقد اضطر معاوية إلى مواجهة هذا المعارضة بخطوة سياسية بارعة انتزع بها البيعة من أهل الحجاز فاتجه بنفسه إلى هناك في ألف فارس من أتباعه، فلما اقترب من المدينة قابل كبار أبناء الصحابة مهدداً متوعداً بقتلهم إن لم يبايعوا، ثم تركهم ومكث بالمدينة فترة لعلهم يعودون

(١) من ذلك ما تم الاتفاق عليه بين معاوية والحسن بن علي بن أبي طالب على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومقداره خمسون ألفاً واتفاقه مع عبدالله بن عباس على أن يتنازل له عما كان في عهدته من أموال البصرة حتى يكسب وده (ابن الأثير: الكامل ٣/ ٢٧٢، ابن خلدون: العبر ٢/ ٦٤٨).

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٩٢.

(٣) جمال سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص: ٩٨.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٠٣.

إليه[١]، فلما عادوا إليه أصروا على الرفض، فهددهم بالسيف والضرب والسجن، ثم خرج إلى أهل الحجاز وأوهمهم أن كبار أبناء الصحابة بايعوا مع أنهم عارضوه[٢].

وكان معاوية يظن أنه بهذه السياسة التي اتبعها وبهذه البيعة التي أخذها لابنه يزيد في حياته قد يسر الأمور وهيئها له، فقد ذكر ابن الأثير أنه لما مرض معاوية مرضه الأمير الذي مات فيه دعا ابنه يزيد، وقال له: «يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال ووطئت لك الأمور، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد»[٣].

لكن الأمور لم تجر حسبما أراد، إذ عقب وفاته مباشرة بدأ الاضطراب واشتعلت الثورات على يزيد منذ تولي الخلافة، وكان الدافع الرئيسي لهذه الثورات - غالباً - هو تقرير بحيث فقدت المدينة نفوذها السياسي، وكثيرا من مواردها الاقتصادية.

وقد بدأت الثورة على يزيد عقب توليه الخلافة حينه، طلب من عامله على المدينة المنورة إلزام الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير إلزاماً شديداً بالبيعة، إلّا أن الحسين وابن الزبير لما دعيا إلى البيعة ليزيد رفضا وخرجا من ليلتهما إلى مكة تخلصاً من أمير المدينة المكلف بأخذ البيعة منها ليزيد[٤].

وفي الوقت الذي كانت الأمور في الحجاز تجري على هذا النحو كان الشيعة في الكوفة يتخذون موقفاً مماثلاً حين بلغهم موت معاوية

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٣٥٤.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٥٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٣٦٨.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٨، ٣٤١.

واستخلاف يزيد، وأن الحسين قد امتنع عن البيعة واستقر بمكة، فتدارسوا الأمر، ورأوا أنها فرصة للتخلص من حكم الأمويين، وإعادة الدولة كسابق عهدها أيام علي بن أبي طالب، فأرسلوا إلى الحسين بن علي يطلبونه[١]، ويحرضونه على المطالبة بالخلافة، لأنه أحق بها من يزيد ابن معاوية، فدعا الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل وطلب منه المسير نحو الكوفة ليتبين الأمر، ويمهد له سبيل العمل هناك قبل مغادرتهم مكة، وإن رأى الناس مجتمعين على بيعته عجل إليه بذلك[٢].

سار مسلم إلى الكوفة وأقبلت عليه الشيعة فاغتر بلقائهم الحماسي وأرسل إلى الحسين يستعجل قدومه[٣]، ومن ناحية أخرى أحست السلطات الأموية بما يحدث في الكوفة فبادرت بإرسال عبيد الله بن زياد والياً عليها، ليضبط الأمور بها على النهج الذي اتبعه والده من قبل أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان، واستطاع الوالي الجديد السيطرة على الأمور وانتصر على الشيعة وقتل قادتهم، ومن بينهم مسلم بن عقيل[٤].

وكان الحسين قد تأهل للمسير فنصحه كبار الصحابة وغيرهم بالابتعاد عن العراق وعدم الاطمئنان لشيعته فلم يستجب لهم[٥]، وخرج في جماعة من شيعته تبلغ ثمانين رجلاً، ومعه نساؤه وأطفاله قاصداً الكوفة، فلما بلغه ما حدث لم يتراجع[٦]، وواصل المسير حيث التقى

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٦٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٣٨٥-٣٨٧.

(٢) محمد الخضري: الدولة الأموية، ص: ٤٥٤، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: ١٢٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٩٥.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٦٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٣٣٩.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٨٩.

بالقوات الأموية في معركة غير متكافئة سقط فيها قتيلاً عند كربلاء بالقرب من الكوفة في العاشر من محرم سنة ٦١هـ/ العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠م[١].

قضى الأمويون على الحسين لكنهم لم يقضوا على ثورته من أجل المبدأ والحق، إذ لم تلبث الأمة أن وجدت من أبنائها من يثور من أجلها ويغضب لحقها[٢]، بعد أن ظن يزيد أنه تخلص من منافسيه بقتل معظمهم في كربلاء، فقد كان هناك عبدالله بن الزبير الذي لم يقبل هو الآخر مبايعة يزيد، وذهب إلى مكة وأظهر أنه عائذ بالبيت[٣]، فلما بلغه مقتل الحسين سيطر على مكة وأخذ البيعة من أصحابه، ولم يستطع عمرو بن سعيد عامل يزيد على مكة والمدينة أن يفعل شيئاً ضده[٤] فعزله يزيد وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان[٥] الذي اشتد على ابن الزبير مما جعله يلجأ إلى المكر والدهاء لسياسي للتخلص منه فكتب إلى يزيد بن معاوية «إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق، لين الكتف رحوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها وأن يجتمع ما تفرق فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله»[٦].

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/٧، المسعودي: مروج الذهب ٣/٧١، ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ١٠٠، ابن الأثير: الكامل ٣/ ٤٣٢، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: ١٢٩.

(٢) محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر الأموي، ص: ١٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٣/ ٣٨٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٧٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٤٤٦.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٧٩.

واستجاب يزيد لكتاب ابن الزبير وأرسل إلى الوليد فعزله وبعث مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكان فتى حدثاً لم تصقله التجارب ولا خبرة له بعمله[١]، فكان سبباً في خروج أهل المدينة من المهاجرين والأنصار على يزيد.

ففي مستهل عمله أرسل وفداً من أشراف أهل المدينة إلى دمشق ليرى الخليفة مدى طاعتهم له، فلما ذهبوا إليه أكرم يزيد وفادتهم وأغدق عليهم الأموال والهبات متبعاً نهج والده وظن بذلك أنه يستميل قلوبهم وقلوب أهل المدينة[٢]، لكن أعضاء هذا الوفد ما لبثوا بعد عودتهم إلى المدينة أن أذاعوا بين الناس ما شهدوه في حاضرة الدولة من معيشة لا تتفق مع الدين وتقاليد الخلفاء الراشدين[٣]، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس عنده دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، وتضرب عنده القيان، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه، فثار أهل المدينة حينما سمعوا ذلك وخلعوا من فورهم طاعة يزيد[٤].

ولم يكتف أهل المدينة بخلع طاعة يزيد؛ بل اجتمعوا وحاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم بالمدينة، فاستغاث بنو أمية بيزيد[٥] فأعد جيشاً ضخماً من جند الشام وأسند قيادته إلى مسلم بن عقبة المري، وكان شيخاً كبيراً مريضاً لكنه كان يمتاز بالكفاءة والشدة[٦]، فلما علم أهل

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٤٤٩.

(٣) جمال سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص: ١٠٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٤٥٠.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٨٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٤٥٥.

المدينة بمقدم الجيش أخرجوا بني أمية بعد أن أخذوا المواثيق والعهود منهم بأن يسيروا إلى الشام ولا يساعدوا أحداً عليهم[١].

ويذكر الطبري: أن مسلم بن عقبة سار لقتال أهل المدينة فتقابل مع بني أمية المطرودين، وطلب إليهم أن يشيروا عليه بما يجب أن يفعله فأرشده عبد الملك بن مروان إلى كيفية الدخول إلى المدينة فزحف إليها مسلم متبعاً الخطة التي أشار بها عبد الملك[٢]، فوصل إلى «الحرة» وهي الأرض الصخرية البركانية الواقعة شمالي شرق المدينة[٣]، فخرج إليها أهلها بقيادة عبدالله بن حنظلة الغسيل[٤]، والتحموا مع جند الخليفة في معركة شديدة انتهت بهزيمة أهل المدينة، وقتل عدد كبير من بني هاشم، وسائر قريش والأنصار[٥]، ويقدر عدد القتلى بسبعمائة من المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من الموالي وغيرهم[٦].

ومما لا شك فيه أن هذه الموقعة قد أضعفت من قوة المدينة ومقوماتها الذاتية بسبب كثرة من قتل فيها.

ولقد أباح مسلم المدينة لجنده ثلاثة أيام بعد هزيمة أهلها في هذه المعركة التي أطلق عليها المؤرخون «وقعة الحرة»[٧].

---

(١) المصدر السابق، ص: ٤٥٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/٤٨٦.

(٣) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: ١٢٩، جمال سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية، ص: ١٠٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٣/٤٥٨.

(٥) المسعودي: الكامل في التاريخ ٣/٤٥٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٣/٤٦٢.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/٤٩٤-٤٩٥، ابن الأثير: الكامل ٣/٤٥٥-٤٦١، ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ١٠١.

وفي اليوم التالي دعا مسلم الناس للبيعة، وبالغ في امتهانهم بأن طلب منهم المبايعة على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية، ومن أبى قتله بالسيف[(١)]، وبعد أن انتهى من أخذ المبايعة ليزيد سار بمن معه من الجند متوجهاً إلى مكة لقتال عبدالله بن الزبير لكن المنية وافته قبل أن يصل إلى مكة، فاستخلف على الجند الحصين بن نمير السكوني، فمضى الحصين بالجيش الأموي إلى مكة وحاصرها واشتد على الثائرين، ورمى الحرم بالمنجنيق والنفط حيث كان ابن الزبير متحصنا به[(٢)].

وبعد أن حاصر الحصين مكة طوال شهرين بلغه نعي الخليفة يزيد، فأوقف القتال وتفاوض مع ابن الزبير على البيعة له بالخلافة شرط أن يهدر الدماء التي كانت بين جند الشام وأهل الحرم وأن يخرج إلى الشام ليبايعه هناك، لكن ابن الزبير رفض الخروج من الحجاز[(٣)]، لأنه أدرك أن الدافع وراء هذه البيعة هو الإحساس القبلي لا الرغبة في العودة إلى إنصاف الأمة بتقديم خير رجالها إلى منصب القيادة عن طريق الإيمان الحق بحقها في الاختيار والعدول عن نظام الوراثة[(٤)].

ولما رفض ابن الزبير الخروج من الحجاز رفع الحصين الحصار وعاد بجنده إلى الشام[(٥)]، وأذعنت جزيرة العرب كلها لابن الزبير[(٦)]، وانتشرت دعوته في بعض أمصار العراق والشام ومصر[(٧)]، لكن الأمور

---

(١) المسعودي: الكامل في التاريخ ٣/ ٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص: ٥٠٢.

(٤) محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر الأموي، ص: ١٦٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٠٢.

(٦) سيديو: تاريخ العرب العام، ص: ١٤٧.

(٧) جمال سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص: ١١٠.

لم تدم طويلاً على هذه الحال، فحينما تولى الخلافة مروان بن الحكم دخل مصر سنة ٦٥هـ-٦٨٤م، وأعادها إلى حوزة الخلافة[١]، وبعد وفاته سار ابنه عبد الملك بن مروان على نهجه فتمكن من إعادة العراق للأمويين في سنة ٧١هـ-٦٩١م[٢].

ولم يبق أمام عبد الملك إلّا عبدالله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز كله من مقره في مكة، فوجه إليه الحجاج بن يوسف الثقفي، فاتخذ من مسقط رأسه الطائف قاعدة لعملياته الحربية، وتقدم من هناك إلى مكة فحاصرها كما فعل الحصين بن نمير من قبل وقذف الكعبة بالمنجنيق[٣]، وظل يضيق الخناق عليه حتى تفرق عنه جل أنصاره، لكن ابن الزبير ظل يقاتلهم ولم يستسلم حتى قتل في سنة ٧٣هـ-٦٩٢م[٤] وبمقتل ابن الزبير تم للأمويين إخضاع الحجاز لسيادتهم، وانتهى الدور الأساسي في مشاركة الحجاز في حياة العالم الإسلامي من الناحية السياسية مشاركة ذات أثر فعال ولم يعد سكان الحجاز يهتمون بأمور السياسية فانصرف بعضهم لدراسة الحديث والفقه[٥]، بينما انصرف

(١) الكندي: تاريخ ولاة مصر، ص: ٤١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ١٦٧، المسعودي: مروج الذهب ٣/ ١١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٤/ ١٢٢.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ١٢٢.

(٥) كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية في صدر الإسلام، فكان يقصدهما طلاب الحديث والفقه للدراسة، وقد نشأت مدرسة مكة عقب فتح رسول الله (ﷺ) لمكة وترك عبدالله بن معاذ يفقه أهلها ويقرئهم القرآن، وكذلك درس بمكة عبدالله ابن عباس في أخريات أيامه، فكان يجلس في البيت الحرام يعلم التفسير والحديث، والفقه، وإلى عبدالله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل بما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية، وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين، مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح وطاوس بن كيسان.. واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى فيها العلم طبقة عن طبقة، أما مدرسة المدينة فكانت أكثر علماً وأوفر شهرة، وقد درس فيها زيد بن ثابت =

البعض الآخر إلى الترف واللهو وسماع الغناء والموسيقى[١]، وفقد الحجاز قدراته الحربية وصار ضعيفاً لا يستطيع الدفاع عن نفسه إلّا بمساعدة رجال الخلافة.

■ ثانياً: ضعف الحجاز وعجزه عن صد المغيرين:

اشتد الأمويون على أهل الحجاز وقتلوا الكثير منهم حتى ضعفت قوتهم الذاتية فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد المغيرين الذين هجموا عليهم في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين.

فقد هاجم الخوارج الأباضية[٢] الحجاز بقيادة أبي حمزة المختار بن

= الأنصاري وعبدالله بن عمر، وعلى أمثال هؤلاء تخرج كثير من العلماء التابعين، من أشهرهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشي (عمر كحالة: مقدمات ومباحث، ص: ١٣٧-١٣٨).

(١) بجانب الحياة الدينية الجليلة التي كانت تسود الحجاز كانت هناك حياة أخرى كلها لهو ومرح وطرب يرجع للأمويين الفضل فيها لصرف أهل الحجاز وأشرافها عن السياسة، ففي عهد معاوية كان ولاته على المدينة يعقدون مجالس للغناء يحضرها الأمير وكان ابنه يزيد صاحب طرب وترف ومنادمة على الشراب، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب، ففي عام ١٦٩هـ-٧٨٥م قبض عمر بن عبد العزيز على أحد العلويين مع آخرين على شراب فأمر بضربهم جميعاً (المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٧٧، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ١٧٧، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي، ص: ٣.

(٢) الخوارج الأباضية: هم أتباع عبدالله بن إباض، وقد خرجوا من زمن مروان بن محمد، ومن مذهبهم أن مخالفيهم كفار نعمة فقط، وعلى هذا يجوز التعامل معهم وموارثتهم إلّا أنهم استحلوا من أموال الخيل والسلاح أما الذهب والفضة فإنهم يردونهما على أصحابهما عند الغنيمة (عبد القاهر: الفرق بين الفرق، ص: ٦١-٦٣، الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٣٤).

عوف الأزدي[(١)] الذي قدم سنة ١٢٩هـ-٧٤٦م على رأس جيش يتألف من نحو سبعمائة رجل من الخوارج يرفعون الأعلام والعمائم السود على رؤوس الرماح ففزع الناس منهم[(٢)]، وكان العالم الأموي على الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[(٣)]، فأرسل إلى أبي حمزة الخارجي وفداً من كبار أبناء الصحابة يضم عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي ومحمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر[(٤)]، وطلبوا منه عقد الهدنة بينهم وبينه حتى ينتهي موسم الحج فوافق أبو حمزة على ذلك[(٥)].

وبعد انتهاء المواسم لم يستطع الوالي الأموي على الحجاز مقاومة أبا حمزة، فترك مكة إلى المدينة فاستولى أبو حمزة على مكة بغير

---

(١) أبو حمزة: المختار بن عوف الأزدي أحد الخوارج الإباضية الذين كانوا يأتون إلى مكة في مواسم الحج لنشر مبادئهم وإثارة الناس منتهزين فرصة تجمع المسلمين في الموسم وقد تقابل أبو حمزة مع عبدالله بن يحيى وهو رجل من حضرموت كان ثائراً على حكام بني أمية فأعجب بحديث أبي حمزة واصطحبه معه إلى حضرموت حيث استطاع عبدالله بن يحيى السيطرة على حضرموت وبايعه الخوارج خليفة لهم، ولقب نفسه بطالب الحق وخوطب بأمير المؤمنين ثم قرر غزو الحجاز لما له من قيمة دينية في نظر المسلمين جميعاً تضفي على صاحبه الشرعية باعتباره صاحب الحرمين الشريفين فأرسل عبدالله بن يحيى أبا حمزة على رأس حملة عسكرية لغزو الحجاز (المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٥٧، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٢٣، ابن خلدون: العبر ٣/ ١١٠).

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣٩.

(٣) كانت ولاية الحجاز وآنذاك تشمل مكة والمدينة والطائف، المصدر السابق، ص: ٤١.

(٤) المصدر السابق، ص: ٣٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٣٩.

قتال[١]، ثم سعى للاستيلاء على المدينة، فجهز عامل الحجاز جيشاً بقيادة عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن عثمان فيه عدد كبير من رجال قريش[٢]، فلما كانوا بالعقيق أتتهم رسل أبي حمزة يطلبون أن يخلوا بينهم وبين الأمويين ويقولون لهم: إننا والله ما لنا بقتالكم حاجة، دعونا نمضي إلى عدونا، فأبى أهل المدينة الاستجابة لهم، وساروا حتى نزلوا قديداً فالتقوا مع قوات أبي حمزة فدارت الدائرة على أهل المدينة وقتل من رجالها نحو سبعمائة معظمهم من قريش[٣]، وفروا من الحجاز إلى الشام[٤].

وقد وصف ابن الأثير جيش أهل المدينة عقب هذه المعركة بأنهم: كانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب[٥]: ويرجع السبب في ذلك إلى مكر ودهاء الأمويين الذين أغدقوا الثروات الطائلة على كبار رجال مكة والمدينة حين أبعدوهم عن الحكم، فجرهم هذا إلى حياة البطالة والترف، حتى أصبحت المدينة مقراً للطبقة المترفة، ومنهجاً لكل من يريد حياة الدعة والنعيم[٦]، ففقد أهلها ميزاتهم الحربية وغرق شبابها في اللهو والترف، وقد ذكر المسعودي أن الغناء ظهر بمكة والمدينة أيام الأمويين، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب[٧]، وانصرفوا إلى اللهو والمجون فكان الحجاز موطن الغناء وموطن الموسيقى وموطن اللهو والغزل[٨] بالإضافة إلى الثورات التي أفنت خيرة شباب الحجاز.

---

(١) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢١٠. (٢) المصدر السابق.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٤٩.
(٤) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢١٠.
(٥) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٤٩.
(٦) أحمد الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة، ص: ٤٥٢.
(٧) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٧٧.
(٨) عزيزي فهمي: المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي، ص: ٩٧.

ونتيجة لهذا لم يعد بأهل الحجاز قدرة على الصمود والتصدي للأعداء فلقوا قوة صغيرة كقوة أبي حمزة فلم يستطيعوا التغلب عليها.

واستقر أبو حمزة في المدينة لمدة ثلاثة أشهر[١]، حتى أرسل الخليفة الأموي مروان بن محمد جيشاً كبيراً من أربعة آلاف فارس[٢]، التقوا بجيش الخوارج في وادي القرى فهزم الخوارج وقتل عدد كبير منهم[٣]، وفر أبو حمزة إلى مكة مع بقية من جنده حيث لحقهم الجند الأموي فكانت بينهم وقعة أخرى قتل فيها أبو حمزة ومن معه[٤]، وسار جيش الأمويين نحو اليمن فاستولى على صنعاء وحضرموت وقتل عبدالله ابن يحيى «طالب الحق»[٥].

ومما سبق نلاحظ أن الأمويين قد استطاعوا إضعاف الحجاز والقضاء على فاعليته من الناحية العسكرية فصار إقليماً ضعيفاً من أقاليم الدولة لا يستطيع الدفاع عن نفسه إلّا بقوة خارجية بعد أن كان حاضرة المسلمين ومركز الخلافة في صدر الإسلام، ومركز انطلاق المجاهدين لتحرير الشعوب من عبودية الأصنام والأوثان ولنشر دين الله، وظل الحجاز على ضعفه منذ العصر الأموي وحتى قيام الدولة العباسية.

■ ثالثاً: الحجاز في ظل النفوذ العباسي:

تضافر آل البيت من العلويين والعباسيين للقضاء على الأمويين، فلما

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥١.

(٢) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥١.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٥٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٥١.

ظهر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم، فقاموا بعدة ثورات في الحجاز، وتتبع العباسيون المعارضين من العلويين واضطهدوهم بصورة أشد وأقسى مما كانت عليه في العصر الأموي، وأصبح الحجاز ملاذاً للثائرين من العلويين، وأظهر مثال لذلك ثورة محمد بن عبدالله بن الحسين بن علي ابن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية وكان قد امتنع عن بيعة أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور(١).

ويعلل كثير من المؤرخين سبب امتناعه عن البيعة بأن بني هاشم جميعاً بايعوه بالإمامة حين اشتدت الأمور على مروان بن محمد واجتمع بنو هاشم للتشاور بالأمر، بعد أن تذاكروا ما هم عليه من الاضطهاد وما آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب، وكان أبو العباس السفاح والمنصور وكثير من العباسيين ضمن المبايعين في الاجتماع، فلما نقض العباسيون هذا الاتفاق ونقلوا الحكم إليه امتنع محمد عن مبايعة السفاح، كما تخلف هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور(٢).

وخشي المنصور عاقبة هذا الموقف فعمل جاهداً على تغييره، وحرص على الظفر بمحمد وإبراهيم لما في أعناق بني هاشم من البيعة لمحمد، ويبدو أنه أراد التخلص منهما كما تخلص من منافسيه عبدالله ابن علي، وأبي مسلم الخراساني من قبل، لذا اتخذ محمد وأخوه ملجأ لهما اختفيا فيه عن أعين المنصور ورجاله، وأخذ المنصور يجد في طلبهما، ويعمل الحيل في سبيل الظفر بهما(٣).

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣/٣٠٦، ابن خلدون: العبر ٣/٢٣٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥/١٣٧، ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ١٤١.

(٣) ابن خلدون: العبر ٣/٢٣٦.

ولما أعجزه القبض عليهما عزل زياد بن عبدالله عامله على المدينة، وعين مكانه محمد بن خالد القسري، وأمده بالأموال الكثيرة كي يتمكن من القبض عليهما، لكنه لم يقف لهما على أي أثر، فعزله المنصور واتهمه بالتهاون والتفريط(١).

وفي سنة ١٤٤هـ-٧٦١م أرسل رباح بن عثمان بن حيان المري - ابن عم مسلم بن عقبة المري قائد «الحرة» في عهد يزيد بن معاوية - والياً على المدينة فأخذ يجد ويسعى من أجل القبض عليهما، لكنه لم يستطع فلجأ إلى سجن العلويين من أبناء الحسن(٢)، وتقييدهم بالسلاسل في أعناقهم وأرجلهم، فلما حضر المنصور للحج في ذلك العام أحضرهم وسألهم عن محمد وإبراهيم فلم يعطوه جواباً يشفي غليله، فأمر بإرسالهم إلى العراق مقيدين بالأغلال حيث حبسوا في قصر ابن هبيرة شرقي الكوفة(٣).

لم ير محمد بن عبدالله بدأ من الظهور بعد أن علم بما حل بأهله من العسف والإرهاق(٤)، فقرر أن يضع حداً لهذا بإعلان ثورته في سنة ١٤٥هـ-٧٦٢م، فخرج في مائتين وخمسين رجلاً من أنصاره(٥)، وتبعه أعيان المدينة، وعزل واليها من قبل المنصور، وعين والياً آخر مكانه، وكسر أبواب السجون، وأطلق المسجونين بها(٦)، ودعا إلى نفسه، وتلقب بأمير المؤمنين، واعترف الناس في مكة والمدينة بإمامته(٧)،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٤١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٤١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٤٥-١٤٦.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٣٠٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٤٨.

(٦) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ١٤٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٤٩.

وذهب أخوه إبراهيم إلى البصرة لكي يكون مؤازراً له هناك، وتقوية لحركته التي ظهرت بالحجاز، فاستولى على دار الإمارة بالبصرة، وهزم قوات الخليفة المنصور، وانضوى كثير من الناس تحت لوائه، واجتمع له كثير من الفقهاء وأهل العلم[١]، وامتد بذلك نفوذ محمد بن عبدالله إلى البصرة.

أعد المنصور جيشاً قوياً بقيادة عيسى بن موسى ابن أخيه والتقى هذا الجيش بأنصار محمد بن عبدالله، ولم يقو محمد بمن معه على الصمود لقوات المنصور فقتل وهزم أصحابه يوم ١٤ رمضان ١٤٥هـ/ ٧ ديسمبر ٧٦٢م[٢].

ولم يكن لحركة محمد بن عبدالله من رد فعل في المدينة سوى ثورة السودان على جند الوالي الجديد عبدالله بن ربيع الحارثي واستيلائهم على بعض أمتعة كانت موجهة للمنصور، ولكن الأمر انتهى بخلودهم إلى السكينة، ورد ما انتهبوا[٣].

وكما فشلت حركة محمد في الحجاز فشلت حركة إبراهيم في العراق؛ لأنه بعد قضاء عيسى بن موسى على ثورة النفس الزكية سرعان ما أنفذه أبو جعفر لمحاربة أخيه إبراهيم، ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخمرى بين الكوفة وواسط[٤] حيث هزمت قوات إبراهيم وقتل في ١٤ ذي القعدة سنة ١٤٥هـ/ ١٤ فبراير ٧٦٣م[٥]، وبذلك اندحرت هذه الحركة العلوية وخلص الأمر للعباسيين.

---

(١) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٦١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥/ ١٦٤-١٦٥.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ٢/ ١٣٥.

(٥) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢٤٦، ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ١٤٤.

ظل الحجاز بعد ذلك ساكناً تحت الحكم العباسي، وركن العلويون إلى الهدوء بعد مقتل النفس الزكية محمد بن عبدالله، فلم تظهر في الحجاز حركة مناوئة للعباسيين، وتولى المهدي الخلافة فبدا حكمه بالعفو السياسي العام وأطلق من كان في سجون المنصور إلّا من كان عنده تبعة من دم أو مال، أو يسعى في الأرض فساداً[١] ورد على أولاد جعفر الصادق أموال بني الحسن التي صودرت بالمدينة أيام ثورة محمد بن عبدالله[٢]، ونقل خمسمائة من الأنصار إلى العراق جعلهم في حرسه، وأقطع لهم وأجرى عليهم الأرزاق[٣].

واهتم المهدي بالحرمين اهتماماً خاصاً فأمر ببناء المحطات للقوافل على طول الطريق إلى مكة وأمر ببناء المصانع (الصهاريج) لخزن المياه، وحفر الآبار فيها، وجعل عليها موظفاً خاصاً هو صاحب المصانع[٤]، ولتسهيل الاتصال بين أطراف الحجاز أمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة، ولم يكن هناك بريد قبل ذلك، وكذلك إقامة البريد بينهما وبين اليمن بالبغال والإبل[٥]، وعلى عهده جددت كسوة الكعبة، كما أن المسجدين الحرمين بمكة والمدينة كانا محل رعايته فجددهما وزاد فيهما[٦].

فلما توفي المهدي سنة ١٦٩هـ-٧٨٥م خلفه ابنه موسى الهادي،

---

(١) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢٥٩.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: التاريخ العباسي والأندلسي، ص: ٨٧، مكتبة كريدية، إخوان - بيروت ١٩٧٦م.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٢٣٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٢٤٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٢٥٣:

(٦) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢٦٣.

وفي عهده أساء والي المدينة معاملة العلويين وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية، واتهمهم بشرب النبيذ، وقبض عليهم، وشهر بهم بين أهل المدينة، ووضعهم تحت المراقبة، وصار يبعث في طلبهم كل يوم، فثار الحسين بن علي بن الحسن على عامل المدينة، واعترض على التشهير بأهل بيته وأعلن خروجه على الخليفة الهادي[١]، ودخل هو وأتباعه الحرم النبوي بالمدينة فاجتمع إليه كثير من أهلها وبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه محمد (ﷺ) للمرتضى من آل محمد، وأوقع أصحاب الحسين الهزيمة بالعباسيين في المدينة، ثم وضعوا أيديهم على ما في بيت المال من الأموال[٢].

وبعد أن قضوا بالمدينة أحد عشر يوماً قرروا الخروج إلى مكة فلقيهم جيش العباسيين بفخ، وهو واد في طريق مكة يبعد عنها ستة أميال[٣]، ودارت معركة بين الفريقين تقرر فيها مصير العلويين، حيث قتل الحسين بن علي بن الحسن وقتل معه بعض أهل بيته[٤].

وكانت موقعة فخ بعيدة الأثر فقد أعقبتهما ثورتان علويتان ببلاد الديلم وفي شمال إفريقيا وقد انتهت الأخيرة بقيام دولة الأدارسة[٥].

---

(١) ابن خلدون: العبر ٣/ ٢٧٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٢٦٦.

(٣) محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر العباسي، ص: ٥٤

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ١٦٦-١٦٧.

(٥) نجا من معركة فخ علويان أخوان هما يحيى وإدريس ابنا عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي، فذهب يحيى إلى بلاد الديلم، حيث جمع الأنصار حوله وخرج على العباسيين أيام هارون الرشيد، فأرسل الرشيد إليه جيشاً في خمسين ألفاً بقيادة الفضل بن يحيى البرمكي الذي استطاع مصالحة يحيى والحصول على أمان له من الرشيد، أما إدريس فقد فر إلى مصر هارباً ثم خرج منها إلى شمال إفريقية، وفي =

وهكذا نجد العلويين ثائرين ساخطين على العباسيين ما وجدوا إلى ذلك من سبيل، والعباسيون يوالونهم بالحرب والتنكيل والتشريد.

وقد أصبحت المدينة المنورة مأوى تراجعت إليه العناصر العلوية، وقد ساعد على ذلك قرار هارون الرشيد إخراجهم من بغداد إليها بعد سنتين من خلافته في آخر سنة ١٧١هـ-٧٨٧م[١] ولم تقم بالحجاز - آنذاك - ثورات على الرشيد، إلّا أنهم في عهد المأمون قاموا بعدة ثورات عليه ففي جمادى الآخرة سنة ١٩٩هـ-٨١٤م خرج بالكوفة محمد ابن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا، وصار يدعو إلى الرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، وعاونه في نشر دعوته قائد جنده أبو السرايا السري بن منصور الشيباني الذي استولى على الكوفة من واليها العباسي[٢].

وبعد وفاة محمد بن إبراهيم ولى أبو السرايا خلفاً له غلاماً من العلويين يدعى محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي وضرب الدراهم باسمه في الكوفة[٣]، وأرسل الحسين بن الحسن الأفطس[٤]

= المغرب الأقصى التف حوله أهلها من البربر، وأعلن خروجه على الرشيد سنة ١٧٢هـ-٧٨٨م، فاستطاع الرشيد أن يدس عليه بعض أعوانه فقتلوه بالسم سنة ١٧٧هـ-٧٩٣م لكن أتباعه انتظروا أمه التي كانت حاملاً حتى وضعت ولداً حمل اسم أبيه، فبايعه المغرب الأقصى بالخلافة وقامت بذلك دولة الأدارسة، انظر ابن خلدون: العبر ٣/ ٢٧٤، ٤/ ١٧-١٨.

(١) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٢٨٢.

(٢) ابن خلدون: العبر ٣/ ٣٠٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥/ ٤١٨.

(٤) هو الحسن بن الحسن بن علي الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بالأفطس (العصامي المكي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٨٨).

عاملاً من قبله على مكة، فقام بالاستيلاء على ودائع بني العباس هناك، وأخذ أموال الناس ثم عمد إلى خزانة الكعبة فأخذ جميع ما فيها من الأموال وقسمها على أصحابه[١]، واستقر بمكة إلى أن بلغه مقتل أبي السرايا سنة ٢٠٠هـ -٨١٥م، فذهب هو وأصحابه إلى محمد الديباج[٢]، بن جعفر الصادق وسألوه المبايعة له بالخلافة ولم يزالوا به حتى وافقهم[٣]، ودعا لنفسه بمكة وتسمى بأمير المؤمنين، فأرسل له المأمون عسكراً تمت له الغلبة على محمد وظفر المأمون وعفا عنه، وقد مات بجرجان ودفن بها[٤].

● البيعة لمحمد بن جعفر: ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

تذكر أغلب المصادر أن بيعة محمد بن جعفر بالخلافة مرتبطة بالمصير الذي لقيته حركة أبي السرايا، إذ لم تستطع الصمود في النهاية أمام الجيوش العباسية التي أعدها الحسن بن سهل والي العراق وقادها الخبير بتفكير أبي السرايا واستراتيجياته العسكرية هرثمة بن أعين.

وتذكر مصادر مثل الطبري[٥] وابن الأثير[٦] وصاحب العيون

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين وكان يسمى بالديباج والديباجة لحسنه وبهائه، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٤٢٢، ابن خلدون: العبر ٣/ ٣٠٥، المسعودي: مروج الذهب ٤/ ٢٧.

(٣) العصامي المكي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٨٩.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٤/ ٢٦-٢٧، ابن الأثير: الكامل ٥/ ٤٢٢.

(٥) الطبري: تاريخ ٨/ ٥٣٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٣١١.

والحدائق[١] وابن الجوزي[٢] والذهبي[٣] وابن خلدون[٤] أنه بعد أن أيقن كل من حسين الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر بموت أبي السرايا وتلاشي قواته، وفقد السند المعنوي والعسكري، نظرا في أمر حركتهما في مكة وما قد أحدثاه من سلب ونهب أعمال سيئة وأيقنا بالهلاك أمام القوات العباسية التي ستزحف على مكة عاجلاً أو آجلاً، توصلا إلى فكرة البحث عن واجهة دينية يختبئان خلفها لأن كليهما رغم النسب العلوي لم يعد يصلح للدعوة لسوء سيرتهما[٥]، وقد وجدا في شخص الطالبي محمد ابن جعفر الصادق أفضل واجهة لرفعها والقتال باسمها، خاصة وأنه كما تصور تلك المصادر، قد اشتهر بحسن السيرة وبالعلم والفضل «وكان محبباً للناس، مفارقاً لما عليه كثير من أهل بيته»[٦] أي «تاركاً للخروج»[٧]، كما كان معلماً ورواية للحديث عن أبيه والناس تكتب عنه، وبينما تصور معظم المصادر محمد بن جعفر رافضاً للمبايعة ومكرها على قبولها وأن أهالي مكة والمجاورين إنما حشروا لمبايعته حشراً طوعاً وكرهاً[٨]، يعطي الأصفهاني في مقاتل الطالبيين سبباً آخر

---

(١) مجهول: العيون والحدائق ٣٤٨-٣٤٩.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١/ ٨٢.

(٣) الذهبي: أحمد بن محمد عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ١٩١-٢٠٠، تحقيق د/ عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٩٩م، ص: ٧٨.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٥/ ٥١٩.

(٥) مجهول: العيون والحدائق، ص: ٣٤٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٣١١.

(٧) الذهبي: حوادث ١٩١-٢٠٠، ٧٥.

(٨) الطبري: تاريخ ٨/ ٥٣٧، ابن الأثير: الكامل ٦/ ٣١٢.

لخروج محمد بن جعفر في مكة، وهو إنه إنما خرج غيرة على فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) بعد أن علم بكتاب فيه سب لفاطمة بنت الرسول (ﷺ)، فلما قدم جماعة بذلك الكتاب وقرأوه عليه لم «يرد عليهم جواباً حتى دخل بيته، فخرج عليهم وقد لبس الدرع، وتقلد السيف، ودعا إلى نفسه»(١)، وليس ثمة ذكر عند الأصفهاني لما ذكر من إكراه حسين الأفطس وعلي بن محمد لمحمد بن جعفر بالبيعة له بعد وفاة أبي السرايا، أي أن رواية الأصفهاني تجعل خروج محمد بن جعفر طواعية وهو ما نريد أن نقرره بغض النظر عن السبب المباشر المشكوك في صحته، ما لا بد من ذكر رواية المقدسي (ت٣٥٥هـ) التي تذكر أن علياً ولد محمد بن جعفر قد خرج في البصرة(٢)، بينما تجعله المصادر المذكورة يخرج في مكة مع ابن الأفطس. ويذكر اليعقوبي أن محمد بن جعفر العلوي تغلب بمكة وأخرج واليها الهاشمي(٣)، ولا يذكر شيئاً عن الإكراه المذكور في المصادر الأخرى، أما المصدر المعاصر لمحمد بن جعفر، وهو معاصر له أيضاً في الزمان والمكان، مع ما يحظى به من ثقة في رواياته لاتباعه أساليب الإسناد المتبعة في علم الحديث(٤)، فهو خليفة بن خياط في تاريخه والذي يخالف كافة المصادر التي أتت من بعده ويقرر أن محمد ابن جعفر سنة تسع وتسعين ومائة وثب بالبصرة وليس بمكة(٥). صحيح

(١) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص:٥٣٩.

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ ١٠٩/٥.

(٣) اليعقوبي: تاريخ، ص: ٤٤٨.

(٤) انظر: مقدمة التحقيق لكتاب تاريخ خليفة بن خياط التي كتبها الدكتور/ أكرم ضياء العمري وبين فيها منهج ابن خياط في الكتابة التاريخية ومستوى الثقة التي تلقاها رواياته، ١٤ وما بعدها.

(٥) ابن خياط: تاريخ، ص: ٤٦٩.

أنه يذكر أيضاً بعد ذلك أن ابن جعفر وثب بمكة لكنه يقرر أولاً أن مبدأ خروجه كان في البصرة. وبالنظر إلى الثقة الكبيرة في روايات ابن خياط بالإضافة إلى معاصرته لابن جعفر في الزمان والمكان فلا بد من منح روايته مصداقية استثنائية، وباعتماد هذه الرواية تسقط الرواية الأخرى والمبثوثة في معظم المصادر حول الإكراه المزعوم لمحمد بن جعفر بالبيعة.

ولإعادة بناء تسلسل زمني مقنع للأحداث نرى أن رواية المقدسي التي تقرر خروج علي بن محمد بن جعفر في البصرة تسمح بفهم أن علياً هذا كان قائد أبيه العسكري في البصرة كونه الأوفر شباباً والأكثر حماساً، وقد لاح لهما أن يتركا البصرة لقريبهما زيد بن موسى بن جعفر الملقب بزيد النار لكثرة ما أحرق من بيوت العباسيين كما روي. ولعلهما تركا البصرة خوفاً من طغيان أبي السرايا على حركتهما، بينما يفضلان الاستقلال، وفي خروجه الأول في البصرة لم يذكر ابن خياط أن محمد ابن جعفر ادعى خلافة أو إمرة للمؤمنين، والظاهر أنه أراد مثل غيره من العلويين وسواهم الفوز بنصيب من الدنيا مسنوداً بنسبة العلوي وهو ما ألمح إليه في خطبة التنازل السالفة وأنها كانت فتنة غشيت عامة الأرض منه ومن غيره، ويبدو أن الأقدار دارت لصالحهما حين قدما مكة وفيها العلوي ابن الأفطس نائباً عن أبي السرايا، ولنا أن نتصور في غمرة الفوضى الحاصلة وغياب السلطة أن تحالفا بين ابن الأفطس وعلي بن جعفر قد قام على أساس أن تكون مكة لهما بما يقتضي ذلك من الاستئثار بأموال العباسيين وغيرهم في مكة، كما نستطيع أن نتصور وبحكم الولاء الرابط بين أبي السرايا وابن الأفطس أن يتراجع اسم محمد بن جعفر كي لا يعد منافساً لصاحب النفوذ الفعلي أبي السرايا أمام نائبه ابن الأفطس. أما بعد هزيمة أبي السرايا ومقتله فالطريق مفتوح ثانية أمام محمد بن جعفر ليكون على رأس حركة انقلابية على

الخلافة العباسية ويقبل المبايعة له بالخلافة ويتلقب بإمرة المؤمنين. كما أن خطبة الخلع التي مرت بنا لم تتضمن أية إشارة إلى الإكراه ليكون عذراً له؛ بل قدمت إشاعة موت المأمون كعذر لقبول البيعة بالخلافة، أما المصادر التي تصوره أكره على ذلك فتذكر أنه ظل شهراً أو شهوراً ليس له من الأمر شيء سوى الاسم، ولا يتفق هذا وواقع الحال، فأول المواجهات العسكرية وقعت بعد شهرين من مبايعته بالخلافة في جمادى الآخر، بينما بويع في الثالث من ربيع الآخر، ولنا أن نتصور أن هذه الفترة الفاصلة هي فترة استعداد وجمع أعوان وحفر خندق وخلافه. وعليه وبتذكر أنه خرج أصلاً في البصرة نخلص إلى أنه شمر عن ساعد الجد بل نشطا جداً وحريصا جداً في الحفاظ عليها[١]، وأنه لم يسلم إلّا بعد هزيمته وإدراكه لعجزه أمام القوات العباسية وعزوف الناس عن الانضمام لحركته.

ويصبح من الضروري البحث عن سبب لذلك التصوير الرابط بين علم وزهد ابن جعفر ووصفه بأنه تارك للخروج من جهة ثم ما زعم من إكراهه على قبول بيعة بإمرة المؤمنين من جهة ثانية و محاولة تبرئته من أعمال السلب والنهب والمنكرات المخلة بالشرف ونسبتها لولده علي

---

(١) لاحظ المستشرق الهولندي، ك. سنوك هورخرونية في كتابه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، أن الكتاب العلويين، ولم يسمهم - يرون أن محمد بن جعفر غير مذنب، لكنه يرى أن هذا الزعم غير صحيح بدليل نشاط ابن جعفر للاستيلاء على المدينة، والمستشرق في ملاحظته هذه خلط بين أمر السلب والنهب والرغبة في الخلافة، فاستدل بالثانية على الأولى، لكنها تبقى ملاحظة مهمة تعزز ما ذهبنا إليه من رغبة أكيدة لمحمد بن جعفر في نيل الخلافة، ك. سنوك هورخورونية، تاريخ مكة المكرمة، نقله العربية د/ علي عودة الشيوخ، الرياض، دارة الملك عبد العزيز ١٩٩٩م، ١/ ١٣٠.

ولابن الأفطس من جهة ثالثة، وأعتقد أن الإجابة تكمن في النهاية التي أفضت إليها حركته والمقام الذي وجده بعدئذٍ عند المأمون. ففي خطبة التنازل التي مرت بنا يعتذر ابن جعفر عما بدر منه ويؤكد حق المأمون في الخلافة، كما أنه بعد ذلك حظي بتقريب المأمون له، ولا يصح بالتالي أن يصور علوي يقربه المأمون بأنه سعى للخلافة وأسقط شرعية خلافة المأمون، كما لا يصح أن تنسب له منكرات وأفاعيل وإلا لطال المأمون منها نصيب ولظهر موافقاً على ما يروى من المنكرات لأشخاص يؤمون بلاطه، ومن جهة أخرى فلا شك أن الدعاية المأمونية كانت في أمس الحاجة إلى من يؤكد شرعية خلافة المأمون بعد مقتل أخيه الأمين وخاصة من علويين بسير تقية وسمعة زكية، وقد لعب محمد بن جعفر دوراً في ذلك عبر خطبته في مكة والتي لا شك أنها لاقت ذيوعاً ليعرف القاصي والداني رأي هذا العلوي الذي كان بويع خليفة، بخلافة المأمون، لكل ذلك نرى أنه الرواية المبثوثة في معظم المصادر التي تصور إكراه محمد بن جعفر على البيعة لا تستقيم مع وقائع الحركة، ولكنها تستقيم مع سياسات المأمون في تثبيت خلافته، خاصة وأن كتابة التاريخ قد تأثرت بانتصارات المأمون وتم تزوير العهود التي علقت في الكعبة بين الأمين والمأمون، كما يرجح ذلك بأدلة مقنعة مؤرخ معاصر[١]، وعليه يمكن القول أن رواية باقي الأحداث التاريخية المتصلة بزمن المأمون ستتأثر هي الأخرى بحاجة المأمون إلى تبرئة ساحته من دم أخيه ومن فكرة التغلب على الخلافة بالقوة.

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس ١/ ٤٠٤-٤١٠، ٤٢٨-٤٣٦، الكويت، وكالة المطبوعات ١٩٧٣م.

● المنكرات المنسوبة لأركان حركة ابن جعفر ابنه علي وحسين الأفطس: ● ● ●

هنا نريذ مناقشة أعمال السلب والنهب والمنكرات التي نسبتها معظم المصادر[١] لحسين الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر، ولا بأس من إعادة ما ذكرنا سابقاً من أعمال قبيحة ومنكرات واضحة، وأنهما تتبعا ودائع بني العباس وأتباعهم، وسطيا على أموال الناس بحجة البحث عن ودائع بني العباس، وأنهما قاما بتعذيبهم وأنشآ داراً خاصة سميت «دار العذاب»[٢]، وكما سطيا على جميع ما في خزانة الكعبة من أموال وقلع أصحابه شبابيك الحرم وحكوا الذهب القليل من معظم أساطين المسجد الحرام وقسم كل ذلك بينهم مع كسوة الكعبة المنزوعة على قدر المنزلة لكل شخص، وقد أدى كل ذلك إلى هرب أكثر الناس فهدمت دورهم، كما نسبت إليهم وقائع مخلة بالشرف كاغتصاب امرأة وصفت بالجمال البارع، وأخذها من بيت زوجها قهراً لابن الأفطس واستبقائها عنده إلى أن تمكنت من الهرب، وكاختطاف غلام أمرد من قبل علي بن محمد بن جعفر وصف أيضاً بالجمال وهو ابن لقاضي مكة.

فما الموقف من كل هذه الأعمال وما علاقة محمد بن جعفر بها؟ من بين المصادر والمراجع التي بين أيدينا يعلق فقط صاحب كتاب تاريخ أمراء مكة على أخبار الاغتصاب بالذات بعبارة واحدة مناقشة تقول «وقد تكون هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته وقد نقلناها كما وردت»[٣].

---

(١) الطبري ٨/٥٣٦-٥٣٧، ابن الأثير: الكامل ٦/٣١١-٣١٢، ابن الجوزي: المنتظم ١٠/٨٢، مجهول: العيون والحدائق، ص: ٣٤٨، ابن خلدون: تاريخ ٥/٥١٩-٥٢٠، ابن فهد: إتحاف الورى، ص:٢٦٥، ابن علي الفاسي: الزهور، ص: ٢٨٦.

(٢) الطبري ٨/ ٥٣٧.

(٣) عبد الغني: عارف، تاريخ أمراء مكة، ص: ٢٨٣، ط/١ - دمشق، دار البشائر ١٩٩٢م.

ولنبدأ بالأخبار الخاصة بأعمال السلب والنهب، ذكرنا بأن الفراغ الذي حصل في السلطة عند نهاية القرن الثاني الهجري وبقاء الخليفة المأمون في مرو قد شجع كثيرين أفراداً وجماعات ومنهم الطالبيون على التغلب على الأمصار واعتماد أعمال السلب والنهب طريقاً قصيراً للثراء وأن الأخبار التفصيلية المتعلقة بهذه الأعمال في بغداد وغيرها من المدن، بالإضافة إلى حركة أبي السرايا وما ارتبط بها من أعمال سلب ونهب تجعل من الصعب عدم تصديق الروايات المتعلقة بما جرى من أعمال سلب ونهب في مكة، لقد كانت روحاً طاغية في كل العراق والجزيرة العربية لدرجة أن حركات مناهضة لحركات السلب والنهب تشكلت فيما بعد تحت مسمى المطوعة، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]، كما أن حركة مثل حركة العيارين والشطار قد لعبت دوراً آخر أساسياً في نشر روح الفوضى والسلب رغم أنها كانت تعبيراً عن الفاقة والجوع في وجه الرغد والوفرة[٢]، ووجدت في فراغ السلطة القائم لها متنفساً، وقد خرجت أعمال السلب والنهب عن حدود الاعتداء على أموال الخلافة وممثليها إلى سلب أموال الناس العاديين الذين اضطروا للهرب من مكة، وأياً كانت مبالغات المصادر في تصور أعمال السلب والنهب في تلك المبالغات لا تنفي الوقائع مع ذلك.

والسؤال المطروح هنا هو هل شارك محمد بن جعفر شخصياً في أعمال السلب والنهب أو ناله من غنائمها نصيب؟

ونشير في البدء إلى أن المصادر التي تتحدث عن إكراه محمد بن

---

(١) الطبري: تاريخ ٨/٥٥١.

(٢) عبد المولى محمد أحمد: العيارون والشطار في التاريخ العباسي، ص: ١٦٦، الإسكندرية - مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.

جعفر على البيعة تظهره ورعاً زاهداً وأن لا صلة له بأعمال السلب والنهب، لكن رواية عند الخطيب البغدادي تقلب هذه الصورة فتظهر ابن جعفر مشاركاً في أخذ الأموال، وإن كانت الرواية مرتبطة بأموال أحد ولاة بني العباس وليس سائر الناس. ويسند الخطيب البغدادي إلى حفيد لإسحاق بن موسى الوالي العباسي في اليمن والذي خرج منه بعد ظهور العلوي إبراهيم بن موسى هناك، ومر بنا في الحديث عن وقائع الحركة ومواجهته العسكرية مع ابن جعفر، يذكر الخطيب البغدادي نقلاً عن حفيد إسحاق أن جده خلف عياله وثقله في مكة حين ولاه المأمون على اليمن وأن محمد بن جعفر قد أخذ كل ذلك[١]. كما ينفرد الخطيب البغدادي يذكر أن قسماً من ديباج الكعبة الذي نزعه ابن الأفطس قد وصل إلى محمد بن جعفر وما يشير إلى عظم هذا القسم أن صاحب الرواية عند الخطيب البغدادي يذكر أنه ذهب لمبايعة محمد بن جعفر بالخلافة فأمر له «بشقة ديباج.. وطرح من تلك الكسوة على الدواب دوابه ودواب أصحابه»[٢]. وهذا يعني أن محمد بن جعفر كان شريكاً لولده وابن الأفطس فيما أخذوه من أموال بني العباس وأموال الكعبة، وإلّا فمن أين لهم تلك الأموال التي ذكر أنهم جندوا بها الأعراب وفرضوا لهم وحفروا بها خندقاً حول الكعبة، وأداروا جولتين حربيتين كبيرتين على الأقل[٣]. وهناك قصة ظريفة تصور محمد بن جعفر لا علاقة له بابن الأفطس وابنه وبما نهباه، وأنه استلف من حجبة الكعبة ٥٠٠٠ دينار ليستعين بها على أمره[٤]. ولسنا نعلم كيف سلمت هذه الأموال من

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ ٢/ ١١٤.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ ٢/ ١١٤.

(٣) الطبري: تاريخ ٨/٥٣٨-٥٣٩.

(٤) عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٢٦٧.

السلب، وقد تجاوز السلب والنهب أموال بني العباس وخزائن الكعبة إلى أموال الناس العاديين واضطروهم للهرب من مكة، وأظنها قصة موضوعة لتدعم زهد محمد بن جعفر في الدنيا وفي الخلافة، خاصة وقد دبجت القصة بأن حجبة الكعبة قد أخذوا عليه سنداً بذلك وأشهدوا عليه الشهود، وأن المأمون قضاها عنه بعد أن فشلت حركته وطولب بها، ومما يدل على ضعف هذه الرواية هي أن أجواء مكة في هذه الفترة عند نهاية القرن الثاني الهجري لم تكن تسمح بجريان الأمور على النحو الذي تصوره الرواية، وما دام ابن جعفر قد بويع خليفة وله الأمر والنهي، تبقى قصة الاستلاف وتشديد الحجبة بضرورة كتابة سنة بذلك وإشهاد الشهود ثم قضاء الدين من قبل المأمون ضمن الروايات التي أرادت تصوير ورع ابن جعفر وتبرئته من الأعمال الشائنة للأسباب التي ذكرناها في مناقشاتنا حول أمر البيعة، زد على ذلك أن رواية الاستلاف هذه لا ترد إلّا عند مصدر واحد متأخر وهو إتحاف الورى بأخبار أم القرى لعمر بن فهد المتوفى ٨٨٥ للهجرة.

أما الروايات المتعلقة باغتصاب المرأة والغلام الأمرد. فلا بد من التنبيه على أن ابن خياط واليعقوبي لا يذكران هاتين الواقعتين ولا الوقائع الأخرى ذات الصلة في العراق، وليس هذا بالضرورة دليلاً على عدم حدوثها، بل له علاقة بمنهج الكتابة المقتصر على خيط الأحداث الرئيسي عند اليعقوبي وابن خياط، أم باقي المصادر كالطبري وابن الأثير وصاحب العيون والحدائق وابن الجوزي وابن خلدون فيوردون خبراً واحداً عن الخطف لكل من المرأة والغلام، لكنه يختلف في التفاصيل قليلاً في هذا المصدر أو ذاك. يذكر الطبري «فوثب حسين بن حسن (الأفطس) على امرأة من قريش من بني فهر - وزوجها رجل من بني مخزوم، وكان لها جمال بارع - فأرسل إليها لتأتيه فامتنعت عليه، فأخاف زوجها وأمر بطلبها فتوارت منه، فأرسل ليلاً جماعة من أصحابه فكسروا

باب الدار، واغتصبوها نفسها، وذهبوا بها إلى حسين فلبثت عنده إلى قرب خروجه من مكة فهربت منه، ورجعت إلى أهلها وهم يقاتلون بمكة، ووثب علي بن محمد بن جعفر على غلام من قريش، ابن قاض بمكة يقال له إسحاق بن محمد، وكان جميلاً بارعاً في الجمال - فاقتحم عليه بنفسه نهاراً جهاراً في داره.. حتى حمله على فرسه في السراج»[١].

وهذه الرواية تكرر بعدئذ في المصادر المتأخرة عن الطبري، والتي لا نرى ضرورة للإشارة إليها باستثناء ما كتبه صاحب العيون والحدائق وابن خلدون، اللذين جعلا هاتين الحادثتين الفرديتين حالة عامة، فكتب صاحب العيون والحدائق «حتى صار أصحابه (ابن الأفطس) إلى أخذ الحرم وأخذ أبناء الناس وتهتك في أولادهم»[٢]، وكتب ابن خلدون «وأفحشوا في الزنا واللواط واغتصاب النساء والصبيان»[٣].

والظاهر أن صاحب العيون والحدائق وابن خلدون قد اتخذا من تلك الحادثة المروية دليلاً على شيوع فعل جماعي، وفي هذا كما نرى مبالغة وسوء تصوير غير مسنود من الواقع ولا من الروايات الأخر، واعتقد أننا فقط أمام رواية لحالتي اختطاف واغتصاب لامرأة وغلام. فهل هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته كما يذكر صاحب تاريخ أمراء مكة أم أننا فعلاً أمام وقائع حدثت مخلة بالشرف ومحرمة شرعاً وهي مما يأباه الذوق العربي المؤسس على معاني الحلال والحرام وعلى النخوة العربية المعلية لشأن العرض وكرامة النساء. يبدو أننا في هذه الفترة التاريخية الحرجة فترة خلو الخلافة الإسلامية من سلطة فاعلة في

---

(١) الطبري: تاريخ ٨/ ٥٣٧-٥٣٨.

(٢) مجهول: العيون والحدائق، ص: ٣٤٨.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٥٢٠

العراق والجزيرة، وسيادة روح التغلب بالقوة، وخلو الحركات من شعارات سياسية، مضطرون للاعتراف بفساد الأخلاق الذي ساد وانتشر في جهات كثيرة من العراق[١] وبلاد الحجاز. ومن السهل قطعاً أن نقول إن هذه روايات موضوعة للتشهير، لكنا مع ذلك نحتاج إلى حجج لدعم القول بالتشهير، وأخرى لنفي قرائن قد تدعم تأكيد الخبر، ومنها أنه ما دمنا لا نستطيع إنكار الاعتداء عل أموال الناس بل وعلى أموال الكعبة المشرفة، فإن هذا الأمر يقنع بأن الذي لا يستحي من الله جل وعلا ويسقط هيبة الكعبة وقدسيتها علناً، لا يستحي من الناس وبإمكانه ارتكاب أية فاحشة أو منكر معتداً بقوته، وما دام ابن الأفطس سيد الموقف فله أن يفعل ما يشاء. ومما يرشح الفعل للتصديق هو تحديد هوية المرأة وزوجها، لكن الذي يضعف هذه الرواية القول بأن الجماعة التي أرسلت لإحضارها قد قامت باغتصابها أولاً ثم حملتها لابن الأفطس، وهو تصوير غير معقول ولا متصور من أتباع ينفذون رغبة سيدهم في أكثر الأمور مساساً بالكرامة، حتى وهم يعتدون على كرامة غيرهم بحكم التغلب الحاصل. وقبل أن نقرر شيئاً نهائياً بشأن هذه الرواية نلتفت إلى رواية الغلام المخطوف وهو جرم لا يقل فحشاً عن الأول، والغريب أن يروى أن أهل مكة قد ثاروا وتجمهروا أمام دار الإمارة حيث الخليفة المبايع محمد بن جعفر، وتصور الرواية أن الحشد كان كبيراً والهياج حاداً والتهديد بالخلع أو بالقتل عالياً لدرجة أن أمير المؤمنين المبايع يطلب الأمان كي يخرج لابنه وينتزع منه الغلام، وقد منحوه أماناً كي

(١) انظر مثلاً ما كتبه الطبري ٨/٥٥١، حول فساق الحربية والشطار ببغداد والكرخ، وكيف أنهم أخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرقات، وأنهم تمكنوا من فعل ذلك لأنه لا سلطان يمنعهم من ذلك «لأن السلطان كان يعتز بهم».

يذهب إلى ولده لانتزاع الغلام منه بعد أن رفض ابن الأفطس التدخل في الأمر مشيراً إلى عجزه عن ذلك وخوفه من حرب بينه وبين علي بن محمد ابن جعفر[١]، وهي مناسبة هنا لنؤكد على حالة الفوضى في مكة وأن كل واحد من المتنفذين كان يعمل باستقلالية عن الآخر على الأقل في أمور النهب والمنكرات المذكورة. وقد تمكن محمد بن جعفر، كما تفيد الرواية من الذهاب إلى ولده وانتزاع الغلام منه وتهدئة خواطر الناس. ورغم أن الغلام ابن لقاضي مكة، إلّا أن موقفاً للقاضي بهذا الصدد لتخليص ابنه لم يرو، ولعله لم يدرك ذلك لوقوع الخطف والتحرير في نفس اليوم، كما أن علاقة محمد بن جعفر بهذا القاضي لم تتأثر كما يبدو إذا رأينا أن محمد بن جعفر يرسل إلى جماعة من أهل مكة فيهم القاضي كي يتدخل لدى إسحاق بن موسى للحصول على أمان كي يخرج من مكة بعد هزيمته في الجولة الأولى من الحرب[٢]، والغريب في الأمر أن المرأة وهي الأكثر تمثيلاً للعرض والشرف والنخوة والتي اختطفت من بيت زوجها وأكرهت على معاشرة رجل بالحرام، كما تذكر الرواية لم تثر غيرة الناس كما حدث مع الغلام، هل لأن خطف الغلام وقع جهاراً نهاراً، فيما خطفت المرأة فجراً وكان زوجها قد هرب من مكة كما تصور الرواية؟ أم لخوفهم من سطوة ابن الأفطس ورجاله كما قد عرفوه حتى الآن؟ أم أن الحادثة لم تقع أصلاً وأن الأمر كله تعريض وتشهير بخصوم بني العباس في هذه الفترة؟ ومع ذلك فإن هذا السؤال الأخير تقل دلالته عندما نعلم أن موضوع النساء كان حاضراً في المواجهات سواء أكان للدعاية السياسية أم للفعل الدال على قوة المنتصر. يورد

(١) الذهب: حوادث، ١٩١-٢٠٠، ٧٤.
(٢) الطبري: تاريخ ٨/ ٥٣٩.

الأصفهاني على لسان الجيش العباسي المهاجم لأبي السرايا في الكوفة «وأقبل أهل بغداد يصيحون يا أهل الكوفة: زينوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلن بهم كذا وكذا»[١].

وهذا القول وإن قيل أنه داخل في الإرجاف العلوي ضد العباسيين، كما هو الحال في قصة المرأة والغلام وأنها يمكن أن تكون إرجافاً ضد العلويين إلّا أن وجود هذه الأخبار يعد رغم ذلك دليلاً على حصول هتك للأعراض هنا أو هناك. ومما يقوي الاعتقاد بحصول تلك المنكرات في مكة إقرار الأصفهاني بسوء سيرة ابن الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر، ليس صراحة بالاسم، ولكن ضمن معايير الاختيار التي اعتمدها لكتابه «مقاتل الطالبيين» كما أشار إلى ذلك في المقدمة حيث يقول «ومقتصرون في ذكر أخبارهم (الطالبيين) على من كان محمود الطريقة، سديد المذهب، لا من كان بخلاف ذلك، أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عيث أو فساد»[٢].

ولذلك حُرم ابن الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر من سيرة ذاتية مستقلة في كتاب الأصفهاني بين ذلك الحشد الهائل من الأسماء.

ومع ذلك فإن أقصى ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذا الاستعراض بشأن المرأة والغلام، وأخذاً بعين الاعتبار سيادة روح التغلب وانتشار الفوضى، وتراجع القيم عند نهاية القرن الثاني الهجري، أنها أمور غير مستبعدة.

ويبدو أن عودة العلويين للثورة في عهد المأمون ترجع إلى الخلاف الذي وقع بينه وبين أخيه الأمين على الخلافة، فظن العلويون أن الفرصة

---

(١) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص: ٥٢٦.

(٢) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص: ٥.

سانحة للانقضاض على العباسيين لكن المأمون تصدى لهم وقضى على حركاتهم، ومع ذلك فقد كانت سياستهم معهم تنطوي على التسامح والود، ولم ينس ذلك حتى وفاته فأوصى أخاه المعتصم بهم قائلاً له: «هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي - صلوات الله عليه - فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم ولا تغفل عن صلاتهم في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى»[١].

ويتضح مما سبق أن العلويين بالحجاز لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم العباسيين، فكانوا يثورون في وجه الدولة الحاكمة كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأسباب، وظل ذلك حالهم طوال العصر العباسي الأول.

ولم يهدأ العلويون في العصر العباسي الثاني، بل واصلوا نضالهم ضد العباسيين وانتهزوا فرصة ضعفهم واضطراب الأمر في بلادهم من جراء استئثار الأتراك بالسلطان والنفوذ، فقام أحد العلويين ويدعى إسماعيل بن يوسف[٢] بالهجوم على مكة في سنة ٢٥٠هـ-٨٦٤م فهرب منها عامل المستعين جعفر بن الفضل المعروف بشاشات[٣] فتمكن إسماعيل من دخول مكة وهزيمة الجند العباسي بها، وقتل الكثير منهم[٤]، وسلب دار الوالي العباسي، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٨.

(٢) هو إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، العصامي المكي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٩٠، عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٢٩.

(٣) هو جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس (العصامي: سمط النجوم ٤/ ١٩٠).

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩/ ٣٤٦.

كسوتها وما وجد في خزانتها من الأموال[١]، ونهب مكة وأخذ من أهلها نحو مائتي ألف دينار بعد أن قتل كثيراً منهم[٢]، وبعد أن استقر بمكة مدة خمسين يوماً غادرها إلى المدينة المنورة[٣]، فهرب منه عاملها العباسي ودخل إسماعيل المدينة فظلم أهلها وخرب دورهم[٤].

ولعل إسماعيل علم بخروج أهل مكة عليه نظراً لسوء معاملته لهم فعاد إليها وحاصرها واشتد على أهلها فكادوا يموتون جوعاً وعطشاً، ولقي أهل مكة منذ ذلك كل شدة وبلاء، ثم تركها بعد سبعة وخمسين يوماً[٥]، وسار إلى جدة فنهبها وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب[٦] ثم اتجه إلى عرفة حيث تقابل مع جند العباسيين الذين أرسلهم الخليفة بقيادة عيسى ابن محمد المخزومي فانتصر عليهم إسماعيل وقتل عدداً كبيراً منهم، ومن الحجاج حوالي ألف ومائة نفس[٧]، مما اضطر الحجاج إلى الهرب من عرفة ولم يقف بها أحد ليلاً ولا نهاراً سوى إسماعيل وجنده[٨]، الذين عادوا بعد ذلك إلى جدة فعاثوا فيها فساداً بالقتل والنهب[٩].

وقد غضب أهل الحجاز من إسماعيل بن يوسف العلوي لما قام به

(١) ابن الأثير: الكامل ٦/ ١٨١.

(٢) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٦-١٢٧.

(٣) تقي الدين الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٣١٢.

(٤) عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢/ ٣٢٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٦/ ١٨١.

(٦) عبد العزيز بن فهد: غاية المرام ١/ ٤٣٥.

(٧) عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٣٠.

(٨) الطبري: تاريخ ٩/ ٣٤٧.

(٩) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٧.

من قتل الأبرياء ونهب الأموال وانتهاك حرمة الشهر الحرام، فلم ينضم إليه أحد منهم سوى أعراب الحجاز من أهل البادية القاسية قلوبهم، وقد أطلق عليه لقب «السفاك» لكثرة ما أراق من الدماء[١].

وتوفي إسماعيل بن يوسف العلوي مريضاً بالجدري في سنة ٢٥٢هـ-٨٦٦م[٢]، وخلفه أخوه محمد بن يوسف[٣]، بيد أنه لم يجد مناصرة من أهل الحجاز فتركها ورحل وعادت مكة والمدينة إلى النفوذ العباسي من جديد[٤]، إلى أن تولى الخلافة المقتدر العباسي[٥]، وساءت الأحوال في عهده بسبب إسرافه وعزله الوزراء والقبض عليهم وتدخل النساء في أمور الدولة وانصرافه إلى اللهو[٦]. مما أدى إلى ضعف الدولة وانتشار الفتن بها، واستغل ذلك أحد العلويين الطامحين إلى النفوذ والسلطان ويدعى محمد بن سليمان[٧]، وكان يلقب بالزيدي[٨]،

(١) المصدر السابق.

(٢) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٣/ ٣١٣.

(٣) عبد العزيز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ١/ ٤٣٦.

(٤) العصامي المكي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٩١.

(٥) هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بويع له بالخلافة في سنة ٢٩٥هـ-٩٠٧م وعمره ثلاثة عشرة سنة، وقد قتل المقتدر سنة ٣٢٠هـ-٩٣٢م، ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٢٢٨، ٢٣٣.

(٦) يروي ابن الطقطقي: «أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاته، فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت الأموال واختلفت الكلمة»، انظر: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٢٣٠.

(٧) هو محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الفاسي: العقد الثمين ٢/ ٢٤.

(٨) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٨، العصامي المكي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٩٢.

لاعتناقه مذهب الزيدية[(١)] فبادر في سنة ٣٠١هـ-٩١٣م بالهجوم على مكة والتغلب عليها مستغلاً فرصة انشغال الدولة العباسية بإخماد الفتن والثورات وضعف الوالي العباسي، وخلع طاعة العباسيين وعمل على الاستقلال بإمارة مكة، وقال في خطبة له بموسم الحج: «الحمدلله الذي أعاد الحق إلى نظامه وأبرز زهر الإسلام من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا بني أعمامه (ﷺ) آله الطاهرين، وكف عنهم ببركته - أيدي المعتدين، وجعلها كلمة باقية في عقبة إلى يوم الدين»[(٢)]، وقد حاول أن يبين في هذه الخطبة أحقية العلويين بالحكم من العباسيين.

ومما لا شك فيه أن محمد بن سليمان قد قوى نفوذه في مكة مما جعل العباسيين يتقربون إليه بالأموال فيروي ابن فهد: أن علي بن موسى ابن الجراح وزير المقتدر العباسي كان يرسل إلى الحجاز كل عام ثلاثمائة ألف دينار توزع على مجاورين الحرمين وعلى أرباب الوظائف بمكة والمدينة[(٣)]، ويذكر ابن الطقطقي: أن العباسيين أنشأوا ديواناً سمي «ديوان البر» جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين[(٤)].

---

(١) الفرقة الزيدية: هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) وقد ساق أصحاب هذا المذهب الإمامة في أولاد فاطمة (رضي الله عنها) ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم: إلّا أنهم أجازوا الإمامة ووجوب الطاعة لكل فاطمي عالم شجاع خرج يطلبها سواء من أولاد الحسين أو من أولاد الحسن (رضي الله عنهما) وقد مالت الزيدية إلى الاعتدال حتى صار أتباعها أقرب إلى أهل السنة (الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥٤-١٥٥، عبد القاهر: الفرق بين الفرق، ص: ١٨-١٩.

(٢) عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٦٢، ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٨، القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة ١/ ٢٨٠، محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ٢/ ٤٦٢.

(٣) عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢/ ٣٦٥.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٢٣٦.

إلّا أن هذه الدولة الناشئة التي أقامها محمد بن سليمان بمكة لم تكن من القوى بحيث تستطيع فرض حمايتها على الحجاج أو الدفاع عن نفسها ضد المغيرين والمتسلطين، فقد هددها القرامطة من بلاد البحرين، وسرعان ما سقطت سنة ٣١٧هـ-٩٢٩م بعد استيلائهم على مكة بقيادة أبي طاهر القرمطي[١].

وجدير بالذكر أننا لم نجد في المصادر والمراجع الكثيرة[٢] التي تحدثت عن استقلال محمد بن سليمان أية إشارة إلى خطوات تنظيم الدولة في عهده، وكيف استقر حكمه في مكة؟ وما الإصلاحات أو الأعمال التي قام بها في الحجاز بعد استقلاله عن الخلافة العباسية؟ سوى قيام الدولة وسقوطها على يد القرامطة...

■ رابعاً: غزو القرامطة للحجاز:

استغل القرامطة[٣] ضعف العباسيين في العصر العباسي الثاني،

---

(١) جمال سرور: سياسية الفاطميين، ص: ٢٠.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٢/ ٢٤، عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٦٢، ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٨، القلقشندي: مآثر الإنافة ١/ ٢٨٠، محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ٢/ ٤٦٢، جمال سرور: سياسية الفاطميين، ص: ٢٠.

(٣) القرامطة: فرقة من فرق الإسماعيلية تنسب إلى أول دعاتها حمدان بن قرمط، وكان هذا الرجل أكاراً بسيطاً بعثه أحد كبار الدعوة الإسماعيلية ليدعو نيابة عنه في بلده فبنى مركزاً لدعوته قرب الكوفة سماه «دار الهجرة»، واتخذه مكاناً للدعوة حيث دخل كثير من الناس في دعوته وبعد وفاته ذهب جماعة من أصحابه إلى البحرين على الساحل الشرقي لبلاد العرب فاستطاعوا نشر دعوتهم هناك، وتمكن زعيمهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي من إقامة دولة للقرامطة جعل عاصمتها مدينة الإحساء، وشملت هجر والإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين، وفي عهد ابنه أبي طاهر سليمان الذي تولى زعامة القرامطة سنة ٣٠٥هـ-٩١٧م ألقى القرامطة الرعب في =

ووجهوا نشاطهم الهدام إلى مهاجمة قوافل الحجاج الذاهبة إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وأنزلوا بالحجاج الآمنين شتى ألوان القتل والنهب والسلب المخيف، فقد ذكر المؤرخ المكي ابن فهد: أن أبا طاهر القرمطي اعترض ركب الحاج العراقي عند عودته من مكة سنة ٣١٢هـ-٩٢٤م فأوقع بهم وقتل منهم ألفي رجل، ونهب القافلة وأخذ إبل الحاج جميعها ومن الأمتعة والأموال والنساء والصبيان، وعاد إلى بلاده وترك من سلم من الحجاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً[١]، ولم يكتف بذلك بل كرر هذا العمل في العام التالي واعترض ركب الحاج العراقي، وكان في حراستهم ألف فارس أرسلهم الخليفة العباسي، وقاتلهم القرامطة فانهزم الجند العراقي، ولم يترك القرامطة الحاج إلّا بعد دفع إتاوة فرضت عليهم لدخول مكة[٢].

ويبدو أن تكرار الهجوم القرمطي على الحاج العراقي خاصة كان المقصود به إظهار ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن حماية أرواح رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم إلى الحجاز.

وكان استيلاء أبي طاهر القرمطي على مكة سنة ٣١٧هـ-٩٢٩م أخطر نشاط للقرامطة حيث قتلوا الحجاج يوم التروية[٣]، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة الذي يستعد فيه الحجاج للخروج في اليوم التالي لوقفة

= جزيرة العرب كلها، انظر عبد القاهر: الفرق بين الفرق، ص: ١٦٩، ١٧٤، ابن الجوزي: القرامطة، ص: ٤٤، ابن الأثير: الكامل ٦/ ٣٦٣-٣٦٦، المقريزي: المقفى الكبير، ص: ٢٥٥-٢٦٥، اتعاظ الحنفا ١/ ١٦٠، ابن خلدون: العبر ٣/ ٤٣٧.

(١) عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٢٥.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص: ٣٣٤.

عرفات، لذا لم يكن أحد من الحجاج يتوقع غير الهدوء والسكينة في هذا اليوم الجليل، لكن عصابات القرامطة لم ترع حرمة هذا اليوم وقتلوا في المسجد الحرام نحو ألف وسبعمائة، وقيل ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم متعلقون بأستار الكعبة ثم خلعوا باب الكعبة والحجر الأسود، وذهبوا بهما إلى الأحساء[١]، وتبعهم أمير مكة من بني سليمان وتشفع إليهم أن يردوا الحجر السود ليوضع في مكانه فرفضوا فقاتلهم حتى قتل ومعه الكثير من جنده[٢].

ويكون هذا الاعتداء منتهى ما وصل إليه أبو طاهر من ظلم وجبروت.

ولقد أراد أبو طاهر القرمطي أن يضفي على نفسه وعلى أعماله صفة شرعية بالخطبة للخليفة الفاطمي ببلاد المغرب عبيدالله المهدي، لكنه رفض منه ذلك وأنكر عليه عمله وكتب إليه يقول: «إن أعجب العجب إرسالك بكتبك إلينا ها هنا بما ارتكبت في بلد الله الأمين من انتهاك حرمة بيت الله الحرام الذي لم يزل محترماً في الجاهلية والإسلام، وسفكت فيه دماء المسلمين وفتكت بالحجاج والمعتمرين وتعديت وتجرأت على بيت الله تعالى وقلعت الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض يصافح به عباده، وحملته إلى منزلك، ورجوت أن أشكرك

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار الشرج ١/ ٧٤.

(٢) محمد بن مالك: كتاب كشف أسرار الباطنية، ص: ٣٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٦١، ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٨، عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٧٥، دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، ص: ١٤، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٤٦-٤٧.

Gerald de Gaury: Rulers of Mecca; p. 58.

على ذلك، فلعنك الله ثم لعنك الله، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وقدم في يومه ما ينجو به في غده»[١].

والحقيقة أن هجوم القرامطة الوحشي على بيت الله الحرام، وقتلهم الحجاج من الرجال والنساء جعل الفاطميين يرفضون دعوتهم وينكرون عليهم ما قاموا به من سفك الدماء وخلع الحجر الأسود ونهب الكعبة والحجاج، وذلك حرصاً على إرضاء الشعور الإسلامي الذي يرفض وينكر أي إساءة تنزل بالحرمين الشريفين، ويثور على أي تجرؤ عليهما، ولذا فقد سارعوا بإرسال الرسائل للقرامطة لإعادة الحجر الأسود إلى مكانه، فكتب عبيدالله المهدي إلى زعيم القرامطة يقول: «قد حققت على شيعتها ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة والحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة[٢]، وقد ساعد ذلك الموقف المتشدد للفاطميين على عودة الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ-٩٥٠م»[٣].

وعلى الرغم من ذلك فقد عاد نفوذ العباسيين تدريجياً إلى مكة إثر

---

(١) ابن عبد القادر الطبري: الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة رقم ٤٥، ابن خلدون: العبر ٤/١٢٨-١٢٩، عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/٣٧٤-٣٨٠، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨٣-٣٨٤، الجزيري: درر الفرائد ١/٥٠٨-٥١٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٦٠-١٦١، عبد الكريم القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ص: ٨٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٤.

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ١/٩٨، اليافعي: مرآة الجنان ٢/٢٧١، المسعودي: التنبيه والأشراف، ص: ٣٤٦.

الاتفاق الذي تم بين أبي علي عمر بن يحيى العلوي[١] من العراق وبين أبي طاهر زعيم القرامطة وكان الاتفاق أن يخلي سبيل الحجاج على مكس[٢] يأخذه ويعطيه على كل جمل خمسة دنانير وعن المحمل سبعة دنانير فأجابه إلى ذلك[٣]، وخرج من العراق سنة ٣٢٧هـ-٩٣٨م فرقتان إحداهما عن طريق الكوفة والأخرى عن طريق البصرة لتأدية الفريضة، وهي أول سنة يأخذ فيها القرامطة المكس من الحجاج ولم يعهد ذلك من قبل في الإسلام[٤]، وإن كان هذا الأمر يبين مدى ضعف الخلافة العباسية التي رضيت دفع الإتاوة للقرامطة مقابل حماية أرواح رعاياها ومع ذلك فقد خطب للخليفة العباسي الراضي بن المقتدر في هذا العام[٥].

ومنذ دخل القرامطة مكة فإنهم لم يقوموا بتولية وال من قبلهم لها[٦]، إذ لم تذكر المصادر التي تعرضت لهذه الفترة أي شيء عن ذلك، ولعل السبب في هذا أنهم لم يكونوا ليستطيعوا نشر دعوتهم الهدامة في بلاد الحجاز مهد الإسلام وموطن الرسالة، فاكتفوا ببسط نفوذهم على الحجاج وأخذ الاتاوات منهم، وبالتالي لم يكن ليهمهم إقامة نظام حكومي متكامل أو تنصيب الولاة على الحجاز بقدر

---

(١) هو أبو علي عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان مقيماً بالعراق، ويتولى إمارة الحج العراقي من قبل الخليفة العباسي (عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار، المقريزي: الخطط ١/ ١٠٤، المعجم الوسيط ٢/ ٨٨١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٩.

(٤) عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٨٧-٣٨٨، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٣٩٢.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٩.

(٦) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص: ٣٠.

اهتمامهم بالإغارة على الحجاج كقطاع الطرق، وقد ثبت أنهم لم يكونوا يقيمون في مكة بصفة دائمة[١]، وإنما كانوا يأتون إليها في مواسم الحج للسلب والنهب والدعوة لأنفسهم على منابر الحرمين[٢]، وربما شجع هذا على عودة النفوذ العباسي كاملاً إلى مكة وخاصة بعد أن عقد العباسيون اتفاقاً معهم يدفعون بموجبه إتاوة لهم حماية لحجاجهم.

وبعد أن انشغل القرامطة عن مكة بالعمل على تحقيق أطماعهم في بلاد المشرق[٣]، أسند العباسيون سنة ٣٣١هـ-٩٤٣م ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الإخشيد[٤] الرجل القوي الذي استطاع أن يكون دولة فتية في مصر وأن يصد الفاطميين عنها ويضم الشام إليه[٥]، وصار يدعى له على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي[٦]، فلما تولى البويهيون[٧] الأمر في بغداد سنة ٣٣٤هـ-٩٤٥م وصاروا

---

(١) عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٨٣، ٣٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٩٠.

(٣) جمال سرور: سياسية الفاطميين، ص: ٢٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المقريزي: المقفى الكبير، ص: ١٣٤.

(٦) تقي الدين الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٢/ ٣٠-٣١، شفاء الغرام ٢/ ١٩٢، عبد العزيز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ١/ ٤٧٧.

(٧) البويهيون: أسرة نشأت في بلد الديلم وقد استطاعوا الوصول إلى أعلى المراتب في بغداد حين تقدم أحمد بن بويه إلى بغداد، فخرج الأتراك عنها: واستقبله الخليفة العباسي المستكفي واحتفى به وخلع عليه ولقبه «معز الدولة» ولقب أخاه علياً «عماد الدولة» وأخاه الحسن «ركن الدولة» وأمر بضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير وبدخول أحمد بن بويه وتوليته إمرة الأمراء في بغداد سنة ٣٣٤هـ-٩٤٥م، ابتدأ العصر البويهي الذي استمر حتى سنة ٤٤٧هـ-١٠٤٥م (انظر: ابن الأثير: الكامل ٧/ ٨٧، ابن خلدون: العبر ٤/ ٥٦٣، ٦٠٠).

أصحاب النفوذ الفعلي في العراق أصبح اسم معز الدولة البويهي يذكر في الخطبة بعد الخليفة العباسي[١].

وحاول البويهيون القضاء على نفوذ الإخشيديين في بلاد الحجاز مما أدى إلى تسرب كثير من الخلافات بين أنصار الفريقين العراقي والمصري[٢].

وهكذا تضاءل شأن الحجاز فلم تعد له القدرة على الدفاع عن نفسه ضد المغيرين وخاصة بعد ضعف الدولة العباسية التي لم تتمكن من فرض حمايته عليه آنذاك، فصار مطمعاً لكل صاحب نفوذ حيث إن امتلاكه يعطي لصاحبه قوة أدبيه باعتباره صاحب الحرمين الشريفين فانتشرت فيه الفتن والصراعات ومع ذلك لم تحرك الدولة العباسية ساكناً مما أدى إلى قيام العلويين بالاستقلال به عن العباسيين والدعوة لأنفسهم.

■ خامساً: استقلال الأشراف[٣] العلويين بمكة والمدينة:

قام العلويون في الحجاز بعدة ثوارت ضد الخلافة العباسية منذ قيامها، غير أن تلك الثورات كانت تفشل ويقضى على أصحابها،

---

(١) محمد الخضري: تاريخ الدولة العباسية، ص: ٣٨٠.

(٢) تقي الدين الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٢.

(٣) يطلق الشريف في اللغة على الرجل الماجد الكريم أو من كان كريم الآباء، ثم أطلق لقب الشريف من كان من آل بيت رسول الله (ﷺ) ومن الناس من قصره على ذرية الحسين والحسين (رضي الله عنهما) ولعل الضعف الشديد الذي انتاب الدولة العباسية وظهور الدولة الفاطمية وقوتها هو الذي جرأ على إطلاق لقب الشريف على من كانوا ينتمون إلى نسل علي من السيدة فاطمة بنت رسول الله (ﷺ)، وحين قامت دولة الأشراف بالحجاز أصبح يطلق على الأسرة الحاكمة لقب: «الأشراف» أما غيرهم من العلويين فكانوا يطلقون عليهم لقب «السادة» انظر البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ٢٠، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٢١١، البرادعي: الدرة السنية في أنساب الحسنية والحسينية، ص: ٤.

فاستكان العلويون، وظلوا مجرد رعايا يعيشون في كنف الدولة بالحجاز، فلما انشغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التي أثارها الأتراك ضدهم، وأهملوا شئون الولايات الإسلامية التي تتبعهم استقلت بعض هذه الولايات عن الخلافة فظهر الصفاريون بسجستان، والسامانيون في بلاد ما وراء النهر والغزنويون في بلاد الهند، والطولونيون والإخشيديون في مصر والشام[(١)]، وهاجم القرامطة الحجاز، ولم تستطع الخلافة لهم دفعاً وانتشرت الفتن ولم يعد الحجاج يأمنون على أنفسهم.

أدرك الأشراف العلويون بالحجاز أن الوقت مناسب للخروج عن طاعة العباسيين والاستقلال عنهم، ففي منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خرج أحد كبار الأشراف العلويين ويدعى جعفر بن محمد الحسني[(٢)] من المدينة - وكانت ملجأ للمضطهدين من العلويين في العصر العباسي - فاتجه إلى مكة وملكها وخلع طاعة الخليفة العباسي ودعا لنفسه، وأقام إمارة مستقلة عن العباسيين[(٣)].

---

(١) ابن خلدون: العبر ٣/ ٣٦٧، ٣٨٩، ٤/ ٣٨٠، ٤٠٦، ٤٧٣.

(٢) هو جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد أورد هذا النسب كل من ابن حزم والفاسي وابن فهد لكن ابن خلدون يخالفهم، فيذكر: أن جد جعفر هو محمد بن سليمان الذي دعا لنفسه بمكة سنة ٣٠١هـ-٩١٣م ويرى أن محمد بن سليمان هذا من ولد الناهض بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وبناء على هذا النسب سمى ابن خلدون جعفر بن محمد وخلفائه بالسليمانيين وتابعه في ذلك القلقشندي وبالتالي فإن رأي ابن خلدون في نسب جعفر يخالف ما ذكره ابن حزم وهو أقدم من تعرض لهذا الموضوع لذلك نرجح رأي ابن حزم (ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص: ٤٧، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٣، العقد الثمين ٣/ ٤٢٩، عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤٢١، عبد العزيز بن فهد: غاية المرام ١/ ٤٨٠، ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٨، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٦٩).

(٣) عبد العزيز بن فهد: غاية المرام ١/ ٤٨١.

ولقد تضاربت الأقوال المختلفة للمؤرخين في تحديد تاريخ استقلال جعفر بن محمد الحسني بمكة، فابن حزم (ت٤٥٦هـ-١٠٦٤م) يرى أنه استولى على مكة أيام الإخشيديين[١] ولم يحدد الفترة الزمنية التي استولى فيها على الحكم.

بينما يرى القلقشندي (ت٨٢١هـ-١٤١٨م) أن جعفراً ملك مكة سنة ٣٦٠هـ-٩٧١م وخطب للمعز لدين الله الفاطمي على منابرها[٢]، إلّا أن تقي الدين الفاسي المؤرخ المكي (ت٨٣٢هـ-١٤٢٨م) يرى أن ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة كانت في زمن الإخشيديين بعد موت كافور الإخشيدي وبخاصة أنه كان يدعى على منابر الحرمين الشريفين لكافور ويستبعد أن يلي جعفر مكة في عهد كافور، ويرجع الفاسي أن تكون ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة سنة ٣٥٨هـ-٩٦٩م حين قام الفاطميون بفتح مصر[٣].

ويرى آخرون أن جعفراً استقل بمكة في عهد الفاطميين الذين باركوا دعوته[٤] ونستنتج مما سبق أن ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة كانت سنة ٣٥٨هـ-٩٦٩م في أواخر العهد الإخشيدي عقب وفاة كافور واضطراب الأحوال في مصر بعد وفاته، وضعف هيبة الدولة واستعداد الفاطميين للهجوم على مصر مما جعله يفكر في الاستقلال بمكة والدعوة لنفسه.

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص: ٤٧.

(٢) القلقشندي: مآثر الإنافة ١/ ٣٠٩.

(٣) تقي الدين الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٣.

(٤) العصامي المكي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٩٥، أيوب صبري: مرآة جزيرة العرب ١/ ٨٧، المتانوني الرحلة الحجازية، ص: ٧٣، أحمد السباعي: تاريخ مكة ١/ ١٩١.

وقد نقل بعض الباحثين عن المقريزي أنه: «لما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨هـ/ بادر الحسن بن جعفر فاستولى على مكة ودعا للمعز»(١).

والحقيقة أن الحسن هو الأمير الثالث الذي تولى الحكم من أسرة بني جعفر الحسنيين وكان يلقب بأبي الفتوح، أما أول من قام بالحكم في مكة فهو جعفر بن محمد الحسني(٢) كما أوضحنا من قبل، وقد صوب المقريزي كلامه في كتاب «المقفى الكبير» حين ترجم للحسن بن جعفر فقال: «غلب أبوه جعفر بن محمد على مكة بالقوة في أيام الإخشيدية، وقام من بعده ابنه عيسى واستمر إلى سنة ٣٨٤هـ، فولى أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر»(٣).

ولعل المقريزي تدارك ما ذكره في كتابيه اتعاظ الحنفا، والخطط عن الحسن بن جعفر فصوب ذلك في كتابه المقفى الكبير، عندما قام بعرض ترجمة وافية له استغرقت نحو ثلاث صفحات، بينما تعرض لهذه الشخصية في كتابيه السابقين بصورة موجزة للغاية.

ولقد أقام جعفر الحسنى الدعوة للمعز الفاطمي سنة ٣٥٨هـ قبل حضوره إلى مصر فأرسل جوهر الصقلي يخبره بإقامة الدعوة له بمكة

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ١٥٥، جمال سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص: ١٥.

Zambaur; Manuel de genealogie et de chronologie pour L' Histoire de Li Islamp. 21.

نقلاً المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/١٠١، الخطط ١/٣٥٣.

(٢) انظر ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص: ٤٧، الفاسي: شفاء الغرام ٢/١٩٣، العقد الثمين ٣/٤٢٩، عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/٤٢١، ابن خلدون: العبر ٤/ ١٢٨، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٦٩، عبد العزيز بن فهد: غاية المرام ١/ ٤٨٠.

(٣) المقريزي: المقفى الكبير، ص: ٤٣٠.

فأنفذ المعز إليه كتاباً بتقليد جعفر إمارة مكة بعد أن وصلت إليه البشارة بإقامة الدعوة له وانقطاع دعوة العباسيين[(١)].

أما المدينة فيذكر ابن خلدون: أن العلويين المقيمين بها[(٢)]، استغلوا ضعف الخلافة العباسية آنذاك فتولوا إمارتها، وظلوا يخطبون للعباسيين، وقد تداول الإمارة فيها بنو الحسين بن علي بن أبي طالب، وبنو جعفر بن أبي طالب، إلى أن استطاع بنو الحسين الانفراد بالسلطة وإجلاء بني جعفر حيث سكنوا بين مكة والمدينة، وبقي بنو الحسين يحكمون المدينة منفردين بها[(٣)]، ولم تقم الخلافة العباسية بأية محاولة للوقوف في وجههم نظراً لضعفها[(٤)].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٣٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٤، عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤٠٦، عبد العزيز بن فهد: غاية المرام ١/ ٤٨١، دحلان: خلاصة الكلام، ص: ١٦، الجداول المرضية ورقة ١٤٠.

(٢) استقر العلويون في المدينة المنورة عقب اضطهاد العباسيين لهم وإخراجهم من بعض الأمصار الإسلامية، ففي آخر سنة ١٧١هـ أخرجهم هارون الرشيد من بغداد إلى المدينة، وفي سنة ٢٣٦هـ أخرج المتوكل العباسي العلويين من مصر إلى بغداد ثم المدينة المنورة التي صارت مأوى للمضطهدين من العلويين في العهد العباسي. (ابن الأثير: الكامل ٥/ ٢٨٢، المقريزي: الخطط ١/ ٣١٢).

(٣) استمر بنو الحسين بن علي بن أبي طالب يحكمون المدينة إلى أن قدم عليهم من مصر طاهر بن مسلم بن محمد بن عبيدالله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان سبب قدومه من مصر أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد خطب من مسلم ابنته لابنه العزيز فرفض مسلم مما جعل المعز يسخط عليه ويسجنه ويصادر أمواله فهرب مسلم من سجنه حيث مات فلحق ابنه طاهر بالمدينة فقدمه بنو الحسين على أنفسهم، وقلدوه إمارة المدينة، سنة ٣٦٠هـ-٩٧٠.

انظر ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٥٥-٥٦، ابن عنبه: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ص: ٣٣٥، ابن خلدون: العبر ٤/ ١٣٩-١٤٢.

(٤) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٣٩-١٤٢.

ولم يذكر ابن خلدون تاريخ استقلال بني الحسين بالمدينة، ويبدوا أن استقلالهم جاء بعد غزو القرامطة للحجاز بفترة، حيث توقفت الخلافة العباسية عن إرسال الولاة إلى مكة والمدينة آنذاك، كما لم يهم القرامطة بتعيين ولاة من قبلهم لمكة أو المدينة، وربما جاء استقلال بني الحسين بن علي بن أبي طالب قبل خروج جعفر بن محمد الحسني منها مما دفعه هو الآخر إلى التفكير في الاستقلال بمكة، ولعل أشراف المدينة اتفقوا مع جعفر بن محمد الحسني في حالة استقلاله بمكة على خلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين الذين ينتسبون لفاطمة الزهراء (رضي الله عنهم) ومما يدل على ذلك أن أشراف المدينتين المقدستين قد أعلنا في آن واحد سنة ٣٥٨هـ-٩٦٩م خلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين، وخطب بالحرمين للمعز لدين الله الفاطمي وبطلت الخطبة لبني العباس(١).

---

(١) عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢/٤٠٦.



مكة
في عهد الأشراف أصحاب المذهب الزيدي
من ٣٠٠ - ٣٥٨هـ

أتاحت الظروف السياسية للدولة العباسية منذ قيامها سنة ١٣٢هـ-٧٤٩م بسط سيادتها على العالم الإسلامي وخاصة بلاد الحجاز، غير أن العلويين في بلاد الحجاز كثيراً ما كانوا يثيرون الاضطرابات ضد العباسيين، فتصدى لهم خلفاء العصر العباسي الأول وقضوا على حركاتهم فضعف العلويون واستكانوا، وظل ولاة بني العباس يتولون الحكم في بلاد الحجاز حتى شغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التي أثارها الأتراك في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، عندئذ استغل العلويون هذه الفرصة ونجح محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو أحد أفراد الأسرة العلوية من طبقة الأشراف في الاستقلال بإمارة مكة[1].

وسرعان ما تغلب السليمانيون على إمارة مكة وأسسوا بها دولة لهم وخلع أميرهم محمد بن سليمان طاعة العباسيين، ودعا لنفسه بالإمامة في عام ٣٠١هـ-٩١٤م أثناء خلافة المقتدر، وذلك في خطبة ألقاها على المسلمين في موسم الحج من هذا العام وجاء فيها: «الحمد لله الذي

(١) انظر ابن خلدون: العبر ٤/ ١١، وسرور: سياسة الفاطميين، ص: ١٩.

أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من إلمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه بين أعمامه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وكف عنا ببركته أسباب المعتدين وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين»[١].

وخلال حكم دولة السليمانيين أو بني سليمان لمكة المكرمة تعرضت الأخيرة لأخطار من بينها خطر القرامطة[٢] في بلاد البحرين فقد أرسل أبو طاهر القرمطي[٣]، أحد جواسيسه إلى مكة المكرمة في عام ٣١١هـ-٩٢٣م ليخبره بخروج القوافل من مكة وعودتها إلى بلادها، وعندما علم أبو طاهر القرمطي بخروج القوافل من مكة أرسل من قام بعملية نهبها وسلبها[٤]، ولم يقف الأمر عند عملية النهب، بل تعهداه إلى قتل بعض الحجاج العائدين إلى بلادهم رجالاً ونساء، ثم استولوا على السبايا[٥]، وانقطع نتيجة لهذا حجاج العراق بسبب القرامطة[٦].

---

(١) الفاسي: العقد ٣/ ٤٢٩-٤٣٠، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص: ١٥، السباعي: تاريخ مكة ١/ ١٦٧-١٦٨، سرور: سياسة الفاطميين، ص: ١٩-٢٠، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص: ١١٩-٢٢٠.

(٢) **القرامطة**: طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها وسلاحاً للوصول إلى ما تصبو إليه، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة إلى أحد دعاتها وهو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ويقال إنه سمي قرمط لقصور قامته ورجليه، لمزيد من التفاصيل انظر النويري: نهاية الأرب ٢٥/ ١٨٧، وما يليها، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ٤١، هامش ١.

(٣) أبو طاهر سليمان الجنابي بن أبي سعيد الجنابي: وجنابه من ساحل فارسي نشأ بها أبو سعيد، وكان رقاقاً فنفى عن جنابه، فخرج إلى البحرين، فأقام بها تاجراً وجعل يستميل العرب إلى نحلته، فاستجاب له أهل البحرين وما والاها، وكذلك فعل بالقطيف ثم سار الجنابي إلى هجر، انظر محمد طاهر كردي: التاريخ القويم ٣/ ٣١٩-٣٢٠.

(٤) النويري: نهاية الأرب ٢٥/ ٢٧٩-٢٨٠.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ٢/ ٢٦٣، الجزيري: درر الفوائد، ص: ٢٣٣-٢٣٥.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٦٧-٢٦٨.

ثم توالت الأحداث فزحف أبو طاهر القرمطي أمير قرامطة البحرين على البصرة والكوفة، وتغلب على أهل هذه المدن ثم نهبهم[١]، وكانت هذه الحادثة في سنة ٣١٣هـ-٩٢٥م في عهد الخليفة المقتدر بالله العباسي[٢]، ثم اعترض القرمطي حجاج بيت الله الحرام وهم في طريقهم إلى مكة المكرمة، وتبعاً لهذه الأعمال المنافية لقيم الإسلام، فقد عاد الحجاج إلى بلادهم، ولم يؤدوا فريضة الحج ذلك العام ٣١٣هـ-٩٢٥م[٣]، وفزع أهل مكة، وانتابهم الخوف، ورحل الكثير منهم إلى الطائف وما جاورها حين بلغهم نبأ قدوم القرامطة إلى مكة، وفي سنة ٣١٧هـ-٩٢٩م هجم القرامطة على مكة المكرمة بقيادة زعيمهم أبي طاهر القرمطي، وكان الأمر في مكة المكرمة بيد العلويين[٤].

دخل أبو طاهر القرمطي وجنوده مكة المكرمة يوم الترويه سنة ٣١٧هـ-٩٢٩م، وعدد جنده حوالي ستمائة فارس وتسعمائة راجل، واقتحموا المسجد الحرام بخيلهم وسلاحهم على غفلة، ولما كان العلويون في ذلك الوقت يفتقرون إلى القوة لمواجهة هؤلاء الكفرة، فقد استباح القرامطة في المسجد الحرام دماء المسلمين، ووضعوا السيوف على رقاب الطائفين بالبيت الحرام، ولم ينج من بطشهم المصلين والعاكفين، والركع السجود، حيث قاموا بحصدهم حصداً، وتطايرت الرؤوس عن أجسادهم، وبعضهم متعلق بالبيت الحرام[٥].

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ١/٢٦٦.
(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٣١٣هـ، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨٣.
(٣) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٣١٣هـ.
(٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم ١/١٤٧، ابن كثير: البداية ١١/١٥٣، الديار بكري: تاريخ الخميس ٢/٢٤٩، الجزيري: درر الفوائد، ص: ٢٣٣-٢٣٥.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨٣.

وقتل هؤلاء الزنادقة في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها أعداداً كبيرة من الرجال والنساء والأولاد وخرج أمير مكة ابن مجلب في جماعة من الأشراف إلى أبي طاهر وسألوه في أموالهم فلم يشفعهم وقتلهم جميعاً وطرح القتلى في بئر زمزم[١]، وقام الزنديق أبو طاهر بقلع باب الكعبة وقبة زمزم والحجر الأسود، وخلع كسوة الكعبة المشرفة، وقسمها بين أصحابه، ونهب دور مكة. وأقام الخطبة لعبيدالله المهدي الفاطمي بالمغرب، بدلاً من الخليفة العباسي المقتدر، ثم عاد إلى الإحساء، ومعه الحجر الأسود[٢]، ولم يكتف أبو طاهر بمهاجمة مكة وإقامة الخطبة فيها للخليفة الفاطمي بل بسط سلطانه عليها وفرض على الحجاج سنة ٣٢٣هـ-٩٣٥م إتاوة على حجاج بيت الله الحرام خمسة دنانير على كل جمل وسبعة دنانير على كل رجل، وهذه الإتاوة في مقابل حماية الحاج والمحافظة على أرواحهم وكانت هذه أول مرة يفرض فيها المكس على الحجيج[٣]، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأعمال التي قام بها القرامطة، كانت دليلاً قاطعاً على ضعف الدولة العباسية، وعدم قيامها بحماية رعاياها من الحجاج، وتأمين طريقهم إلى مكة المكرمة، لقد أصيبت الدولة العباسية بضعف أفقدها القدرة على حماية أقاليمها، وأظهر عدم قدرتها على درء خطر القرامطة على اقتصادياتها وتجارتها مع غيرها[٤].

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: النويري: نهاية الأرب ٢٥/ ٢٩٧.

(٢) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ٦/ ٩٣، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨٣٨، العصامي: سمط النجوم ٤/ ١٩٣-١٩٤.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ١١٠، السنجاري: منائح الكرم ١/ ٢٥٢-٢٥٣، العصامي: سمط النجوم ٤/ ١٩٤، والمكس: هي الضرائب غير الشرعية.

(٤) انظر القوصي: تجارة مصر، ص: ٢٩-٣٠.

وحاول العباسيون استرداد الحجر الأسود من القرامطة، وعرضوا عليهم أن يدفعوا لهم ما يزيد عن خمسين ألف دينار ذهباً[١]، وقد تقدم بهذا العرض الخليفة المطيع بالله، تولى الخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ-٩٤٦م، ولكن القرامطة رفضوا هذا العرض، إذ كانوا يهدفون إلى إضعاف هيبة الخلافة العباسية أمام العالم الإسلامي ليمهدوا السبيل أمام أنصارهم الفاطميين.

كما أن ذلك الرفض يقدم دليلاً واضحاً على مدى خضوع القرامطة في بلاد البحرين لسلطان الفاطميين[٢].

ولا بد هنا من أن نذكر أن القرامطة أغاروا على مكة المكرمة وعملوا فيها السلب والنهب والقتل بدافع التقرب إلى أنصارهم من الفاطميين بدليل أنهم قاموا الخطبة لهم ورفضوا عرض العباسيين من أجل رد الحجر الأسود.

ولا عجب في ذلك فقد كان القرامطة شيعة إسماعيلية، وكانوا ينفذون أوامر المدعي العبيدي ويتبعون توجيهاته[٣]، وذلك يعكس حذر عبيدالله المهدي وإدراكه لردود الفعل الغاضبة في العالم الإسلامي، كما يعكس محاولته استنكار هذا العمل، بل وأظهر استياءه من الأحداث التي

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٣٨٣.

(٢) انظر: النويري: نهاية الأرب ٢٥/ ١٩١ وما يليها.

(٣) انظر: العصامي: سمط النجوم ٤/ ١٩٣-١٩٤، ابن مسكويه: تجارب الأمم ١/ ٢٠١، العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٣١٧، السنجاري: منائح الكرم ١/ ٢٤٧-٢٤٨، الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ١٩٢، الفاسي: تحفة الكرام، ص: ٤٢، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ٦/ ٩٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٣٠٤-٣٠٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٣٧٤-٣٧٥.

ارتكبها أبو طاهر في هذا البلد المقدس، وأرسل إلى أبو طاهر يعاتبه على هذه الفعلة الشنعاء، ويلعنه لما ارتكبه من جرم في حق الإسلام والمسلمين وبيت الله الحرام ويطلب منه إعادة الحجر الأسود(١).

وقد أورد ابن الجوزي في المنتظم(٢) أيضاً كتاب القرامطة ورد فيه «أنهم ردوا الحجر الأسود بأمر من اختاروه بأمره»، كذلك أكد ابن خلدون أنهم قد حملوه بأمر عبيدالله المهدي «وأنهم قد ردوه بأمره أو بأمر خليفة»(٣) وذلك برغم محاولات الخليفة الفاطمي إبعاد التهمة عن نفسه وقد لبى القرامطة طلب الخليفة الفاطمي وقاموا برد الحجر الأسود.

ففي يوم النحر من سنة ٣٣٩هـ-٩٥١م أتى سنبر بن حسن القرمطي إلى مكة حاملاً معه الحجر الأسود، فلما سار إلى فناء الكعبة ومعه أمير مكة أظهر الحجر الأسود، ومعه جص ليسد به الحجر الأسود، ثم قام سنبر بوضع الحجر الأسود في مكانه قائلاً: «أخذناه بقدرة الله تعالى ورددناه بمشيئته سبحانه وتعالى وقد ظل الحجر الأسود في حوزة القرامطة اثنتين وعشرين سنة»(٤).

وسرعان ما عادت سيادة العباسيين مرة أخرى على مكة فقد استغل العباسيون فرصة انشغال القرامطة عنها بالعمل على تحقيق أطماعهم في بلاد الشرق وأعادوا نفوذهم إليها مرة أخرى، وأقيمت الخطبة فيها للخليفة

---

(١) المنتظم ٦/ ٣٦٧.

(٢) ابن خلدون: العبر ٧/ ١٩١-١٩٣.

(٣) سرور: سياسة الفاطميين، ص: ٤٦-٤٧.

(٤) العصامي: سمط النجوم ٤/ ١٩٤، القطبي: أعلام العلماء ١/ ٨٩، محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم ٣/ ٣١٤.

الراضي بن المقتدر سنة ٣٣٧هـ-٩٤٨م وأسند هذا الخليفة ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الإخشيد والي مصر من قبله[١].

وتنافس الإخشيديون في مصر والبويهيون[٢] في العراق للحصول على شرف السيادة على الحجاز، خاصة بعد أن استولى بنو بويه على بغداد في عام ٣٣٤هـ-٩٤٩م وشاركوا العباسيين بالتالي السيادة على العالم الإسلامي وخاصة بلاد الحجاز فقد خطب على منابرها للخليفة العباسي المطيع مع معز الدولة ابن بويه، ولذلك سعى بنو بويه من أجل ألّا يكون للإخشيديين أي نفوذ في بلاد الحجاز[٣].

وذكر المؤرخون بعض الوقائع التي تؤكد هذه الحقيقة، فحين خرج الحجاج لأداء فريضة الحج سنة ٣٤٢هـ-٩٥٣م أشعلت نار الفتنة بين الركب العراقي الذي يخضع للبويهيين، والركب المصري الذي قدم من الإخشيديين.

ونتيجة لهذه الفتنة دار القتال بين الفريقين، وانتهى بانتصار الركب العراقي على المصري، وأقيمت الخطبة لمعز الدولة بن بويه، وقد وقعت هذه الحادثة قبل أن يبدأ الحجاج في أداء الفريضة، وبعد انتهاء الفريضة

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن خلدون: العبر ٤/ ١٠٠، ابن تغري بردي: النجوم ٣/ ٢٣، القلقشندي: صبح الأعشى ٧/ ١٠-١٤، سرور: سياسة الفاطميين، ص: ٢٠-٢١.

(٢) ينسب البويهيون إلى أبي شجاع بويه الذي يدعي أنه من سلالة آل ساسان ملوك الفرس وكان رئيساً لقبيلة من الديلم تسكن في جنوب بحر قزوين وتحترف الجندية، وقد عمل البويهيون في جيش الدولة السامانية، وكان بنو بويه يدينون بمذهب الشيعة لذلك كانوا يعتقدون أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من العلويين، انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٦٢.

(٣) انظر ابن تغري بردي: النجوم ١/ ٢٣، وسرور: سياسة الفاطميين، ص: ٢٠-٢١.

وقع اختلاف بين الفريقين على من تقام الخطبة له في المسجد الحرام وبقية المساجد، وأدى هذا الاختلاف إلى نشوب معركة انتهت بانتصار بني بويه مرة أخرى[١].

وعلى الرغم من انتصار البويهيين فإن النفوذ الإخشيدي لم يقض عليه تماماً في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد أعقب هذه الفتنة أن الخليفة العباسي المطيع بالله أصدر قراراً بتوليه كافور الإخشيدي ولاية بلاد الحجاز، بالإضافة إلى ولايته لمصر والشام، وأصبح الدعاء لكافور الإخشيدي على منابر مكة والمدينة مدة ولايته[٢]، وكان على ولاية مكة والمدينة في هذه الفترة بنو الحسين في مكة المكرمة وبنو الحسن في المدينة المنورة، وكان كل من البيتين يريد الزعامة لنفسه على الحرمين الشريفين، فدب الخلاف بينهما، ودارت معارك طاحنة بين بني الحسن وبني الحسين[٣]، ولم يتدخل العباسيون في هذا النزاع الداخلي.

وبلغت أخبار هذا النزاع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في بلاد المغرب، فوضع خطة ناجحة في أمور بلاد الحجاز لأن الفاطميين - منذ أن قامت دولتهم في بلاد المغرب - رأوا أن تكون السيادة في مكة والمدينة لهم دون منافسيهم من العباسيين، فأرسل المعز لدين الله الفاطمي من بلاد المغرب سراً إلى كل من الطرفين المتنازعين الأموال والهدايا والعطايا، وأرسل بعض رجاله للتوفيق بين الطرفين، ونجح

---

(١) الفاسي: تحفة الكرام، ص:١١٦-١١٧، العقد الثمين ١/ ١٨٥-١٨٦، ابن مسكويه: تجارب الأمم ٢/١٥٨، ابن كثير: البداية ١١/ ٢٢٥-٢٢٧، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٦٨-٢٦٩، الجزيري: درر الفوائد، ص: ٢٤٢-٢٤٣، العصامي ٤/ ١٩٤.

(٢) انظر: أبو الفدا: المختصر ٣/١٠٧، انظر أيضاً سرور: سياسة الفاطميين، ص:٢١.

(٣) العصامي: سمط النجوم ٤/ ١٩٥.

المعز ورجاله في عقد الصلح بين بني الحسن وبني الحسين في المسجد الحرام سنة ٣٤٨هـ-٩٥٩م، وقام الخليفة الفاطمي بدفع دية القتلى إلى بني الحسن[١]، ولقد كان لهذا الموقف أثره الطيب على ولاة مكة والمدينة، مما أكسب المعز مكانة عظيمة لدى أتباع الفريقين وأهل الحرمين الشريفين.

ورغم هذا الموقف الطيب من الخليفة الفاطمي، فإن الدعاء كان على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة للإخشيديين في مصر، مع أن ولايتهم على الحرمين الشريفين كانت ولاية اسمية، واستمرت الخطبة تقام لكافور الإخشيدي إلى حين وفاته سنة ٣٥٦هـ-٩٦٦م ثم من خلفه من الإخشيديين[٢]، وليس هناك ما يدل على أن كافور تدخل في شئون مكة، أو أناب بها أحداً يتولى أمرها نيابة عنه، شأنه في ذلك شأن من سبقه من الإخشيديين[٣].

وفي خضم هذه الأحداث استولى محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون على ولاية مكة المكرمة، وذلك في نهاية حكم كافور الإخشيدي على مصر والشام ٣٥٦هـ-٩٦٦م[٤]، وسرعان ما دب الضعف في الدولة الإخشيدية، وبدأت تنكمش إنكماشاً ظاهراً. الأمر الذي انتهزه المعز لدين الله الفاطمي، فأرسل جيشاً كبيراً تحت قيادة قائده جوهر الصقلي لفتح مصر في سنة ٣٥٨هـ-٩٦٨م[٥].

---

(١) المقريزي: الخطط، ص: ٣٥٣، سرور: سياسة الفاطميين، ص:٢٣-٢٤.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٢٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/١٩٣-١٩٤.

(٣) انظر: ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة، ط/ الرياض ١٩٨٥م، ص: ١٤.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر ما يلي في الفصل الأول.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٣-١٩٤، انظر أيضاً ابن تعزي بردي: النجوم ٤/ ٢٨-٣٥.

وبعد أن تمكن الفاطميون من فتح مصر سارع محمد بن جعفر بالخطبة للمعز الفاطمي، وأعلن تبعية مكة للخلافة الفاطمية، ويبدو أن محمد بن جعفر رأى الانضمام إلى الفاطميين لظروف اقتصادية وأخرى سياسية سيتحقق لمكة من ورائها الدعم الاقتصادي والاستقلال الذاتي في ظل النظام الجديد في مصر[١].

(١) أحمد عمر الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١-٤٨٧هـ، ص: ٤٢، سليمان مالكي: بلاد الحجاز من بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، ص: ٣٠.

القرامطة وعلاقاتهم مع العباسيين
وأثر ذلك على منطقة الحجاز

ترتبط بدايات الدعوة القرمطية بالبحرين[١] بالحركة القرمطية في سواد الكوفة أيام حمدان الأشعث وعبدان، فقد جرى إرسال داعية إلى منطقة هجر يدعو بين قبائلها، وكان على رأس هذه القبائل عقيل وكلاب من قبائل عامر بن صعصعة[٢] ومن المرجح أن اسم هذا الداعية هو أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي وقد أنفذ سنة (٢٨١٠هـ-٨٩٤م) ثم ألحق بعد فترة بأبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي[٣]، وقد اتهم يحيى الطمامي

---

(١) البحرين: قال الأزهري: «البحرين موضع بين البصرة وعمان»، وإنما ثنوا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى هجر، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ، انظر: محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق ومراجعة عبدالله درويش ومحمد علي النجار (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت) مادة «بحر».

(٢) انظر: زكار أخبار القرامطة، ص: ١٤٧.

(٣) أبو سعيد الجنابي: هو أبو سعيد الحسين بن بهرام، تزعم الحركة القرمطية في البحرين وما جاورها وطالما اعتدى على طرق وقوافل التجارة والحج وتوفي مقتولاً على الأرجح في سنة ٣٠٠ أو ٣٠١هـ في البحرين، انظر: المسعودي، التنبيه ٣٥٤-٣٥٨، انظر: زكار، أخبار القرامطة، ص: ٢٩٩-٣٠١.

داعية القرامطة بالبحرين بالفساد والغدر وإظهار الإباحة، فما كان من شريكه في الدعوة أبي سعيد الجنابي إلّا أن وثب عليه وقتله، واستولى على الأمر بعده[١].

ولكن أبا سعيد هو الآخر لم يسلم من التهمة ذاتها التي اتهم بها الطمامي فقد قال عنه القاضي عبد الجبار الهمذاني (ت٤١٥هـ) في كتاب تثبيت دلائل النبوة: «فقد غرر بالناس لما ملكهم وأظهر من الإباحية وتعطيل الشرائع ما هو مذكور، وقال: إنه رسول الأمين الإمام حجة الله على خلقه، وهو محمد بن عبدالله ابن الحنفية... وهو المهدي، في سنة ثلثمائة للهجرة يخرج ويملك الأرض كلها»[٢].

إن أبا سعيد الجنابي الذي يبشر هنا بقرب المهدي المنتظر كان حسب رأي القاضي عبد الجبار؛ «شريراً فاسقاً جاهلاً لا يعرف من كتاب الله شيئاً ولا من سنة نبيه، ولا شيئاً من الأدب ولا شغل له إلّا المعاش، فقد كان يبيع الدقيق والطعام بعين الزاره[٣] من أرض البحرين»[٤].

ويظهر من إحدى الروايات عند المقريزي (ت٨٤٥هـ) في كتاب اتعاظ الحنفا.. أن أوائل من تبع دعوة أبي سعيد الجنابي، أنهم قوم ضعفاء ما بين قصاب وحمال وأمثال ذلك، إضافة بالطبع إلى عائلة آل سنبر الذين أصبحوا فيما بعد وزراء لعائلة الجنابي[٥].

---

(١) زكار: أخبار القرامطة، ص: ٢٩٩.

(٢) زكار: أخبار القرامطة، ص:٣٠٠.

(٣) الزارة: عين بالبحرين معروفة، والخط والزارة والقطيف، قرى بالبحرين وهجر، ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت، دار صادر، وبيروت ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م) ٣/ ١٢٦.

(٤) زكار: أخبار القرامطة، ص:٢٩٩.

(٥) انظر زكار: أخبار القرامطة، ص:٥٤١-٥٤٢.

● أبو سعيد الجنابي والخلافة العباسية (٢٨٦-٣٠٠هـ): ●●●●●

ذكر الطبري في حوادث سنة (٢٨٦هـ) أن رجلاً من القرامطة يدعى أبا سعيد الجنابي ظهر بالبحرين، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وكثر أصحابه وقوي أمره في منتصف السنة، فقتل من حوله من أهل القرى، ثم صار إلى القطيف فقتل من بها[١].

فكان عام (٢٨٦هـ) هو أول ظهور مسلح لأبي سعيد الجنابي، وما من شك في أن ظهوره بهذه الصورة يعد تحدياً سافراً للخلافة العباسية التي ما إن علمت بهذا الخبر وبنية الجنابي بمهاجمة البصرة حتى سارعت بعمل سور عليها قدرت النفقة عليه بأربعة عشر ألف دينار[٢].

ولكن قبل أن يأخذ منا العجب مأخذ جراء جرأة الجنابي على حرمة الدولة العباسية واقتطاع جزء من كيانها يجب أن نلتفت بضعة أشهر إلى الوراء لنعلم أنه في المحرم سنة (٢٨٥هـ)، هجم صالح بن مدرك الطائي بجماعة من طيئ على الحاج بالأجفر، فظفر الأعراب بالقافلة وأخذوا ما كان فيها من الأموال والتجارات وأخذوا جماعة من النساء الحرائر والمماليك، وقيل إن الذي أخذوا من الناس بقيمة ألفي ألف دينار[٣].

وفي سنة (٢٨٦هـ) كذلك وفي رجب أي بعد خروج الجنابي ووقعته بالقطيف بشر قام جماعة من أعراب بني شيبان بمهاجمة قرى الأنبار وقتلوا من حلقوا من الناس واستاقوا المواشي، وأرسلت العاصمة بغداد زهاء ألف رجل للمسؤول عن أمن الأنبار فهزمهم الأعراب، كما أرسلت قوى

---

(١) انظر: محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، دار المعارف، د/ ت ١٠/ ٧١.

(٢) الطبري: تاريخ ١٠/ ٧١.

(٣) الطبري: تاريخ ١٠/ ٦٧.

أخرى بقيادة العباس الغنوي، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن عاث الأعراب فساداً بعين التمر ونواحي الكوفة[١].

أما في السنة التالية وفي شهر ربيع الأول سنة (٢٨٧هـ) فقد اشتد خطر القرامطة بالبحرين فأغاروا على نواحي هجر وقرب بعضهم من نواحي البصرة، فأرسلت العاصمة ثماني سفن فيها ثلثمائة رجل، كما أمر المعتضد باختيار جيش لينفذه إلى البصرة[٢].

وفي شهر رجب من السنة نفسها كانت المواجهة العسكرية بين القائد العباسي العباس الغنوي وأبي سعيد الجنابي في السبخة المعروفة «بأفان» بالقرب من القطيف، وكان الجيش العباسي يتألف من سبعة آلاف رجل من الجند ومطوعة البصرة والبحرانيين الذين كانوا جلوا عن البحرين، أما الجنابي فكان يقود سبعمائة فارس وراجل، انتهى ذلك اللقاء بهزيمة جيش الغنوي وتشريده وأسر قائده وسبعمائة رجل من رجاله، ومما زاد الأمر سوءاً أن البصرة أرسلت لمن أفلت من جيش الغنوي وهم قليل، أربعمائة راحلة عليها الأطعمة والكساء والماء فخرج عليهم بنو أسد فأخذوا تلك الرواحل بما عليها وقتلوا جماعة ممن كانوا مع تلك الرواحل ومن أفلت من أصحاب العباس[٣].

ربما يسأل سائل عن الغرض من هذا السرد الممل للأحداث، وما

(١) الطبري، تاريخ ١٠/ ٧٢، وقارن: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، دراسة وتحقيق/ محمد عبد القادر عطا وآخرين ١٢/ ٣٧٧، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

(٢) الطبري: تاريخ ١٠/ ٧٥.

(٣) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٧، وقارن: الطبري: تاريخ ١٠/ ٧٢ وابن الجوزي، المنتظم ١٢/ ٤١١.

صلته بموضوع العلاقة بين قرامطة البحرين والخلافة العباسية؟ والإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء، ألا وهي إبراز بعض الجوانب المعتمة في دار الخلافة والمقصود هنا الجانب الأمني وهيبة الدولة، فمتى ضاع الأمن ضاعت هيبة الدولة.

والمتأمل قليلاً في الأحداث التي مر ذكرها يلاحظ أن اضطراب الأمن في العراق، وبصورة أخص في جنوبه، كان سابقاً على الظهور المسلح لأبي سعيد الجنابي في منتصف عام (٢٨٦هـ) إذ إن صالح بن مدرك الطائي وقومه هاجموا في سنة (٢٨٥هـ) إحدى قوافل الحجاج وأخذوا الأموال والنساء، ولم تحرك الدولة ساكناً بل بعثت بالفداء لمن في قبضة الأعراب، ونلاحظ كذلك أنه بعد شهر من ظهور الجنابي في البحرين عاث الأعراب فساداً في قرى الأنبار ونواحي الكوفة وفشلت قوات الخلافة في السيطرة على الأمور؟ ولعل الأدهى من ذلك كله هو خيانة أعراب بني ضبة ومطوعة البصرة وهربهم من جيش العباس الغنوي ووقوع العباس وسبعمائة رجل من أصحابه في قبضة أبي سعيد الجنابي الذي كانت قوته تعادل عشر قوة العباس الغنوي، بل إن مما زاد الطين بلة إجهاز الأعراب على فلول الجيش العباسي المهزوم ونهب المدد الذي أرسل لهم من البصرة! فماذا عسى المتتبع لهذه الأحداث أن يقول بعد ذلك؟

أليس مرد ذلك التصرف هو ضياع هيبة الدولة وضياع الأمن نتيجة مباشرة لذلك !! نحن نعلم أن الخلافة خاضت حرباً لا هوادة فيها طوال خمسة عشر عاماً ضد الزنج في البصرة وما حولها، ولكن هذه الأحداث تأتي بعد مضي ما يقارب ثماني سنوات من القضاء على حركة الزنج، يفترض أن الدولة قد استعادت في خلالها قوتها وحيويتها وقدرتها على مواجهة المستجدات، ولكن ذلك لم يحدث!!

في هذه الأثناء أي في ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـ) توفي الخليفة المعتضد وخلفه ابنه علي الذي آثر لقب المكتفي، وفي عهد المكتفي عاث قرامطة السواد والشام ومن تبعهم من بعض القبائل العربية فساداً في الأرض، وذلك بزعامة زكرويه بن مهرويه في الفترة ما بين (٢٩٣-٢٩٤هـ) وكانت وقعاتهم بالحجاج مشهورة في واقعة والعقبة والهبير والثعلبية والشقوق وقيل إنه بلغ من قتل من الحجاج ورجال السلطة خمسين ألف قتيل!! ولو صح نصف هذا العدد فإن الأمر يكون مفزعاً[١].

وفي الربع الأول من سنة (٢٩٤هـ) سقط زكرويه بن مهرويه قتيلاً[٢] على يد قوات المكتفي الذي لم يمتد به الأجل لينعم بانتصاره، إذ توفي في أواخر سنة (٢٩٥هـ).

● خلافة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ): ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

وجيء بجعفر بن أحمد الملقب بالمقتدر (ت٣٢٠هـ)[٣] إلى كرسي الخلافة في شهر ذي القعدة سنة (٢٩٥هـ) وسنه آنذاك لا تتجاوز الثالثة عشرة، ويجدر بنا أن نتعرف على المقتدر عن قرب لتتضح الصورة.

«أفضت الخلافة إليه - كما يقول المسعودي - وهو صغير غير ترف

---

(١) المسعودي: التنبيه ٣٤١-٣٤٢، جاء عند المسعودي أن اسمه ذكرويه بن مهروية أما ابن الأثير فقد أشار إليه في مواضع كثيرة بـ زكرويه بن مهرويه، انظر: ابن الأثير: الكامل ٧/ ٥٤١-٥٥١.

(٢) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٤٢.

(٣) المقتدر: هو جعفر بن أحمد المعتضد بويع له بالخلافة في أواخر سنة ٢٩٥هـ وعمره لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة وقتل على يد جنده في ضواحي بغداد سنة ٣٢٠هـ، انظر المسعودي: التنبيه، ص:٣٤٢-٣٥٢، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٧/ ٢١٣-٢١٩، ترجمة (٣٦٩٢).

لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك، فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور ليس له في ذلك حل ولا عقد ولا يوصف بتدبير ولا سياسة، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم، فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة، فأداه ذلك إلى سفك دمه واضطربت الأمور بعده وزال الكثير من رسوم الخلافة»[١]، ويضيف ابن مسكويه قائلاً: «.. وفوض (المقتدر) الأمور إلى أبي الحسن بن الفرات.. وتفرد المقتدر على لذاته متوفراً واحتشم الرجال واطرح الجلساء والمعنيين، وعاشر النساء، فغلب على الدولة الحرم والخدم..»[٢].

والسؤال هنا لماذا اختير من هذه سنه وهذه صفاته لأرفع منصب ديني ودنيوي في الدولة ألا وهو الخلافة؟ لماذا لم يرشح لهذا الأمر من هو أقدر منه وأسنُّ منه من أبناء البيت العباسي؟! الإجابة عن هذا السؤال تظهر جلية في المشاورات التي دارت بين ابن الفرات وبين الوزير العباس: «إن ابن المعتز يخبر نعم أصحاب السلطان ويعرف أسرارهم وذخائرهم، و قد خالط الناس وفهم أمورهم فعينه ممتدة إلى ما في أيديهم».

وأشار ابن الفرات على الوزير العباس بن الحسن بن جعفر بن المعتضد مرشحاً للخلافة، وعندما أجابه أنه صغير، رد ابن الفرات

---

(١) المسعود: التنبيه، ص: ٣٤٤.

(٢) أحمد بن مسكويه: تجارب الأمم ١/ ١٣، علي بن أبي الكرم، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٤٣، بيروت، دار بيوت ١٤٠٢هـ-١٩٨٩م، وقارن إسماعيل بن عمر ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٦٢، تحقيق/ عبدالله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، دار هجر ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

قائلاً: «ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج لنا، وإن كان جعفر بن المعتضد بالله صغيراً فأنت تدبره..»[١].

وهكذا تظهر أهداف رجال الإدارة من وزراء وكتاب، فهم يطمحون إلى أن يكون الخليفة مجرد لعبة بأيديهم يوجهونها كيف يشاءون ولا أفضل لهم من صبي صغير في الثالثة عشرة من العمر لتحقيق أهدافهم تلك! بل إن «شغب»، والدة المقتدر التي أصبحت تعرف بالبلاط فيما بعد بالسيدة، إشارة لجلال قدرها وعظم منزلتها، كانت تدرك عدم أهلية ابنها المقتدر للخلافة، فبعد فشل الحركة الانقلابية التي قام بها أنصار ابن المعتز سنة (٢٩٦هـ)[٢]، أجلست ابنها المقتدر بالله في حجر الوزير ابن الفرات وقالت له: «هذا يا أبا الحسن ولدك وأنت قلدته الخلافة أولاً وثانياً»[٣].

إن شغب تدرك عدم صلاحية ابنها للخلافة، ولكنها تدرك أيضاً أن ذلك ادعى لتفردها بالأمر دونه.

ولا أدلّ على ضعف المقتدر عن إدارة شئون الدولة واضطراب الأمور عليه أن استوزر في مدة خلافته التي بلغت خمساً وعشرين سنة،

---

(١) انظر: محمد بن عبد الملك الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، د/ت ١١/ ١٩١، وانظر الأثير: الكامل ٨/ ١٠.

(٢) انظر عن أخبار المحاولة الانقلابية، محمد بن يحيى الصولي، قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي، تحقيق/ خلف رشيد نعمان، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام ١٩٩٩م، ص: ٦٥-٧٢.

(٣) انظر: حمدان عبد المجيد الكبيسي عصر الخليفة المقتدر بالله، ص: ١٠٤، النجف، مطبعة النعمان ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، نقلاً عن هلال الصابئ: الوزارة، ص: ١٣٣.

اثني عشر وزيراً فيهم من وزر له المرتين والثلاث، وعلق على ذلك المسعودي قائلاً: «ولم يعرف فيما قبله أنه استوزر هذه العدد»[(١)].

لقد طال بنا الوقوف مع الخليفة المقتدر بالله، لأنه أطول خلفاء هذه الفترة حكماً ومن ثم فإن علاقته بقرامطة البحرين أطول زمناً وكانت متواترة في معظمها، لذلك كان لا بد من هذه الوقفةَ!

ومن أجل التعرف بصورة أكثر وضوحاً على حال الخلافة والخليفة معاً لا بد من ذكر بعض الحوادث المتلاحقة في تلك الفترة التي قد تساعد في إلقاء المزيد من الضوء على العلاقة بين الخلافة العباسية وقرامطة البحرين، فمثلاً: في شهر ذي الحجة سنة (٢٩٩هـ) غضب المقتدر على وزيره علي بن محمد بن الفرات وحُبس ووضعت ممتلكاته تحت الحراسة، وكان ادعى عليه أنه كتب إلى الأعراب بأن يكبسوا بغداد[(٢)]، ربما لإثارة الاضطراب والفوضى حتى يشعر الخليفة بمدى أهمية وزيره ابن الفرات مثلاً؟!

وعين المقتدر بدلاً عنه محمد بن عبيدالله بن خاقان، وقيل إن السبب في ولايته كان مشورة أم ولد المعتضد «دستنوبيه» (؟) على أن ضمن لها مائة ألف دينار[(٣)]، فهنا الاختيار للمنصب ليس للكفاءة بل لمن يدفع أكثر، ويظهر أن هذا الوزير لم يكن أهلاً لمنصب الوزارة وإدارة الدولة، فقد ذكر أحد المصادر أن أولاده وكتابه كانوا يرتفقون من العمال بما يولونهم به من

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٤٤-٣٤٥، وانظر توفيق سلطان اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، الموصل ١٣٩٦هـ، ص: ٢٧٨-٢٨١.

(٢) عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، د/ت، ١١/ ٣٩.

(٣) عرب: صلة ١١/ ٤٠.

الولايات ثم يعزلونهم، إذا رأوا مطمعاً، فاجتمع بحلوان في خان بها سبعة عمال، أسند لهم في عشرين يوماً ولاية ماء الكوفة[١]، وحسب أحد المصادر كذلك فقد كان يولي العمل الواحد جماعة في أسبوع حتى قلدّ عماله بادوريا في أحد عشر شهراً أحد عشر عاملاً[٢].

ولما رأى المقتدر ضعف الوزير محمد بن عبيدالله أراد إقالته وتنصيب أحمد بن يحيى المعروف بابن أبي البغل وزيراً مكانه، وما أن علم الوزير بذلك حتى ذهب إلى الخلافة وصانع جماعة من الخدم والحرم وضمن لأم ولد المعتضد التي كانت قد عنيت بولايته في أول أمره خمسين ألف دينار، فنقضت أمر ابن أبي البغل ورد والياً على فارس[٣].

ولكن هذه الرشوة لأم ولد المعتضد لم تحل بين الوزير محمد بن عبدالله والعزل حيث عزل وفرضت عليه وعلى أبنائه الإقامة الجبرية وعين في الوقت ذاته علي بن عيسى بن الجراح[٤] الذي قدم من الحجاز[٥].

في هذه السنة أي سنة (٣٠٣هـ) حاول الوزير علي بن عيسى أن يصل إلى علاقة طيبة مع قرامطة البحرين لعله يصرف خطرهم عن الحجاج

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٠١.

(٢) عرب: صلة ١١/ ٤١.

(٣) عرب: صلة ١١/ ٤٢.

(٤) عرب: صلة ١١/ ٤٣.

(٥) علي بن عيسى بن الجراح: أبو الحسن وزير المقتدر بالله، والقاهر بالله، كان صدوقاً ديناً فاضلاً عفيفاً في ولايته محموداً في وزارته، كثير البر والمعروف وقراءة القرآن والصلاة والصيام، يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم، كان مولده في سنة ٢٤٥هـ، ووفاته في سنة ٣٣٤ أو ٣٣٥هـ، انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/ ١٤-١٦، محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وجماعة ١٥/ ٢٩٨-٣٠١، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

وغيرهم فشغلهم بالمكاتبة والمراسلة والدخول في الطاعة وأطلق لهم التسوق بسيراف[١] فردعهم بذلك وكفهم، فخطأه الناس واتهموه بأنه قرمطي[٢].

وفي أوائل ذي الحجة سنة (٣٠٤هـ) قبض على الوزير علي بن عيسى، ونهبت منازل إخوته ومن يمت إليه بصلة، وحبس في دار الخليفة المقتدر، وتقلد في اليوم نفسه الوزارة علي بن محمد بن الفرات[٣].

ومما يدل على انفلات الأمور في دار الخلافة واستبداد النساء باتخاذ القرار، وهو ما يعكس طبيعة الحال ضعف مركز الخليفة، هو ما أقدمت عليه السيدة أم المقتدر، بتكليف قهرمانة لها تدعى «ثمل»[٤] أن تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس في كل جمعة يوماً[٥]، وكان الأجدر بمن يقوم هذا المقام الخليفة نفسه أو أحد ذوي الجاه من رجال دولته!!.

وبسبب هزيمة القائد العباسي مؤنس سنة (٣٠٦هـ) أمام يوسف بن أبي الساج أحد الخارجين على الخلافة، كثر الطعن على الوزير ابن

---

(١) سيراف: مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديماً فرضة الهند، وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣/ ٢٩٤-٢٩٥.

(٢) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ١٨٦، عريب: صلة ١١/ ٥٧.

(٣) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ١٩٣، عريب: صلة ١١/ ٥٧.

(٤) ثمل: من ربات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية أيام المقتدر، فكانت الساعد الأيمن لأم المقتدر في شئون الدولة وسياستها، وجلست للمظالم بالرصافة يوماً في كل أسبوع، وتوفيت سنة ٣١٧هـ، انظر عمر رضا كحالة: أعلام النساء ١٢/ ١٨٥، مؤسسة الرسالة د.ت.

(٥) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٠٩، عريب: صلة ١١/ ٦٧.

الفرات ونسب كل ما حدث إلى تضييعه للأمور، فقبض عليه في أواخر شهر ربيع الآخر وأودع السجن، فكانت وزارته هذه المرة سنة وخمسة أشهر تقريباً، وعين للوزارة بدلاً عنه حامد بن العباس الذي كان قد ضعف وكبرت سنه[١].

ومن اللافت للنظر ما أشار إليه ابن الجوزي أنه في السنة التالية أي سنة (٣٠٧هـ) دخل القرامطة البصرة، ووافق ذلك تقليد ابن الفرات الوزارة للمرة الثالثة[٢]. وهذا وهم وقع فيه ابن الجوزي؛ لأن حوليات التاريخ الإسلامي لم تذكر أن القرامطة دخلوا البصرة في ذلك العام، ومعلوم كذلك أن ولاية ابن الفرات الثالثة للوزارة كانت في سنة ٣١١هـ التي عرفت بسنة الدمار[٣].

ويقع في الخطأ نفسه مادلونغ Madelong عند مناقشته لإشارة ابن الجوزي هذه فيقول مصححاً. . إن الولاية الجديدة لابن الفرات حدثت في العام (٣١٨هـ-٩٢٣م) «بالتأكيد»[٤]، أما الذي يجب تأكيده هنا فهو أن ابن الفرات مات مقتولاً في سنة (٣١٢هـ) الموافق (٩٢٤م) تقريباً وأن عام (٣١٨هـ) يوافق (٩٣٠م) تقريباً وليس كما جاء عند مادلونغ.

● أبو طاهر الجنابي والخلافة العباسية (٣١٠-٣٣٢هـ):

لقد لقي أبو سعيد الجنابي مصرعه على يد أحد الخدم في ظروف غامضة، وذلك في سنة (٣٠٠هـ) أو (٣٠١هـ) مع جماعة من كبار

---

(١) عريب صلة ١١/٦٨-٦٩، وقارن الصولي: أخبار المقتدر ٢١٣-٢١٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/١٨٩.

(٣) عريب: صلة ١٣/٩٧.

(٤) مادلونغ: الفاطميون وقرامطة البحرين، ص: ٤٦.

خواصه[١]، وتولى الأمر من بعده ابنه سعيد، وكان أسن إخوته ولكنه كان ضعيفاً، ثم ما لبث أن خلع سعيد سنة (٣٠٥هـ) وجاء محله أخوه أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي[٢] حيث تولى القيادة في سنة (٣١٠هـ) وعمره آنذاك ستة عشر عاماً تقريباً[٣]، وفي عهده بلغت حركة قرامطة البحرين ذروة عنفوانها وهيبتها وشهدت فيه العلاقة مع الخلافة العباسية أسوأ مراحلها.

فإذا انتقلنا إلى أحداث سنة (٣١١هـ) فإننا نشم منها روائح الفضائح والتهم بالخيانة المتبادلة بين وزراء الدولة، ونرى فيها كذلك الأحداث المفجعة في البصرة على يد القرامطة.

قال الصولي عن أحداث هذه السنة: دخل أصحاب الجنابي البصرة في ليلة الاثنين بعد ولاية ابن الفرات الثالثة بأربعة أيام، وكان خبر ولايته والقبض على علي بن عيسى قد بلغ إليهم ممن يكاتبهم بوقته وأظنه «بطائر» لأن بعض البصريين الثقات حدثني قال: «جعل القرامطة يقولون لنا: يوم الاثنين! ويلكم ما أراد سليطينكم من ذلك الشيخ ما فيكم أعقل منه ولا

---

(١) انظر الطبري: تاريخ ١٠/١٤٨، المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٧-٣٥٨، زكار: أخبار القرامطة، ص: ٣٠٠، ٥٤٦.

(٢) زكار: أخبار القرامطة، ص: ١٥١.

(٣) انظر: المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٤، أبو طاهر الجنابي: هو سليمان بن أبي سعيد ابن بهرام الجنابي، كان مولده سنة ٢٩٤هـ، وتوفي والده وله من العمر ست سنوات، وبقي في العسكر (عسكر القرامطة) حتى تسلم قيادته سنة ٣١٠هـ، وقاد حملات عسكرية مدمرة على المدن العراقية وقوافل الحج، وحتى بيت الله العتيق لم يسلم من شره فقد هاجم الحجاج وهم يطوفون بالبيت وقتلهم شر قتلة وسلب البيت، وتوفي سنة ٣٣٢هـ، انظر المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٣ - ٣٥٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٢٠-٣٢٥.

أجود رأياً وإن كان دينكم على دينه ولتعلمن ما تلقون بعده. قالوا ونحن لا نعلم ما يقولون حتى ورد خبر من بغداد ونحن بالجزيرة وهم بشط البصرة حالياً، فأخبرنا بالقبض على علي بن عيسى وحامد بن العباس وولاية ابن الفرات»[١].

وكان أبو طاهر الجنابي قد دخل البصرة فجر يوم الاثنين لخمس بقين من ربيع الآخر سنة (٣١١هـ) في ألف وسبعمائة رجل وأنه وصل إليها بسلاليم نصبها على سورها وقتل الحراس وقتل سبك المفلحي أمير البصرة وأحرق المريد وبعض الجامع وحاربه أهل البصرة عشرة أيام وهربوا منه وأقام بها سبعة عشر يوماً، وغادرها بعد أن حمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان[٢].

وهكذا عبث قرامطة البحرين سبعة عشر يوماً في البصرة إحدى حواضر العراق الرئيسية ولم تحرك الخلافة ساكناً!!

وحوادث هذه السنة أي سنة (٣١١هـ) تؤكد أن ابن الفرات قد قلد الوزارة للمرة الثالثة بمسعى من مفلح خادم المقتدر، واعتقل علي بن عيسى وسُلم إلى زيدان القهرمانة[٣]، وكانت هذه السنة شديدة الوطأة على الناس سميت سنة الدمار والهلاك ولي فيها علي بن الفرات الوزارة للمرة الثالثة..[٤].

وادعى ابن الفرات على علي بن عيسى أنه كاتب القرامطة على

(١) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٣١.

(٢) الهمذاني: تكملة ١١/٢٣٨، وقارن ابن الأثير: الكامل ٨/١٤٤.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/٢٢٩.

(٤) الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٣١، عريب: صلة ١١/٩٧.

المسير إلى البصرة ويذكر الهمذاني صاحب هذا الخبر أن علياً نوظر فلم يصح عليه شيء[١].

وجاء عند ابن مسكويه في حديثه عن المناظرة التي وقعت بين ابن الفرات وعلي بن عيسى قوله: «ثم ناظره على ما حمله إلى القرامطة من الهدايا والسلاح وما ترددت بينه وبينهم من المكاتبات مرة والمقاربات مرة أخرى، فقال أردت استمالتهم وإدخالهم في الطاعة وكفهم عن الحاج وأعمال الكوفة والبصرة مدة ولايتي دفعتين وأطلقوا من الأسارى الذين كانوا من المسلمين عدة..»[٢].

وكما هو ملاحظ فإنه يتبين من رواية ابن مسكويه أن العلاقة بين الوزير علي بن عيسى وقرامطة البحرين كانت شبه متصلة وقديمة ربما تعود إلى أواخر أيام أبي سعيد بن بهرام، حيث يذكر أحد المصادر أن علياً كاتب أبا سعيد وطلب منه إطلاق أسرى من لديه من المسلمين، وأن الكتاب لم يصل إلّا بعد وفاة أبي سعيد وأن أولاده أطلقوا من لديهم من الأسرى وهم «نحو ثلاثين ألفاً»[٣].

أما ابن الجوزي فيؤرخ للاتصال الأول الذي حدث بين الوزير علي ابن عيسى، بتوجيه من الخليفة المقتدر وبين أبي سعيد الجنابي بأنه في سنة (٣٠١هـ) وحسب رواية ابن الجوزي فإن ذلك الاتصال لم يسفر عن شيء حاسم في أمر العلاقة بين الطرفين ولم يرد فيه أي ذكر لقضية الأسرى[٤].

ويضيف ابن الجوزي أنه في سنة (٣٠٣هـ) نظر علي بن عيسى بعين

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٣٨.

(٢) ابن مسكويه: تجارب ١/ ١٠٨.

(٣) انظر: زكار: أخبار القرامطة، ص: ٣٠١.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٤٢-١٤٣.

الريبة إلى أمر القرامطة فخافهم على الحاج وغيرهم فشغلهم بالمكاتبة والدخول في الطاعة وأطلق لهم التسوق بسيراف، فكفهم بذلك فخطأه الناس ونسبوه إلى موالاتهم..[١].

وكما هو واضح فإنه ليس في روايات ابن الجوزي التي أشير إليها هنا ما يفيد في موضوع الأسرى، أو عدد من أفرج عنه منهم.

ولكن يظل عدد من أطلق من الأسرى حسب رواية القاضي عبد الجبار، الذي يجب التعامل مع رواياته بقدر من الحذر - رقماً ظاهر المبالغة - ولا يجوز التسليم به على إطلاقه لا سيما وأن القاضي عبد الجبار لم يذكر ما قدمته الدولة العباسية للقرامطة، مقابل إطلاق هذا العدد الجم من الأسرى !!

وما دام الحديث لا يزال موصولاً عن اتصالات الوزير علي بن عيسى بقرامطة البحرين، والتهم التي وجهت إليه من قبل بعض أعدائه في الدولة العباسية، فقد جاء في «كتاب العيون» القول «إن القرامطة الذي استسلموا في عام (٣١١هـ) قد زعموا أن علياً بن عيسى كاتبهم بالمسير إلى البصرة وأنه وجه إليهم عدة أوقات بهدايا وسلاح»[٢].

أمام هذا الاضطراب بخصوص علاقة الوزير علي بن عيسى بقرامطة البحرين واتصاله بهم، جاء عند ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) ما يمكن أن يساعد على فهم طبيعة تلك العلاقة، ففي عن حديثه عن محاكمة علي بن عيسى أمام الوزير ابن الفرات وبحضرة أحد القضاة، تبين أن الوزير علي ابن عيسى قد كاتب قرامطة البحرين فعلاً، وكان سفيره إليهم رجلاً يدعى ابن قليجة، وهو شاهد الإثبات ضد الوزير.

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٥٥.

(٢) انظر: دي خويه القرامطة، ص: ٧٤.

ونتيجة لاتصالات علي بن عيسى بالقرامطة تمكن من فكاك أسر ثلاثة آلاف أسير من المسلمين، كانوا لديهم - وليس ثلاثين ألفاً كما زعم القاضي عبد الجبار - وأقر الوزير كذلك بأن القرامطة كاتبوه يلتمسون منه المساحي والطلق، وأنه أجاب مطلبهم، وحجته في ذلك قوله: «أردت بهذا المصلحة، واستعادتهم إلى الطاعة بالرفق وبغير حرب»[(١)].

وهكذا تظل تهمة الاتصال بالقرامطة تردد في أكثر من مصدر، ولعل أخطر ما فيها هو إعطاء السلاح للقرامطة !! وهل كان القرامطة بحاجة فعلية إلى السلاح؟ ويظهر أن هجوم القرامطة على البصرة في سنة (٣١١هـ) لم يكن بسبب دعوة علي بن عيسى المزعومة لهم، بل ربما كان تنفيذاً لأمر الفاطميين كما يذهب إلى ذلك أحد الدارسين[(٢)].

وإذا كان للباحث أن يأخذ برواية الصولي عن دخول القرامطة للبصرة - وهي بلا شك رواية جديرة بالثقة - فإنه ربما كان أحد الأسباب الوجيهة لدى القرامطة لمهاجمة البصرة هو عزل علي بن عيسى عن الوزارة وتقليدها لعلي بن الفرات.

وهكذا فقد وجهت التهمة للوزير علي بن عيسى بالخيانة وممالأة القرامطة، فصودرت بعض أمواله وقضى الوزير ابن الفرات بنفيه إلى

---

(١) انظر: ياقوت بن عبدالله الحموي: معجم الأدباء، تحقيق د.س، مرجليوث نسخة مصورة (بيروت - دار إحياء التراث العربي د.ت) ٢/ ١٤٤-١٤٦، ومعلوم أن المساحي من أدوات الحراثة وآلات الزراعة، أما الطلق فهو كما جاء التعريف به في أثناء المحاكمة: بأنه طلاء إذا طلي به البدن أو يره لم تمل فيه (النا) وربما أن هذا الطلاء هو المقصود بالسلاح الذي أشارت إليه بعض الروايات السابقة.

(٢) دي خويه: القرامطة، ص: ٧٤.

اليمن - على الرغم من تبرئة القاضي له - ووكل به رجلاً من أصحابه وأمره بالاحتيال لقتله في الطريق[١].

ومن المفارقات في هذه القضية أن الذي يوجه الاتهام ويصدر الحكم هو العدو اللدود للمتهم علي بن عيسى أي ابن الفرات، ويلاحظ أن الخليفة مغيبٌ فلا نكاد نسمع له قولاً في هذا الشأن الخطير[٢]، سوى أنه أذن لابن الفرات في إبعاد علي بن عيسى إلى مكة[٣].

ولدينا رواية أخرى ذات صلة مباشرة بإقالة علي بن عيسى ومهاجمة البصرة، وهي تكشف لنا في الوقت نفسه عن مدى النفوذ الذي بلغه القرامطة وشيعتهم في دار الخلافة، يقول القاضي عبد الجبار: «... وكان بنو بسطام وبنو القاسم بن عبدالله وآل الفرات وأمثالهم يستولون على دولة المقتدر بالله، وكانوا يتشيعون فراسلوا أولاد أبي سعيد (أي الجنابي)، وقالوا لهم: أنتم خرجتم أيام المعتضد والمكتفي فلما صار الأمر إلى هذا الصبي - المقتدر - قعدتم، قوموا فنحن كتابه وأصحابه والدولة لكم ولا يوحشنكم قتل أبي سعيد وما كان منه فإن الناس قد تناسوا ذلك، فقالوا هذا الرجل علي بن عيسى رجل صالح وما دام هو الناظر فما نختار مخالفته، فلما قبض السلطان على علي بن عيسى، أطلق من بغداد والكوفة من الشيعة الطيور إلى البحرين بذلك، فغزوا البصرة على غفلة وغدروا بهم أقبح غدرة، ثم غزوا الكوفة وسر بهم الشيعة، وقالوا: أبو طاهر بن أبي سعيد ولي الله وحجة الله، والمهدي

(١) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٣٣، عريب: صلة ١١/٩٨، وقارن الهمذاني: تكملة ١١/٢٣٨.

(٢) انظر: الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٣٣-٢٣٤.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/٢٣٩-٢٤٠.

بالبحرين يخرج عن قرب، وأبو طاهر خليفته وهو الذي يأخذ الأرض له ويكون ملكه بالبحرين...»[١].

هذه الرواية التي ذكرها القاضي عبد الجبار إن كان للباحث أن يقبل بها مع بعض التحفظ فهي في واقع الأمر لائحة اتهام لبعض الأسر النافذة في بغداد بميولهم الشيعية وموالاتهم لأعداء الدولة من القرامطة وتآمرهم على رأس الدولة أي الخليفة، بل إن القاضي عبد الجبار يكرر القول بأن في بغداد والكوفة وسوادها أناساً يراعون أمر المقتدر وينقلون أخباره إلى أبي طاهر بن أبي سعيد[٢]. مفاد هذا الخبر أن جواسيس القرامطة والمتعاطفين معهم من ذوي الميول الشيعية يكثرون وينشطون في العاصمة بغداد وفي الكوفة وريفها ويتصلون بأبي طاهر ويكشفون له عن أخبار الدولة وأسرارها، وهذا ما يمكن وصفه بلغة اليوم أن الجبهة الداخلية للدولة أصبحت مخترقة وأن طابوراً خامساً يعمل لصالح العدو في أهم حواضر الخلافة.

وفي خضم هذه الأحداث المتلاحقة، التي تعصف بالخلافة، أتى الخبر في أول شهر المحرم سنة (٣١٢هـ) باعتراض أبي طاهر الجنابي طريق الحاج في «الهبير وهم في طريق عودتهم من الحج»[٣] إذ إن الجنابي وأصحابه أوقعوا بهم فقتلوا عامتهم وأسروا خلقاً، وأخذوا ما

(١) انظر زكار: أخبار القرامطة، ص: ٣٠١.

(٢) انظر زكار: أخبار القرامطة، ص: ٣٠١.

(٣) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٤٩-٢٥٠، وقارن المسعودي: التنبيه، ص: ٣٤٦، الهبير: بفتح أوله وكسر ثانيه، قال أبو عمرو: «الهبير من الأرض أن يكون مطمئناً وما حوله أرفع منه؛ والهبير رمل زرود في طريق مكة..» انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٣٩٢.

معهم فماتوا عطشاً وجوعاً، كما قتل كثيراً من وجوه المجتمع البغدادي، وكان جملة أصحاب الجنابي قرابة ألف وستمائة رجل[1].

ويضيف عريب إلى هذا الخبر قوله: وكل من أفلت من أيدي القرامطة، أكلهم الأعراب، وسلبوا ما بقي معهم مما كان تخبئه الناس من أموالهم، ومات أكثر الناس عطشاً وجوعاً[2].

وماذا عن موقف الخليفة أمام هذا التحدي الخطير لسلطانه والعبث بأمن مملكته والاستهانة بحرمة حجاج بيت الله الحرام؟!

لقد أمر الخليفة بمواجهة هذا الحادث الجلل وطلب من مؤنس الخادم القدوم من الرقة ليخرج إلى القرمطي! ووصل مؤنس أخيراً إلى بغداد في غرة شهر ربيع الأول[3]، أي بعد هذه الحادثة بشهرين، ولكن من الواضح أن مؤنساً لم يفعل شيئاً تجاه هذه الكارثة.

وأمام هذه الفاجعة التي حلت بالحجاج في الهبير على يد أبي طاهر، انقلبت بغداد كما يقول ابن الأثير: واجتمع حرم المأخوذين إلى حرم المنكوبين الذين نكبهم ابن الفرات، جعلن ينادين: «القرمطي الصغير أبو طاهر قتل المسلمين في طريق مكة، والقرمطي الكبير ابن الفرات قد قتل المسلمين ببغداد». ثم يعلق ابن الأثير على ذلك بالقول: «وكانت صورة فظيعة شنيعة، وكسر العامة منابر الجوامع، وسودوا المحاريب يوم الجمعة لست خلون من صفر سنة ٣١٢هـ»[4].

---

(١) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٥٠، المسعودي: التنبيه، ص: ٣٤٦، وذكر ابن كثير أن عدد قوة أبي طاهر (٨٠٠) رجل وأن عمره كان ١٧ سنة، وأن هؤلاء الحاج هم العائدون من موسم حج ٢١١هـ، انظر ابن كثير: البداية والنهاية ١٥/ ١١.

(٢) عريب: صلة ١١/ ١٠٤.

(٣) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٥٠، عريب: الصلة ١١/ ١٠٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٤٧-١٤٨، وقارن: ابن كثير: البداية ١٥/ ١١-١٢.

ويقدم لنا ابن مسكويه صورة عن الاتهام الذي وجهه نصر الحاجب ضد ابن الفرات أمام الخليفة المقتدر، وفيه تعليل أيضاً لنكبة الحجاج في الهبير، جاء فيه الساعة تقول: «أي شيء الآن.. بعد أن زعزعت أركان الدولة وعرضتها للزوال، بإعادك مؤنساً الذي يناضل الأعداء ويدفع عن الدولة، فمن يمنع الآن هذا الرجل [أي أبو طاهر القرمطي] عن السرير، ومن الذي أسلم رجال السلطان وقواده وحرمه إلى القرمطي سواك[1]! وقد ظهر الآن أمر العجمي الذي وجد في دار السلطان، وإنه إنما كان صاحب القرمطي...»[2].

وكان قد وجد في أوائل محرم سنة (٣١٢هـ) رجلاً أعجمياً على سطح دار السر، التي كان المقتدر يكثر الجلوس فيه ومعه محبرة وأقلام وورق وحبر وسويق ومقدحة وسكين، واحضر إلى ابن الفرات فسأله عن حاله فقال لا أخاطب غير الخليفة، فضرب وهو يقول «ندانم» أي لا أعرف بالفارسية حتى قتل بالعقوبة[3].

والغريب أن هذا الفارسي المشتبه في أمره قد طلب مقابلة الخليفة ليفصح له عن سبب وجوده في الدار، ولكن ابن الفرات لم يمكنه من ذلك، بل عاقبه حتى تلف فصلب ولف على حبل[4]!!.

---

(١) إشارة إلى نكبة الحجاج في الهبير حيث قتل وأسر فيها عدد من قادة الجيش العباسي ووجهاء بغداد.

(٢) ابن مسكويه: تجارب ١/ ١٢١-١٢٢.

(٣) ابن مسكويه: تجارب ١/ ١١٨، الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٤٠، ويذكر الهمذاني أن هذ الفارسي دخل الدار مع الصناع وبقي أياماً وعطش فخرج لطلب الماء فظفر به ١١/ ٢٤٠.

(٤) انظر ابن مسكويه: تجارب ١/ ١١٨.

ووجود هذا الفارسي في دار الخلافة أصبح تهمة خيانة ومؤامرة على حياة الخليفة رمى بها كل من نصر الحاجب وابن الفرات صاحبه في حضرة الخليفة[١].

والحقيقة أنها ليست المرة الأولى التي يظهر فيها رجل غريب في دار الخلافة فقد حدث في سنة (٢٨٤هـ) أن ظهر شخص غريب في دار المعتضد بالثريا أكثر من مرة مما سبب الخوف والانزعاج في نفس المعتضد، ودعاه إلى إحكام السور وتشديد الحراسة حوله، ولكن لم يظهر بذلك الرجل[٢]!.

وربما كان إدخال بعض الغرباء في قصور الخلفاء أحد أساليب رجال السياسة في ذلك العصر لابتزاز الخليفة وتخويفه، وليس من المستبعد كذلك أن يكون أولئك الغرباء الذين ظهروا في أكثر من مناسبة في قصور الخلفاء مجندين للقرامطة أو للإسماعيلية[٣]!!.

واستجابة للغليان الشعبي احتجاجاً على تفريط ابن الفرات في حفظ الحجاج الذين أوقع بهم أبو طاهر الجنابي، وكذلك اشتطاطه في مصادرة

---

(١) انظر الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٤١.

(٢) الطبري: تاريخ ١٠/ ٦٣-٦٤، وانظر خبر الشيخ الذي يتشكل بصور مختلفة في: مروج الذهب ومعادن الجوهر: لعلي بن الحسين المسعودي ٤/ ١٧١-١٧٢، بيروت، دار الأندلس ١٣٨٥هـ، وانظر رواية ابن الجوزي عن هذه الحادثة في المنتظم ١٢/ ٣٧٣.

(٣) الإسماعيلية: فرقة من فرق الشيعة، تقول إن الإمام بعد جعفر الصادق، ابنه إسماعيل نصاً عليه باتفاق من أولاده واختلفوا في وفاته حال حياة أبيه أم بعد ذلك، وأشهر فرق الإسماعيلية هم الباطنية التعليمية، انظر: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق/ عبد العزيز الوكيل، بيروت، دار الفكر، د.ت، ص: ١٦٧-١٦٨.

أموال بعض الناس في بغداد، ونتيجة لضغوط كل من مؤنس وشفيع اللؤلؤي ونصر وشفيع المقتدري على الخليفة بالتخلص من ابن الفرات وولده المحسن، فقد وجهت إليه التهمة ويمكن اختصارها حسب ما وردت عند عريب بأنها: «عظم ما أحدث في الملك، وأفسد من الأمور وأتلف من الرجال...»[١]، فأصدر الخليفة المقتدر أمره بقتل ابن الفرات وابنه المحسن ورمى برأسيهما في دجلة.

وكان قد تم القبض على ابن الفرات وابنه في أوائل شهر ربيع الآخر سنة (٣١٢هـ)[٢] أي بعد ثلاثة أشهر تقريباً من نكبة الحجاج في الهبير.

ثم أحضر أبو القاسم عبدالله بن محمد الخاقاني فاستوزر مكان ابن الفرات، وكان مؤنس الخادم هو الذي أشار به وزين أمره وحض المقتدر على استيزاره[٣].

وهكذا ينفرد خادم في قصر الخلافة بترشيح الوزير الذي يناط به تصريف أمور المملكة والناس ومعاشهم، وهذا في ظل غياب مجلس استشاري بعيد عن الأهواء يشير على الخليفة بمن هو جدير بتحمل مسؤولية الأمانة!!

وبالعودة إلى علاقة قرامطة البحرين بالخلافة، نجد في بعض المصادر ما يفيد أن أبا طاهر القرمطي قد أطلق من الأسر ألفي رجل ومائتين وعشرين وخمسمائة امرأة، فأطلق منهم أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون الأمير، وأحمد بن بدر عم السيدة - أي أم المقتدر -

---

(١) عريب: الصلة ١١/ ١٠٥، وقارن: الهمذاني: التكملة ١١/ ٢٤٥.

(٢) انظر: عريب: الصلة ١١/ ١٠٤.

(٣) عريب: الصلة ١١/ ١٠٤.

وغيرهم، وطلب من الخليفة أن يتنازل له عن البصرة والأهواز، ولكن الخليفة رفض الطلب[١].

وبسبب رفض الخليفة لطلب أبي طاهر، فقد قرر الانتقام وذلك عن طريق تعطيل قوافل الحج ونهبها، وكان قد قدم في ذي القعدة من سنة (٣١٢هـ) حجاج خراسان إلى بغداد في طريقهم للحج، وكانوا مستعدين بالخيل والسلاح ويصحبهم خفارة يقدر عددها بستة آلاف إضافة إلى ألف رجل من بني شيبان بقيادة جعفر بن ورقاء الشيباني أمير الكوفة، وكان الجنابي قد كمن لقوافل الحجاج بالقرب من «زبالة»[٢]، وصارت المناوشة بين الفريقين وتخلص ابن ورقاء بنفسه، وقتل خلق من الجند ممن كان معه وترك الحاج المتسرعة خيلهم وتفرقوا راجعين إلى الكوفة وأتبعهم القرمطي حتى الكوفة وقتل خلقاً من الجند وغيرهم وانهزم الباقون إلى بغداد وأقام القرمطي بالكوفة أياماً وأخذ كثيراً من أهلها وأسرهم أصحابه. . . ورحل إلى البحرين بعد أيام[٣].

وكان كل ما فعله الخليفة أمام هذا التحدي القرمطي لسلطانه أن بعث جيشاً إلى الكوفة لإخراج أبا طاهر منها بلغت النفقة عليه كما قيل ألف ألف درهم، ولكن لم يجد نفعاً إذ إن القرمطي قد رحل إلى بلاده[٤].

---

(١) انظر: الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٤٦، وقارن ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٥٥-١٥٦، ابن كثير: البداية ١٥/ ١٢.

(٢) زُبالَة: بضم أوله، منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٢٩-١٣٠.

(٣) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٦-٢٦١، ابن مسكويه: تجارب ١/ ١٤٥-١٤٦.

(٤) انظر: الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٦٠-٢٦١.

ونتيجة لهذه الوقعة فقد بطل الحج من العراق هذا العام[١]، وفي شهر رمضان سنة ٣١٣هـ قبض على الوزير عبدالله بن محمد الخاقاني ووكل به في منزله، فكانت ولايته ثمانية عشر شهراً[٢]، وكان من أسباب عزله اعتلال صحته والأزمة المالية الخانقة التي لم يستطع أن يجد لها حلاً[٣].

وقد أشار إلى ذلك عريب في قوله: «ومما أوهن أمر الوزير وكرهه إلى الناس غلاء الأسعار في زمانه ولم يكن عنده حيلة يكثر بها ورود الميرة إلى بغداد[٤] ومن ثم رشح الخصيبي للوزارة بدلاً عن الخاقاني، والذي قام بالترشيح هذه المرة لهذا المنصب الخطير بعض نساء القصر»!!

فقد جاء في رواية لابن مسكويه أن مؤنساً أشار على المقتدر باستحضار علي بن عيسى وتقليده الوزارة فاستبعد المقتدر ذلك - لأن علياً كان في المغرب آنذاك - فأشارت السيدة أي والدة المقتدر والخالة، أي أختها؟ - بأبي العباس الخصيبي[٥].

أما رواية عريب فهي تختلف بعض الشيء، وتؤكد على دور القهرمانة ثمل في ترشيح الخصيبي للوزارة، قال: «. . . وظهر من أمر الوزير عبدالله بن محمد ما ظهر - أي العجز عن العمل - وتكملوا في عزله

(١) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٦١، الهمذاني: تكملة ١١/٢٤٧، وقارن: ابن الجوزي: المنتظم ١٣/٢٦٣.

(٢) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٦٤، عريب: الصلة ١١/١٠٩، وقارن ابن مسكويه: تجارب ١/١٤٢.

(٣) انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/١٥٨.

(٤) عريب: الصلة ١١/١٠٨.

(٥) ابن مسكويه: تجارب ١/١٤٢.

وشاوروا في رجل يصلح للوزارة مكانه، فمالت ثلم - وكانت متمكنة من المقتدر - برايها وعنايتها إلى أحمد الخصيبي، وكان يكتب لأم المقتدر وساعدها نصر على ذلك حتى تم له وصح عزم المقتدر عليه[١].

وهكذا يتبين من مجريات الأحداث أن الخليفة وهو رأس الدولة ليس له دور ملحوظ فيمن يلي أمر الوزارة على الرغم من خطورته، حيث إن الذي يختار ويتخذ القرار هي القهرمانة ثمل أو أم الخليفة وخالته أو بعض القادة من العناصر الأجنبية - مثل مؤنس أو نصر.

يحدث مثل هذا التصرف والبلاد لا زالت تعاني من الصدمة التي تركتها الأعمال الوحشية للقرامطة في زبالة وفي نهب الكوفة قبل بضعة أشهر مضت!

والآن رب سائل يسأل ما الصفات التي كانت تميز الخصيبي عن سواه حتى يكون المرشح المفضل للوزارة؟! ما من شك في أن أهم صفة كان يتصف بها في نظر من رشحه للوزارة أنه كان كاتباً للسيدة أم المقتدر[٢]، أما صفاته الأخرى فكان يواصل شرب النبيذ بالليل والنوم بالنهار في أيام وزارته كلها، وإذا كان مخموراً لا فضل فيه للعمل جعل رد الكتب الواردة وقراءتها والتوقيع عليها إلى نوابه، وأهمل الاطلاع عليها، فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم[٣]. وهابه الناس لموضعه من

---

(١) عريب: الصلة ١١/١٠٩، وذكر ابن الأثير في الكامل: رواية أخرى عن سبب تولية الخصيبي للوزارة ٨/١٥٨.

(٢) انظر: عريب: الصلة ١١/١٠٩، وقيل كان كاتباً للقهرمانة ثمل!؛ الهمذاني: تكملة ١١/٢٤٧.

(٣) ابن مسكويه: تجارب ١/١٤٧، وانظر الهمذاني: تكملة ١١/٢٤٧، ابن الأثير: الكامل ٨/١٦٤.

الخليفة، ومن السيدة وثمل القهرمانة، لكتابته لها ولأن ضياع السيدة تحت يده[١]. ولكن الأمور على كل لم تصف للخصيبي، «ولم يكن للناس في هذا العام - أي ٣١٣هـ - موسم حج لتغلب القرامطة على البلاد، وقلة المال وضيق الحال، فطولب بأموال قوم لا حجة عليهم إلّا لفضل نعمة كانت عندهم، وألح الوزير على الناس في ذلك حتى طلب امرأة المحسن ودولة أم علي بن محمد بن الفرات وابنة موسى بن خلف وغيرهم، وكثر الناس في ذلك وأنكروه غاية الإنكار»[٢]، وتمنى الخصيبي أنه لم يكن دخل في الوزارة، وجعل أمره يضعف كلما قل مال المصادرين[٣]، وجاء عند ابن مسكويه قوله: «وكثرت الأراجيف بالخصيبي وأنه مصروف عن الوزارة لأنه حمار لا يحسن شيئاً غير المصادرات واللعب وأن الأمور كلها ضائعة والمهمات واقفة. . .»[٤]، وأخيراً في شهر ذي القعدة سنة ٣١٤هـ عزل الخصيبي عن الوزارة، و كان سبب ذلك الضائقة المالية مما سبب توقف أمور الدولة، أو كما يقال: «وتوقفت أمور السلطان لذلك»[٥].

ونظراً لاشتداد الأزمة المالية وظهور عجز الخصيبي، قبض عليه يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٣١٤هـ، وعلى ابنه معه وأسبابه، فكانت مدة وزارته أربعة عشر شهراً[٦]. واستوزر مكانه علي

---

(١) الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٦٤.

(٢) عريب: الصلة ١١/ ١١٠، وقارن الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٦٦.

(٣) الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٧٢.

(٤) ابن مسكويه: تجارب ١/ ١٤٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٦٣-١٦٤.

(٦) الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٧٢-٢٧٣، عريب: الصلة ١١/ ١١٢.

ابن عيسى الذي كان بالمغرب متولياً للأشراف، واستخلف له عبيدالله بن محمد الكلواذي إلى حين قدومه[١].

وبعد أقل من ثلاثة أشهر من إقالة الخصيبي واعتقاله قدم علي بن عيسى بغداد في الخامس من شهر صفر سنة ٣١٥هـ، ومثل بين يدي الخليفة في منتصف صفر تقريباً، فاستعفى منه منصب الوزارة، فلم يعفه[٢].

وعلى الفور باشر علي بن عيسى مهام وزارته بكل حزمه وأمانته، قال عنه الصولي وهو شاهد عيان: «وضبط علي بن عيسى الأمر جهده وطاقته، ونظر ليله ونهاره، وجلس للمظالم كل يوم ثلاثاء، ودعته الضرورة في قلة المال إلى الإخلال في بعض الإقامات (في طريق مكة وغيرها) لأنه كان لا يأخذ مال أحد ولا يظلم كظلم غيره، ولا يسأل عن مستتر ولا يسمع من صاحب خبر، فأمن أصحاب السلامة في أيامه، وقطع الزيادات والتعلل وتحفظ من أن تجري عليه حيلة»[٣].

وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى بغداد أن أبا طاهر القرمطي خرج من هجر قاصداً العراق فأمر المقتدر ابن أبي الساج بالخروج لحربه وأمر علي بن عيسى عمال الكوفة بإعداد الميرة لابن أبي الساج[٤].

وسار ابن أبي الساج من واسط قاصداً الكوفة في آخر ليلة من

---

(١) الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٧٢، عريب: الصلة ١١/١١٢.

(٢) الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٧٤، عريب: الصلة ١١/١١٣

(٣) الصولي: أخبار المقتدر، ص:٢٧٤، عريب: الصلة ١١/١١٣، وانظر كذلك: محمد بن علي بن طباطبا الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٢٦٧-٢٦٨، بيروت، دار بيروت ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(٤) الهمذاني: التكملة ١١/٢٥٢.

رمضان، ولكن أبا طاهر القرمطي سبق ابن أبي الساج إلى الكوفة، وأخذ ما أعد ليوسف من الميرة وهو مائة كر[١]، دقيقاً وألف كر شعير[٢]، وكان قد فنى ما مع الجنابي من الميرة والعلوفة فقووا ما أخذوه[٣].

ووصل يوسف بن أبي الساج إلى الكوفة بعد وصول القرمطي بيوم واحد فحال بينه وبينها، فلما وصل إليهم أرسل يدعوهم إلى طاعة المقتدر، فإن أبوا فموعدهم الحرب، فقالوا: لا طاعة علينا إلّا لله تعالى والموعد بيننا للحرب بكرة غدة[٤].

وهكذا في يوم السبت التاسع من شوال سنة (٣١٥هـ) وقع القتال في ضواحي الكوفة بين الطرفين، فأسر ابن أبي الساج، واصطلم عسكره كما يقول المسعودي وأتى على أكثر من (٣٠٠٠٠) ألف فارس وراجل مع من تفرق من أصحابه عنه في الطريق وتأخرهم عنه وصاحب البحرين في نحو من ألفين من المقاتلة أكثرهم رجاله[٥].

وكان لهذه الوقعة بالجيش العباسي أثرها النفسي الكبير على سكان العاصمة بغداد كما يقرر ابن الأثير، فقد خاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان، ودخل المنهزمون بغداد أكثرهم رجالة حفاة عراة[٦].

---

(١) الكر: قال الأزهري والكر اثنا عشر وسقاً كل وسق ستون صاعاً، انظر: محمد بن مكرم، ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت، مادة «كرر».

(٢) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧١.

(٥) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٤٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧١، وقارن الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٧٨.

وبغض النظر عن العدد الصحيح للجيش العباسي في تلك الوقعة إلّا أن المقارنة بين الفريقين تبقى كبيرة جداً، وإن كان لا بد من تفسير مقبول لهذه الهزيمة النكراء، فلا يستبعد أن للروح أثراً كبيراً في نفوس المقتالين وأن الغرور والغطرسة والاستهانة بالعدو التي كان يتصف به يوسف بن أبي الساج وجنوده كما تشير المصادر(١)، كانت من العوامل الحاسمة في تقرير مصير الحرب، وليس من المستبعد كذلك أنه ربما كان للخيانة في صفوف الجيش العراقي نصيب فيما حدث!

وبعد وقعة الكوفة سار القرامطة نحو عين التمر ومن ثم الأنبار واستولوا عليها، وخرجت قوات عباسية إضافية بقيادة نصر الحاجب فبلغ الجيش العباسي كما تذكر بعض المصادر نيفاً وأربعين ألف مقاتل(٢)! وتقدم القرامطة غير مبالين بالجيوش العباسية حتى أصبحوا على بعد فرسخين من بغداد حيث وجدوا قنطرة نهر زبارا قد قطعت فتوقف زحفهم نحو بغداد(٣).

وأدرك أهل بغداد الفزع والخوف من دخول القرامطة مدينتهم فاكترى كثيراً منهم سفناً، ونقلوا إليهم أموالهم، وفيهم من نقل متاعه إلى واسط وإلى حلوان ليسيروا إلى خراسان(٤).

وقصد القرامطة هيت، فلما بلغوها كان عسكر الخلافة قد سبقهم إليها، وكان المؤرخ المسعودي في هيت في ذلك الوقت قادماً من الشام قاصداً بغداد، يقول: فواقع [الجنابي] أهل هيت يوم الأحد لثمان خلون

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٢-٢٥٣، ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧١.

(٢) انظر الهمذاني: تكملة: تكملة ١١/ ٢٥٤، ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧٢.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٤، ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧٢.

(٤) انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧٣.

من ذي الحجة [أي سنة ٣١٥هـ] فكان القتال بينه وبين جيش الخلافة على أسوار المدينة فاحترقت له عدة دبابات، وارتحل عنها يوم الاثنين[١]، وبالرغم من ذلك فلم يحج في هذه السنة أحد من العراق وخراسان خوفاً من القرامطة[٢].

لذلك سكنت نفوس ببغداد واستبشروا بهذا الظفر وتصدق المقتدر بمائة ألف درهم شكراً لله على هذا النصر المؤقت[٣].

وفي الحقيقة أن النجاح الذي حققه بعض القادة العباسيين مثل: هارون بن غريب الخال وسعيد بن حمدان في صد الهجوم القرمطي على هيت لم يكن يعني نجاح الخلافة في السيطرة على أوضاعها الداخلية والخارجية.

فمن ناحية الجيش العباسي يظهر أنه كان يعاني من قلة الانضباط وعدم صدق الولاء للخلافة وإلا فكيف يمكن لألفين وخمس مائة من القرامطة أن يهزموا جيشاً يزيد على الأربعين ألفاً[٤]!!. وإن كان للمرء أن يصدق ما قيل عن تقدير الخليفة المقتدر للجيش فهو ضعف العدد المشار إليه؛ قالوا: «لما علم المقتدر بعدة عسكره وعسكر القرامطة، قال: «لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة»[٥].

لذلك فليس من المستبعد أن هناك مبالغة كبيرة في حجم جيش

---

(١) المسعودي: التنبيه ٣٤٨-٣٤٩، وانظر الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٥.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٢٦٥.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٥.

(٤) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٤-٢٥٥، وقارن ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧٢-١٧٣.

(٥) انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧٣.

الخلافة، وليس من المستبعد كذلك أنه كان يضم بين أفراده أعواناً للقرامطة، وهو احتمال ليس ببعيد كما يرى أحد الباحثين[١].

وربما يقوي هذا الاحتمال العثور على جاسوس شيرازي في بغداد كان يتجسس لصالح أبي طاهر الجنابي ويكاتبه، فأحضر إلى الوزير علي ابن عيسى فأقر أنه من أصحاب أبي طاهر وأنه لم يتبعه إلّا لما رآه معه، وقال مخاطباً الوزير: «لسنا كالرافضة الحمقى، الذين يدعون إماماً منتظراً وإمامنا فلان بن إسماعيل بن جعفر فأمر به فحبس بعد الضرب، وامتنع عن الطعام ومات بعد ثلاثة أيام[٢]، هذا جاسوس واحد وربما أن بغداد وجيش الخلافة كانا يعجان بالكثير من الجواسيس القرامطة».

وفي هذه الأثناء كانت التهمة تحوم حول يوسف بن أبي الساج قائد الجيش الذي أسره الجنابي وقتله بالأنبار في أثناء العام نفسه، لقد اتهمه كاتبه وأمين سره محمد بن خلف النيرماني[٣]، بأنه لا يرى عليه طاعة للخليفة العباسي «المقتدر» ولا لبني العباس على الناس طاعة وأن الإمام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان وأن أبا طاهر الهجري صاحب ذلك الإمام وأنه صح عنده أنه [أي ابن أبي الساج] يتدين بدين القرامطة. . . «في حديث طويل[٤]، إن كان القبول بهذه الرواية ممكناً فهي تظهر عدم

---

(١) انظر دي خويه: القرامطة، ص: ٨٧.

(٢) الهمذاني: تكملة١١/ ٢٥٥، ومن أجل تفاصيل أكثر نظر: ابن مسكويه، تجارب ١/ ١٨١، ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧٤.

(٣) وردت أكثر من صيغة لاسم كاتب ابن أبي الساج فهو عند الهمذاني: أبو عبدالله بن خلف البرقاني: تكملة ١١/ ٢٥٢.

(٤) انظر: ابن مسكويه: تجارب ١/ ١٦٦-١٦٨، وقارن: ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٧٤-١٧٥.

إخلاص ابن أبي الساج للخلافة العباسية ولكنها لا تعني بالضرورة اعتناقه للإسماعيلية أو مذهب القرامطة. إذ إن مثل هذه التهم يروج سوقها في أوقات الاضطرابات وفي المنافسة بين الخصوم».

ومن المفارقات أنه في الوقت الذي كان فيه أبو طاهر الجنابي وأتباعه يعيثون فساداً في أنحاء مختلفة من العراق، كانت الشائعات تتحدث عن السيدة أم الخليفة والمؤامرة التي تعدها لاغتيال أحد أبرز القادة في الجيش العباسي ألا وهو مؤنس المظفر[١]، وقبل ذلك بستة أشهر أي في ربيع الأول من العام نفسه (٣١٥هـ)، كانت الشائعات قد سرت كذلك حول مؤامرة الخليفة على حياة مؤنس المظفر، مما حدا بالجيش إلى التخلي عن الخليفة والالتفاف حول القائد مؤنس والوقوف بجانبه، مما دفع بالخليفة أخيراً إلى نفي التهمة عن نفسه والاعتذار لمؤنس وتطييب خاطره[٢].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكن لرجال الدولة أن يفرغوا أنفسهم ويتصدون لأعداء الوطن وهم غير آمنين على أنفسهم من غدر رأس الدولة التي يدافعون عنها؟

وبكلمة أخرى يمكن القول إن جبهة العراق الداخلية كانت في تلك الظروف العصيبة مفككة والولاءات مشكوك فيه، والشائعات والمؤامرات كانت السمة الظاهرة في مجتمع العاصمة العباسية، لذلك فلا عجب أن ينجح أبو طاهر الجنابي في الاستفادة من هذه الظروف واستغلالها لصالحه، إذ شعر أن الدولة مشغولة بنفسها عن أعدائها!

ومما زاد الأمر سوءاً أن خزانة الدولة أصبحت شبه فارغة، ولعل هذا

---

(١) الصولي: أخبار المقتدر، ص: ٢٨١، وانظر: عريب: الصلة ١١/ ١١٥.

(٢) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥١.

كان أحد الأسباب التي أضعفت من قدرة الدولة على مطاردة قوات القرامطة وصد خطرها عن أنحاء العراق المتفرقة.

ويمكن إدراك إفلاس خزينة الدولة من خلال مخاطبة الوزير علي بن عيسى للخليفة بقوله: «.. إنما جمع الخلفاء الأموال ليقمعوا بها الأعداء، ولم تلحق المسلمين مضرة كهذه من هذا الكافر الذي أوقع بالحاج سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة ولم يبق في بيت الخاصة شيء فاتق الله يا أمير المؤمنين، وخاطب السيدة حتى تطلق ما عندها من مال ادخرته لشديدة، فهذه أمها، وإن لم يكن هناك شيء فالحق خراسان»(١).

ومن ثم دخل المقتدر على السيدة والدته وأطلعها على جلية الأمر فأعطته خمسمائة ألف دينار(٢)، هذه الصورة تبين إلى أي مدى وصلت حالة الدولة المالية من التدهور، وتظهر في الوقت نفسه مدى استحواذ والدة الخليفة على الثروة لدرجة أن يحتاج الجيش إلى عونها المادي.

وفي أثناء سنة (٣١٦هـ) كان أبو طاهر القرمطي لا يزال يعيث فساداً في أرجاء العراق يشيع فيها الخراب والدمار، فقد أوقع بأهل الرحبة(٣)، وقتل منهم مقتلة عظيمة ووجه بسرية إلى ديار ربيعة فأوقعت ببوادي الأعراب واستباحتها، كما زحف إلى الرقة فقاومه أهلها مقاومة عنيفة، وهبته الأعراب أو كما يقول الهمذاني: «حتى كانوا يتطايرون عند سماع ذكره». وجعل على كل بيت منهم ديناراً بعد أن نهبهم(٤).

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٥.

(٢) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٥.

(٣) الرحبة: لعل المقصود بالرحبة هنا: رحبة مالك بن طوق: بينها وبين دمشق ثمانية أيام... وإلى بغداد مائة فرسخ.. وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣/ ٣٤-٣٥.

(٤) انظر الهمذاني: تكملة ١١/ ٣١٦، غريب: الصلة ١١/ ١١٧.

أمام فشل الجيش العباسي في مواجهة القرامطة ووضع حد لهجماتهم على المدن العراقية إضافة إلى الضائقة المالية التي تعاني منها الدولة، شعر الوزير علي بن عيسى بالعجز التام عن تسيير أمور الخلافة، كما يجب لذلك قدم استقالته للخليفة الذي قبلها بعد تردد[١]، ثم ما لبث أن أمر باعتقاله، وكان الوزير يتوقع هذا المصير فقد لبس خفاً وعمامة وطيلساناً واستصحب مصحفاً ومقراضاً[٢]، فأخذ إلى دار السلطان، فاعتقل في دار زيدان القهرمانة[٣]، وكان ذلك في النصف من شهر ربيع الأول سنة ٣١٦هـ[٤].

ثم ما لبث أن وجهت إلى الوزير تهمة الخيانة وأنه كان بينه وبين أبي طاهر زعيم قرامطة البحرين اتصالات مشبوهة، فقد ادعى عليه نصر الحاجب؛ أنه وجد رجلاً يعرف بنصر الجوهري أقر أنه صاحب القرمطي وأنه جعله سفيراً بينه وبين علي بن عيسى، وحكى عنه أن علي بن عيسى كان يكاتب القرمطي على يده[٥].

ولكن السيدة والدة المقتدر تدخلت هذه المرة لصالح الوزير، وبحثت عن حقيقة التهمة، فاكتشفت بطلانها، ومن ثم أقنعت ابنها الخليفة ببراءته[٦]، وكان الخليفة قد عزم على ضرب علي بن عيسى على باب العامة[٧].

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/٢٥٦.

(٢) الهمذاني: تكملة ١١/٢٥٦.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/٢٥٦.

(٤) ابن مسكويه: تجارب ١/١٨٤.

(٥) ابن مسكويه: تجارب ١/١٨٦، وقارن الهمذاني: تكملة ١١/٢٥٧.

(٦) ابن مسكويه: تجارب ١/١٨٧.

(٧) الهمذاني: تكملة ١١/٢٥٧.

وكان سبب تلفيق هذه التهمة ضد الوزير كما يقول الهمذاني عداوة بين نصر الحاجب والوزير ولعلاقة الوزير الطيبة مع مؤنس، وهكذا فالعلاقات الشخصية أحياناً تلعب دورها الحاسم إيجاباً وسلباً في مصير الدولة العباسية في تلك الفترة الحرجة من تاريخها[١].

أما الذي خلف الوزير على بن عيسى في الوزارة فهو على بن مقلة[٢]، اضطراراً حسب رأي الهمذاني، وذلك بمشورة نصر الحاجب[٣]!! وكان قد رشح نفسه لهذا المنصب محمد بن خلف النيرماني وبذل في سبيل ذلك أي الوزارة ثلثمائة ألف دينار فلم تقبل منه، لما عرف عنه من الجهل بالكتابة والتهور في الأفعال[٤].

وهكذا فتعيين الوزير الذي يتولى إدارة البلاد يتم بترشيح من أحد أفراد الحاشية المحيطة بالخليفة كالحاجب مثلاً أو في أحيان أخرى يتوقف الترشيح لذلك المنصب الخطير على مقدار ما يدفعه المرشح من مال لقاء الفوز بالوزارة! ويظهر من ذلك كله أن الخليفة ليس له رأي فيما يحدث وليس له مجلس مشورة من ذوي الحجى والرأي يوجهونه لما فيه خير الأمة!!

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٧.

(٢) علي بن مقلة: هو الوزير الكبير، ولد بعد سنة ٢٧٠هـ، وزر للمقتدر والقاهر والراضي وتعرض لمحن كثيرة، منها قطع لسانه ويده، وهو صاحب خط مشهور وقتل سنة ٣٢٨هـ، انظر: أحمد بن محمد بن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١١٣-١١٨، تحقيق / إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٤-٢٣٠.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٦، يظهر أن ترشيح نصر لابن مقلة يعود إلى الهدايا الكثيرة التي غمره ابن مقلة بها ليضمن فوزه بالمنصب، انظر ابن الأثير ٨/ ١٨٤.

(٤) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٧.

في هذه الأثناء كان أبو طاهر الجنابي لا يزال يوالي حملاته المروعة في أنحاء متفرقة من العراق ويشيع الرعب والفزع في الكثير من أرجائه، مما أغرى من بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة فيكتمه خوفاً، إلى الظهور العلني وتحدي السلطة، فاجتمع منهم بسواد واسط والكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل، عرفوا بالبقلية[١]، وولوا أمرهم رجلاً يدعى حريث ابن مسعود، وظهرت منهم طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم شخصاً يدعى عيسى بن موسى، وهو ابن أخت عبدان الملقب قرميط، وكانوا يدعون إلى المهدي - المهدي الفاطمي في تونس - وكان أتباعهم خليطاً من القبائل العربية من بني ذهب وبني رفاعة وعبس وغيرهم[٢]، فسار عيسى بن موسى إلى الكوفة وجبى خراجه وصرف العمال من السواد، وسار حريث بن مسعود إلى أعمال الموفقي، وبنى بها داراً سماها دار الهجرة، فكانوا ينهبون ويسبون ويقتلون[٣]، وأخذوا الجزية ممن خالفوهم[٤].

وبعد عدة مصادمات مع جيش الخلافة ألحقت بهم الهزيمة، وحمل إلى بغداد مائتا أسير، كما أدخلت أعلامهم بغداد منكوسة، مكتوباً عليها

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٤، ويعلق المسعودي على هذه التسمية أي البقلية بقوله: والعلة في تسميتهم البقلية، هو اسم دياني عندهم أما عريب بن سعد، فذكر أن هذه الجماعة تعرف بالنقلية، انظر: صلة ١١/١١٩.

(٢) انظر المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٥، عريب: الصلة ١١/١١٩، ابن الأثير: الكامل ٨/١٨٦، ١٨٧.

(٣) انظر المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٥، ابن الأثير: الكامل ٨/١٨٦، الموفقي نهر قرب واسط منسوب إلى الموفق أبي أحمد الناصر لدين الله المتوكل على الله وأخي المعتمد وهو نهر كبير حفره الموفق، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٥/ ٢٢٥.

(٤) عريب: الصلة ١١/١١٩.

الآية الكريمة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

واللافت للنظر أن هذه الآية الكريمة قد رفعها الزنج شعاراً لهم في جنوب العراق قبل أكثر من نصف قرن وقد لقيت هوى في نفوس الكثيرين من سكان جنوب العراق إذ إنها تعبر عن تطلعاتهم نحو حياة أفضل ومستقبل واعد!.

ومن الواضح كذلك أنها وجدت لها صدى عميقاً في نفوس أتباع الحركة القرمطية في سواد العراق، حيث ترسخت الدعوة بينهم، واستجاب لها الكثير منهم وحسبنا شهادة على كثرتهم في سواد العراق ما ذكره الطبري عن انتفاضتهم في سنة (٢٨٧هـ)، فذكر أن غلاماً الطائي - أحد القادة العباسيين - قد قتل منهم «مقتلة عظيمة، ثم تركهم خوفاً على خراب السواد، إذ كانوا فلاحيه وعماله...»[١].

وهكذا يظهر من هذه الإشارة أن أغلبية سكان السواد قد اعتنقوا الدعوة القرمطية حتى أن ولاة الأمور خشوا على خراب جنوب العراق إذا ما مضوا في معاقبة سكانه، وما من شك في أن القبول الواسع الذي لقيته الدعوة القرمطية في السواد هو مؤشر على تردي الأوضاع الاجتماعية والمعاشية بين الناس هناك[٢]، مما جعلهم يتعلقون بدعوة تقدم لهم الكثير من الوعود والآمال في التغيير الاجتماعي والاقتصادي إلى مستوى أفضل. ولكن ليس بالضرورة كذلك القول إن سرعة انتشار الدعوة القرمطية في أرض السواد يعني أن الناس هناك قد اقتنعوا بالمبادئ الدينية التي تقوم

(١) الطبري: تاريخ ١٠/ ٨٢.

(٢) انظر عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط٣، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٥م، ص: ٩٦.

عليها؛ ولكنهم ربما قبلوا بها كمخرج من الأزمة الاجتماعية والمعاشية التي يعانون منها!.

على كل حال يظهر أن أبا طاهر الجنابي قد أطال المكث في العراق في هذه السنة أي سنة ٣١٦هـ حيث مكث في الرحبة وحدها نحواً من سبعة أشهر حسب رواية المسعودي[١]، ولم يغادرها إلّا في أول شعبان من السنة نفسها وفي طريق عودته إلى البحرين هاجم هيت ثانية، وعاود مهاجمة نواحي الكوفة والقادسية[٢]. وبالرغم من هذا كله لم نسمع للجيش العباسي أية مواجهة حاسمة مع قوات أبي طاهر! وربما يعود ذلك إلى انشغال جيش الخلافة بتحركات قرامطة السواد بزعامة مسعود وعيسى[٣] في العام نفسه، ويذكر ابن الجوزي أن أبا طاهر الجنابي عاد إلى بلده في سنة (٣١٦هـ)، وابتنى بها داراً سماها «دار الهجرة» ودعا إلى المهدي الذي ببلاد المغرب[٤]، بينما نجد المسعودي وهو مؤرخ معاصر لتلك الأحداث يؤرخ لعودة الجنابي إلى البحرين في أواخر المحرم وأول صفر سنة ٣١٧هـ[٥]، وهي رواية جديرة بالثقة.

وهذا يعني أن انسحاب الجنابي من العراق ربما استغرق نحو من ستة أشهر بدءاً من أول شعبان سنة (٣١٦هـ)، وانتهاء بأول صفر سنة (٣١٧هـ) حسب روايات المسعودي[٦].

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٠.

(٢) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٤.

(٣) انظر المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٤،

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٣/ ٢٧٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٥/ ٣١ذ.

(٥) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٠.

(٦) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٠.

وعلى الرغم من القضاء على تحركات قرامطة السواد، وكذلك انسحاب أبي طاهر من العراق، إلّا أن الأمور في بغداد أخذت تزداد سوءاً، حيث كانت تسير في غير صالح الخليفة، وربما يعود شطر منها للتنافس المرير على السلطة بين هارون بن غريب الخال - ابن خال المقتدر - ومؤنس المظفر حيث سرت شائعة في بغداد مفادها أن الخليفة المقتدر قد بايع لهارون بإمرة الأمراء، فعظم ذلك على أصحاب مؤنس، وكتبوا إليه بذلك وهو بالرقة، فأسرع العودة إلى بغداد، ولم يسع لمقابلة الخليفة[١]!.

ومن هنا بدأت تتأزم الأمور بين الخليفة وقائد الجيش، حيث إن مؤنساً نصب له معسكراً في إحدى ضواحي بغداد والتف الجند حوله، وانقضت السنة سنة (٣١٦هـ) والأمر على هذه الحال[٢].

وفي يوم السبت الثالث من محرم من السنة التالية سنة (٣١٧هـ) ومن معسكره بالشماسية أرسل مؤنس خطاباً إلى الخليفة المقتدر يذكر فيه: أن الجيش عاتب منكر للسرف فيما يطلق باسم الخدم والحرم من الأموال والضياع ولدخولهم في الرأي وتدبير المملكة ويطالبون بإخراجهم من الدار..[٣].

ثم إن المقتدر أجاب مؤنساً بخطاب طويل دافع فيه عن سياسته، وأخيراً صار الاتفاق بين الطرفين على إخراج هارون بن غريب الخال عن

(١) انظر: عريب، صلة ١١/١٢١، فهو يدرج هذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٣١٧هـ، وهذا يخالف المشهور من أنها في نهاية سنة ٣١٦هـ، وقارن: الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٧-٢٥٨، ابن الأثير: الكامل ٨/١٨٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٨٨.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٩، وقارن، ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٠٠.

بغداد، فوجهه الخليفة من يومه إلى الثغور الشامية والجزرية[١]، وعلى الرغم من التنازلات التي قدمها الخليفة لقادة الجيش وإخراج ابن خاله هارون بن غريب الخال في مهمة عسكرية، إلّا أن الأمور لم تجر على ما يحب الخليفة فقد عاد مؤنس والجيش إلى بغداد في العاشر من محرم (٣١٧هـ) «يوم عاشوراء»، وقد أعدوا العدة للانقلاب على الخليفة، حيث زحفوا إلى دار السلطان، وهرب منها أعوان الخليفة وأهل ثقته، وأخرج هو والدته وحرمه ليلاً إلى دار مؤنس، وبويع لمحمد بن المعتضد بالخلافة، ولقب بالقاهر بالله[٢]، ونهب الجند الدار ومحو رسوم الخلافة وهتكوا الحرمة[٣].

وبعد يومين من هذا الانقلاب ما لبث الجند وقادتهم أن انقلبوا على الخليفة الجديد بسبب عدم وفائه لهم بدفع مستحقاتهم المالية «الرزق» نظراً للعجز المالي الذي تعاني منه خزانة الدولة، ثم أعيد تنصيب المقتدر خليفة مرة أخرى وجددت له البيعة[٤]، ومقابل ذلك فقد تعهد المقتدر على نفسه أمام الجند بقوله: «لكم عليّ أرزاق أربعة أشهر، وزيادة خمسة دنانير لكل واحد منكم، وما عندي ما يفي بهذا، ولكني أبيع ما بقي من ثيابي وفرشي وأبيع ضياعي وضياع من يجوز عليه أمري فبايعه الناس بيعة مجددة واجتهد في توفية ما ضمن لهم»[٥]، حتى أنه

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٥٩.

(٢) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٦١، القاهر بالله: محمد بن أحمد المعتضد، أمه مولدة بالمغرب يقال فها قتول، استخلف في شوال سنة ٣٢٠هـ، وخلع وسملت عيناه في جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ، وتوفي سنة ٣٣٩هـ، انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٣٣٩-٣٤٠، ترجمة ٢٤٣.

(٣) عريب: صلة ١١/ ١٢٣.

(٤) عريب: صلة ١١/ ١١٣-١٢٥، الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٦١-٢٦٢.

(٥) عريب: صلة ١٢٤-١٢٥.

اضطر في سبيل ذلك إلى صرف أواني الذهب والفضة، ثم أعجلوه عن صرفها فكان يزنها لهم مكان الدنانير والدراهم... ويستمر عريب في حديث عن الأزمة المالية الخانقة ومحاولة الخليفة المقتدر الوفاء بما شرطه على نفسه للجند، فيقول: «.... ولم يف مال المقتدر والآنية التي أحضرها بأرزاق الجند، فأمر بارتجاع ما كان أقطعه الناس من الأموال والمستغلات، وأفرد لها ديواناً. وسُمي ديوان المرتجعة»[١].

ومن اللافت للنظر هنا أن الخليفة يضطر لبيع أمتعته الشخصية نظراً لعدم وجود المال اللازم في بيت المال لفداء نفسه وتسيير الأمور العامة للدولة، بينما في خلال هذه الأزمة عثر أحد الرجال الموالي للقاهر حين الانقلاب ضد المقتدر على ستمائة ألف دينار للسيدة، والدة المقتدر، مدفونة في تربتها[٢]! هذا مدفن واحد تم العثور فيه على هذا المبلغ فما بالك ببقية المدافن؟

ومما تجدر ملاحظته بهذا الخصوص أن الانقلاب على الخليفة المقتدر كان بسبب التنافس بين كبار القادة على مراكز القوة في دار الخلافة، إضافة إلى تبرم الجيش من التلاعب بالثروة والأموال العامة للدولة، وتدخل الخدم والنساء في شئون الحكم وصرف القاهر عن الخلافة بعد يومين من تنصيبه نظراً لعجزه عن معالجة أمر أرزاق الجند، لذلك أعاد الجند المقتدر مرة أخرى إلى كرسي الخلافة لا حباً فيه بل ظناً منهم بأنه القادر على معالجة هذه الأزمة سيما وأن السيدة والدته «شغب» كانت تحتجن ثروة كبيرة، فربما ظن الجند أن إعادة المقتدر للخلافة

---

(١) عريب: صلة ١١/ ١٢٥، وقارن الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٦٣، ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٠٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٠٢.

سيشجع والدته على المشاركة في حل المأزق المالي وصرف أرزاق الجند.

ورب سائل يسأل عن محمد بن المعتضد الذي لقب بالقاهر، من أين جاء؟ أو من أين جيء به لتولي أمر الخلافة؟

في الحقيقة أنه كان ببغداد في ذلك الوقت داراً تعرف بدار ابن طاهر، هي مستقر أولاد[(١)] الخلفاء أو على وجه الحقيقة مستودع أبناء الخلفاء تقوم عليها حراسة شديدة وإدارة صارمة من قبل كبار قادة الأتراك، فمتى ما أرادوا استبدال خليفة بآخر أرسلوا لإدارة هذه الدار يطلب من يريدونه مرشحاً للخلافة! وهكذا يتم تعيين خليفة المسلمين وفق الشروط والضوابط التي تتوافق مع مصالح هؤلاء الأجانب من القادة، أما مصلحة الأمة فتأتي في المرتبة الأخيرة!

وقد أدرك المقتدر هذا الوضع بعد أن أعيد للخلافة وأحضر القاهر بين يديه وصار يتوسل إليه في الإبقاء على حياته حيث خاطبه بقوله: «يا أخي قد علمت أنه لا ذنب لك، وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر...»[(٢)]، فالمقتدر يعلم أنه لا هو ولا أخوه ولا غيرهما من أبناء البيت لهم الخيرة من أمرهم فيما يتعلق بأمر الخلافة، إذ إنهم مجرد دمى يؤتى بهم إليها ويبعدون عنها حسب ما تقتضيه ظروف التنافس بين كبار القادة. ولعل هذا الاستطراد يلقي شيئاً من الضوء على حقيقة القوة التي كان يتمتع بها الخليفة العباسي ومؤسسة الخلافة برمتها في أثناء الصراع مع قرامطة البحرين.

---

(١) انظر عريب: صلة ١١/٢٧، ٢٨، ١٢٤، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/٢٠٦.

وفي المقابل فإن قرامطة البحرين تجمعهم قيادة واحدة متمثلة بأبي طاهر سليمان الجنابي، تساعده في الإدارة ورسم الخطط وتنفيذها جماعة استشارية مؤلفة من ستة وزراء[١]، وقد تسلم القيادة في ذلك المجتمع بدءاً من سنة ٣١٠هـ[٢]، وحتى وفاته في سنة ٣٣٢هـ، ولم يظهر في تلك الفترة من ينازعه الزعامة من أبناء أسرته.

• الهجوم القرمطي على مكة (٣١٧هـ) • • • • • • • • • • • • • • • • • • •

وفي ظل هذا الصراع على مراكز القوة والنفوذ في دار الخلافة والفوضى العارمة في صفوف الجيش العباسي، قرر أبو طاهر استثمار هذا الوضع المزري الذي تمر به بغداد بتوجيه الضربة الموجعة لرمز المرجعية الدينية التي تعتز بها الخلافة العباسية كما يعتز بها المسلمون في كافة أصقاع الأرض ألا وهو غزو مكة واستباحة البيت العتيق!! وقد ترك لنا المسعودي وهو مؤرخ معاصر لذلك الحدث وصفاً دقيقاً لتلك الفاجعة، قال: «ثم سار إلى مكة فدخلها يوم الاثنين لسبع خلون من ذي الحجة من هذه السنة أي (٣١٧هـ) في ستمائة فارس وتسعمائة راجل وأميرها يومئذ محمد بن إسماعيل المعروف بابن مخلب بعد أن كان من بها من الأولياء وغيرهم من عوام الناس من الحاج وغيرهم صافوه انكشفوا من بين يديه عند قتل نظيف غلام ابن حاج، وكان من شحنة مكة وممن يعول عليه وأخذ الناس السيف وعاذوا بالمسجد والبيت، فاستحر القتل فيهم وعمهم، وقد تنوزع في عدة من قتل من الناس من أهل البلد وغيرهم من سائر الأمصال فمكثر ومقلل، فمنهم من يقول ثلاثين ألفاً

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامه: ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠، ص: ١٤٣.

(٢) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٤.

ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر. وكل ذلك ظن وحسبان إذ كان لا يضبط وهلك في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وضراً ما لا يدركه الإحصاء واقتلع باب البيت الحرام، وكان مصفحاً بالذهب وأخذ جميع ما كان من البيت من المحاريب الفضية، والجزع وغيره ومعاليق وما يزين به البيت من مناطق ذهب وأنازيرات ذهب وفضة وقلع الحجر الأسود ومقدار موضعه ما يدخل فيه السيد إلى أقل من المرفق، وجرد البيت مما كان عليه من الكسوة، وحمل ذلك على خمسين جملاً إلّا ما أصابه الدم عند عوذ الناس به فإنه ترك، وذلك يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣١٧هـ»)[١].

وعلى الرغم من شمولية التقرير الذي قدمه المسعودي عن هذه الكارثة التي حلت ببيت الله العتيق وحجاجه، وعلى الرغم كذلك من معاصرة المسعودي لما حدث إلّا أن التقرير جاء خلواً من بعض المعلومات التي يجدها الباحث في بعض المصادر الأخرى، والتي يمكن أن تساعد على فهم ما حدث.

فمن ذلك ما جاء عند القاضي عبد الجبار في وصف طويل لتلك الحادثة يمكن الإشارة إلى شيء منه هنا، قال: «وأبو حفص عمر بن

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٠-٣٥١، والغريب أن عريب بن سعد الذي أسهب في وصف حادثة الاعتداء على مكة ونهب كنوز الكعبة يدرج هذه الحادثة ضمن أحداث سنة ٣١٦هـ، وهذا يخالف المشهور، ومن الجدير بالذكر أنه سبق وإن تعرضت مكة للإهانة والنهب والقتل على يد إسماعيل بن يوسف العلوي سنة ٢٥١هـ، فقد سلبت الكعبة كسوتها وكنوزها، وقتل الكثير من سكان مكة على يد ذلك العلوي، انظر الطبري، تاريخ ٩/٣٤٦-٣٤٧، وقارن: أحمد بن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار بيروت ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ٢/٤٩٨، وانظر القراءات المختلفة لاسم أمير مكة عند دي خوية القرامطة، حاشية ٩٣.

زرقان صهر أبي سعيد واقف حذاء البيت والسيف يأخذ الناس.. ثم قال: ما آمنهم من خوفنا، ظهر الباطن يا أهل مكة، حجوا إلى البحرين، وهاجروا إلى الأحساء من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها»[١]، وجاء عند الهمذاني رواية عن الخليفة المقتدر بسنده.. قال: إن أبا طاهر وبين يديه خمسون يضربون الرقاب فقتل من الحجيج نحو عشرة آلاف وهو يقول:

ولو كان هذا البيت بيتاً لربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
وإنا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا نبغي سوى كسبها ربا

وليس من المستبعد أن هذه الأبيات منحولة على أبي طاهر القرمطي؛ حيث كثر الشعر المنسوب إليه في تلك المناسبة[٢].

وجاء في رواية أخرى عند أبي العلاء المعري قوله عن أحد رواته: «كنت بمكة وسيف» الجنابي «قد أخذ الحاج، ورأيت رجلاً منهم قد قتل جماعة وهو يقول: يا كلاب أليس قال لكم «محمد» المكي: «ومن دخله كان آمناً» «أي أمن هنا؟»[٣].

وبعد فلا يزال لدينا طائفة كبيرة من الروايات المتعلقة باستباحة البيت الحرام وقد يكفي ما أشير إليه هنا بقصد التعرف على عقيدة

---

(١) زكار: أخبار القرامطة، ص: ٣٠٤.

(٢) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٦٤، وانظر ما جاء من تصويب للبيت الأخير الذي جاء في كتاب: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة للحمادي، وهو:

وأنا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبغي سوى ربها ربا

انظر: زكار: أخبار القرامطة ٣٥٨، ٢٢٣.

(٣) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، ص: ٣٥، تحقيق/ عائشة عبد الرحمن، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م.

قرامطة البحرين في نظرتهم إلى مقدسات المسلمين، إذ إنهم من واقع هذه الروايات ومن حقيقة ما أقدموا عليه من استهانة ببلد الله الآمن وانتهاك لحرمة بيته العتيق وما ارتكبوه من مذابح لحجاج بيته، كل ذلك ينبىء عن كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله وهم يسخرون من حماية الله لبيته ولا يعترفون بنبوة نبيه (ﷺ) فهو عندهم «محمد المكي».

وإذا جاز لنا السؤال عن سبب هذا كله نجد أحد الباحثين يفسر ذلك بالقول إن الغرض في هجمتهم هذه هو تصديع أركان الدولة وانتهاك أهم حرمة لديها وإظهار لعجزها عن الدفاع عن المقدسات وحماية الحاج. ولم يكن هدف هذه الهجمة بطلان قدسية الحجر الأسود أو الكعبة بدافع من نزعة مادية لدى القرامطة بل إن الغاية الاقتصادية واستطراداً السياسية ظلت أكثر بروزاً بين الغايات(١)، وإذا كان للباحث القبول بمثل هذا الرأي إلّا أن عقيدة القرامطة ببطلان قدسية الحجر الأسود أو الكعبة لا يمكن الدفاع عنها.

وجاء في رأي آخر وهو فيما يبدو أقرب للصواب فيما يتعلق بتلك الحادثة الشنيعة القول: «إنها كان حملة بربرية قصدت إلغاء الحج، وذلك تمهيداً لإعلان قيامة عظمى، حيث لم يلبث بعد هذه الحملة حتى ظهر في الأحساء زكريا الطمامي بن أبي زكريا الداعية القرمطي السابق لأبي سعيد... الذي قدمه (أبو طاهر) لأهل البحرين بقوله: هذا إلهنا وإلهكم وربنا وربكم»(٢).

---

(١) حسن بزون: القرامطة بين الدين والدولة والثورة، ص: ٧٦، بيروت، دار الانتشار العربي ١٩٩٧م.

(٢) زكار: أخبار القرامطة، ص: ١٥٣، وانظر الخلاف حول حقيقة هذا الإله الداعي لدى المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٠، وقارنه كذلك ما جاء عند دي خويه: القرامطة، ص: ١٠٤-١٠٧، لويس: أصول الإسماعيلية، ص: ١٣٢-١٣٣.

إن صحت هذه الحادثة وصح ما نسب إلى أبي طاهر من تأليهه لبشر مثله فهو أمر يدل على تفاهة وطفولية عقول القرامطة إذ إن هذا الحادث هو بالأسطورة أشبه، لأن أبا طاهر نفسه ما لبث أن قتل هذا الإله المزعوم عندما شعر بخطره[١].

ويلمح الباحث في إحدى الروايات أن العامل الاقتصادي ربما كان أحد الأسباب الرئيسة وراء الهجوم القرمطي على مكة في سنة (٣١٧هـ) ففي رواية القاضي عبد الجبار التي سبقت الإشارة إليها نجد عمر بن زرقان أحد زعماء القرامطة يخاطب الناس في أثناء إشرافه على المذبحة في الحرم بقوله: حجوا إلى البحرين وهاجروا إلى الأحساء[٢]، ومن المعلوم بداهة ما الأثر الاقتصادي الذي سيصيب الناس في البحرين والأحساء من جراء انصراف الحجيج إليهم، كما أننا نجد عند أبي العلاء المعري في رسالة الغفران ما قد يساعد على إدراك الحافز الاقتصادي من وراء هجوم القرامطة على مكة واستباحة الحرم وانتزاع الحجر الأسود، فقد أشار المعري إلى ذلك عندما قال: «وأخذ حجر الملتزم وظن أنها مغناطيس القلوب..»[٣].

كما أن ناصر خسرو أشار إلى ذلك بوضوح أكثر عندما قال: «وانتزع

---

(١) انظر: زكار: أخبار القرامطة، ص:١٥٣، وانظر حول حادثة الدجال أبو زكريا الطمامي أو التمامي أو الصمامي وتضارب الأقوال في وقت مقتله، لويس أصول الإسماعيلية، ص: ١٤٤-١٤٥، وانظر كذلك رأي مادلونغ بخصوص ظهور الأصفهاني بين قرامطة البحرين، وتسليم أبي طاهر سلطاته الحكومية له، ثم القضاء عليه أخيراً، الفاطميون وقرامطة البحرين، ص: ٦١-٦٢.

(٢) انظر زكار: أخبار القرامطة، ص:٣٠٤.

(٣) المعري رسالة الغفران، ص: ٣٤.

الحجر الأسود من مكانه ونقله إلى الحسا، وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس إليه من أطراف العالم..»[١].

وهكذا يظل السبب المادي في هاتين الروايتين هو أحد البواعث القوية على مهاجمة مكة واستباحة البيت العتيق، حيث إن القصد من وراء انتزاع الحجر الأسود كما تصرح هذه الروايات هو جلب الناس إلى البحرين بدلاً من مكة!! ولا شك إن كان هذا التصور حقيقياً فهو تصور على قدر كبير من السذاجة وسطحية التفكير.

وعلى كل فإن الذي يستطيع أن يخرج به الباحث من مشكلة انتزاع الحجر الأسود والذهاب به إلى البحرين، هو أن هذا الفعل يرمز إلى استخفاف القرامطة بالمقدسات الإسلامية والاستهانة بمشاعر المسلمين، إضافة إلى إشاعة حالة من الشك في نفوس الناس في جدوى تعظيم هذه الرموز مما قد يؤدي بالتالي إلى فقدان الخليفة العباسي لأهميته الدينية والسياسية كزعيم لعالم الإسلام، ربما تمهيداً لظهور البديل وهو الإمام المنتظر!!

ومرة أخرى فإن أخذ القرامطة للحجر الأسود لا يعني بالضرورة اعتقادهم بقدرته المغناطيسية على جذب الناس إلى البحرين من كافة أقطار الأرض، ولكن ربما كان القصد من أخذه هو تجريد مكة من أهميتها الروحية عند المسلمين بسبب انتزاع ذلك الحجر المقدس، ومن ثم يبطل الحج تبعاً لذلك، وهذا بالضرورة سيفقد الخلافة مصدراً اقتصادياً بالغ الأهمية طالما اعتمد عليه.

أما السؤال الذي قد يبدو أكثر إلحاحاً فهو من الذي كان وراء

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامة، ص: ١٤٤.

مهاجمة مكة؟ هل هم قرامطة البحرين منفردين أم أن وراءهم جهة أخرى؟

ليس من الميسور تقديم إجابة مقنعة عن هذه الأسئلة، إذ إن المعلومات التاريخية المتصلة بهذه القضية يشوبها الغموض والتضارب فقد جاء عند ابن الأثير في حوادث سنة (٣٣٩هـ) وهي السنة التي أعيد فيها الحجر الأسود إلى مكة إشارة غامضة حول أخذه وإعادته مرة أخرى، قال ابن الأثير:

في هذه السنة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة، وقالوا: «أخذنا بأمر وأعدناه بأمر»[١]، والسؤال مرة أخرى أمر من؟ ليس من إجابة شافية سوى أن دي خويه في أثناء مناقشته لهذه الحادثة أشار بإصبع الاتهام إلى الخليفة الفاطمي، حيث قال: «.. بدا للإمام الخليفة الفاطمي أن الأمر بإرجاع الحجر سيكسبه، بصفته حامياً للدين، رصيداً شعبياً.. وقد تمكن المنصور بإقناعه القرامطة أن يردوا الحجر من كسب قلوب المسلمين وجذبها نحوه ونحو سلالته»[٢].

ولكن من المعلوم كذلك أن الإمام الفاطمي في تونس الذي كان معاصراً لتلك الحادثة لما بلغه فعلة القرامطة بمكة أنكرها أشد الإنكار، وقد أشار ثابت بن سنان (ت٣٦٥هـ)، في تاريخ أخبار القرامطة إلى ذلك بقوله: فلما بلغ ذلك المهدي أبا محمد عبدالله العلوي الفاطمي بإفريقية كتب إليه ينكر عليه فعله... ويلومه ويلعنه ويقول له: «قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة...»[٣].

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٨٦.

(٢) دي خويه: القرامطة، ص: ١١٧.

(٣) انظر زكار: أخبار القرامطة، ص: ٢٢٤.

وما دامت القضية على هذا النحو من الغموض، أليس من الممكن افتراض أن إنكار المهدي لهذه الحادثة هو ضرب من التقية حتى يجنب نفسه وشيعته وما يدعو إليه سخط عامة المسلمين، ويحرم بالتالي الخلفية العباسي من استثمار تلك الحادثة الشنعاء لصالحه في صراعه مع دولة الفاطميين الناشئة حديثاً؟! إنه احتمال قريب.

وقد اختلفت المصادر التاريخية في تقدير ضحايا تلك المذبحة المروعة، فذكر المسعودي كما سبق أن هناك اختلافاً بيناً في تقدير القتلى: «.. فمكثر ومقل، فمنهم من يقول ثلاثين ألفاً، ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر، وكل ذلك ظن وحسبان إذ كان لا يضبط وهلك في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وضراً ما لا يدركه الإحصاء...»[١].

وذكر القاضي عبد الجبار أنهم نحو عشرين ألفاً وثمان مئة[٢]، وجاء في كتاب الفرق والتواريخ أن من قتل من المسلمين بالمسجد ألفي قتيل، وقتل في سائر المدينة عشرة آلاف[٣]، ويكاد الهمذاني في التكملة يتفق مع هذا التقدير الأخير فهو يذكر أن القتلى كانوا نحو عشرة آلاف. ثم يضيف قائلاً: وأتى أهل مكة على من عندهم من الحج[٤]، وهذه الجملة الأخيرة تضاعف من الشعور بالمرارة إذا كان حقاً أن أهل مكة وهم المسلمون قد ساعدوا في الإجهاز على البقية من إخوانهم

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٠.

(٢) انظر زكار: أخبار القرامطة، ص:٣٠٥.

(٣) انظر زكار: أخبار القرامطة، ص:٣٤٤-٣٤٥.

(٤) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٦٤، انظر التقديرات المتفاوتة للقتلى لدى خويه: القرامطة، ص: ٩٥-٩٦.

الحجاج!! ثم ماذا عن هيبة الدولة وهيبة القانون؟! لم يكن في مكة قوة للإشراف على الأمن والنظام؟ ما من شك في أن هذه التقديرات على قدر كبير من المبالغة، ومن الصعوبة الأخذ بها دون تمحيص، ولا بد أن جزع أتقياء المسلمين كما يقول دي خويه وارتياعهم جعلهم يرون كل شيء عبر عدسة مكبرة[١].

نقول إن تقديرات عدد القتلى ظاهرة المبالغة إذ أخذ الباحث بعين الاعتبار الحجم التقريبي لقوة القرامطة التي هاجمت مكة، فالمسعودي وهو أحد المصادر القريبة الإطلاع والمعاصر للحادثة يذكر أن تعداد تلك القوة يبلغ ألفاً وخمسمائة رجل ما بين فارس وراجل[٢]. بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن قوة القرامطة كانت سبعمائة رجل لا غير[٣]، لذلك يستحيل على قوة صغيرة كهذه حتى لو كانت ألف وخمسمائة أن تقتل هذا العدد الكبير من الناس. لهذا فأحسب أن جميع الروايات التي عالجت هذه القضية كانت على قدر كبير من المبالغة وتضخيم صورة ما حدث. ثم إذا تركنا مسألة عدد ضحايا المذبحة جانباً، فلنا أن نسأل عن موقف بغداد من تلك الكارثة؟ ما الذي فعلته لردع القرامطة؟ هل قطعت عليهم طريق العودة إلى البحرين؟ أم هل حصرتهم في عقر دارهم؟ هل انتقمت لهيبة البيت العتيق وقدسيته؟ وهل ثأرت لدماء الحجاج الأبرياء؟

يظهر أن أياً من ذلك لم يحدث، فقد دخلت السنة التالية أي سنة (٣١٨هـ) والخليفة غارق في أكثر من مشكلة، فمن ناحية خرج أعراب بني نمير بن عامر وبني كلاب بن ربيع فعاثوا بظهر الكوفة واستطالوا على

(١) دي خويه: القرامطة، ص: ٩٦.

(٢) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٠.

(٣) انظر: دي خويه: القرامطة، ص: ٩٦.

المسلمين وأخافوا السبيل حتى لم تجد أي مقاومة لمحمد بن ورقاء أمير الكوفة لهم فوقع بيدهم أسيراً[١].

وكذلك اضطرب الجند الرجالة ببغداد وحاصروا دار الخلافة، واستطالوا على المسلمين، واستهان قوادهم بالخليفة والوزير، وأخيراً تمكن حرس الخلافة بعد جهد من هزيمتهم وتشتيت شملهم وذلك في أواخر شهر محرم من السنة نفسها[٢].

وفي رجب عزل ابن مقلة عن الوزارة وعين مكانه أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد[٣]، وكان سبب عزل ابن مقلة اتهام الخليفة له بميله نحو مؤنس المظفر التي كانت العلاقة بينه وبين الخليفة في غاية التأزم[٤].

ومما زاد الأمور سوءاً في آخر هذه السنة اكتشاف مؤامرة ضد الخليفة يوقدها جماعة من وجوه القواد والكتاب، وكانوا قد سعوا بالبيعة لأبي أحمد محمد بن المكتفي بالله، وكان قد استجاب له نحو ثلاثة آلاف رجل من الجند حسب زعم الرواية[٥].

وبسبب الضائقة المالية ومطالبة الجند بأرزاقهم إضافة إلى ما ظهر من سخف الوزير سليمان بن الحسن بن مخلد، كما يقول عريب أمر

---

(١) انظر: عريب: صلة ١١/ ١٢٧.

(٢) انظر عريب: الصلة ١١/ ١٢٨-١٢٩.

(٣) أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد: انظر خبر وزارته عند ابن طباطبا في الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٢٧٣، ٢٨١-٢٨٢.

(٤) انظر عريب: الصلة ١١/ ١٣٠، وقارن: ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢١٨.

(٥) عريب: الصلة ١١/ ١٣١.

الخليفة بالقبض عليه، وولي الوزارة بدلاً منه أبو القاسم عبيدالله الكلوذي[١]، وذلك في شهر رجب من سنة ٣١٩هـ[٢].

ويضيف ابن الأثير أسباباً أخرى لعزل ابن مخلد عن الوزارة، وهي أنه نظراً لتوقف مؤسسات الدولة بسبب الأزمة المالية: «اتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية به (أي بابن مخلد)، والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك»[٣].

وقبل نهاية شبعان من السنة نفسها داهم قرامطة البحرين الكوفة وعسكروا بأحد مصلياتها، وأقاموا بالمدينة خمسة وعشرين يوماً، مطمئنين كما يقول عريب، يقضون حوائجهم، وقتلوا بها خلقاً كثيراً من بني نمير خاصة واستبقوا بني أسد..[٤] وفي إشارة عريب إلى أن القرامطة قتلوا جماعة وأبقوا على أخرى ربما يعني أن بني أسد وهم الذي أبقى عليهم كان لهم ضلع في دخول القرامطة إلى الكوفة.

ويلاحظ أن الدولة لم تحرك ساكناً ولم ترسل نجدة لمدينة الكوفة، وربما هذا يعود إلى انشغال الخلافة بمواجهة شغب الجند «الرجالة ببغداد، ولو أن القضاء على تلك الحركة لم يستغرق سوى يوم واحد[٥]، وفي الوقت نفسه كانت الخلافة تواجه أيضاً مشكلة الوزارة، حيث إن الكلوذي أقام في منصبه شهرين فقط متبرماً به نظراً لضيق

---

(١) أبو القاسم عبدالله الكوذي، انظر: ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٢٧٣.

(٢) انظر عريب: الصلة ١١/١٣٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٢٥.

(٤) عريب: الصلة ١١/ ١٣٩.

(٥) عريب: الصلة ١١/ ١٤٠.

الأموال وكثرة الاعتراضات واتصال الشغب، وقعود العمال عن حمل المال فاستعفى فصرف عنها وكان أبو الجمال الحسين بن القاسم بن وهب يسعى دهره كما يقول عريب في طلب الوزارة، ويتقرب إلى مؤنس حاشيته حتى جاز عندهم وملأ عيونهم، فقلد الوزارة سلخ شهر رمضان»[١].

وهكذا بالسعايات والوشايات والتقرب إلى مؤنس وحاشيته من الخدم والقادة الأتراك يحصل من يرشح نفسه للوزارة عليها بصرف النظر عن أهليته لهذا المنصب وبصرف النظر كذلك عن اقتناع الخليفة أو عدمه في هذا الشخص أو ذاك.

● مقتل الخليفة المقتدر (٣٢٠هـ) ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

ونظراً للتنافس المرير بين رجال حاشية المقتدر والدسائس والمؤامرات التي يحوكها كل فريق ضد الآخر سعياً للحافظ على مصالحهم الذاتية، فقد أسهموا في تأزم العلاقة بين الخليفة وقائد جنده، أي مؤنس المظفر، هذه الأزمة نجحت في إشاعة عدم الثقة بينهما وتربص كل منهما بصحابه قرابة عشرة أشهر، بدءًا من محرم وحتى شوال من العام نفسه، حيث صارت المنازلة الكبرى بين الخليفة وجنده من جهة ومؤنس المظفر وأنصاره من الجهة الأخرى في الشماسية إحدى ضواحي بغداد، حيث ظهرت خيانة بعض قادة جيش الخلافة كما يقول عريب، وانفضوا من حول الخليفة، فاجتمع على الخليفة بعض أنصار مؤنس وذبحوه ذبحاً، وجرد من لباسه وترك في ساحة المعركة، وذلك في الثامن والعشرين من

---

(١) عريب: الصلة ١١/١٤١، وانظر ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٣٠-٢٣٢، حيث ذكر أسطورة تقليد ابن وهب للوزارة وهي تصور مدى سذاجة بعض رجال الدولة وصناع القرار في ذلك الوقت إن كان في تلك الأسطورة شيء من الصحة.

شوال سنة ٣٢٠هـ[١]، ويعلق ابن الأثير على مقتل المقتدر قائلاً: «وكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال، وانحرفت الهيبة وضعف أمر الخلافة..»[٢].

وفي الحقيقة فإن هيبة الخلافة قد انخرقت قبل أكثر من سبعين عاماً لما تجاسر القادة الأتراك على قتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ.

• القرامطة والخلافة العباسية بعد المقتدر •••••••••••••

بسبب الفراغ الدستوري الذي نشأ عن مقتل المقتدر، فقد سارع العسكر إلى اتخاذ الإجراء اللازم لملء الفراغ، فأمر مؤنس بإحضار بلال بواب دار ابن طاهر التي فيها أولاد الخلفاء وسأله عمن فيها منهم، فذكر له جماعة منهم محمد بن أحمد المعتضد، فما هواهم إليه، فقالوا: هو كهل، ولا أم له، ونرجو أن تستقيم أمورنا معه[٣].

وكان رأي مؤنس في أول الأمر تنصيب ابن المقتدر أحمد؛ لأنه إذا جلس في الخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته، وغلمان أبيه ببذل الأموال «ولكن هذا الرأي قوبل بالرفض من قبل أحد المشاركين بقوله: «بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم، وخالة، وخدم يدبرونه، فنعود إلى تلك الحال، والله لا نرضى إلّا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا»[٤].

---

(١) عريب: الصلة ١١/ ١٤٢-١٥٢، وقارن: المسعودي: التنبيه ٣٤٣، والهمذاني: يدرج مقتل المقتدر ضمن حوادث سنة ٣١٨هـ، وهذا يخالف تماماً ما هو معروف، تكملة ١١/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٤٣.

(٣) عريب: الصلة ١١/ ١٥٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٤٤.

وأخيراً أجلس القاهر وهو لقب محمد بن أحمد المعتضد في خيمة بإزاء خيمة مؤنس ولم تزل المراسلات بينهما والشروط متخذة على القاهر إلى أن أجاب إلى جميعها إلّا نفقة الجند[١]، ومن ثم تم اختيار رأس الدولة الإسلامية ورمز الخلافة فيها على يد القائد التركي مؤنس ومن شايع من بطانته وفقاً لشروطهم ومصالحهم، ولم نسمع في هذا الاختيار صوتاً لأي أحد من أبناء البيت العباسي أو رجال الشورى من أهل بغداد، بل قضي الأمر وكأنه لا يخص أهل المملكة بقدر ما يخص هذه الشرذمة من قادة الأتراك.

والقاهر الذي جاء به الأتراك إلى كرسي الخلافة، لم يكن له من مؤهلات السياسة والحكم نصيب، يصفه المسعودي قائلاً: إنه شديد الإقدام على سفك الدماء، أهوج محباً لجمع المال على قلته في أيامه، قليل الرغبة في اصطناع الرجال، غير مفكر في عواقب الأمور، سيء التدبير قبيح السياسة[٢].

ويظهر من سوء سياسته أنه بدلاً من أن يصطنع الرجال ويؤمنهم ويؤملهم ويكسبهم إلى جانبه، وبدلاً من سياسية صارمة تجاه قرامطة البحرين وحماية جنوب العراق من شرورهم، وتأمين طرق التجارة والحج، بدلاً من ذلك كله، نراه يهتم بصغائر الأمور فيتتبع عورات الناس ويبدأ بأهله وذوي قرابته، فقد سجن وعذب السيدة والدة المقتدر، أي والدة أخيه فسحبها من رجلها وتناولها بالضرب في المواضع الغامضة من بدنها، وصادر أموالها[٣]، وطال بالسجن

(١) عريب: الصلة ١١/١٥٣، وقارن ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) انظر المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٢.

(٣) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٧٤.

والعذاب أبناء المقتدر والراضي وإخوته، وغيرهم من أبناء البيت العباسي[١].

واختلطت على القاهر الأمور ففي خلافته القصيرة التي لم تدم سوى ثمانية عشر شهراً استوزر ثلاثة وزراء[٢]، وساء ظنه بمن حوله من رجال الحاشية وقواد الجيش، فخافوه على أنفسهم فسعوا إلى الحد من سلطانه فاستولى ابن بليق وحاشية مؤنس على القاهر، حتى صار لا يجوز له أمر لا ولا نهي إلّا على أهل بيته، وأولاد المقتدر المحبوسون عنده[٣]، فكان الحاجب علي بن بليق يفتش جميع ما يدخل الدار على القاهر ويضيق عليه[٤]. ثم ما لبث الخليفة القاهر أن انتقم لنفسه بأن ذبح بليق وابنه والقائد مؤنس المظفر[٥]. ونتيجة لهذه المذبحة، فقد لقب القاهر نفسه بالمنتقم من أعداء الله[٦].

ثم ما لبثت الجنود الساجية[٧] والحجرية أن حاصرت دار السلطان

---

(١) عريب: الصلة ١١/١٥٦، ابن الأثير: الكامل ٨/٢٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٤٤-٢٧٩، وقارن: ابن طباطبا: الفخري، ص: ٢٧٦.

(٣) عريب: الصلة ١١/١٥٦، يذكر عريب اسم يلبق، وورد في مصادر أخرى أنه بليق، انظر الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٧٧-٢٧٨، ابن الأثير: الكامل ٨/٢٤٦.

(٤) عريب: الصلة ١١/١٥٦.

(٥) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٨١.

(٦) انظر: عمر فوزي: الخلافة العباسية السقوط والانهيار، عمان، دار الشروق، ١٩٩٨م، ٢/ ٦١.

(٧) الساجية والحجرية: الساجية فرقة من الجند ينتسبون إلى ابن أبي الساج، أحد قواد المعتصم، والحجرية، فرقة من الغلمان الأتراك عينهم المعتصم لحراسة الحجر في قصر الخلافة، وسموا بالحجرية نسبة إلى هذا الحجر، انظر: صفاء حافظ عبد الفتاح، نظم الحكم في الدولة العباسية، القاهرة، دار الثقافة ١٩٨٦م، ص: ١٢٨-١٨٩.

بتحريض من الوزير ابن مقلة - الذي كان متخفياً - فقبضوا على الخليفة القاهر في السادس من جمادى الآخر سنة (٣٢٢هـ) فخلع عن الخلافة وسُمل[١]. وسمل العيون أسلوب جديد في التعامل مع الخلفاء حتى لا يكون لهم أمل مستقبلاً في العودة إلى السلطة[٢].

ونتيجة لخلع القاهر، فقد جاءت الفرق العسكرية من الساجية والحجرية بخليفة جديد هو أبو العباس محمد بن المقتدر، وأجلسوه على سرير السلطة، وبايع له القواد، ولقب بالراضي بالله[٣]، ولا نعلم شيئاً عن مؤهلات الراضي السياسية والإدارية سوى إشارة عبارة نجدها عند المسعودي حيث وصفه بأنه «شديد التضريب (الإغراء؟) بين أوليائه لاستبدادهم بالأمور دونه، وقصور يده عن تغيير ذلك...»[٤].

وجرياً على سياسية علي بن عيسى الوزير من الاتصال بقرامطة البحرين لإقامة علاقة سلمية معهم، حاول محمد ابن ياقوت الحاجب أن يستميل القرامطة إلى جانب الخلافة فأرسل في هذه السنة أي سنة (٣٢٢هـ) رسولاً إلّا أبي طاهر القرمطي، يدعوه إلى طاعة الخليفة، وأن يكف عن الحاج جميعهم، وأن يرد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة، ومقابل ذلك اعتراف الخليفة بسلطته على ما تحت يده من البلدان وأن يقلده بعد ذلك ما شاء ويحسن إليه[٥].

وجاء الرد من أبي طاهر مشروطاً، حيث أجاب إلى عدم التعرض

---

(١) الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٨٢-٢٨٤.

(٢) عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٦١.

(٣) انظر المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٢-٣٥٣، الهمذاني: تكملة ١١/ ٢٨٤.

(٤) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٣، وانظر: عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٦٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٩٤.

للحاج فسار الحاج في هذه السنة لم يتعرض لهم القرامطة، ولم يجب إلى رد الحجر إلى مكة، وطلب في الوقت نفسه أن يسمح له الخليفة بالاتجار المباشر والحر مع البصرة، مقابل الخطبة باسم الخليفة في أعمال هجر[١]، ولكن يظهر أن الخليفة لم يستجب لمطالب أبي طاهر، فتوقفت المفاوضات بين الطرفين، وذلك يعود ربما إلى ضعف الإدارة في بغداد وازدياد صراع النفوذ بين المتنفذين فلم تعد للخليفة القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة، إذ إنه في عهد الراضي ازدادت الأمور سوأً من جميع النواحي سواء من الناحية المالية للدولة أو الناحية الإدارية والسياسية، ولا أدل على تدهور الحالة من كثرة الوزراء الذين استعان بهم في فترة خلافته القصيرة نسبياً[٢]، ولكن لم يجد تبديل الراضي لوزرائه شيئاً، بل ازدادت الحالة المالية سوءاً وعندئذ سلم الراضي الأمور لمحمد بن رائق[٣]، تسليم المضطر سنة ٣٢٤هـ، فقد قلده الإمارة وقيادة الجيش، وجعله أمير الأمراء، وشارك ابن رائق الخليفة في خطبة الجمعة والأعياد[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٩٥، وانظر زكار: أخبار القرامطة، ص: ١٥٤، حيث يذهب إلى القول بأنه بعد فترة من الوقت توصل الفريقان إلى اتفاق، تم بموجبه أن تدفع لأبي طاهر مبلغاً كبيراً من المال سنوياً ثم يعلل ذلك بسبب إخفاق القرامطة في قطع الحج وإلى ما لحق الدولة الفاطمية إثر وفاة المهدي سنة ٣٢٢هـ-٩٣٤م، وهذا رأي في ظني يحتاج إلى إعادة نظر، فالربط فيه بين الأحداث غير متماسك.

(٢) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٣، وانظر ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص: ٢٨٠-٢٨٣.

(٣) محمد بن رائق: انظر شيئاً من أخباره وسيرته عند: ابن خلكان وفيات الأعيان ٥/ ١١٤-١١٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٥/ ٣٢٥-٣٢٦.

(٤) عمر: الخلافة العباسية ٢/ ١٦٢، وانظر محمد طقوش: الدولة العباسية، ص:١٦٨-١٦٩، بيروت - دار النفائس ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

وبذلك بطل أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط[١].

ولا عجب، وحال الخليفة على هذا المستوى من التردي والضعف أن يعاود قرامطة البحرين بقيادة زعيمهم أبي طاهر مهاجمة قوافل الحجاج وبعض مدن العراق، ففي أواخر شوال سنة ٣٢٣هـ خرج أبو طاهر على رأس قوته التي لم تجاوز الألفي رجل لاعتراض الحاج في طريق مكة فأوقع بهم بالقادسية وناحية زبالة والعقبة والعذيب، فقتل وأسر وصار له كما يقول المسعودي من صنوف الأموال والأمتعة ما لا يوقف على تحديده ولا يحاط بمبلغه[٢]، ويضيف ابن الأثير أن جماعة من العلويين بالكوفة خرجوا إلى أبي طاهر، فسألوه الكف عن الحجاج فكف عنهم، وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد فرجعوا ولم يحج بهذه السنة من العراق أحد، وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها[٣].

وبعد سنتين تقريباً من تلك الأحداث أي في سنة (٣٢٥هـ) حاول أبو طاهر الوصول إلى اتفاق مع الخلافة العباسية يقضي بأن تدفع له الدولة سنوياً مالاً وطعاماً بنحو مائة وعشرين ألف دينار، مقابل أن يقيم ببلده، ولكن ابن رائق الذي أصبح أمير الأمراء عرض على أبي طاهر أن يكون هو و أصحابه جنداً في خدمة الخلافة ويدخلوا بالطاعة مقابل ما التمسه من رزق، وبالطبع فإن مثل هذا المطلب لم يرق لأبي طاهر، وتوقفت المفاوضات[٤].

---

(١) انظر: عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٦٢.

(٢) انظر المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥٣-٣٥٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣١١.

(٤) انظر: بزون: القرامطة، ص ٢٣١، وقارن ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٣٤، حيث أشار إلى ذلك الحديث إشارة غامضة.

ويظهر أن أمر قرامطة البحرين أخذ بالضعف، وقوتهم بالاضمحلال بدءاً من سنة (٣٢٦هـ)، كما يشير إلى ذلك ابن الأثير، بقوله: في هذه السنة فسد حال القرامطة، وقتل بعضهم بعضاً[١]، وهو يشير هنا إلى حادثة قتل أبي طاهر الدجال الأصفهاني، الذي زعم أنه صاحب الأمر المنتظر[٢]، ولكن دي خويه يشكك في تاريخ مقتل الدجال الأصفهاني، ويظهر أنه محق في شكوكه[٣].

وما من شك في أن ضعف قرامطة البحرين أصبح أكثر وضوحاً في سنة ٣٢٧هـ، حيث شهدت تلك السنة اتفاقاً بين الخلافة العباسية وبين أبي طاهر نزولاً عند طلب الأخير بأن يقوم بحراسة قوافل الحج مقابل فدية سنوية اختلفت المصادر في تقديرها[٤].

بل يبدو أن العلاقات الحسنة والمنافع المتبادلة بين الخلافة وقرامطة البحرين ذهبت إلى أبعد من ذلك، فقد رافقت فرقة منهم الخليفة الراضي وقائده وأمير الأمراء في وقته ابن رائق في حملتهم على منطقة نصيبين في أثناء تمرد ناصر بن حمدن وتأخره في إرسال المال المتوجب عليه من ضمان البلاد التي بيده[٥].

وفي الشهور الأولى من سنة ٣٢٩هـ أي في ربيع الأول، توفي

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٥١، زكار: أخبار القرامطة، ص: ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٥١-٣٥٢، انظر تفاصيل مقتل الدجال الأصفهاني عند الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥: ٣٢٣-٣٢٤.

(٣) دي خويه: القرامطة ١٠٥-١٠٦، وقارن بزون: القرامطة، ص: ٢٣١.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٣٧٨، وانظر زكار: أخبار القرامطة، ص: ٣١٢، وانظر تفاصيل أكثر عن الفدية المالية عند دي خويه، القرامة، ص:١١٠-١١١.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٥٣-٣٥٤، وانظر دي خويه القرامطة، ص: ١١٢.

الخليفة الراضي، وله اثنتان وثلاثون سنة وأشهر، وكانت خلافته ست سنوات وعشرة أشهر[١].

في هذه الأثناء كان أمر الخليفة في تدهور، وطاعته غير نافذة، وسلطته قاصرة، حيث لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق[٢].

ويستطرد ابن الأثير في وصفه للأوضاع السياسية العامة إبان أيام الراضي بالقول: «وأما باقي الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس، والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي. . . وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم؛ والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي»[٣].

يظهر من استقراء الأوضاع العامة في هذه المرحلة لدى كل من الخلافة العباسية من جانب وقرامطة البحرين من جانب آخر، أنهما أصبحا على درجة متساوية من الضعف تقريباً، ولهذا كان لابد من الالتقاء والتفاهم، حيث أصبح كل منهما غير قادر على هزيمة الآخر.

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٥-٣٥٣، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٢-١٤٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٢٣-٣٢٤.

إضافة إلى ذلك وفاة أبي طاهر القرمطي في سنة (٣٣٢هـ) أي بعد وفاة الراضي بثلاث سنوات.

لذلك فليس من جدوى هنا لمناقشة أمر الخلافة وعلاقة القرامطة بها في ظل الخلفاء الثلاثة الذين جيء بهم إلى كرسي السلطة على التوالي، فقد صور لنا المسعودي الوضع قائلاً: «ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطيع ومذاهبهم، إذ كانوا كالمولى عليهم لا أمر ينفذ لهم، أما من نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلبون، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مكاتباتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم، وأما بالحضرة، فتفرد بالأمور غيرهم، فصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة...»[١].

ومما زاد في تدني منزلة الخليفة واضمحلال أمره هو أن أحمد بن بويه قد دخل بغداد في خلافة المستكفي سنة (٣٣٤هـ) واستولى على الأمور هناك ولقبه الخليفة بلقب معز الدولة، وطوقه وعقد له اللواء وقلده الإمارة[٢]. ومنذ ذلك الوقت لم يعد لخلفاء بني العباس حق التصرف في سياسية الدولة وشئونها ولم يعد لهم ما يعتزون به سوى لقب الخليفة، وحتى علاقة قرامطة البحرين بالخلافة العباسية اتخذت منحى آخر، إذ أصبح القرامطة يتعاملون مباشرة مع البويهيين الذين أصبحوا السادة الفعليين في بغداد منذ ذلك الحين.

---

(١) المسعودي: التنبيه، ص: ٣٦٢.

(٢) انظر الهمذاني: التكملة ١١/٣٥٣.

بنو مهنا

الحسينيون الشيعة بالمدينة المنورة

٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م

كان للدعوة الفاطمية أثرها الواضح في المدينة المنورة حتى قبل قدوم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر وبعد قدومه، فقد أقام الأشراف من بني الحسين الخطبة له في المدينة المنورة، بل وبادر أميرها الحسين ابن جعفر بالاستيلاء على مكة، ودعا للمعز لدين الله الفاطمي على منابرها مع الدعاء له على منابر المدينة المنورة[١].

ولقد عمل المعزي على تثبيت نفوذه على المدينة، فأرسل الأموال الكثيرة والعطايا والهبات، وفي موسم الحج من عام ٣٥٨هـ-٩٦٨م قام أمير الحجاج المصريين من قبل الخليفة الفاطمي بتوزيع الأموال والعطايا على الأشراف وأهل المدينة المنورة[٢].

وفي سنة ٣٥٩هـ-٩٦٩م أراد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أن يكسب ثقة الناس في المدينة المنورة فأرسل عسكراً وأحمالاً عدتها عشرون حملاً للحرمين الشريفين، وعدة أحمال من المتاع، وقصد

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٦٨-٢٦٩، القوصي: تجارة مصر، ص: ١٠٩-١١٠.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٤٠٦-٤٠٧، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ٢٣٧-٢٣٩.

الخليفة الفاطمي من ذلك تثبيت سيادته وسلطانه على مكة والمدينة[١]، وكانت الخطبة على المنابر تقام في ذلك العام للمعز لدين الله الفاطمي داخل المدينة المنورة، وفي خارجها كانت تقام للخليفة المطيع لله العباسي[٢].

وذكر القلقشندي أن المعز لدين الله الفاطمي، جهز عسكرياً في سنة ٣٦٠هـ-٩٧٠م حينما كان في أفريقيا، لإقامة الخطبة له بمكة المكرمة، أيضاً نظراً لأن أمير مكة كان يقيمها للخليفة العباسي، وأضاف القلقشندي أن أهل المدينة المنورة وقفوا إلى جانب هذه الفكرة، مؤيدين لها، حتى يتم الدعاء للفاطميين بالحرمين الشريفين على السواء، فما كان من أمراء مكة - وهم بنو الحسن - إلّا أن حاولوا منع بني الحسين من تحقيق ذلك[٣]، غير أن الفاسي ذكر في «تحفة الكرام» بأنه حدث في موسم الحج لذلك العام (٣٦٠هـ-٩٧٠م) أن الخطبة كانت تقام في المدينة المنورة للمعز لدين الله الفاطمي، صاحب مصر[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن أهل مكة المكرمة كان لهم في بعض الأحيان ميول إلى العباسيين، ففي سنة ٣٦١هـ-٩٧١م قامت حرب بين بني الحسن أمراء مكة، وبنو الحسين أمراء المدينة المنورة الموالين للفاطميين، وحدث في ذلك الوقت أن أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي رسلاً

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة، ص: ٢٣٧-٢٣٨، القوصي: تجارة مصر، ص: ١٠٩-١١٠.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤٠٧، ابن الأثير: الكامل ٧/ ٤٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٦٩، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ١٥٥.

(٤) الفاسي: تحفة الكرام، ورقة ١١٧، انظر: سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص: ٣٠.

لإقامة الخطبة في مكة للفاطميين، وفي مكة وقف القرامطة بجانب بني الحسين، وانهزم بنو الحسين، وساد المدينة المنورة نوع من عدم الاستقرار السياسي، رغم استمرار الخطبة للعباسيين[١].

واستمرت الخطبة تقام للخليفة العباسي في المدينة حتى سنة ٣٦٣هـ-٩٧٣م، عندما عادت الصلة مع الفاطميين مرة أخرى، فأقيمت الخطبة في مكة والمدينة للمعز لدين لله الفاطمي، وقطعت خطبة الطائع العباسي[٢]، وحدث في تلك السنة أن وصل أهل المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، فنفر عنها حكامها من بني الحسين[٣]، وفي موسم الحج من سنة (٣٦٤هـ-٩٧٤م) حج بالناس العلوي من جهة المعز لدين الله الفاطمي صاحب مصر، أرسله الخليفة نائباً عنه وممثلاً له في بلاد الحجاز، في موسم الحج، وكان يحمل الهدايا والعطايا لأمراء المدينة، فتأكد العلوي من إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي، واستمرت الخطبة تقام للفاطميين خاصة في المدينة المنورة[٤].

والواقع إن إقامة الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي في المدينة، كانت نوعاً من أنواع التنافس الذي قام بين العباسيين والفاطميين من أجل تحقيق السيادة على العالم الإسلامي، اعتقاداً من كل منهما أنه أحق بهذه السيادة دون غيره.

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٤٠٨-٤١٠.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ٢٤٣.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٤٠٨-٤١٠.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٢/٨٠، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤١٢-٤١٤، ابن كثير: البداية ١١/ ٢٨٠، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص: ١٦، حسن إبراهيم وطه شرف: المعز لدين الله، ص: ١٦٥-١٦٦.

ونظراً لأن نفوذ الفاطميين كان أقوى من العباسيين في المدينة، قد استمرت الخطبة لهم سنة ٣٦٥هـ-٩٧٥م (أي إلى أن توفي الخليفة المعز لدين الله الفاطمي)[١]، وفي تلك السنة جاء إلى المدينة المنورة طاهر بن مسلم من بني الحسين، ولما كان طاهر يحتل مكانة فائقة عند بني الحسين لذلك قدموه على أنفسهم، وولوه إمارة المدينة المنورة، لذا فإنه يعد أول أمير من بني الحسين، استقل إمارة المدينة المنورة[٢].

• ولاية طاهر بن مسلم للمدينة المنورة سنة ٣٦٥هـ-٩٧٥م • • • • •

والده مسلم بن عبدالله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر ويلقب عند الشيعة «حجة الله» عبيدالله الحسين الأصغر بن زين العابدين، وكان مسلم هذا صديقاً لكافور الذي استقل بدولة الإخشيديين بمصر، ولما ملك الفاطميون مصر، وقدم المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة، طلب منه الخليفة أن يزوج كريمته لأحد بنيه، لما كان يتمتع به مسلم من مكانة وعلم وخلق، وعندما رفض مسلم تحقيق رغبة الخليفة، انتقم منه واعتقله، وصادر جميع أمواله، وفر مسلم من معتقله ومات بعد هربه بمدة قصيرة، فما كان من ابنه طاهر إلّا أن أسرع بالرجوع إلى المدينة المنورة، وتولى إمارتها، واستطاع بحسن إدارته، وحب الناس له أن يتولى إمرة المدينة سنين[٣].

ولما توفي المعز لدين الله الفاطمي سنة (٣٦٥هـ-٩٧٥م) تولى بعده العزيز بالله، وكانت الخطبة لا تزال قائمة للفاطميين في الحرمين

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٤١٣، ابن خلدون: تاريخ ٤/٥١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٩٨-٢٩٩، السخاوي: التحفة اللطيفة ٢/٢٥٧.

(٣) ابن خلدون: التاريخ ٤/١٠٨-١٠٩.

الشريفين[١]، غير إن مكة المكرمة خرجتا عن قبضة الفاطميين بعد وفاة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، ومع بداية عهد العزيز بالله، فقد ذكر الفاسي[٢]، أن الحسن بن أحمد بن أبي سعيد القرمطي بعث عساكره إلى الحرمين الشريفين في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وقطع الخطبة للعبيديين الفاطميين، بعد أن قلب لهم ظهر المجن وغير سياسة من سبقه من القرامطة نحوهم، وتصادف في تلك السنة (٣٦٥هـ-٩٧٥م) أن قدم إلى بلاد الحجاز الشريف أحمد بن الحسين ابن محمد العلوي من بغدد من قبل الخليفة الطائع بالله، فعمل على إقامة الخطبة للخليفة العباسي في مكة المكرمة والمدينة المنورة[٣].

ولما وصلت الأنباء إلى الخليفة العزيز بالله في مصر، تحمل إليه أن الخطبة أقيمت للعباسيين مرة أخرى، ما كان منه إلّا أن بدأ في إعداد جيش كبير لإرساله إلى بلاد الحجاز، ووصل الجيش الفاطمي إلى المدينة المنورة، وضيق على أهلها، حتى أعيدت الخطبة للخليفة العزيز بالله، وكان أمير المدينة المنورة وقتذاك هو طاهر بن مسلم، وقد ذكر الفاسي: أن هذه الحملة أرسلت إلى بلاد الحجاز سنة ٣٦٦هـ-٩٧٦م[٤]، بينما ذكر ابن فهد: أنها أرسلت في سنة ٣٦٧هـ-٩٧٧م، وكان على رأسها باديس بن زيري الصنهاجي الذي استولى على الحرمين

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤١٢-٤١٤.

(٢) الفاسي: تحفة الكرام، ورقة ١١٧، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ١٥٥.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤١٢-٤١٤.

(٤) الفاسي: العقد ٧/ ٤٥٨، السخاوي: التحفة اللطيفة ٢/ ٢٥٧.

الشريفين، وأقام الخطبة للخليفة العزيز[١]، ولعل الفاسي أشار إلى تاريخ خروج الحملة إلى المدينة المنورة من مصر سنة ٣٦٦هـ-٩٧٦م، بينما أشار ابن فهد إلى تاريخ انتهاء مهمتها، وإعادة الخطبة للفاطميين سنة ٣٦٧هـ-٩٧٧م.

ويبدو أن الفاطميين انغمسوا بعد سنة ٣٦٧هـ-٩٧٧م في مشكلاتهم الداخلية، بالإضافة إلى تدهور أحوالهم الاقتصادية وعدم استقرار أمورهم في بلاد الشام، حتى أنهم منعوا وصول العطايا والهبات إلى مكة والمدينة عام ٣٧٩هـ-٩٨٩م وانتهز العباسيون والبويهيون هذه الفرصة، وأرسلوا الأموال والغلات والعطايا إلى أمير مكة المكرمة وأمير المدينة المنورة، هنا تحول ولاء الأميرين إلى العباسيين، وبلغ ذلك الخليفة الفاطمي العزيز بالله بمصر، فأعد حملة في سنة ٣٨٠هـ-٩٩٠م أرسلها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ونجحت تلك الحملة في إعادة الخطبة للفاطميين مرة أخرى في مكة والمدينة معاً[٢].

● خلفاء طاهر بن مسلم ودورهم في تاريخ المدينة المنورة ●●●●●●

وفي سنة ٣٨١هـ-٩٩١م توفي أمير المدينة المنورة طاهر بن مسلم، الذي يعتبر أول أمير من بني الحسين استقل بالمدينة، وتولى بعده الإمارة

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤١٤-٤١٦، سرور: سياسة الفاطميين، ص: ١٥-١٦، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة، ص:٢٣٧-٢٣٨، القوصي: تجارة مصر، ص:١١١-١١٢، عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص: ٢١٨، وعن باديس بن زيري الصنهاجي، انظر: ما سبق، ص: ٣٢، حاشية ١.

(٢) انظر سرور: النفوذ الفاطمي، ص: ١٥-١٦، سياسة الفاطميين، ص: ٢٤-٢٥، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ٢٣٧-٢٣٨، القوصي: تجارة مصر، ص:١١١-١١٢.

ابنه الحسن ولقبه «مهنا»، فسار على سيرة أبيه من حيث الولاء للدولة الفاطمية، وإقامة الخطبة لها في المدينة المنورة[١].

ولقد سار الأمير الجديد الحسن بن طاهر بن مسلم على سياسة الولاء للفاطميين، واستمر ذلك الحال حتى سنة ٣٨٧هـ-٩٩٧م إذ يذكر المقريزي: أنه في المحرم من تلك السنة ورد الخبر بتمام الحج والدعاء للحاكم بأمر الله في الحرمين الشريفين، ويبدو أن السبب هو استمرار عطايا الدولة الفاطمية من الأموال والهبات، والكسوة والزيت[٢].

وفي سنة ٣٩٠هـ-٩٩٩م خرج أمير مكة أبو الفتوح حسن بن جعفر بأمر من الحاكم بأمر الله[٣] الفاطمي قاصداً المدينة المنورة، مكلفاً من الخليفة بالاستيلاء عليها وأن تكون تحت إمارته، وذلك لأن أهل المدينة المنورة، قد طعنوا في نسب الفاطميين[٤].

وكان الحاكم بأمر الله - بما عرف عنه من اضطراب عقلي - قد كلفه بعمل لا يتفق مع مكانة رسول الله (ﷺ) فقد أشار ابن خلدون غيره: أن بعض الزنادقة أشاروا على الحاكم بأمر الله بأن يقوم بنبش قبر رسول الله (ﷺ)، وصاحبيه، وحملهما إلى مصر، بقصد جذب الأموال والعطايا

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ٤/١٠٨-١٠٩، سرور: سياسة الفاطميين، ص: ٢٤-٢٥، وهناك رواية أخرى ذكرها ابن خلدون (تاريخ ٤/١٠٩، والقلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٩٩، نقلاً عن العتبي مؤرخ دولة ابن سبكتكين أنه بعد وفاة طاهر تولى إمارة المدينة المنورة صهره وابن عمه داود بن القاسم بن عبيدالله، وكنيته أبو علي، وقد استطاع داود بن القاسم أن يستقل بإمارة المدينة دون ولد طاهر بن مسلم، وقد استبعد ابن خلدون صحة هذه الرواية وذكر أنها «غلط» اعتماداً على المؤرخ الفاطمي المسبحي).

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/٨.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام ٢/١٩٤، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/٢٩٩.

(٤) الرشيدي: الصفا والابتهاج، ورقة ٢٢.

والهبات إليه[١]، ونظراً لتخبط عقل الخليفة الحاكم بأمر الله، فقد دخل هذا القول قلبه، فأرسل إلى أبي الفتوح أمير مكة المكرمة بتنفيذ هذا الرأي. وأسرع أبو الفتوح لتحقيق رغبة الحاكم بأمر الله، فسار بجيش إلى المدينة المنورة، ولما قدمها، حضر إليه جماعة من أهلها ليتأكدوا مما بلغهم عن سبب مجيء أبي الفتوح، فأخبرهم بصدق ما بلغهم، وكان معهم قارئ يعرف بالركباني، فقرأ بين يدي أبي الفتنوح قول الله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[٢].

ولما سمع الناس هذا التوجيه القرآني هاجوا، وهجموا على أبي الفتوح ومن معه من الجنود للانتقام منه، فلما رأى أبو الفتوح ما عليه الناس، قال لهم: «الله أحق أن يخشى، و الله لا أتعرض لشيء من ذلك، ودع الحاكم يفعل ما يريد» واستولى عليه الضيق، وتشتيت الفكر، وعبوس الوجه، وظل يراجع نفسه ويقول: «كيف استجبت لطلب الحاكم بأمر الله؟ وخاف أبو الفتوح على نفسه من البقاء في المدينة المنورة، فقفل راجعاً إلى مكة المكرمة، فما كان من بني مهنا إلّا أن استردوا المدينة المنورة مرة أخرى[٣]، ومما يدل أيضاً على تخبط

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ٤/١٠٩.

(٢) التوبة: ١٢.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ٤/١٠٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/٧٥-٧٩، الرشيدي: الصفا والابتهاج، ورقة ٢٣، ابن ظهيرة: الجامع، ص: ٣٠٥-٣٠٧، الجزيري: درر الفوائد، ص: ٢٤٩-٢٥١، سرور: سياسة الفاطميين، ص: ٢٥-٢٦، وانفرد السنجاري: منائح الكرم ١/٢٦١-٢٦٢، بأن ذلك حدث سنة ٣٧٠هـ-٩٨٠م، ويمكن تنفيذ ذلك بأن إمارة أبي الفتوح بدأت في سنة ٣٨٤هـ-٩٩٤م، وأن المصادر أجمعت على أن هذه الحادثة وقعت سنة ٣٩٠هـ-٩٩٩م.

الخليفة الحاكم بأمر الله في اتخاذ القرارات، ورعونة تصرفاته الشخصية أنه بعث في سنة ٤٠٠هـ-١٠٠٩م أحد الدعاة إلى مدينة رسول الله (ﷺ) بعد أن أمره بفتح دار جعفر بن محمد الصادق[١]، وأخذ ما كان فيها، ونجح الداعي في تنفيذ هذه المهمة، وحمل معه كل ما في الدار من أموال ومتاع وغير ذلك، فغضب بعض شيوخ العلويين لهذا العمل، الذي لا يتفق وكرامة آل بيت رسول الله (ﷺ)، وذهبوا إلى مصر لمقابلة الخليفة الحاكم بأمر الله، ومناقشته في هذا العمل، وطلبوا منه أن يرد كل شيء استولى عليه، ولكن الحاكم بأمر الله لم يذعن لطلبهم، ولم يجبهم لما جاءوا إليه، وادعى أنه ينتمي إلى آل رسول الله (ﷺ)، وأنفق عليهم بعض العطايا القليلة، ثم رجعوا إلى المدينة المنورة ساخطين»[٢].

وفي سنة ٤٠٣هـ-١٠١٢م أرسل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله إلى أبي الطيب ابن عم أمير مكة أبي الفتوح عندما خرج أبو الفتوح إلى بلاد الشام - كتاباً قرر فيه تولية أبي الطيب ولاية الحرمين الشريفين[٣]، والواقع التاريخي يوضح أن ولاية أبي الطيب من السليمانيين كانت فعلية بالنسبة لمكة المكرمة[٤]، أما بالنسبة للمدينة المنورة فكانت اسمية، ونظراً لتذبذب مواقف الحاكم بأمر الله، فإن الأمور سارت في المدينة

---

(١) جعفر الصادق بن محمد الباقر: ولد جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة المنورة سنة ٨٠هـ-٦٩٩م، وقد نشأ (رضي الله عنه) بالمدينة حيث العلم المدني، وحيث كانت آثار الصحابة (رضي الله عنهم) بها قائمة، وحيث أكابر التابعين يتحدثون توفي سنة ١٤٨هـ-٧٦٥م، وعمره ٦٨ سنة، دفن بالبقيع، انظر السخاري: التحفة اللطيفة ١/٤١٩-٤٢٠.

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٠٠هـ.

(٣) سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية، ص:١٣٢.

(٤) انظر ما سبق، الفصل الأول، ص: ٤٩.

المنورة شبه عادية، إلى أن قتل سنة ٤١١هـ-١٠٢٠م وكانت الحالة الاقتصادية في مصر وبلاد الشام في آخر عهده تسير من سيء إلى أسوأ.

وبعد قتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ-١٠٢٠م تولى الحكم ابنه الظاهر لدين الله، وهو رابع الخلفاء الفاطميين في مصر، وفي أيامه اضطربت الأحوال السياسية في الدولة الفاطمية، وساءت الأمور إلى أن توفي بمصر سنة ٤٢٧هـ-١٠٣٥م[١]، وبويع بالخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله في نفس السنة، وفي خلافة المستنصر بالله، أصيبت مصر بقحط وغلاء شديدين، واستمرت الأيام العجاف ما يزيد على سبع سنوات وكانت لهذه الأزمة الاقتصادية أثرها في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ففي أثناء هذه الأزمة الاقتصادية التي أصيبت بها مصر ابتداء من سنة ٤٥١هـ-١٠٥٩م - كان أمير مكة المكرمة شكر بن أبي الفتوح[٢]، الملقب: بتاج المعالي: الذي تولى إمارة مكة المكرمة فيما بين سنتي ٤٣٠-٤٥٣هـ/١٠٣٨-١٠٦١م وجمع شكر بين إمارتي مكة المكرمة والمدينة المنورة بعد حرب بينه وبين بني الحسين، وخطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابر المدينة المنورة، ومكة المكرمة[٣].

واستمر الحال على ما هو عليه إلى سنة ٤٥٤هـ-١٠٦٢م عندما تمكن

---

(١) انظر ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢١٤، ق:١.

(٢) انظر ما سبق، ص: ٥٥، من الفصل الأول.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ٤/١٠٢-١٠٣، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٥-١٩٦، السنجاري: منائح الكرم ١/ ٢٦٢-٢٦٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٣٠٥-٣٠٧، ابن دحلان: خلاصة الكلام: ١٨، ماجد: الإمام المستنصر، ص: ١١٨-١١٩، جمال سرور: مصر، ص: ١٣٢، القوصي: تجارة مصر، ص: ١١٢-١١٣، عبد الحميد يونس: الهلالية، ص: ١٢٩-١٣٠.

بنو مهنا من الحسينيين من الاستقلال بإمارة المدينة المنورة، وما لبث أمير المدينة المنورة أن خطب لبني العباس وقطع الخطبة للفاطميين، وأظهر عداءه لهم[١]، ولعل انقطاع العطايا من الخليفة الفاطمي لأمير المدينة المنورة بسبب الشدة المستنصرية، كان وراء هذا التحول إلى العباسيين.

ولم يلبث أن عاد أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر إلى مسرح الأحداث، وما أن استقرت له الأمور، حتى سير جيشاً من الأتراك إلى المدينة المنورة، فتغلب على بني مهنا من أولاد الحسين، و أجلاهم عن المدينة، وضمها إلى إمارته، وبذلك جمع بين الحرمين الشريفين[٢]، وجعل أبو هاشم محمد بن جعفر الدعاء من على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة للخليفة العباسي.

واستمرت الخطبة للعباسيين حتى جاء الصليحي صاحب اليمن سنة ٤٥٥هـ-١٠٦٣م على رأس جيش واستطاع بمن معه من جند وسلاح أن يتولى حكم الحجاز وأمر بإعادة إقامة الخطبة للفاطميين قبل أن يضطر إلى العودة إلى اليمن بعد أن فقد معظم قواته العسكرية[٣]، وعندما اشتدت الضائقة الاقتصادية على المدينة المنورة سنة ٤٦٢هـ-١٠٦٩م بسبب انقطاع الصلاة من الفاطميين استولى أمير المدينة المنورة على قناديل وآلات الفضلة التي كانت بالمسجد النبوي الشريف، وضرب منها دراهم[٤].

---

(١) ماجد: الإمام المستنصر، ص: ١٢٠-١٢١، خلافة الفاطميين، ص: ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام ٢/١٩٦-١٩٧، سرور: سياسة الفاطميين، ص: ٣٠-٣١، النفوذ الفاطمي، ص: ٢١-٢٢، القوصي: تجارة مصر، ص: ١١٣-١١٤، محمد سالم العوفي: العلاقة السياسية، ص:٢٤٦-٢٤٧.

(٣) انظر: ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٢٢٩، الفاسي: ١/١٧١، العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٥٥هـ.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٨/٦٥٦، العيني: عقد الجمان حوادث سنة ٤٦٢هـ، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٩٩.

وذكر المقريزي في حوادث سنة ٤٦٢هـ-١٠٦٩م أن الدولة الفاطمية تردت في ضعف شديد نتيجة للظروف الاقتصادية التي مرت بها خلال الشدة العظمى، وتمكن عضد الدولة البويهي من الاستيلاء على حلب، وبعث من هناك إلى أميري مكة المكرمة والمدينة المنورة، يطلب منهما إقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم، ولعضد الدولة، وأرسل إلى أمير المدينة المنورة عشرين ألف دينار وبذلك قطعت الخطبة للفاطميين من بلاد الحجاز(١).

وهكذا استفاد العباسيون من الظروف الاقتصادية السيئة التي كانت تعاني منها الخلافة الفاطمية في مصر في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر الميلادي، ونجحوا في مد نفوذهم إلى المدينة المنورة حتى أصبح اسم كل من الخليفة العباسي والأمير البويهي، يذكر من فوق منابر المدينة المنورة، غير إن الفاطميين نجحوا في إعادة نفوذهم على المدينة المنورة مرة أخرى، ويرجع السبب في ذلك إلى ما كان يعانيه أهل المدينة المنورة من ضائقة اقتصادية، لما كان يقوم به أميرها الحسين بن مهنا من إجراءات فقد أثقلهم بالضرائب إذا فرض ضريبة على كل من يرد إلى المدينة زائراً، فامتنع الناس عن زيارة المدينة المنورة، والتفوا حول شخص يسمى محيط العلوي، ونصروه على أمير المدينة الذي فر إلى خراسان قاصداً السلطان السلجوقي ملكشاه، ووزيره نظام الملك، وأعاد محيط العلوي - الذي لا تذكر المصادر المتداولة عنه شيئاً - الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله على منابر المدينة المنورة سنة (٤٦٩هـ-١٠٧٦م)(٢).

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٢/ ٣٠٣-٣٠٤، ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٠٧-١٠٨، ماجد ظهور خلافة الفاطميين، ص: ٢٣٠-٢٣٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣٠٤، ابن تغري بردي: النجوم ٥/ ١٠٤، المناوي الوزارة، ص: ٢١١.

المقتدي بالله العباسي(١)، ولعل سبب ذلك يرجع إلى انقطاع الهدايا والعطايا التي كانت ترسل إلى أمير المدينة المنورة من الخليفة الفاطمي.

وكيفما كان الأمير ففي سنة ٤٩٧هـ-١١٠٣م توفي أمير المدينة المنورة منصور بن عمارة الحسيني، وخلفه في إمارتها ولده الذي لم تسمه المصادر التاريخية، غير أنه من الثابت تاريخياً أن الذين تولوا إمارة المدينة، هم من ولد مهنا، ومنهم القاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود، وكنيته [أو فليته](٢)، وكان موجوداً حوالي سنة ٥٨٣هـ-١١٨٧م(٣).

وقد سار هذا الأمير على نهج سلفه، بالنسبة للولاء للفاطميين أو العباسيين اعتماداً على ما يرسله الفاطميون أو العباسيون من الغلات والأموال والعطايا، وتتابع من بعده الأمراء من بني مهنا الحسينيين في حكم المدينة المنورة، وتقلبوا في الولاء بين العباسيين أو الفاطميين.

وهكذا اتصفت حوادث السنوات ٣٥٨-٥٦٧هـ/ ٩٦٨-١١٧١م بالاضطراب وعدم الاستقرار في المدينة المنورة، فلم تستمر الخطبة لأي من الفاطميين أو العباسيين لمدة طويلة، فإذا أرسل الخليفة الفاطمي العطايا والأموال والهبات إلى أمير المدينة المنورة، أصبحت الخطبة باسمه على منابرها، وإذا عجزت الخلافة الفاطمية عن ذلك نظراً للضائقة الاقتصادية، التي عانت منها الخلافة أثناء الشدة المستنصرية، وبخاصة في أخريات أيامها، أرسل العباسيون الأموال والميرة إلى

---

(١) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٧٩هـ، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤٨٢-٤٨٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٠٠، ابن خلدون: تاريخ ٤/ ١٠٩، السخاوي: التحفة اللطيفة ٣/ ٤٠٤-٤٠٥.

(٣) انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ١/ ١٧٧.

المدينة المنورة، فتعود الخطبة للعباسيين لفترة طويلة أو قصيرة. فقد كانت الأزمات الاقتصادية والسنوات العجاف تطفو على السطح السياسي في المدينة المنورة من وقت إلى آخر، مما جعل الأمور فيها تتصف بعدم الاستقرار والفوضى والاضطراب.

الفصل الثاني

الحجاز في عهد الفاطميين وانتشار مذهب التشيع

■ أولاً: نسب الفاطميين:

ينتسب الفاطميون إلى عبدالله المهدي[1] (٢٩٦-٣٢٢هـ/ ٩٠٩-٩٣٤م) بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن

---

(١) ورد اسمه في أغلب المصادر باسم (عبيدالله) وكان ذلك من أجل التقليل من شأنه والانتقاص من قدره، للمزيد من التفاصيل، ينظر: القاضي النعمان أبو حنيفة النعمان ابن محمد بن منصور بن حيون التميمي المغربي الأرجوزة المختارة، تحقيق/ إسماعيل قربان حسين بونا، وآلا، ط/ مونتريال ١٩٧٠م، ص: ١٩٢، ابن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد الغرناطي الأندلسي، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق/ سيد كسروي حسن، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ٢٠٠٣م، ١/ ٢٣٣، مما جرى على تسمية الدولة الفاطمية عندما كانت في المغرب بالدولة العبيدية في معظم المصادر والمراجع الحديثة، للمزيد من التفاصيل، ينظر: عبد المولى محمد أحمد: القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية (٢٩٦-٣٦١هـ/ ٩٠٩-٩٧٢م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٥م، ١/ ٢٩٣-٢٩٤، الأمين حسين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ط/ ٢، بيروت ١٩٧٨م، ٤/ ٦٢، هامش رقم ٧.

محمد بن علي بن الحسين ابن الإمام علي أبي طالب (رضي الله عنه) زوج السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بضعة رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم)[١].

إلّا أن المؤرخين لم يتفقوا على صحة هذا النسب فمنهم من يدعم ذلك وبعضهم الآخر يفند هذا الرأي، فالذين ينفون هذا النسب يزعمون أنهم أدعياء من ولد ديصان البوني، وأن ديصان كان له ابن يسمى ميمون القداح[٢]، وهناك من يقول أن عبدالله المهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح ويرد أصله إلى المجوس وهذا الرأي الذي يدحض صلتهم بالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)[٣]، وبعضهم من يرد أصله إلى

---

(١) ابن ظاهر جمال الدين بن أبي الحسن علي: أخبار الدول المنقطعة، مقدمة وتعقيب: أندريه فريه، م طبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية (ل.م - د.ت)، ص: ١، ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه: نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، ط/٢، بيروت ١٩٦٧م، ٦/ ١٢٤، ماجد عبد المنعم: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٩م، ٦/ ١٤٤، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط/٣، القاهرة ١٩٦٤م، ص: ٤٠.

(٢) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر، الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، منشورات، دار إحياء العلوم، مطبعة الساحل، بيروت د.ت ٢/ ١٥٠، وأشار: م.ن: أن ميمون القداح كان يحمل مذهباً اتسم بالغلو فولد ميمون القداح عبدالله الذي كان عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ورتب سبع دعوات يتدرج الأنساب فيها حتى ينحل عن الأديان الأخرى كلها ويصير معطلاً إباحياً لا يرجو ثواباً ويأمن من العقاب، أما القداح فهو معالج العين الذي يقدح الماء منها، للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن الأثير: الكامل ٦/ ١٢٦.

(٣) المقريزي: الخطط، مطبعة الساحل ٢/ ١٥٠-١٥١، بو عزيز يحيى: الموجز في تاريخ الجزائر، دار الطليعة للطباعة ط/١ - الجزائر - ١٩٦٥م، ١/ ٩٩.

اليهود[١]، على حين أيد بعض المؤرخين صحة نسبهم إلى الإمام علي (عليه السلام)[٢] فنسب الفاطميين قد وقع للمؤرخين فيه اختلاف كبير بسبب تسرعهم في إبداء آراءهم دون تمحيص[٣]، بيد أن أكثر الحركات التي قامت في العصر الإسلامي قد انتهجت طابعاً دينياً وتخفي بين ثناياها

---

(١) للمزيد من التفاصيل: ينظر: القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ١٩٦٤م، ٢/ ٢٥٨، المقريزي: الخطط، ص: ١٥١.

(٢) للمزيد من التفاصيل، ينظر: ابن الأثير: الكامل ٦/ ١٢٤، ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، والدول الإسلامية، منشورات: الشريف الرضي، مطبعة أمير، ط/ ١ (ل.م - ١٤١٤هـ)، ص: ٢٦٣، أبو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه: م حمود ديوب، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط/ ١ - بيروت ١٩٩٧م، ١/ ٣٨٩، الذهبي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ٢٠٠٣م، ص: ١٢٩، ابن خلدن عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، دار إحياء التراث العربي، شركة علاء الدين للطباعة، ط/ ٤، بيروت د.ت، ص: ٢٠١، ابن أبي الضياف، أحمد بن أبي الضياف بن عمر، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، منشورات، كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، المطبعة الرسمية، تونس ١٩٦٣م، ١/ ١٢٠، شلش محمد جميل: الحماسة في شعر الشريف الرضي، مطبعة المشرق، ط/ ٢، بغداد ١٩٨٥م، ص: ٦٠، العقاد: عباس محمود: فاطمة الزهراء والفاطميون، دار الهلال، القاهرة. د.ت، ص: ١٠٣.

(٣) الأعظمي: محمد حسن، عبقرية الفاطميين أضواء على الفكر والتاريخ الفاطميين، منشورات، دار مكتبة الحياة - بيروت. د. ت، ص: ٨٨.

دوافع سياسية وترتكز على الدين لجعله حجة لها لأن هذه الحركات عرفت فطرة الجماهير لذا سعت إلى إيجاد المبررات لإنجاح سياستها والإطاحة بالأنظمة السياسية المتداعية[(١)].

■ ثانياً: نشأة الدولة الفاطمية وانتقالها إلى مصر:

سميت الدولة الفاطمية بهذه التسمية، نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) سيدة نساء العالمين وابنة رسول الله محمد (ﷺ)، وقد سمو' بالعلويين نسبة إلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) كذلك. عرفوا باسم المصريين لكون مصر آخر ملاذ استقرارهم السياسي[(٢)]، وعرفوا بالعبيديين نسبة إلى الخليفة الفاطمي الأول عبدالله المهدي، جد الخلفاء الفاطميين الذي عرف لدى أكثر المصادر باسم (عبيدالله)، وليس (عبدالله)[(٣)]، إضافة إلى تسميات أخرى[(٤)]، و تسمى

---

(١) الطيار: هيفاء عاصم محمد: مدينة القاهرة خلال عصر الخلافة الفاطمية ٣٥٨-٥٦٧هـ/١٩٦٨-١١٧١م، دراسة في النظم السياسية والمعالم الحضارية، أطروحة دكتوراه، مطبوعة على الآلة الحاسبة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، قسم الدراسات التاريخية، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٥م، ص: ١٦.

(٢) القلقشندي: مآثر الإنافة ٢/٢٤٨.

(٣) ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة كاستوتسماس، القاهرة د.ت ٣/١٦٨.

(٤) للمزيد من التفاصيل، ينظر: الحماد اليماني: محمد بن مالك بن أبي الفضائل من فقهاء السنة في اليمن أواسط المئة الخامسة للهجرة، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تقديم وتعليق المحقق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، نشره وصححه: عزت العطار، ل.م ١٣٥٧م، ص: ٨.

خلفاء الفاطميين بالإمام فهي (الإمامة الكبرى) تمييزاً لها عن (الإمامة الصغرى) والتي تخص إمامة الصلاة[١].

قامت الدولة الفاطمية في إفريقية سنة (٢٩٦هـ-٩٠٩م) وسقطت سنة (٥٦٧هـ-١١٧١م)[٢]، ففي عهد رابع الخلفاء الفاطميين المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ - ٩٥٢ - ٩٧٥م) الذي أرسل قائده جوهر الصقلي[٣] ليقود جيشه من إفريقية إلى مصر، وكان ذلك في يوم السبت ١٤ ربيع الأول سنة (٣٥٨هـ - ٩٦٨م)[٤]، وقد وصلها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان من

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص: ١٩١، الشيال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٨م، ص: ١٧.

(٢) أبو الفداء: المختصر ٣٨٩/١، المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط/٢، القاهرة ١٩٥٦م، ١٨/١.

(٣) أبو الحسن جوهر بن عبدالله القائد المغربي المعروف بالكاتب، مولى المعز لدين الله، ولد سنة ٣٠٠هـ-٩١٢م، وتوفي سنة ٣٨١هـ - ٩٩١م، ولم يبق شاعراً إلّا ورثاه، للمزيد من التفاصيل، ينظر: ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثي أخبار سيبويه المصري، نقلاً عن نسخة أثرية فريدة بخط المؤلف من كنوز دار الكتب المصرية، قام بنشره وكتابة تراجمه: محمد إبراهيم سعيد، وحسين الدين، مكتبة الآداب، ط/١، القاهرة ١٩٣٣م، ص: ٦٤، ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين بن عساكر الشافعي، التاريخ الكبير، اعتنى بترتيبه وتصحيحه: الشيخ عبد القادر أفندي بدران، مطبعة روضة الشام (ل.م ١٣٣١هـ) ٤١٦/٣، حسين علي إبراهيم: تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة، ط/٢، القاهرة ١٩٦٣م، ص: ٩ وما بعدها.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٨/٤.

العام المذكور[١]، وتم قطع الخطبة في الديار المصرية عن الخليفة العباسي بعد ثلاثة أيام[٢].

وقد نجح جوهر في تثبيت أركان الدولة الفاطمية في مصر حيث رحب به أهلها أحسن ترحيب بعد أن منح جوهر أهلها الأمان[٣]، وقام ببناء مدينة القاهرة سنة (٣٥٨هـ - ٩٦٨م)[٤]، واتخذها الخلفاء

---

(١) ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٠هـ، ٣/٩٩، خفاجي: محمد عبد المنعم، الأزهر في ألف عام، مطبعة المنيري، ط/١ القاهرة ١٣٧٤هـ، ص: ١٢.

(٢) الدميري: كمال الدين محمد بن موسى: تاريخ الخلفاء، عناية الأستاذ/ محمد الفضالي، مؤسسة المعارف للمطبوعات، ط١ بيروت ٢٠٠١م، ص: ١٦٩.

(٣) الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب: الولاة والقضاة، مهذباً ومصححاً، قبل ربن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م، ص: ٢٩٨، يحيى بن سعيد: تاريخ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩م، ص: ١٣٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٧/٣١، ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر: تاريخ ابن الوردي المسمى تتمة المختصر في أخبار البشر، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٥هـ، ١/٢٩٤، مؤلف مجهول: نظم اللآلي في السلوك، مطبعة بولاق - القاهرة ١٢٥٧هـ، ص: ٢٤٥، الدميري: كمال الدين محمد بن موسى: حياة الحيوان الكبرى، المطبعة بقيع، قم، ١٤٢٥هـ، ١/٩١، القلقشندي: مآثر الإنافة ٢/٢٤٩، ابن ظهيرة: أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق/ مصطفى السقا، وكامل المهندس، مطبوعات دار الكتب العربية والوثائق القومية، القاهرة ١٩٦٩م، ١/١٨١، ويقال عنها القاهرة المعزية، ينظر: السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق/ فرائز روزنثال، ترجم التعليقات والمقدمة وأشرف على نشر النص: صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص: ٣٣٤، الديار الكبرى، حسين بن محمد بن الحسن، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ، ٦/٣٨٦.

الفاطميون عاصمة لهم حتى نهاية دولتهم[١]، وهي رابع موضع انتقل إليها مقر القرار السياسي في مصر بعد الفسطاط[٢] والعسكر[٣] والقطائع[٤] وعلى ما يبدو تأكيد على النهج الذي اختطته السياسة الفاطمية منذ نشأتها

---

(١) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، إغاثة الأمة بكشف الغمة، قام على نشره: محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط/٢، القاهرة ١٩٥٧م، ص: ١٣، بهجت بك علي: ومسيو جبرييل: حفريات الفسطاط، نقله إلى العربية، على بهجت بك، ومحمد عكموش، مطبعة دار الكتب المصرية، ط/١، القاهرة ١٩٢٨م، ص: ١٣، الشريف أحمد إبراهيم، محمود حسن أحمد، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص: ٣٤٤.

(٢) شيدها عمرو بن العاص بالقرب من حصن بابليون في أرض منبسطة بين جبل المقطم والنيل، ينظر الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي، مسالك الممالك، وهو المعول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، تحقيق/ دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن ١٩٢٧م)، ص: ٤٨-٤٩، المقريزي: الخطط ٢/ ٦٠-٦١، العلي: صالح أحمد وآخرون: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مطبعة وزارة التربية، ط١، بغداد ١٩٧٣م، ص: ١٩٣.

(٣) أنشأها العباسيون سنة ١٣٥هـ-٧٥٤م، شمال الفسطاط وبنى فيها دار للإمارة ومسجد وجامع للمزيد من التفاصيل ينظر المقريزي: الخطط، ٢/٧٦، العلي: تاريخ الحضارة، ص: ١٩٣.

(٤) المقريزي: الخطط، ٢/ ١٤٩، القطائع: مدينة أنشأها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ-٨٦٨م، شمال شرق العسكر وبنى فيها قصر كبير، وجامع له منارة، للمزيد من التفاصيل، ينظر: الإصطخري: المسالك والممالك، ص: ٤٩، كاشف: سيدة إسماعيل، أحمد بن طولون، المؤسسة المصرية للتأليف، القاهرة ١٩٦٥م، ص: ١٤٦، ماهر، سعاد، القاهرة القديمة وأحياؤها، دار القلم، القاهرة ١٩٦٢م، ص: ١٥.

أمر جوهر المؤذن في جامع ابن طولون بذكر (حي على خير العمل) في الأذان وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ - ٩٦٩م[١].

وتعزيزاً لنشر ثقافتهم السياسية والروحية عمد الفاطميون إلى إنشاء الجامع الأزهر، حيث بدأ العمل فيه عام ٣٦٠هـ-٩٧٠م، وتم إنجاز بنائه في ٣٦٢هـ-٩٧٢م[٢].

وبعد أن هيأ جوهر الأجواء في مصر كافة، سار المعز إليها وكان أول مسيره إليها يوم الاثنين ٢١ شوال ٣٦١هـ/ ٥ آب ٩٧٢م، وقد حمل معه الأموال الكثيرة[٣]، بعد أن ودع مدينة المنصورة (صبرة)[٤]، بقول:

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٣١، أبو الفداء، المختصر ١/ ٤٤٨، ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة د.ت ١١/ ٢٦٦، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الشافعي، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، دار المنار، (ل.م - د.ت)، ص: ٣٠٦، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٢/ ١٣.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٣٠٧، فييت، جاستون، القاهرة، مدينة الفن والتجارة، ترجمة: مصطفى العبادي، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٦٨م، ص: ٣٧، قراءة سنية، تاريخ الأزهر في ألف عام، مكتبة الصحافة الدولي، ل.م ١٩٦٨م، ص: ٩٥، يوسف شريف تاريخ فن العمارة العربية الإسلامية، مجلة المورد، دار الحرية للطباعة، العدد ٣، بغداد ١٩٧٦، ق:٢، ص: ٧، وسمي بهذه التسمية تيمناً باسم السيدة فاطمة الزهراء، (عليها السلام)، ينظر نبيل مصطفى: قاهرة المعز، تبعث من جديد، مجلة العربي، العدد ٥٧٢، الكويت - ٢٠٠٦م، ص: ٤٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٤٥، أبو الفداء: المختصر ١/ ٤٥٢، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ١٤٩.

(٤) مدينة قديمة بإفريقية، كبيرة بناها الخليفة المنصور الفاطمي سنة ٣٣٧هـ-٩٤٨م، ينظر الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق/ إحسان عباس، مكتبة لبنان، مطبعة هيدلبرغ، ط/٢، بيروت ١٩٤٨م، ص: ٣٥٤.

«سلام عليكم من مودع لا يرد أبداً»[١]، وكان وصول المعز لدين الله مدينة القاهرة في ٧ رمضان ٣٦٢هـ/ ١١ حزيران ٩٧٣م، فلما أصبح الصباح هنأه الناس وكتب في سائر القاهرة «خير الناس بعد رسول الله (ﷺ) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)»[٢].

■ ثانياً: سياسة الفاطميين مع بلاد الحجاز[٣]:

أ- سياسية الفاطميين العامة في الحجاز:

يعتبر الحجاز كما وصفه ابن خلدون[٤] «أصل العرب والملة والبعد

---

(١) ابن أبي دينار: أبو عبدالله محمد أبي القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق/ محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس ١٣٤٧هـ، ص: ٦٥.

(٢) المقريزي: الخطط، مطبعة الساحل ٢/ ١٥٩، الروضان: عبد عون، موسوعة تاريخ العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن ٢٠٠٤م، ٢/ ٥٤٤.

(٣) ظل الحجاز كمصطلح جغرافي، فيه نوعان من النماذج منتشراً حيناً ومتقلصاً حيناً آخر في رقعته الجغرافية، وربما كان متداخلاً مع إقليم أو أكثر في شبه الجزيرة العربية، مما أدى إلى عدم الاستقرار في حدوده لدى الجغرافيين العرب، واختلاف معالم هذه الحدود من حين إلى آخر، فالدور المتميز الذي عرف فيه هذا الإقليم كأحد المحاور المهمة في حركة التجارة العالمية قبل الإسلام، شكل إنعكاساً لهذا التذبذب الذي فرضته البيئة بكافة صورها المنسجمة والمتناقضة في ذات الوقت، حيث كان تداخلها واضحاً في نمط حياة المنطقة بأسرها من الناحيتين الاقتصادية أو السكانية، وقد سمي بالحجاز لأنها احتجزت بالحرار الخمسة ومنها حرة واقم وحرة سليم للمزيد من التفاصيل، ينظر: البكري أبو عبيدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، حققه وقدم له ووضع فهارسه: جمال طلبة، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ط/ ١، بيروت ١٩٩٨م، مجلدذ، ١/ ١٢-١٣، الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت ١٩٨٣م، مادة حجز، بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة =

عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية»، والذي يرتبط بمصر بطريق بري[١]، وتعود صلة مصر بالحجاز إلى حقب بعيدة قبل وبعد ظهور الإسلام، فعندما فتحها عمرو بن العاص، اختط مدينة الفسطاط في مكان تسير فيه المواصلات البرية والبحرية مع شبه الجزيرة العربية، حيث إنه أعاد تأهيل قناة تراجان القديمة التي تربط النيل بالبحر الأحمر عند مدينة القلزم[٢] (السويس)، وسمى هذه القناة بخليج أمير المؤمنين نسبة للخليفة عمر بن الخطاب فأصبحت هذه القناة ممراً للغلال والأموال المرسلة إلى الحجاز مما عزز متانة العلاقة التي تربط مصر بالحجاز بشكل خاص ومع شبه الجزيرة العربية بشكل عام[٣].

كانت مكة والمدينة تحت سيادة الدولة العباسية، وكان المسرح السياسي خالياً من منافس لهم، فعندما أقام الفاطميون دولتهم في إفريقية، أخذوا بالتطلع لمد نفوذهم السياسي وتوسيع رقعة بلادهم فبعد استيلائهم على مصر والشام وأصبحت القاهرة حاضرتهم طمحوا إلى مد نفوذهم نحو أرض الحجاز حيث كانوا يرغبون في تقوية مركز حكمهم

= الإسلامية، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط/١، بيروت ١٩٨٣م، ص: ٢٧.

(٤) المقدمة، ص: ٢٢٨.

(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص: ١٢٧-١٢٨، فضلاً عن الطريق البحري عبر البحر الأحمر.

(٢) مدينة من أعمال مصر على ساحل البحر، وبها يعرف البحر الأحمر، فيقال بحر القلزم، وبها المراكب للتجار، وسمي القلزم لأنه في مضايق بين جبال، ينظر الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٦٦.

(٣) العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص: ٣٤١.

الديني والدنيوي أمام الرأي العام الإسلامي والعمل على الحط من شأن الخلافة العباسية التي تترنح جراء الضعف وهيمنة القوى الخارجية عليها، فأخذ العباسيون ينظرون إلى تعزيز نفوذهم بالحجاز أكثر من أي وقت مضى، وذلك لما للحرمين من تأثير على ولاء رعاياهم من المسلمين إزاءهم، فلما طمح الفاطميون بأن تصبح مكة المكرمة والمدينة المنورة ضمن مناطق نفوذهم منافسة للعباسيين ونتيجة لهذا الصراع بين الطرفين ظهر بمنطقة الحجاز مفهوماً سياسياً تبلور لاحقاً على الساحة السياسية للعالم الإسلامي الذي بين أن من يمتلك الحرمين بالحجاز يكون أمير المؤمنين الفعلي على المسلمين، «وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز . .»[١] . ويدعى له في مكة والمدينة[٢]، الأمر الذي أدى إلى ازدياد التنافس بين الخلافتين الفاطمية والعباسية وسعيهما إلى أن تكون الخطبة لهما على حساب الطرف الآخر حتى تمكنها من بسط نفوذها على العالم الإسلامي، لكون الحجاز يحتضن قبلة جميع المسلمين لذا احتدم النزاع بين الخلافتين المذكورتين[٣]، كان الطرف الثالث الذي فاز بالغنيمة هم العلويون في الأراضي المقدسة، فقد كان الحسينيون يتمتعون بالمال والجاه الكبير، لذلك فقد تمكنوا من السيطرة على مكة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي دون أن يلاقوا أية معارضة من قبل الخلافتين المتنازعتين[٤].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٢٨.

(٢) المناوي: الوزارة والوزراء، ص: ٢١٠.

(٣) ماجد: الحاكم بأمر الله، ص: ١٤٩-١٥٠.

(٤) متز: الحضارة الإسلامية ١/ ٢٤.

إن مد النفوذ السياسي إلى مكة وإقامة الخطبة فيها وما يترتب على ذلك من قبول ورضا المسلمين في أرجاء المعمورة وتأييدهم لمكانتها الدينية هو من بناة أفكار الفاطميين فيما يبدو، وذلك لما عرفوا به من حذق دعاياتهم وأساليبهم المختلفة التي صاحب دعوتهم في جميع مراحلها، خصوصاً إذا علمنا بأن الخلافة الفاطمية كانت في هذه المرحلة خلافة ناشئة وأن عليها أن تعمل بقدر ما تستطيع من أجل منافسة الخلافة العباسية التي ترسخت في الأذهان منذ حوالي أكثر من قرنين من الزمان، على حين كانت الخلافة الفاطمية لا زالت تعد خارجة عن الإجماع في عرف المذاهب الأخرى الذين لا يتوافقون مع مذهبها[١]، إلّا أن التشيع الإسماعيلي في بلاد الحجاز لم يكن بمستوى هذا التشيع في البحرين واليمن فقد ظهرت في الحجاز أسر شيعية ولكن لم تكن إسماعيلية في ظروف اجتياح موجة التشيع الإسماعيلي كبني الحسن أو الحسين أو الطالبيين في مكة[٢].

ترجع البداية التي ارتبطت بها الدولة الفاطمية بعلاقات مع بلاد الحجاز إلى سنة ٣٤٨هـ-٩٥٩م عندما وردت للخليفة المعز لدين الله الفاطمي الأنباء، حين كان في المغرب، عن أمر الخصومة الدائرة بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب، وأن أكثر القتلى كان عند بني الحسن فأراد المعز كسب برد الطرفين المتنازعين فأنفذ إليهم سراً المال والرجال من أجل تقريب وجهات نظرهم وحل النزاع القائم حتى تم الصلح بين الفريقين في داخل المسجد الحرام وتحمل الفاطميون ديات

---

(١) الزيلعي: أحمد عمر، مكة وعلاقتها الخارجية، الدار العربية للموسوعات، ط/٢، بيروت ٢٠٠٥م، ص: ٢٨.

(٢) ماجد: الإمام المستنصر، ص: ١١٥.

بني الحسن[١]، فكان لذلك أثره البالغ في رفع مكانة الفاطميين في الحجاز[٢]، وقد مهدت هذه الأحداث إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي وإسقاطها عن العباسيين[٣]، حيث كان المعز ينظر للحجاز باهتمام بالغ ويطمح بالدعاء له فيه بدلاً من الخليفة العباسي باعتبار ذلك نوع من الزعامة الدينية التي يبتغيها لرفع مكانته بين صفوف المسلمين وسحب البساط من تحت أقدام الخلفاء العباسيين[٤].

شهد العالم الإسلام انقسام في الخطبة فكانت من بغداد إلى حلب إلى البصرة كانت الخطبة تقام للخليفة العباسي ومن حلب إلى الحرمين للفاطميين فضلاً عن إقامة الخطبة للخلافة الأموية في الأندلس، ففي الحجاز قام جعفر بن محمد الحسني[٥] بإعلان ولاءه للفاطميين وأقام الخطبة للمعز الفاطمي في مكة سنة ٣٥٨هـ-٩٦٨م[٦] وعلى ما يبدو فإن

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/١٤٥-١٤٦، العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة - د.ت، ٤/١٩٥.

(٢) ماجد: الحاكم بأمر الله، ص: ١٥٠-١٥١، سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص: ١٥، الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية، ص: ٤٢.

(٣) ماجد: الحاكم بأمر الله، ص: ١٥١.

(٤) الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية، ص: ٤٢.

(٥) الفاسي أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٩٧هـ، ١/١٧٠-١٧١، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ٤/٣٠٥، وجعفر بن محمد بن الحسن يرجع نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ينظر ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص: ٤٧.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ص: ٤٧.

السبب هو تخوفه من العباسيين[١]، ولأجل ذلك «فرق لأجلها قائدهم (جوهر) من مصر أموالاً عظيمة»[٢]، وبذلك حققت السياسة الخارجية للفاطميين نصراً سياسياً مهماً دون أن تخوض أي صراع أو تبذل أي جهد ولعل فرصتهم كانت كبيرة جداً بحيث تم الاحتفال بذلك في مصر الأمر الذي يعكس أهمية منطقة الحجاز إليهم وباتت منطقة نفوذهم أكثر اتساعاً ولم تفصلها عن الحجاز إلّا الشام.

ولغرض ديمومة هذا الانتصار عزز المعز انتصاره السياسي بخطوة فتح بلاد الشام كخطوة للطريق نحو العباسيين وفي الوقت نفسه قام بتأمين الطريق البري الذي يربط القاهرة بالحجاز ومن ثمة تكون مهمة السيطرة على هذه المنطقة الحيوية أمراً وارداً[٣]، فضلاً عن قيامه سنة ٣٥٩هـ-٩٦٩م تثبيت أركان نفوذه على مكة والمدينة من خلال الأموال التي كان يرسلها لها فقد أرسل «عسكراً وأحمال مال - عدتها عشرون حملاً- للحرمين وعدة أحمال متاع»[٤].

وبما أن العباسيين كانوا حريصين على أن يكون الحجاز تحت نفوذهم فاستغلوا تأييد القرامطة لهم وأعادوا الخطبة في مكة سنة ٣٥٩هـ-٩٦٩م للخليفة المطيع العباسي ولحليفه الحسن الأعصم القرمطي[٥] فخلد العباسيون أحرازهم هذا النجاح وقدموا هدية كبيرة

---

(١) البتنوني: محمد لبيب، الرحلة الحجازية، مطبعة الجمالية، القاهرة ١٣٢٩هـ، ص: ٧٤.

(٢) الجزيرة: درر الفوائد المنظمة، ص: ٢٤٤.

(٣) الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية، ص: ٤٢.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ١٧٢.

(٥) الجزيرة: درر الفوائد المنظمة، ص: ٢٤٥.

إلى الكعبة لغرض تكريس سياستهم في بلاد الحجاز وعرضها أمام حشد من الناس[١].

وقد دافع الفاطميون عن سياستهم الخارجية وشجعوا حكام المدينة الحسينيين للاستيلاء على مكة بالقوة وتمكنوا من إعادة الخطبة للمعز الفاطمي لكن هذا النجاح الذي تحقق للفاطميين لم يدم طويلاً بسبب أن القرامطة انضموا إلى أهل مكة وألحقوا هزيمة بالحسنيين سنة ٣٦٠هـ-٩٧٠م، وأجبروهم على الرحيل إلى المدينة[٢].

أمر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في سنة (٣٦٢هـ-٩٧٢م) بعد استقراره في مصر في العام المذكور بعمل كسوة للكعبة، وقد كانت هذه الكسوة على شكل مربع من ديباج أحمر، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبراً وكان في حافاتها اثنتا عشر هلالاً ذهبياً في كل هلال أترجة[٣] ذهبية، وفي كل منها خمسون درجة[٤] تشبه بيض الحمام في حجمها، كما كان فيها الياوت الأحمر والأصفر والأزرق، وقد نقش في أطرافه الآيات القرآنية التي وردت بشأن الحج: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية، ص: ٤٣-٤٤.

(٢) العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٩٥.

(٣) ثمر شجر بستاني من جنس الليمون ناعم الورق والحطب، ينظر: ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم عيون الأخبار، مطبعة الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٠م، ٤/ ٦، هامش رقم ٢، ابن الوردي: جريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط/٢، القاهرة ١٣٥٨ هـ، ص: ١٨٨، غربال: محمد شفيق وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥م، ص: ٤٩.

(٤) الدرجة: واحدة الدرجات، وهي الطبقات من المراتب، ينظر ابن منظور: لسان العرب، مادة درج.

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[(١)]، والآية الأخرى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٢)]، وقد كتبت بحروف الزمرد الأخضر، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة، وقد كانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك، وقد عرفت هذه بـ«الكسوة الشمسية»[(٣)].

فقد كان يعرض هذه الكسوة في عيد الأضحى أمام الناس[(٤)] تأكيداً على اهتمامه بمد نفوذه السياسي والروحي على الحجاز بشكل عام وعلى مكة بشكل خاص.

---

(١) آل عمران: ٩٥.

(٢) التوبة: ٣.

(٣) ابن ميسر: محمد بن علي بن يوسف بن جلب: أخبار مصر، عنى بتصحيحه: هنري ماسية، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩١٩م، ص: ٤٤، المقريزي: الخطط ٢/ ٢١٤، الخربوطلي: علي حسني: تاريخ الكعبة، دار الجيل بيروت ١٩٧٦م، ص: ١٧٧، ماجد: الحاكم بأمر الله، ص: ١٥١، الكسوة الشمسية: وهي حلية ضخمة كانت تهدى للكعبة أثناء موسم الحج برفقة قائد خاص لتعلق في وجه الكعبة، وأنها تشبه الشمس، ولها أثناء عشر ذراع لتشبه أشعة الشمس والأرجح أن عدد الأشعة لم يكن اثنى عشر بشكل اعتباطي بل المقصود منه هو عدد شهور السنة فموسم الحج يحل بعد مضي اثني عشر شهراً، ويعني ذلك سنة كاملة، والأهلة الموجودة في نهاية الأشعة تمثل الشهور القمرية الهجرية، وقد كان المعز أول من أعد شمسة للكعبة، مبتغياً التفوق على منافسيه العباسيين فقد صنعها بشكل أكبر وأضخم وأثمن وأغلى قيمة، للمزيد من التفاصيل، ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، القاهرة ١٩٦٧م، ١/ ١٤٠، هامش رقم١.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، ص: ٤٤، ابن بطوطة: أبو عبدالله محمد بن عبدالله: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة ١٩٣٨م، ١/ ١٠٦، لينبول ستانلي: سيرة القاهرة، ترجمه عن الإنكليزية: حسن إبراهيم حسن وآخران، مطبعة السعادة، ط/ ٢، القاهرة د.ت، ص: ١٣٢.

وقد تمكن الفاطميون عن طريق أنصارهم من إعادة الخطبة لهم في مكة والمدينة في سنة ٣٦٣هـ-٩٧٣م، وقطعت الخطبة عن العباسيين فأثمرت جهود الفاطميين في هذا الصدد[١]، يبدو أن إرسال الكسوة إلى الكعبة المشرفة لا يتعارض مع قطع الخطبة للفاطميين.

عندما تولى العزيز بالله الخلافة بعد والده المعز سنة (٣٦٥هـ-٩٧٥م)[٢]، حذف اسم العزيز من الخطبة في مكة والمدينة، من قبل أمير مكة عيسى بن جعفر وأمير المدينة طاهر بن مسلم[٣]، إن ولاء مكة للفاطميين انتهى بموت أميرها جعفر بن محمد الحسنى الذي توفي قريباً من تلك السنة المذكورة وعندما خلفه ابنه عيسى بن جعفر على إمارة مكة خطب للطائع العباسي[٤]، وشهدت ذات السنة سياسة جديدة للفاطميين في الحجاز نفذت على أثر قطع الخطبة لهم في مكة إذ قام العزيز بإرسال جيشاً لإعادة الخطبة للفاطميين «بعد أن حوصر أهل مكة فمنعوا الميرة، وقاسوا شدة شديدة»[٥]، وتمكن من إعادة الخطبة[٦]، لكن الفاطميين لم

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ٨/٣٩٤، اليافعي: مرآة الجنان ٢/٣٧٩، ابن العبري: غريغوريوس أبو الفرج بن اهرون الملطي: تاريخ مختصر الدول، وقف على تصحيحه وفهرسته: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت ١٩٨٣م، ص: ٢٩٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ٢٥٤-٢٥٥، العبر في خبر من غبر، بيروت ١٩٩٧م، ١/٣٦١، الدميري: تاريخ الخلفاء، ص: ٦٨، الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص: ٢٤٥، ابن العماد: شذرات الذهب، بيروت ١٩٧٩م، ٣/٤٤.

(٢) أبو الفداء: المختصر ١/٤٥٧.

(٣) ابن خلدون: العبر ٤/٥١.

(٤) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص: ٤٥.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٨/٤٠١.

(٦) ابن خلدون: العبر ٤/١٠١، الفاسي، شفاء الغرام ٢/١٩٤، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/١٩٥.

ينعموا بهذا النصر طويلاً ويبدو أن العباسيين قاموا بالدور نفسه بعد سيطرة عضد الدولة على زمام الأمور في بغداد سنة ٣٦٧هـ-٩٧٧م، إذ صمم على استعادة هيبة الخلافة العباسية على الحجاز وأجبر مكة على إعلان ولائها له سنة (٣٦٨هـ-٩٧٨م)[١] إلّا أن هذا لم يدم سوى سنة واحدة حيث قام الفاطميون بحركة مماثلة، وأعادوا مكة إلى سيادتهم في العام التالي[٢]، واستمر الأمر سنوات الأمر الذي يدلل على نجاح السياسة الخارجية للفاطميين في المنطقة واستمرار السياسة العباسية في محاولتها لإعادة الخطبة لهم في الحجاز فقاموا بتحريض أحد المتمردين الذي يدعى (ابن حازم) سنة (٣٧٧هـ-٩٨٧م) إلّا أن السياسة الفاطمية كانت أكثر حزماً إذ قام الخليفة العزيز بإرسال قوة عسكرية نجح في الأخير من قتل (ابن حازم) وعاد الجيش في العام التالي ومعهم رأسه[٣]، وقد كان اهتمام الخلافة الفاطمية بأمر الحجاز كبيراً من أجل إظهار احترامهم لمناسك الحاج وسعيهم لمد نفوذهم السياسي فيه، ففي سنة (٣٨٢هـ-٩٩٢م) بلغ مقدار «ما أنفقه العزيز على الكسوة والصلاة[٤] وغيره عيناً وورقاً ثلاثمائة ألف دينار»[٥].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٦٩.

(٢) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص: ٤٦.

(٣) ابن حازم: هذا كان يسيطر على حصن وادي القرى، والذي استجاب لتحريضات العباسيين ضد الفاطميين، ينظر يحيى بن سعيد: تاريخ، ص: ١٧٢، ابن أيبك الداوداري: كنزر الدرر وجامع الغرر ٦/ ٢١٩.

(٤) هي العطية والإحسان والجائزة، ينظر: اليسوعي: المنجد في الغرر والأعلام، مادة (وصل).

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر، ص: ٤٩.

وقد بقي ولاء مكة للفاطميين بعد وفاة أمير مكة عيسى بن جعفر سنة (٣٨٤هـ-٩٩٤م) وتولي أخيه الحسن بن جعفر (أبو الفتوح) إمارة مكة[١]، وبقية الخطبة في مكة والمدينة للفاطميين عرفاناً لهم واعترافاً بمكانتهم الدينية في العالم الإسلامي[٢].

حاول القادر بالله العباسي تحقيق بعض المكاسب من خلال تأمين طريق الحج - الذي يبدو أنه كان غير آمن - فقد توصل القادر مع الأصيفر التغلبي أمير إحدى القبائل العربية سنة ٣٨٤هـ-٩٩٤م إلى اتفاق يُلزم الأصيفر على وفق مقتضاه بحماية الحجاج في رحلاتهم إلى مكة في الذهاب والإياب وذلك بعوض مالي يدفعونه له من أجل تأمين طريق الحج إلّا أن هذا الاتفاق لم يصمد طويلاً، فرجع حجاج العراق[٣]، أما أهالي مصر فقد حجوا[٤]، وهذا يعني أن هناك هيمنة فاطمية على معظم القبائل البدوية وأن الفاطميين على الأرجح قاموا بإفساد هذا الاتفاق لأن تلك القبائل كانت تعمل تحت تأثير برنامج فاطمي لهذا الغرض والدليل حج أهل مصر دون سواهم من الحجاج[٥].

---

(١) زامباور: معجم الأنساب ١/ ٣٠.

(٢) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ٢٥.

(٣) حيث استمر هذا الاتفاق مدة لم تتجاوز السنتين، بسبب إن الأصيفر تخلى عن وعده عندما أرجع حجاج العراق من الثعلبية وهي أحد منازل طريق الحج من الكوفة، ولم يحجوا وكان سبب عودتهم أن الأصيفر قال حين اعتراضهم: «إن الدراهم التي أرسلها السلطان عام أول كانت نقرة مطلية وأريد العوض»، ينظر: ابن الجوزي، المنتظم ٩/ ٣٩، ذكرها ضمن حوادث (٣٨٦هـ-٩٩٦م) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١١، ابن الأثير: الكامل ٧/ ١٦٥، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص: ٢٥٥، الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص: ٢٤٨.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ١٧.

(٥) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص: ٤٧.

استمر النفوذ الفاطمي على الحجاز في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي[١]، إذ أرسل في سنة ٣٩٧هـ-١٠٠٦م كسوة بالقباطي[٢] الأبيض للكعبة المشرفة وأرسل في ذات الوقت الأموال لأهل الحرمين[٣].

في سنة (٤٠٠هـ - ١٠٠٩م) حرص الحاكم على جلب موجودات بيت الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)[٤] من مصحف وآلات أخرى كانت موجودة فيه، وكان مع المصحف قعب[٥] خشب مطوق بحديد ودرقة[٦] خيزران وحربة وسرير، وقام بنقل المواد وفد علوي إلى مصر فاستقبلهم الحاكم وصرف عليهم نفقات سفرهم وقد علل الحاكم ذلك بقوله: «أنا

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ٢٣٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٢١٤.

(٢) نسبة لأقباط مصر وإليهم تنسب الثياب القبطية، ينظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة (القبط).

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص: ٢٧١، ص: ٢٧١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٢١٧.

(٤) أبو عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب (عليهم السلام) (٨٠ - ١٤٨هـ/ ٦٩٩ - ٧٦٧م) وهو أحد الأئمة الاثنى عشرية لدى مذهب الإمامية وقد عرف بأنه أحد سادات أهل البيت (عليهم السلام) وقد لقب بـ(الصادق) لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر، وله كلام في صناعة الكيمياء والزجر، والفأل وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان، توفي بالمدينة ودفن في البقيع «فلله دره من قبر ما أكرمه وأشرفه»، ينظر: الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبدالله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي ط٣، بيروت ١٩٨٠م، مجلد٢، ٣/ ١٩٢، وما بعدها، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٣٠٧، ٤١٦، ابن الجوزي: صفوة الصفوة ٢/ ٩٤، الزركلي: الأعلام ٢/ ١٢٦.

(٥) القدح الضخم: ينظر، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (القعب).

(٦) الترس من جلد: ينظر: النويري، نهاية الإرب ٢٤/ ١٤٣، هامش رقم ١.

أحق به»[١]، الأمر الذي يدلل على تمكن الفاطميين من الحجاز وإمكانية اتخاذهم للقرارات دون الوصول إليها فعلياً.

حرص الخليفة الظاهر الفاطمي عند توليه الخلافة على اهتمامه بديمومة النفوذ الروحي والسياسي للدولة الفاطمية في مكة والمدينة حيث استمرت الخطبة له في الحرمين[٢]، وجهز الظاهر سنة ٤٢٠هـ-١٠٢٩م الحجاج إلى بيت الله الحرام[٣] ووصلت الكسوة التي أرسلها الظاهر إلى الكعبة والأموال للصدقة وصلات لأمير مكة[٤]، يتضح من إرسال الظاهر صلاة لأمير مكة مدى حرص الخلفاء الفاطيين على تعزيز نفوذهم السياسي في مكة فضلاً عن سعيهم إلى رفع مكانة الخلافة الفاطمية في العالم الإسلامي.

- **الفاطميون وعلاقتهم مع أبي الفتوح حاكم مكة وضم المدينة لحكمه وسيطرته على الحجاز:**

يمكن دراسة عهد أبي الفتوح على ثلاث مراحل فالمراحل الأولى اتسمت بالولاء التام للفاطميين أما المرحلة الثانية فهي مرحلة إعلان الاستقلال عن الفاطميين وادعاء الخلافة أما المرحلة الثالثة والأخيرة فكانت مرحلة تراجعه والعودة في ولائه للخلافة الفاطمية حتى وفاته سنة ٤٣٠هـ-١٠٣٨م[٥].

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص: ٢٨٠، ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٢٢.

(٢) ابن خلدون: العبر، طبعة بولاق ٤/ ١٠٢، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ٢٧.

(٣) سبط ابن الجزوزي: مرآة الزمان، ص: ٣٤٤.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص: ٢٥٤.

(٥) الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية، ص: ٤٨.

كان أبو الفتوح منذ بدء عهده وفياً للفاطميين وبقيت العلاقات بينه وبين الفاطميين يسودها الاحترام المتبادل في هذه المرحلة فكان لا يتوانى في انتهاز كل فرصة من أجل التعبير للفاطميين عن ولائه وإخلاصه لهم[١].

عظم شأن أبي الفتوح واتصلت إمارته في مكة، وقد كتب إليه الخليفة القادر بالله العباسي سنة (٣٨٦هـ-٩٩٦م) طالباً منه الإذن بتأدية حجاج العراق مناسكهم الدينية، ولم يستطع أبي الفتوح الوقوف بوجه أية شعيرة من شعائر الحج فسمح لهم بالحج، ولكن تلك الموافقة لم تكن خالية من الشروط على الخلافة العباسية لصالح الخلافة الفاطمية في مصر، وذلك عندما اشترط على الخليفة العباسي إلّا يكون لحجاج العراق أي صفة رسمية وأن الخطبة تبقى على حالها للخلافة الفاطمية إلّا أن تلك الشروط التي تعبر عن ولاء أبي الفتوح للخلافة الفاطمية لم تخل من نقد الخليفة الحاكم والذي عبر عنها عملياً من خلال إنه أوعز إلى ابن الجراح أمير الطائيين باعتراضهم ففعل ذلك ولكنه اضطر إلى إخلاء سبيلهم بعد أن لاطفاه الشريف الرضي والشريف المرتضى على أن لا يعودوا[٢]، وهذا يعني أن أبا الفتوح وافق على حج أهل العراق دون موافقة الخليفة الفاطمي الأمر الذي يؤكد استقلالية أبي الفتوح على رغم من دعوته للفاطميين.

أزال أبو الفتوح إمارة بني مهنا الحسنية من المدينة سنة ٣٩٠هـ-٩٩٩م بتأييد الحاكم الفاطمي حين بلغه الطعن في نسب الخلفاء

(١) م. ن.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص: ٢٦٢، وذكر هذه الحادثة سنة ٣٩٣هـ-١٠٠٢م، وأشار: «فأعطوه تسعة آلاف دينار من أموالهما وأطلق الحاج»، ابن خلدون: العبر ١٠١/٤، الزيلعي م.ن.

الفاطميين، لكنه لم يحتفظ بها طويلاً لأن بني مهنا بعد عودته منها، سرعان ما دخلوا في طاعة الفاطميين[١].

وما دام الحديث بصدد أبي الفتوح، فهناك رواية تثير الاستغراب مفادها إلى أن بعض الزنادقة أشار على الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٠هـ-٩٩٩م بنبش قبر النبي[٢] (ﷺ) وصاحبيه أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ونقل رفاتهم إلى مصر حتى تكون دار هجرة ومحط رحال المسافرين، فأرسل إلى أبي الفتوح يطلب تنفيذ هذا الأمر، فسار حتى قدم المدينة فجاءه جماعة من أهلها ممن له دراية بسبب مجيئه للمدينة ومعهم قارئ يعرف بـ(الركباني) فقرأ بين يديه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾[٣] إلى قوله: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾[٤]، فثارت ثائرة الناس حتى كادوا أن يقتلوا أبا الفتوح فلما رأى ذلك من قبل الناس قال لهم: «والله أحق أن يخشى، ووالله لا أتعرض لشيء من هذا. ودع الحاكم يفعل في ما أراد، ثم استولى عليه ضيق الصدر، وتقسيم الفكر كيف أجاب؟ فما غابت الشمس من بقية يومه حتى أرسل الله من الريح ما كادت الأرض تزلزل منه، وتدحرجت الإبل باقتابها، والخيل بسروجها، ما تدحرج الكرة على وجه الأرض، وهلك خلق كثيرون من الناس، وانفرج هم أبي الفتوح بما أرسله الله من تلك الرياح التي شاع ذكرها في الآفاق، ليكون حجة له عند

---

(١) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عنى بطبعه ونشره: أسعد درابزوني الحسيني، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٧م، ١/٤٦٨، سرور سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ٢٥.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٥٠.

(٣) التوبة: ١٢.

(٤) التوبة: ١٤.

الحاكم»[١]، يبدو من هذه الرواية أنها رواية مختلقة وجزء من حملة التشويه والتشهير التي عانى منها الفاطميون لغرض العمل على تحجيم دور سياستهم الخارجية والطعن بشرعية خلافتهم على العالم الإسلامي.

كان أبو الفتوح لا يتوانى عن انتهاز أية مناسبة للتعبير عن ولاءه للخلافة الفاطمية فقد توجه إلى مصر في شعبان سنة (٣٩٦هـ - ١٠٠٥م) لمقابلة الخليفة الحاكم بأمر الله وتقديم التهاني بمناسبة انتصاراته على أبي ركوة ومواجهة عصيانه، وقد احتفى الحاكم وأبدى سروره لمجيئه وأكرمه وخلع عليه[٢].

إن علاقات الفاطميين مع أبي الفتوح لم تبق هكذا على ما يرام، إذ عصفت بها رياح التغيير بشكل مفاجئ، حيث تغيرت سياسة أبي الفتوح سنة ٤٠١هـ-١٠١٠م مع الحاكم بأمر الله[٣]، وترجع أسباب هذا التغيير إلى أن الوزير أبا القاسم بن المغربي لما قتل الحاكم أباه وعمه وأخويه هرب من الحاكم في هيئة جمال[٤]، واستجار ببعض آل جراح فبعث إليهم

---

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة ٤٦٩/١، لكن الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٥٠، قد ذكر رواية نبش قبر الرسول (ﷺ) وقبر صاحبيه ولكن بصيغة أخرى اجتمعتا في فحواهما: «وكان الحاكم بذل الأموال لرجال من شيعته فمشوا إلى المدينة فاشتروا بها داراً وأخذوا ذرع ما بين الدار والقبر، واحتفروا سرباً عظيماً حتى كادوا يصلون إلى القبر المكرم، فأطلع الله تعالى أهل المدينة على ذلك فقتلوا أولئك الفعلة ومثلوا بهم، وردموا ذلك الحفير بالحجار، وأفرغوا عليه الرصاص، فلا يطمع أحد في الوصول إلى مثل ذلك».

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٦٦/٢، الزيلعي: مكة وعلاقتها الخارجية، ص: ٥٠.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١١/٩، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص: ٢٨٢، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ٨.

(٤) المقريزي: المقفى الكبير ٥٣٨/٣.

الحاكم من حاربهم فكان النصر بجانب آل جراح عند ذلك حثهم الوزير المغربي مبايعتهم بالخلافة لأبي الفتوح فمالوا إلى ذلك فقصد أبو القاسم أبا الفتوح وشجعه على طلب الخلافة فاعتذر له أبو الفتوح بقلة مقدرته فحسن له أبو القاسم أخذ ما في الكعبة المعظمة من المال وأخذ أبو الفتوح ذلك مع مال عظيم لبعض التجار، وبايعه في الخلافة شيوخ الحسنيين وغيرهم في الحرمين(١)، واتفق أنه مات في جدة(٢) رجل يعرف بالمطوعي، وعنده أموال للهند والصين وقد ترك مالاً كثيراً، فأوصى لأبي الفتوح بمائة ألف دينار ليصون بها تركته والودائع التي عنده فحمله المغربي على الاستيلاء على هذه التركة(٣)، وكان معه جماعة من عمومته وبين يديه ألف عبد أسود ومعه سيفه زعم أنه ذو الفقار وقضيب رسول الله (ﷺ)(٤).

---

(١) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٣/ ٢٣٦، البكري: أبو عبيدالله بن عبد العزيز بن محمد الأوبني، المسالك والممالك، حققه ووضعه فهارسه، جمال طلبة، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت ٢٠٠٣م ١/ ٢٨٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٠، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ١٣-١٤، العبر في خبر من غبر، ١/ ٤٣٠-٤٣١، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٤، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ٢٦، المناوي: الوزارة والوزراء، ص: ٢١٠، الحياري: الإمارة الطائية، ص: ٤٨-٤٩.

(٢) بلد على ساحل مكة شرفها الله تعالى بينهما أربعون ميلاً، وأهلها مياسير وذوو أموال واسعة ولهم موسم قبل وقت الحج مشهور البركة، تنفق فيه البضائع المجلوبة والأمتعة المنتخبة، ينظر الحميري: الروض المعطار، ص: ١٥٧.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ١٤، وذكر: «وأخذ أموالاً من رجل يعرف بالمطوعي، عنده ودائع كثيرة للناس، واتفق موت المطوعي، فاستولى على الأمول»، السخاوي: التحفة اللطيفة ١/ ٤٦٨.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠-١١، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٤، الجزيري: درر =

كان أبو الفتوح أمير مكة قد لقب نفسه حينها بـ(أمير المؤمنين الراشد بالله) ونزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة كما ضرب له نقوداً باسمه، وفي الوقت نفسه أصدر كتاباً، قرئ على الناس، تضمن مناداته للناس بأمان الخائفين وألا يقبل أحداً على الأرض وأن هذا شيء ينفرد به الله سبحانه[١]، ونادى بإقامة العدل ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢].

خطب أبو الفتوح خطبة وصف الحاكم بأمر الله الفاطمي بفرعون الذي علا في الأرض وجاء في الخطبة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ* وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا

= الفوائد المنظمة، ص: ٢٥٠-٢٥١، السخاوي: التحفة اللطيفة ١/ ٤٦٨، أرنولد: توماس: الخلافة، تاريخ الحضارة الإسلامية حتى آخر العهد العثماني، ترجمة: حسن حيدر البناني، دار العزاوي، مطبعة دار التضامن، ط/ ٢، بغداد ١٩٦١م، ص: ٤٦.

(١) وقد اختلف المؤرخون بذكر لقب أبي الفتوح وتفاصيل أحداثها واجتمعوا في فحواها، ينظر: الروذراوري: ذيل تجارب الأمم، ٣/ ٢٣٦، مسكويه: تجارب الأمم ٧/ ٢٨٠، ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠-١٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص: ٢٨٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٠، ابن عذارى: أبو عبدالله محمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، قسم المغرب، مطبعة المناهل (بيروت ١٩٥٠م) ١/ ٣٧٤، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ١٤، الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص: ٢٥٠، حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ٢٣٨، الحدراوي: الحاكم بأمر الله، ص: ٢٥٣.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة ١/ ٤٦٨.

مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١]، وعندما انتهى أبو الفتوح من ذلك وأقام الصلاة عاد إلى دار الإمارة[٢].

رحل أبو الفتوح إلى مدينة الرملة، واضعاً نهج التغيير الذي اختطه إزاء الفاطميين موضع التنفيذ، فعند اقترابه من مشارف المدينة المذكورة، تلقاه العرب، وقبلوا له الأرض وسلموا عليه بأمير المؤمنين ونزلوا الرملة[٣].

عندما وصل أمر خروج أبي الفتوح عن طاعة الحاكم بأمر الله الفاطمي، واتخاذه لقب الخلافة استاء الحاكم من ذلك وعمل على إضعاف هيبة أبي الفتوح[٤]، وكذلك سعى لكسر طوق إجماع آل جراح حتى يكونوا ضده فعمد إلى استمالة حسان بن مفرج وبذل له ولإخوته أموالاً جزيلة الأمر الذي أدى إلى تغيير الأمور لصالح الحاكم[٥]، وأدرك أبو الفتوح أن إغراءات الحاكم أنفذ فيهم لما تحويه شخصيته من شمائل ونسب عريق[٦]، وقد ولى الحاكم محل أبي الفتوح ابن عم له هو ابن أبا الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم من عمومته على إمرة مكة عند عصيانه على الحاكم وبها صاحب أبي الفتوح فنازله فأسرعت الأخبار إلى أبي الفتوح فزاد قلقه وخاف خروج الحرمين من يده[٧]، فقد أثار تولية

---

(١) القصص: ١-٦.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ٧/ ٢٨٠.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠-١١.

(٤) المعاضيدي: الحياة السياسية، ص: ٥٨.

(٥) مسكويه: تجارب الأمم ٧/ ٢٨١، ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١١، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ١٩٤-١٩٥، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٩٦-١٩٧.

(٦) أرنولد: الخلافة، ص: ٤٧.

(٧) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٣٢/ ٢٨٣، مسكويه: تجارب الأمم ٧/ ٢٨٢، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ١٩٧.

الحاكم لابن أبي الطيب حفيظة أبي الفتوح لما بينهما من تحاسد وتنازع[١]، واضطر الأمير مفرج تحت ضغط من أولاده خاصة حسان، إلى التخلي عن أمير مكة بعد أن استنفذ الأعراب جميع الأموال التي كانت بحوزته[٢]، حيث كانت الأموال المرسلة أموالاً جزيلة لآل الجراح من قبل الحاكم من أجل خذلان أبي الفتوح وتعهد فيها الحاكم على أن يدفع خمسين ألف دينار عيناً لكل فرد من أفراد أسرة آل جراح، عدا الهدايا والثياب التي أرسلها إليهم[٣]، وبذلك استطاع الحاكم من استخدام ذات السياسة الاقتصادية في محاربة أبي الفتوح الذي أخذت أمواله بالنضوب في حين من الحاكم على آل الجراح بمبالغ فاقت عطاء أبي الفتوح.

عندما كتب محضر الطعن في بغداد بنسب الفاطميين سنة ٤٠٢هـ-١٠١١م[٤]، شكل موقفاً محرجاً وخطيراً للحاكم بأمر الله الفاطمي لأنه يعني أن الشيعة الذين يعلنون تأييدهم إلى الخلفاء الفاطميين سينفضون منه ويمنحوا تأييدهم لأبي الفتوح[٥]، واتخذ الحاكم خطوات جريئة صارمة اتجاه مكة المقر الرئيس للخليفة الراشد أبي الفتوح بهدف قطع

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم ٧/ ٢٨٢.

(٢) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٣/ ٢٣٨، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٦٤، هامش رقم ١، الحياري: الإمارة الطائية، ص: ٤٩.

(٣) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٣/ ٢٣٧، النويري: نهاية الأرب ٢٨/ ١١٧، المقريزي: المقفى الكبير٣/ ٥٤٣، الجزيري: درر الفوائد المنظمة، ص: ٢٥١، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ٢٣٩، سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص: ١٨، المعاضيدي: الحياة السياسية، ص: ٥٨.

(٤) أبو الفداء: المختصر ١/ ٤٩٠-٤٩١.

(٥) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص: ٥٤.

مواصلاته ووضعه بين فكي كماشة زيادة على إضعاف مكانته الروحية بأخذ مكة منه ولعنه على منابرها حتى يوصف بالخروج والعصيان على الخلافة الشرعية في مصر، واتخذ الحاكم بأمر الله خطوة أخرى لتطويق أبي الفتوح وهي الحرب الاقتصادية، فقد قرأ سجل حاكمي في نهاية سنة ٤٠٢هـ-١٠١٢م يقضي بمنع الناس من التوجه إلى مكة براً وبحراً ومنع التبادل التجاري إليها من أمتعة وأقوات، وقد وضع هذا السجل موضع التنفيذ وطبق بشدة متناهية حتى اضطر بعض الحجيج أن يعودوا دون أن يحجوا[١].

إن إجراءات الحاكم الاقتصادية ضد أبي الفتوح وتخلي آل جراح عنه بسبب الأموال التي أرسلها لهم أدت إلى ضعف معنويات أبي الفتوح وشعوره بالخذلان، عندها ركب إلى المفرج مستجيراً به وقال له: «إنما فارقت نعمتي وأبديت للحاكم صفحتي سكوناً إلى ذمامك وأنا الآن خائف من غدر حسان فأبلغني مأمني وسيرني إلى وطني، فحفظ المفرج ذمامه وضم إليه من أجازه وادي القرى[٢]، فتلقاه بنو الحسن وأصحابه ومضوا به إلى مكة واستقامت أموره بها»[٣]، وطلب من الحاكم العذر له فقبل ذلك،

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، القاهرة ١٩٦٧م، ٢/ ٩٠، الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص: ٥٥.

(٢) من أعمال المدينة المنورة، وهي مدينة عامرة كثيرة النخل والبساتين والعيون، وبها ناس من ولد جعفر بن أبي طالب وهم الغالبون عليها، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص: ٦٠٢.

(٣) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٣/ ٢٣٨، مسكويه: تجارب الأمم ٧/ ٢٨٢، ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١١، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ١٤، حيث ذكر نص استجارة أبي الفتوح إلى المفرج بن الجراح: «قد فارقت نعمتي، و كشفت القناع في عداوة الحاكم سكوناً إلى ذمامك، وثقة بقولك، واعتماداً على عهودك، وأرى ولدك حساناً قد أصلح أمره مع الحاكم، وأريد العود إلى مأمني».

وعمل أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم والتوبة له[١].

يبدو أن إصرار الحاكم على عودة مكة إلى طاعته ربما بسبب حرصه على عدم إيجاد قوة جديدة منافسة لنفوذه المتنامي خاصة وإن هذه القوة كانت فيها شيء من التقديس الروحي كونها في بلاد الحجاز، وعليه فإن الحاكم قد نجح بسياسته والعودة إلى سابق عهدها مستغلاً الظرف الاقتصادي المتعب لبلاد الحجاز فقام بتقريب الأعراب في الشام إليه وتحريض أبناء عمومته عليه فضلاً عن فرضه الحصار على الحجاز التي هي تعاني أزمات اقتصادية خانقة، ومن ثمة تحقق له ما يريد.

استمرت ولاية أبي الفتوح على مكة حتى وفاته وظل في ولائه وطاعته حتى في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي[٢]، واتسمت العلاقات التي تربط الفاطميين مع أمراء مكة والمدينة بالتذبذب في هذا السياق، وقد أدت إلى امتلاء خزائنهم بالأموال والهبات، وقد جر عدم الاستقرار في طبيعة علاقاتهم مع كلا القطبين الرئيسيين في المنطقة في ذلك الحين بالضرر الجسيم على سكان أهل الحجاز وكذلك على حجاج بيت الله الحرام، وذلك لأن الدعاء لخلفاء مصر كان يصحبه اعتداء على حجيج العراق في الطرقات حتى في الكعبة ذاتها، كما أن الدعاء لخلفاء بغداد يعقبه حدوث مجاعات بين سكان الحجاز بسبب امتناع الفاطميين عن إرسال الغلات إليهم، ومما زاد الأمر أن الاضطراب السياسي والاقتصادي

---

(١) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٣/ ٢٣٨، مسكويه: تجارب الأمم ٧/ ٢٨٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية ١/ ١٧١، المعاضيدي: الحياة السياسية، ص: ٥٨-٥٩، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ٢٧.

كانت ترافقه غارات اللصوص من البدو والأعراب على قوافل الحجيج، واستمروا في هذه الحال حتى نهاية العصر الفاطمي[١].

● موقف الفاطميين اتجاه القرامطة وسياستهم في الحجاز والعراق والشام:

اتخذت الحركة القرمطية في نشر دعوتها عن طريق البسطاء من الناس وابتدأت هذه الحركة بشكل تنظيم سري ودعت إلى التزامات صارمة إذ فرضت الصلاة خمسين وقتاً وذلك لمعالجة ضعف الإيمان، أو الاستمرار في دفع الضرائب التي تصب في بيت المال[٢]، الذي عد ثروة عامة للجميع، وفي سنة (٢٨٦هـ-٨٩٩م) ظهر أحد الأشخاص الذي عرف بـ(أبي سعيد الجنابي) بالحبرين وأصبح له أتباع[٣] اجتمعت إليه القرامطة وعدد من القبائل العربية وقوى مركز نفوذه فعمد للتخلص من العناصر الذي شعر بتهديدها له ورحل إلى القطيف[٤] فقتل جماعة فيها[٥]، ويبدو أنه قد عزم التحرك إلى البصرة مما جعل والي البصرة أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي يكتب إلى الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩-

(١) العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص: ٣٤٣.

(٢) وهو الاصطلاح الذي أطلق على المؤسسة التي قامت بالإشراف على ما يرد من الأموال وما يخرج منها في أوجه النفقات المختلفة، للمزيد من التفاصيل، ينظر الدجيلي، خولة شاكر: بيت المال نشأته وتطوره من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٧٦، ص: ١٣.

(٣) ابن بطريق: أفتيشيوس سعيد: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩م، ص: ٨٤، العلي: تاريخ الحضارة العربية، ص: ٢٥٥.

(٤) أعظم مدن البحرين وكان قديماً اسماً لكورة هناك غلب عليها الآن اسم هذه المدينة، للمزيد من التفاصيل، ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مجلد٤، ص: ٧٣.

(٥) أبو الفداء، المختصر ١/ ٣٨٠.

٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠١م) كتاباً أعرب فهي عن مخاوفه من تطورات زيادة نفوذ القرامطة، فأمره الخليفة العباسي ببناء سور حول مدينة البصرة لحمايتها من أي خطر محتمل منهم[١].

يتبين أن تطورات الموقف وزيادة نفوذ القرامطة قد شكل مصدر قلق للخلافة العباسية إذ إن مكاتبة والي البصرة للخليفة وأمر الأخير له باتخاذ إجراءات احترازية كبناء سور يعزز ويؤكد وجود مثل هذه المخاوف، علماً أنهم معروفون بنشاطهم العسكري وتحركهم السريع، وعلى ما يبدو فإن القرامطة قد غيروا خطة توسعهم ولعل ذلك يعود إلى الإجراءات التي اتخذتها الخلافة العباسية لمواجهة التوسع القرمطي، لذلك توجهوا إلى الشام ودخلوا بعلبك سنة ٢٩٠هـ-٩٠٢م، وقتلوا الكثير من أهلها[٢].

وفي سنة ٣١٧هـ-٩٢٩م تمت مهاجمة مكة من قبل أصحاب أبي طاهر سليمان بن حسن الجنابي حيث تعرضوا في مكة والمدينة لحجاج بيت الله الحرام وأراقوا دماءهم في داخل المسجد الحرام، وقلعوا الحجر الأسود من الكعبة المشرفة وأرسلوه إلى هجر[٣] في السنة ذاتها، فخرج إليه أمير مكة الذي يدعى (ابن محلب) في جماعة من الوجهاء وطلبوا منه أن يحفظ أموالهم ولكنه لم يصغ إليهم فتصدوا إليه فواجههم أبو طاهر وأبادهم جميعاً وقلع باب البيت وطلب من أحد رجاله قلع ميزاب الكعبة

(١) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٩٢.

(٢) للمزيد من التفاصيل ينظر ابن الأثير: الكامل، ض: ١٠٤، وما بعدها، أبو الفداء: المختصر ١/ ٣٨٣، البعلبكي: ميخائيل موسى ألوف، تاريخ بعلبك، المطبعة الأدبية (ل.م ١٨٨٩م)، ص: ٢٣.

(٣) مدينة وقاعدة في البحرين، للمزيد من التفاصيل، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد٤، ص: ٤٦٩.

لكنه هوى أرضاً في أثناء محاولة قلع الميزاب وسقط ميتاً في الحال، وقام بوضع القتلى داخل البيت الحرام وقسم الغنائم بين جماعته وعرض لدور مكة سلباً ونهباً وحدث هذا في العام المذكور[(١)].

يتبين مما ذكر أن هذا العمل قد شكل موقفاً محرجاً للسياسة الفاطمية لكون القرامطة محسوبين على الإسماعيلية من حيث المذهب.

لقد أدان عبدالله المهدي أعمال القرامطة المذكورة فكتب إلى أبي طاهر الجنابي يذكر عمله هذا ويعنفه بقوله: «قد حققت على شيعتنا ودعاة جولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة»[(٢)]. فعندما وصله هذا الكتاب اضطر إلى إرجاع الحجر الأسود، ورد ما يمكن رده من الأموال لأهل مكة وقال: «إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج، ولا

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٦/٢٠٣-٢٠٤، أبو الفداء: المختصر ١/٤٠٣، الفاسي: أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق/ لجنة من كبار العلماء والأدباء، مطبعة عيسى البابي، القاهرة ١٩٥٦م، ٢/١٩٢، ابن ظهيرة: جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، مطبعة عيسى البابي، ط/٢، القاهرة ١٩٣٨م، ص: ٣٠٤، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، والمسمى عقيلة الدمن المختصر من أنباء الزمن في أخبار اليمن، تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة ١٩٦٨م، ص: ٢١٤، الخضري محمد: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ص: ٣٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٢٠٤.

أقدر على منعهم»[١]. وهناك من روى بأن الحجر الأسود رده القرامطة سنة (٣٣٩هـ-٩٥٠م) حيث قالوا: «إنا أخذناه بأمر وإذا ورد الأمر برده رددناه[٢]، وقد بذلت لهم الأموال فلم يستجيبوا له بيد أنهم ردوه الآن من دون مقابل في ذي الحجة من العام المذكور ويروى أنهم علقوه في مسجد الكوفة فرآه الناس فحملوه إلى مكة»[٣]، وهذا يعني أن الحجر الأسود مكث لدى القرامطة ٢٢ سنة[٤]، إلّا أربعة أيام[٥]، ويبدو أن هذا الأمر يأتيهم من زعماء القرامطة إذ لا تشير المصادر بشكل صريح إلى الجهة التي يأتيهم الأمر منها.

مما ذكر يبدو لنا أن هذه الأحداث تعكس العلاقات الوثيقة التي تربط الفاطميين بالقرامطة وأنها توضح العلاقة التي تربط أبي طاهر الجنابي بعبدالله المهدي والدليل على هذه العلاقة انصياع أبي طاهر لأمر عبدالله المهدي وأعاد الحجر الأسود إلى مكة.

● السياسة الفاطمية اتجاه القرامطة ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

لسنوات كان القرامطة هم من يوجه السياسة الفاطمية باتجاههم إذ أعلن الحسن بن أحمد المعروف بالأعصم عند تسلمه زعامة القرامطة سنة

---

(١) م.ن، ص: ٢٠٥.

(٢) مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد مسكويه الخازن: تجارب الأمم، تحقيق/ أبو القاسم إمامي، مطبعة دار سروش للطباعة والنشر، ط/٢، طهران ٢٠٠١م، ١٥٨/٦.

(٣) ابن سنان: ثابت بن قرة الصابي، تاريخ أخبار القرامطة لثابت بن سنان وابن العديم وترجمة الحسن الأعصم، تحقيق/ سهيل زكار، مطبعة دار القلم، بيروت ١٩٧١م، ص: ٥٧.

(٤) م. ن.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، القاهرة ١٩٤٨، ٢٤٦/١.

٣٥٩هـ-٩٦٩م مطالبته بدفع الأموال المقررة على الإخشيديين من جعفر ابن فلاح حيث انقطعت منذ سنة (٣٥٧هـ-٩٦٧م)[١]، ومع رفض جعفر هذا الطلب قام الأعصم القرمطي بإعلان عدائه السافر على الفاطميين، فشهدت تلك المرحلة تحولاً استراتيجياً في العلاقات الفاطمية - القرمطية لذا توجه الأعصم القرمطي مؤتمراً بأمر المطيع بالله العباسي بجيش كثيف رافعاً الرايات العباسية فهزم القائد الفاطمي جعفر بن فلاح وقتله قرب دمشق سنة ٣٦٠هـ-٩٧٠م[٢]، وبهذا انتهج الحسن الأعصم سياسة مغايرة لأسلافه اتجاه الفاطميين[٣].

يتضح مما تقدم إن قضية المال المقرر على الإخشيديين ومطالبة الفاطميين بدفعه لكونهم استحوذوا على أملاك وأراضي الإخشيديين، ما هي إلّا ذريعة تمسك بها القرامطة في الوقت نفسه تعد تأكيداً على التمرد من قبل الحسن الأعصم على أسياده السابقين (الفاطميين والذي - كما يبدو - كانت أتباعه تشكل الجزء الأكبر من القرامطة والمهيمنين على الميدان العسكري فقد أتبع سياسة مبنية على المصالح ودخل في معترك اللعبة السياسية غير آبه بما جمعه من الفاطميين من وحدة المذهب)، فتحالف القرمطي مع أسياده الجدد العباسيين، وطالب الفاطميين بمال لم يفرض عليهم وهو غير واجب الدفع، ذلك أنهم ليس لهم تبعية للقرامطة حتى يكونوا ملزمين بدفع هذا المال المقرر.

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مطبعة دار الكتب بولاق، (ل.م - د.ت) ٤/ ٥٠.

(٢) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص: ٢٤-٢٥، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص: ١٥٣.

(٣) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ١٢٣، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، ص: ٢٣، المعاضيدي: الحياة السياسية، ص: ٣٣، أعبيد، وائل عبد =

سعى الحسن الأعصم لتهيئة الظروف المناسبة لمواجهة الفاطميين، فطلب من المطيع العباسي وكذلك أمير بني بويه[١] عز الدين بختيار[٢] المهيمن على الخلافة العباسية في بغداد أن يمده بالمال والسلاح، فلم يكن الخليفة العباسي قد استجاب لطلبه لأنه عد الطرفين المتحاربين هم أعداء له ويصبان في بوتقة واحدة وهي معاداة الخلافة العباسية، فقال: «كلهم قرامطة وعلى دين واحد فأما المصريون (الفاطميون) فأماتوا السنن وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء (القرامطة) فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا ما فعلوا»[٣]. أما البويهيون فلم يتوانوا في تقديم ما يمكن تقديمه للأعصم وقال عز الدولة بختيار للحسن الأعصم: «اذهب فافعل ما بدا لك»[٤].

يتضح أن الخليفة العباسي كان يكره التعاون مع القرامطة لكونهم امتداداً لأعدائه الفاطميين، إلّا أن مفتاح القرار كان بيد البويهيين الذين

= الرحيم، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، دار مجدي لاوي للنشر والإعلان، طباعة برجي، بيروت ٢٠٠٥م، ص: ٧١.

(١) ينتسب بنو بويه إلى بهرام بن يزدجرد من ملوك آل ساسان، وقد بدأ عهدهم في العراق على يد علي بن بويه وكان أول من تولى منهم معز الدولة أحمد وكان أصغر اخوته وبعد أن ازداد نفوذه حجر على الخليفة المستكفي ثم خلعه سنة ٣٣٣هـ-٩٤٤م، وسملت عينيه وأجلس مكانه الفضل بن الفضل بن المقتدر الذي لقب بالمطيع، للمزيد من التفاصيل، ينظر: ابن الأثير: الكامل ٦/ ٢٣٠.

(٢) السلطان أبو منصور بختيار عز الدولة بن معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي ولي ملك العراق بعد أبيه، «وكان عز الدولة شجاعاً قوياً يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك»، توفي سنة ٣٦٧هـ-٩٧٧م، ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٤/ ١٢٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٧٤.

(٤) ابن تغري بردي: م.ن، وقد جهزه ألف ألف درهم جوشن وألف سيف وألف رمح وألف قوس وألف جعبة، ينظر: ابن القلانس، ذيل تاريخ دمشق، ص: ١.

كانوا مهيمنين على الخلافة العباسية، وبالرغم من أن الجميع سواء كانوا بويهيين قرامطة أم فاطميين، هم شيعة إلّا أن المصالح السياسية طغت على المذهب الذي يجمعهم.

سار الحسن الأعصم قاصداً الشام ومعه أعلام سود، وبين أن الخليفة المطيع ولاه وكتب على تلك الأعلام اسم الخليفة العباسي (عبد الكريم) وتحته عبارة «السادة الراجعون إلى الحق»(١)، واستولى على الشام ولعن المعز الفاطمي وأباه على المنبر دمشق وأخذ يردد دعوة العباسيين ببطلان نسب الفاطميين، بقوله: «هؤلاء من ولد القداح كذابون مخترقون أعداء الإسلام، ونحن أعلم بهم، ومن عندنا خرج جدهم القداح»(٢)، وقد أقام القرامطة الدعوة للخليفة العباسي المطيع لله في كل بلد فتحوه ورفعوا الرايات السود(٣)، وبعد مصرع جعفر بن فلاح استولى القرامطة على دمشق وساروا إلى مدينة الرملة واستولوا عليها، ثم اتجه القرامطة بعساكرهم صوب مدينة يافا(٤)، وعندما نزلوا عند عين الشمس(٥) - وهي المعروفة لهذا العهد بالمطرية - نجحوا في

---

(١) القاضي عبد الجبار: عماد الدين أبو الحسن بن أحمد بن عبد الجبار الأسد أبادي البصري الهمداني، تثبيت دلائل النبوة، حققه وقدم له: عبد الكريم عثمان، الدار العربية للطباعة، بيروت ١٩٦٦م، ٢/٦٠٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٧٤، ويعني السادة الراجعون إلى الحق، أي أنهم لم يعودوا متضامنين مع الدعوة الفاطمية، ينظر: ماجد الحاكم بأمر الله، ص: ٢٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٧/٦٨، ابن تغري بردي، م. ن.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٢٥٠.

(٤) مدينة على البحر المتوسط من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/٤٩٣.

(٥) مدينة كبيرة ليست على شاطئ النيل، وهي قصبة كورة أتريب وهي الآن خراب وآثار قديمة، ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٣٧٠.

إقناع الكثير من القبائل العربية وفلول بني طغج للقتال معهم، وتمكنوا من محاصرة الفاطميين في عقر دارهم القاهرة[(١)]، وما حصل منهم من الفظائع في أثناء توجههم إلى مصر وقطعهم الطريق وأعمال السلب والنهب التي فعلوها وسطوتهم على أهالي القرى وانتهاك الأعراض ما «يعجز القلم عن وصفه»[(٢)].

تأهب القائد جوهر الصقلي لمواجهة تطورات الموقف مع القرامطة وقام بحفر خندق وبنى عليه باباً كبيراً وركب عليه باباً آخر الذي عليه الميدان الإخشيدي[(٣)]، وبنى قنطرة على الخليج[(٤)].

في غرة شهر ربيع الأول من سنة ٣٦١هـ-٩٧١م اندلع القتال بين القرامطة بقيادة الحسن الأعصم وبين الفاطميين بقيادة جوهر وكان يومها يوم جمعة وشهد يوم السبت مقتل البعض وأسر آخرين ولما جاء يوم الأحد

---

(١) ابن خلدون: العبر ٤/ ٥٠، ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٢٩، ظاهر سليمان: تاريخ الشيعة السياسي الثقافي الديني، حققه وضبطه: عبدالله سليمان ظاهر، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١/ بيروت، ط/ ١، بيروت ٢٠٠٢م، ١/ ١٥٦.

(٢) ابن سنان: تاريخ أخبار القرامطة، ص: ٥٨.

(٣) بنى هذا الميدان الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد بجوار بستانة الذي عرف فيما بعد بالبستان الكافوري، وكانت تقف فيه الخيول السلطانية في عهد الدولة الإخشيدية، ينظر المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ١٨٠، هامش رقم ٢.

(٤) مزن، الخليج: هو خليج القاهرة الذي يكسر سده يوم وفاء النيل حفره عمرو بن العاص في أثناء إمارته لمصر في خلافة عمر بن الخطاب، للمزيد من التفاصيل ينظر القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله الشهاب القاهري الشافعي البدري، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعه كاستوتسوماس، القاهرة د.ت، ٣/ ٢٩٨، وما بعدها، مجلة الهلال، خليج القاهرة، وتاريخه، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٨٩٣، ص: ١٠ وما بعدها.

سار الحسن الأعصم بجميع قواته وحاصر الخندق الذي تحصن خلفه جوهر كان بابه موصداً فعند غروب الشمس فتح جوهر الباب وجرت معارك ضروس وبعد أن انجلى غبار المعركة أسفر عن هزيمة نكراء للحسن الأعصم وغنم ما بحوزة جيشه، ونادى جوهر بالناس: «من جاء بالقرمطي أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم، وخمسون خلعة[١]، وخمسون سرجاً تحلى على دوابها»[٢]، وربما خشي جوهر من العواقب المحتملة من عدوه بحيث توقف عن ملاحقته ليلاً لغرض أسره، وقام جوهر بالقبض على تسعمائة جندي من فلول الإخشيديين الذين قاتلوا مع الأعصم[٣]، ويبدو أن خسارته للمعركة جعلته يخسر كذلك يافا ودمشق ما تطلب منه إعادة تنظيم قواته في بلاد الشام والتي تمكنت فيما بعد من التصدي لمراكب جوهر الخمسة عشر التي لم ينج منها سوى مركبين أمام مراكب القرامطة، وللحسن الأعصم شعر في هذا المجال:

زعمت رجال الغرب أني هبتها ... فدمي إذا ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم ... يروي ثراك فلا سقاني النيل[٤]

فعمد الحسن الأعصم القرمطي إلى إعادة سيطرته على الشام التي خرجت من طاعته على ما يبدو بعد خسارته المعركة أمام جوهر فبعد أن أعاد تنظيم قواته من أجل إعادة الكرة على الفاطميين والقضاء على نفوذهم

---

(١) خيار المال سمى بذلك لأنه يخلع قلب الناظر إليه، ينظر: اليسوعي، فردينان توتل، المنجد في اللغة والأعلام، المطبعة الكاثوليكية، ط/٨، بيروت ١٩٧٦م، مادة خلع.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ١٨٢.

(٣) المقريزي، م. ن.

(٤) ابن سنان: تاريخ أخبار القرامطة، ص: ٥٩، ابن القلانس: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٢، ابن الأثير: الكامل ٧/ ٤٣.

السياسي، أعد العدة لاسترداد دمشق والعمل على بسط نفوذه في بلاد الشام استعداداً لمهاجمة الفاطميين واحتلال حاضرتهم القاهرة، فأعد حملة بحرية إلى تنيس[١] وسواحل مصر فضلاً عن تجهيزه قوة عسكرية ضمت الكثير من أفراد القبائل العربية[٢]، التي ترغب - فيما يبدو - إضعاف الدور السياسي للفاطميين ومن ثمة القضاء عليه أو ربما طمعاً في الحصول على الغنائم.

عندما قدم المعز لدين الله من المغرب ووصوله مصر سنة ٣٦٢هـ-٩٧٢م واستقراره في القاهرة العاصمة الجديدة لدولته شعر بخطورة الموقف الذي يهدد دولته، ولكي يتمكن المعز من تثبيت أركان هذه الدولة سعى إلى سياسة تصفية حسابه مع خصومه فابتدأ بلهجة التأنيب والتقريع للقرامطة وزعيمهم الحسن الأعصم قبل التفكير بالقيام بعمل عسكري مباشر[٣]، وعمد إلى تذكيره بإخلاص أسلافه للفاطميين[٤]، فكتب المعز للحسن للأعصم قائلاً له: «فأما أنت الغادر الخائن، الناكث البائن، عن هدي آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنا الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم أغفل أمرك، ولا خفي عني خبرك، ولا أستتر دوني أثرك وإنك مني لبمنظر

(١) جزيرة قريبة من شواطئ مصر ما بين الفرما ودمياط والفرما في شرقيها، ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤٥٩.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٢٥٠، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص: ١٢٧.

(٣) سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، ص: ٣٠-٣١.

(٤) الخربوطلي: علي حسني مصر العربية الإسلامية السياسة والحضارة في مصر في العصر العربي الإسلامي، منذ الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة د.ت، ص: ١٨٨.

ومسمع، كما قال الله جل وعز: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[١]، «﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[٢]، فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت، أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولي بأس شديد وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد، يفيض إليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا منحة منا واسماً من أسمائنا، فعلت أسماؤهم، واستعلت هممهم، واشتد عزمهم، فسارت إليهم وفود الآفاق، وامتدت نحوهم الأحداق، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفاسد والعناد، وأن يكونوا لبني العباس أضداد، فعبئت الجيوش، وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتجة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلقهم جيش إلّا كسروه، ولا رئيس إلّا أسروه، ولا عسكر إلّا كسروه، وألحاظنا ترمقهم، ونصرنا يلحقهم، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٤]، وإن حزبنا لهم المنصورون»[٥].

نفهم من هذا، إن المعز لدين الله قد وصف الحسن الأعصم الغادر المتخلي عن إخلاص أسلافه للفاطميين، وأنبه على خروجه عن وفاء جده

(١) طه: ٤٦.

(٢) مريم: ٢٨.

(٣) غافر: ٥١.

(٤) الصافات: ١٧٣.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/٢٥٨-٢٦٠.

أبي سعيد الموالي للفاطميين وأنهم ببركات الفاطميين لهم دان لهم الأمراء وحظوا بلقب السادة منهم مما قوى عزيمتهم وزاد من شكيمتهم، فضلاً عن أنه قوى إرادة أسلافه على سحق أعدائهم.

بين المعز للحسن الأعصم عن مدى اتساع نطاق الدعوة للفاطميين في كثير من أرجاء العالم الإسلامي واستعاب عليه اشتطاطه عنها وتساءل عن سبب فقدان صوابه وضعف نظرته نقيضاً لنظرة أسلافه، بقوله: «ومع هذا فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلّا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا بتصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفي كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون، وعنهم يأخذون، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[1]، وأنت عارف بذلك، فيا أيها الناكث الحانث ما الذي أرداك وصدك؟ أشيء شككت فيه، أم أمر استربت به، أم كنت خلياً من الحكمة وخارجاً عن الكلمة، فأزالك وصد، وعن السبيل ردك، إن هي إلّا فتنة لكم ومتاع إلى حين، وايم الله لقد كان الأعلى لجدك، والأرفع لقدرك، والأفضل لمجدك، والأوسع لوفدك، والأنضر لعودك، والأحسن لعذرك، الكشف عن أحوال سلفك، وإن خفيت عليك، والقفوا لآثارهم وإن عميت لديك، لتجري على سننهم وتدخل في زمرهم، وتسلك في مذهبهم، آخذاً بأمورهم في وقتهم، وزمرهم في عصرهم»[2].

قرع المعز الحسن الأعصم عن إقام الدعوة لبني العباس على رغم من أنها تعيش حالة الضعف والانحلال، وذكره بالحياة الأخرى التي يجب

---

(١) إبراهيم: ٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٢٦٠-٢٦١.

أن يفوز بها بالسير في طرقها المؤدية لها ومن هذه الطرق ولائه للفاطميين، بقوله: «ثم لم تقنع في انتكاسك وترديتك في ارتكاسك، وارتباكك وانعكاسك من خلافك الآباء، ومشيك القهقرى، والنكوص على الأعقاب، والتسمي بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، وعصيانك مولاك، وجحدك ولاك، حتى انقلبت على الأدبار، وتحملت عظمي الأوزار، لتقيم دعوة قد درست، ودولة قد طمست، إنك لمن الغاوين، وإنك لفي ضلال مبين، أم تريد أن ترد القرون السالفة، والأشخاص الغابرة؟ أما قرأت كتاب السفر، وما فيه من نص وخبر؟ فأين يذهبون إن هي إلّا حياتكم الدنيا، تموتون وتظنون إنكم لستم بمبعوثين»، ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1]، [2].

كما أن المعز قد وبخه بجمع زمرته في دمشق وقتله قائده جعفر بن فلاح على رغم من قلة جيشه واستباحة أموالهم وسبيه نسائهم بالرغم من أنه لا يجمعه معهم ثأر أو ضغائن سابقة، وذكره ببقائه على الانحراف عن دعوة الفاطميين ومقاتلة أتباعهم وكأنهم أجانب بقوله: «ثم لم يكفك ذلك - مع بلائك وطول شقائك - حتى جمعت أرجاسك وأنجاسك، وحشدت أوباشك وأقلاسك، وسرت قاصداً إلى دمشق وبها جعفر بن فلاح في فئة قليلة من كتامة وزويلة، فقتلته وقتلتهم، جرأة على الله ورد الإمرة، واستبحت أموالهم، واستبحت أموالهم، وسبيت نساءهم، وليس بينك وبينهم ترة وثأر، ولا حقد ولا أضرار، فعل بني الأصفر والترك والخزر، ثم سرت أمامك ولم ترجع وأقمت على كفرك ولم تقلع، حتى أتيت الرملة

(١) التغابن: ٧.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٢٦١.

وفيها سعادة بن حيان[١] في زمرة قليلة وفرقة يسيرة، فاعتزل عنك إلى يافا، مستكفياً شرك، وتاركاً حربك، فلم تزل ماكثاً على نكثك باكراً وصابحاً وغادياً ورائحاً، تقعد لهم بكل مقعد، وتأخذ عليهم بكل مرصد، وتقصدهم بكل مقصد، كأنهم ترك وروم وخزر»[٢].

اختتم المعز كتابه بعرضه على الحسن الأعصم بثلاث خصال عليه اختيار إحداها، وإلا فإنه معرض على عواقب وخيمة: «ونحن معرضون ثلاث خصال - والرابعة أردى لك، وأشقى لبالك، وما أحسبك تحصل إلّا عليها - فاختر: إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح، واتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة (بن حيان)، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير - وهي أسهل ما يرد عليك - وإما أن تردهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم - ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار - وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجريكم على إحدى ثلاث: إما قصاص، وإما منا بعد (؟) وإما فدى، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك، وإقالة لعثرتك»، وأن أبيت إلّا فعل اللعين: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وإن عليك اللعنة إلّا يوم الدين﴾[٣]، اخرج منها فما يكون لك أن

---

(١) غلام المعز لدين الله، بعد مقتل جعفر بن فلاح بالرملة سار سعادة يريد الرملة فملكها سنة ٣٦١هـ-٦٧١م، فأقبل إليه الحسن الأعصم القرمطي ففر منه إلى القاهرة وبها مات في محرم ٣٦٢هـ-٩٧٢م، وحضر جوهر الصقلي جنازته، وكان معروفاً بالبر والإحسان، للمزيد من التفاصيل، ينظر: القلقشندي: صبح الأعشى، (القاهرة - د.ت) ٣/ ٣٥٠، المقريزي: الخطط ٢/ ٢١٠، عطية الله أحمد: القاموس الإسلامي، مطبعة شركة الإعلانات، القاهرة ١٩٧٠م، ٣/ ٣٢٧.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) الحجر: ٣٤-٣٥.

تنكب فيها، وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون، فما أنت إلّا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا سماء تظلك، ولا أرض تقلك، ولا ليل يجنك، ولا نهار يكنك، ولا علم يسترك، ولا فئة تنصرك؛ قد تقطعت بكم الأسباب، وأعجزكم الذهاب، فأنتم كما قال الله عز وجل: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[1][2].

نفهم من الرسالة الطويلة للمعز، أنه كان يذكر الحسن الأعصم بالعلاقة الطيبة التي تربط أسلافه بالفاطميين وللفاطميين عليهم فضلاً عن أن المعز في نهاية المطاف لم يترك له فرصة الندم إذ وضعه في موقف حرج ولعل ما يؤكد ذلك رد الحسن الأعصم المقتضب إذ قال: «جوابك وصل الذي قل تحصيله وكثير تفصيله ونحن حاضرون إليك على أثره والسلام»[3].

يتضح من رد الحسن الأعصم على رسالة المعز بأنه غير آبه لمنطق التهديد والوعيد في رسالته، وأنه قد استخف بها ورفضها جملة وتفصيلاً وبذلك يكون قد أعلن عداءه بل إنه هدد وتوعد المعز بحملة عسكرية مرتقبة.

وضع الحسن الأعصم تهديده موضع التنفيذ، وتوجه بقواته إلى بلاد الشام قادماً من الأحساء ونزل في الرملة وعلم ما كان قد حدث من

---

(١) النساء: ١٤٣.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٢٦٤-٢٦٥.

(٣) ابن سنان: تاريخ أخبار القرامطة، ص: ٦٠، أخبار الدولة المنقطعة، ص: ٢٦، ذكر رد الأعصم، بـ«وصل كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله، والجواب، ما تراه دون ما تسمعه»، وأما ابن الأثير: الكامل ٧/ ٥٤، وابن خلدون: العبر ٧/ ١٠٤، فقد ذكرا جواب الأعصم بـ«وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره والسلام».

اختلاف بين أبي المنجا[١] وظالم بن موهوب العقيلي حول قضية الخراج[٢]، فكل منهم يريد نفقته على رجاله فقبض على ظالم بن موهوب العقيلي واعتقله ثم أخلى سبيله[٣].

توجهت حشود الحسن الأعصم من الرملة نحو الأراضي المصرية في سنة (٣٦٣هـ-٩٧٣م) فلما وصل عين شمس احتدم القتال ونشر سرايا جيشه لنهب ما يمكن نهبه، وازداد عدد جيشه بانضمام الكثير من أفراد القبائل كرهاً للفاطميين أو رغبة في الحصول على الغنائم، ومن ضمن الداخلين أحد أمراء الشام حسان بن المفرج الجراح الطائي، ومعه جمع كبير[٤].

وعلى أثر هذه التطورات ازداد قلق المعز من تصعيد الموقف فاستشار أهل الرأي والمشورة بحثاً عن حلول ناجعة لمواجهة الأزمة فقالوا له: «ليس حيلة غير السعي في تفريق كلمتهم وإلقاء الخلف

(١) هو عبدالله بن علي بن المنجا، أحد أصحاب الحسن الأعصم القرمطي، وكان يرجع إليه لرأيه وسياسته، استخلفه على دمشق حين رحل إلى الأحساء بعد انهزامه من أبي محمود إبراهيم بن جعفر الكتامي فقصده ظالم بن موهوب العقيلي من بعلبك بمراسلة، فاستأمن إلى ظالم عدة من أصحاب أبي المنجا لمنعه عنهم العطاء وقلة ماله، فأسره ظالم يوم السبت ١٠ رمضان ٣٦٣هـ-١٩٤٨م، وجهزه أبو محمود هو وابنه في قفصين إلى مصر فحبسا بها، ينظر المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٢٤٩، هامش رقم٢.

(٢) يفرض على الأرض الزراعية التي صولح عليها المشركون مقدار معين من حاصلاتهم الزراعية أو من أموالهم، وهذا المقدار المفروض يسمى خراجاً، للمزيد من التفاصيل، ينظر: الصالح: صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، منشورات الشريف الرضي، مطبعة أمير، ط/١، (قم - ١٤١٧هـ)، ص: ٣٥٩.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٥٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٥٤.

(الخلاف) بينهم ولا يتم ذلك إلّا بابن الجراح»[١]، فعمل المعز على إغراء ابن الجراح بإعطائه مائة ألف دينار في حالة تركه الحسن الأعصم في أثناء نشوب القتال، فلما أعدوا المال المتفق عليه استكثرها الفاطميون على ابن الجراح فضربوا أموالاً مغشوشة وجعلوا في رأس كل كيس قليلاً من المال الخالص وأرسلوها إلى ابن الجراح بعد أن تم الاتفاق على الوفاء بالوعود التي قطعت[٢].

يبدو أن هذه الرواية ينتابها الضعف لكون المعز كان في وقت حرج لا يمكنه أن يفكر في سك عملة جديدة ومزيفة في آن واحد؟ لأن هكذا عمل يستغرق زمناً طويلاً، وأن المعز في حالة مواجهة مباشرة مع عدو لدود له لا يسعه الوقت بالقيام بمثل هذا العمل، وكذلك لم أعثر على رواية عند أحد المؤرخين يشير بها إلى أن بني الجراح قد اكتشفوا زيف الأموال التي تسلموها من الفاطميين أو جرى ذكر لاكتشاف هذا الغش فيما بعد.

جرى الاتفاق على خطة مدبرة تنص على أن ينسحب فهيا ابن الجراح من المعركة «فأرسل إلى المعز أن يخرج في عسكره يوم كذا ويقاتلوه وهو في الجهة الفلانية فإنه ينهزم ففعل المعز ذلك فانهزم وتبعه العرب كافة»[٣]، وبالفعل فعند اشتعال فتيل الحرب بين الطرفين نفذ ابن الجراح ما وعدهم به وترك الحسن الأعصم يواجه مصيره وجهاً لوجه مع الجيش الفاطمي، فأصابت الخيبة والخذلان نفس الأعصم وهرب إلى الشام مهزوماً فلاحقته القوات الفاطمية وتمكنت من أسر قرابة (١٥٠٠)

---

(١) م.ن.ذ

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٣، ابن الأثير: الكامل ٧/ ٥٤.

(٣) ابن الأثير: م.ن.

أسير من جيشه وذلك في شهر رمضان سنة (٣٦٣هـ-٩٧٤م)[١]، وكان قائد جيش المعز ابنه وولي عهده الأمير عبدالله بن المعز، فجرت المعركة عند مكان يدعى (الكوم الأحمر)[٢] عند الجب وهي من أعمال مصر، وتم إرسال الأسرى إلى مصر حيث تم سجنهم ومن ثم قام بتصفيتهم جميعاً[٣].

ارتأى المعز على رغم من تلك الانتصارات التي تحققت له ضد خصمه الحسن الأعصم أن يرسل جيشاً يتعقبهم إلى بلاد الشام حتى يقطع دابر وجودهم فيها من أجل تلقينهم درساً حتى لا يفكروا في مهاجمة مصر مرة أخرى وكان الجيش المرسل بقيادة أبي محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح الكتامي فلاحقه حتى لحق به وهو برفقة عشرة آلاف مقاتل في أذرعات[٤]، وقد فر الحسن الأعصم إلى مقره في الإحساء، وبقي أبا المنجا وبعض فلول القرامطة يلاقون مصيرهم المجهول في دمشق[٥]، ولكن القائد أبا محمود كان قد تثاقل في سيره خوفاً من عودة القرامطة إليه[٦].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٣، ابن خلدون: العبر ٧/ ١٠٤-١٠٥، ظاهر: تاريخ الشيعة ١/ ١٥٦.

(٢) موقع تبلغ مساحته ألفي وخمسة وثمانون فداناً، للمزيد من التفاصيل، ينظر: ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلاني: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، ط/ ١، القاهرة ١٣٠٩هـ، ٤/ ١٠٤.

(٣) يحيى بن سعيد: تاريخ، ص: ١٤٢، يني جرجي أفندي، تاريخ سوريا، المطبعة الأدبية، بيروت ١٨٨١م، ص: ٢٦١.

(٤) وهو بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ١١٠.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٣، ابن الأثير: الكامل ٧/ ٥٤.

(٦) م.ن.

استعان المعز لدين الله ببني الجراح من طيء بفلسطين للسيطرة على بلاد الشام كما استعان أيضاً بالأمير ظالم بن موهوب العقيلي - بعد أن ترك نصرة الحسن الأعصم القرمطي وولاه دمشق سنة (٣٦٣هـ-٩٧٤م) وعند استتباب الأمور لظالم في دمشق قبض الأخير على أبي المنجا ومجموعة القرامطة التي بقيت بدمشق وحبسهم بعد أن صادر كل ما يملكوه، وبهذا استطاع الفاطميون أن يبسطوا نفوذهم وسياستهم على الشام[١]، بعدها عاد القائد أبو محمود بعد متابعته الحذرة لجيش القرامطة المنهزم صوب الأحساء، إلى دمشق فرحب بقدومه ظالم بن موهوب العقيلي والتمس منه البقاء بظاهرها خشية عودة الحسن الأعصم إليها فوافق على ذلك، وأرسل أبا المنجا وابنه إلى مصر حيث حبسوا فيها[٢].

---

(١) ابن الأثير، م.ن، ابن خلدون: العبر ٧/ ٥٤.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص: ٤، ابن خلدون، م.ن.



الفصل الثالث

الحجاز في العهد الأيوبي

• أثر المد السني في الحجاز على الحياة السياسية للحكام الشيعة زمن سيطرة الأيوبيين ••••••••••••••••••••••••

■ أولاً: المحاولات السنية الأيوبية وأثرها على الحياة السياسية في الحجاز

عندما قامت الدولة الأيوبية في مصر عام ٥٧٠هـ-١١٧٤م كانت مكة تحت حكم الأمير عيسى بن فليته وهو أحد أفراد الأسرة الهاشمية التي حكمت منذ عام ٤٥٦هـ-١٠٦٣م[1]، وقد كانت مكة مستقلة ذاتياً

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٥/ ٤٣٧، ابن فهد: إتحاف الورى عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ط/ ١، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ، ٢/ ٥٣٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٤، ٥٣٩، الجزيري عبد القادر بن محمد: درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ط/ ١، دار اليمامة، الرياض ١٤٠٣هـ، ١/ ٥٧٠، السنجاري علي بن تاج الدين: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم ج٢، ط/ ١، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٤١٩هـ، ٢/ ٢٥٦، الطبري محمد بن علي: إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، ط/ ١، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١/ ١٠٦.

حيث إن تولية أمرائها يتم باتفاق الأسرة الهاشمية، وكان في الغالب أمير مكة يعين قبل وفاته ولي عهده، فإذا مات تولى بعده مباشرة دون تدخل من أي سلطة سياسية في ذلك الوقت، يدلنا على هذا أنه عندما توفي الأمير عيسى بن فليته تولى بعده ابنه داود بن عيسى[(١)] مباشرة دون وصول مرسوم له بالولاية من أي سلطة خارجية، ومع هذا فقد كانت الخلافة العباسية تحاول فرض سلطتها على إمارة مكة بعد سقوط الخلافة الفاطمية سنة (٥٦٧هـ-١١٧١م)، وكانت أحياناً تستغل موسم الحج في إرسال قوات عسكرية مستغلة في ذلك أي خلاف يحدث بين أبناء البيت الحاكم، تحاول فرض من تريد على الإمارة، يدلنا على هذا ما قامت به عام ٥٧١هـ-١١٧٥م عندما أصدرت أمراً بعزل الأمير مكثر بن عيسى بن فليته الذي استطاع أن ينتزع الإمارة من أخيه لأمير داود بن عيسى، وأرسلت حملة عسكرية بصحبة الحجاج في مسعى لتحقيق ما أمرت به وقد أسفرت الحملة عن إعادة تنصيب الأمير داود أميراً بعد فشل تعيين الأمير قاسم بن مهنا

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٥/ ٤٣٧، ابن فهد: إتحاف الورى عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ط/١، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ، ٢/ ٥٣٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٤، ٥٣٩، الجزيري عبد القادر بن محمد: درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ط/١، دار اليمامة، الرياض ١٤٠٣هـ، ١/ ٥٧٠، السنجاري علي بن تاج الدين: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم ج٢، ط/١، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٤١٩هـ، ٢/ ٢٥٦، الطبري محمد بن علي: إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، ط/١، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١/ ١٠٦

الحسيني الذي عينته الخلافة العباسية[١]، ومع ما قامت به الحملة من تنصيب الأمير داود إلّا أنه لم يستمر في الولاية حيث عاد أخوه الأمير مكثر وانتزع منه الإمارة ومع هذا لم تحاول الخلافة العباسية إعادة الأمير داود إلى الإمارة أو تحاول القضاء على الأمير مكثر، ورضيت بالأمر الواقع[٢]، ويبدو أن الأمير مكثر قد أرضى الخلافة العباسية بالدعاء على منبر المسجد الحارم للخليفة العباسي[٣]، فتركت التدخل في شئون الإمارة، وهذا يدلنا أن أمراء مكة كانوا على درجة من

(١) ابن الجوزي: جمال الدين عبد الرحمن بن علي: المنتظم، ص: ٥٢٩، ابن الأثير: الكامل ٧/ ١٣٧، ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر: تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٣، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦، العصامي: عبد الملك بن حسين: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ط/ ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ، ٤/ ٢٢١، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ط/ ١، تهامة للطباعة والنشر، جدة ١٤٠٥، ص: ٣١، فريال محمود قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، رسالة دكتوراه غير منشورة، مقدمة لجامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٤١٠هـ، ص: ١٨٠، عائشة: عبدالله باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة لجامعة الملك عبد العزيز ١٤٠٠هـ، ص: ٤٤.

(٢) يبدو أن الأمير مكثر قد استطاع أن يكسب رضى الخلافة العباسية فقد أرسل أحد أبنائه إلى الخليفة العباسي في عام ٥٧٣هـ، وقوبل بالترحيب والتكريم، ابن الجوزي ١٠/ ٥٣١.

(٣) كان شعار الخلافة العباسية ظاهراً في مكة المكرمة فخطيب المسجد الحرام يرتدي السواد الذي هو شعار الدولة العباسية، ويدعو للخليفة العباسي في عهد الأمير مكثر مما يدل أن الأمير مكثر قد استطاع أن يكسب ود الخلافة العباسية، ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني: رحلة ابن جبير، ط/ بدون، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ، ص: ٧٣، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٠.

الاستقلال بإمارتهم، وأن الخلافة العباسية كانت راضية باستقلال الإمارة مع المحافظة على الدعاء لها على منبر المسجد الحرام مما يساهم في المحافظة على مكانتها في العالم الإسلامي.

ومن الطبيعي أن يكون شعار الخلافة العباسية ظاهراً في مكة وذلك أن الإمارة كانت محاطة بكيانات سياسية موالية لها فالدولة الأيوبية في مصر والشام، واليمن، سنية المذهب وموالية لها، وبهذا لا توجد وحدة سياسية منافسة للخلافة العباسية تستطيع أن تزاحمها على النفوذ في مكة أو على زعامة العالم الإسلامي، كما أن الحجاز بموارده الشحيحة في حاجة ماسة لم يصل إليه من هذه الكيانات السياسية بطرق شتى.

وقد كان للخلافة العباسية مظاهر نفوذ في مكة تمثل ذلك في كسوة الكعبة المعظمة التي كانت ترسلها بصحبة ركب الحجاج العراقي في كل عام، وتعيين القضاة، واختيار سدنة الكعبة المعظمة من آل الشيبي، وتعيين شيخ الحرم[١].

كما أن الخلافة العباسية حرصت على إظهار زعامتها للعالم الإسلامي في موسم الحج حيث كان ركب الحاج العراقي يتقدم جميع الركوب وأعلام[٢] الخلافة العباسية تتقدم أعلام جميع الكيانات السياسية

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ١٤٣، الفاسي: العقد الثمين ٢/ ١١٢، ١٣١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٩، ٦٤٣، سلامة حسين عبدالله: تاريخ الكعبة المعظمة، ص: ٢٦٠، الكردي محمد طاهر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط/١، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت ١٤٢٠هـ، ٣/ ٣٥٢، زين العابدين: الكعبة والحج في العصور المختلفة، ص: ١٦٣.

(٢) كان للكيانات السياسية التي تفد وفودها لأداء فريضة الحج أعلام تميزها عن غيرها، يدلنا على هذا ما ورد في خطاب الخليفة العباسي في تعيين ناظر المسجد الحرام عام ٦٥٩هـ من المهام التي يقوم بها عدم السماح لأعلام الكيانات السياسية بالتقدم على =

التي تفد إلى موسم الحج، بما يعني تبعية جميع الزعامات للخلافة العباسية، وكان أمراء الركب العراقي حريصين على تنفيذ هذه الزعامة حتى لو حدث صدام عسكري، مع بعض الوفود القادمة من مناطق أخرى[(١)].

أما الدولة الأيوبية فقد حرصت بداية أمرها على عدم التدخل في شئون مكة السياسية، وفي نفس الوقت حرصت على أن يكون ولاء الأمراء لها، وذلك لأن الدولة الأيوبية أرسلت حملة عسكرية في عام ٥٦٩هـ-١١٧٣م، كان هدفها ضم اليمن إلى أملاك الدولة الأيوبية وقد مرت الحملة في طريقها بمكة ودخلها الملك المعظم توران شاه فرحب به أميرها الأمير عيسى بن فليته ودخل في طاعته[(٢)]، وبحكم سيطرة الدولة

= أعلام الخلافة العباسية في الخروج إلى المشاعر المقدسة، فورد «وصعود الأعلام العباسية المنصورة إلى جبل عرفات قبل أعلام زعماء البلاد من جميع الجهات»، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٠، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٨٤.

(١) أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط/ ١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٨هـ، ٣/ ٤٢٣، الذهبي: محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام: ووفيات مشاهير الأعلام، ط/ ١، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ١٤١٧هـ، مجلة حوادث سنة ٥٧١-٥٨٠، ص: ١٧، اليافعي: عبدالله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط/ ٢، دار الكتاب الإسلامي، ٣/ ٤٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر ١٢/ ٣٢٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢/ ١٠٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٢٢، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعان ٨/ ٣٠٠، ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق/ جمال الدين الشيال، ط/ بدون ١/ ٢٤٠، النويري: أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق/ فوزي العنتيل الهيئة المصرية =

الأيوبية على اليمن أصبح الحجاز يقع بين ولايات أيوبية كان من البديهي أن يكون للدولة الأيوبية نفوذ عليه.

ومع هذا فإن بني أيوب لم يحاولوا التدخل بشكل مباشر في شئون الإمارة السياسية، فلم يتدخلوا في شأن من يصل إلى السلطة من أبناء البيت الحاكم، يدلنا على هذا أن الملك المعظم توران شاه عندما مر بمكة في طريق عودته من اليمن في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م لم يتعرض لشئونها السياسية مع أنه وجد ابني عيسى بن فليته الأمير مكثر وداود مختلفين على السلطة، فما كان منه إلّا أن أصلح بين الأخوين وخرج عائداً إلى مصر دون أن يفرض أحدهما على الآخر، ودون أن يتدخل في شئون الإمارة[١]، وهذا يدل أن الدولة الأيوبية كانت لا تريد التدخل المباشر في شئون الإمارة السياسية.

ومع أن الدولة الأيوبية كانت تتجنب التدخل المباشر في شئون مكة السياسية إلّا أنها كانت ترى أن من واجبها أن تضع حداً لبعض تصرفات أمرائها وخصوصاً ما يتعلق بحجاج بيت الله الحرام.

= العامة للكتاب ١٤٠٥هـ، ٢٨/ ٣٧٣، الفاسي: العقد الثمين ١/ ١١٨، المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ٢/ ٥٣٤، سليمان عبد الغني مالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، ط/ ١، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٠٣هـ، ص: ٤٠.

(١) الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٩، ٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠، علي بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص: ٨، ٩، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٣٠، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٧٧، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٤٣.

وذلك أنه في عهد الأمير مكثر بن عيسى بن فليته كان يؤخذ من الحجاج ضريبة، فقام السلطان صلاح الدين الأيوبي بإلغاء هذه الضريبة وعوض الأمير ما يكفيه من المال وحدد له مناطق زراعية في مصر[١]، واليمن يحمل إليه ما تنتجه من محصولها الزراعي[٢]، كما أن السلطان صلاح الدين أرسل إلى الأمير مكثر ينهاه عن الظلم، ويتوعده بالغزو إذا لم ينته[٣]، وهذا دليل على تبعية الإمارة إلى الدولة الأيوبية، فالأمير مكثر لم يستطع أن يرفض طلب السلطان في رفع المكوس عن كاهل الناس.

كما أن وجود المناطق الزراعية التابعة لأمير مكة في أراض تتبع الدولة الأيوبية تجعله رهيناً بالولاء لهذه الدولة المحافظة على مكتسباته من الأموال والغلال.

وفي عام ٥٨١هـ-١١٨٥م قدم الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين ابن أيوب إلى مكة بقصد القضاء على الاضطراب الأمني بسبب تجاوزات العبيد بها، وقام بضرب العملة باسم أخيه السلطان صلاح الدين ومنع

---

(١) كان لأمراء مكة المكرمة مناطق زراعية في العراق عبارة عن إقطاعات يصل محصولها إلى مكة، وقد استولى عليها عام ٥٦٧هـ، ولم تعد تصل ما تنتجه إلى مكة وذلك بسبب الخلافات بين أبناء الحاكم بمكة، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ٢٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص: ٣٠، ٥٥، أبو شامة: الروضتين ٣/ ٩، النويري: نهاية الإرب ٢٨/ ٣٦٥، الفاسي: العقد الثمين١/ ٣٤١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٤٢، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٢، الزهراني: غباشي: تاريخ مكة التجاري، الغرفة التجارية الصناعية بمكة، ص: ٢٩.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ٦/ ١٢٣، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٤٣، الزهراني: غباشي: تاريخ مكة التجاري، ص: ٢٩.

شعار المذهب الزيدي في المسجد الحرام، وعاد إلى اليمن ولم يتعرض لتغيير وضع الأمير[١].

وبهذا نستطيع القول أن قيام الملك العزيز بضرب العملة، وتأديب الخارجين عن القانون يعتبر إعلاناً بالتبعية المطلقة للدولة الأيوبية، ومن الطبيعي أن قدوم الملك العزيز لم يكن من تلقاء نفسه وإنما بإيعاز من السلطة السياسية في مصر، مما يدل أن السلطة السياسية في مصر جعلت إمارة مكة تتبع والي اليمن الملك العزيز طغتكين بن أيوب.

وفي نفس الوقت مع ما حدث من خلل أمني وقدوم الملك العزيز بحملته والقضاء على المفسدين وترسيخ الأمن في البلد الحرام، إلّا أنه لم يتعرض للبيت الحاكم، وبهذا نستطيع القول أن حكومة مكة كانت تتبع الدولة الأيوبية بشكل كبير ما عدا تنصيب الأمراء فقد كان من اختصاص الأسرة الحاكمة، كما أن الخلافة العباسية لم تحرك ساكناً في تصرفات الدولة الأيوبية في الحجاز مما يدل أن الخلافة العباسية رأت في الدولة الأيوبية حليفتها في مصر والشام قوتها التي تنفذ بها ما تريده في إمارة مكة فتركت لها حرية التصرف.

كما أن أمراء مكة حرصوا على التعامل مع الخلافة العباسية وسلاطين الدولة الأيوبية بحذر شديد خوفاً على استقلالهم الذاتي لإمارتهم، وفي نفس الوقت طمعاً فيما يمكن أن يحصلوا عليه مقابل

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٣/ ٢٧١، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٣، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، العصامي: سمط النجوم ٤/ ٢١، الزهراني: تاريخ مكة التجاري، ص: ٩٤.

الدعاء للخليفة العباسي وللسلطان الأيوبي على منبر المسجد الحرام، وقد كان يتم هذا في خطبة الجمعة حيث يدعو الخطيب للخليفة العباسي ثم للأمير مكثر بن عيسى بن فليته ثم للسلطان صلاح الدين الأيوبي[١].

استمر حكم الهواشم لمكة حتى عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠م حيث استطاع قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني أن ينتزع إمارتها بعد هجوم عسكري خاطف وينهي حكم الهواشم[٢]، وبهذا نستطيع أن نقول أن إمارة مكة قد اتسع نطاقها فأصبحت تضم مناطق واسعة تمتد من مكة إلى ينبع، وكان قتادة من الدهاء بمكان، حيث إنه تجنب غضب الخلافة العباسية من انتزاعه إمارة مكة، كما أنه أراد أن يضفي على إمارته صفة الشرعية فخطب على منبر المسجد الحرام للخليفة العباسي الناصر لدين الله، وبهذا ضمن عدم تدخل الخلافة العباسية فيما أحرزه من كسب سياسي، وحصل بموقفه هذا على أموال طائلة كانت تأتيه من الخلافة[٣].

استمر قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني، في الإمارة حتى مقتله في عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م وبمقتله اضطرب الوضع السياسي مما كان سبباً

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٤.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ٤/١٣٥، الفاسي: العقد الثمين ١/٣٢٩، ٥/٤٦٤، المقريزي أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٢٧٤، الجزيري: الدرر ١/٥٧٧، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/١٠٨، عبد الكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص: ٢٣، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ٢٠٠.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ٤/١٣٥، ٥/٥٤٥، الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٧١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٢٤٩، العصامي: سمط النجوم ٤/٢٢٢، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة المكرمة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود، ط/ بدون، ص: ٣٧.

في تدخلات خارجية مسلحة[١]، كان أولها على يد أمير الحاج العراقي الأمير آقباش الناصري في موسم حج ٦١٧هـ-١٢٢٠م[٢]، ثم حدث التدخل من السلطة السياسية في اليمن في موسم عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م بقيادة الملك المسعود الأيوبي[٣]، فكان هذا التدخل إيذاناً بدخول مكة تحت السيطرة اليمنية، وتنحي سلطة آل قتادة فترة من الزمن، وقد امتدت سيطرة السلطات اليمنية، التابعة للسلطة الأيوبية في مصر إلى وفاة الملك المسعود في عام ٦٢٦هـ-١٢٢٨م، وظهور سلطة بني رسول في اليمن فدخلت مكة مباشرة تحت النفوذ الأيوبي المصري حيث عينت السلطة الأيوبية على مكة نائباً من قبلها[٤]، وقد استمر هذا الوضع حتى عام ٦٢٩هـ-١٢٣١م حيث بدأ الصراع بين الدولة الرسولية في اليمن والدولة الأيوبية في مصر على مكة، وبدأت كلتا الدولتين ترسل الحملات

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٥، ٥/ ٤٧٣، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٦، ٥٨٧، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٨، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٨٥.

(٢) اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٧، المقريزي: السلوك ١/ ٣٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٨، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٧٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٥٠، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٩٨، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٣، ٦/ ٢٥٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٤، ٣٢، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، يحيى القاسم: غاية الأماني، ص: ٤١٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٩٠، ناصر بن عبدالله البركاتي: بنو رسول، ص: ١٤٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ٢٥٩، النويري: نهاية الإرب ٢٩/ ١٥٧، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩٠، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٢، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٩٦، ابن العماد: عبد الحي بن أحمد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/ ١٢٠، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٦.

العسكرية إلى البلد الحرام لإخراج نائب الدولة الأخرى وقواتها، وكان آل قتادة مجرد قادة لبعض الوحدات العسكرية وأمراء على مناطق صغيرة تتبع في الغالب السلطة اليمنية[١]، وقد استمر هذا الصراع حتى عام ٦٤٧هـ-١٢٤٩م عندما استطاع أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة أن ينتزع مكة من السلطة اليمنية بعد هجوم خاطف، وبهذا أعاد أبو سعد سلطة آل قتادة من جديد[٢]، وقد ساعد أبا سعد الاضطرابات التي وقعت في اليمن بسبب مقتل السلطان عمر بن علي بن رسول، وانشغال خلفائه في مسألة ولاية السلطنة من بعده، كما ساعد أبا سعد أيضاً ضعف السلطة الأيوبية بسبب قدوم الحملة الصليبية السابعة على مصر، وطمع الجند المماليك في السلطة الأيوبية، فكان هذان السببان فرصة لأبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أن يرسخ أقدامه في الإمارة.

دخل أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة بعد انتزاعه الإمارة من يد السلطات اليمنية في صراع داخلي مع أبناء عمومته حول منصب إمارة مكة، وقد انتهى بمقتله في عام ٦٥٢هـ-١٢٥٤م[٣]، وقد كان هذا

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/٤٩، ٦٤، ٦١، ٥٤، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٢٨٣، ١٢٣، ٤/٢٦٧، ٨٠، ٢٩٥، ٥/٣٦٢، ٦/٢٥٧، المقريزي: السلوك ١/ ٣٦٦، ٣٦٧، ٤١٦، ٣٧٠، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٤٩، ٥٣، ٤٠٢، ٥٩، ٥٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٦١٥، ٦١٣، ٦٠١، ٦١٧، ٦١٩، ٦٢٦، ابن ظهيرة: ص: ٢٧١، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٩٧، ٢٩٤، ٣٠٠، ٢٩٩.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/٧٧، الفاسي: العقد الثمين ٢/٨٩، ٣/٣٩٧، ٦/ ٣٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٦٨، ابن فهد: غاية المرام ١/٦٣٣، ٦٠٥، الجزيري: الدرر ١/٥٩٦، ناصر البركات: بنو رسول، ص: ١٦٦.

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/١٠٠، الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٤٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٧٤، ابن فهد: غاية المرام ١/٦٤٠، الجزيري: الدرر ١/ =

الحادث سبباً في تدخل خارجي جديد من قبل السلطات اليمنية، حيث أرسلت حملة عسكرية من اليمن في نفس العام بقصد اغتنام فرصة الخلافات الداخلية وإعادة مكة إلى السلطات اليمنية من جديد، ونجحت الحملة في تحقيق هدفها، ولكن لم يطل بها المقام حيث أعاد آل قتادة تنظيم صفوفهم واستطاعوا إخراج القوات اليمنية معلنين بذلك عودة سلطة آل قتادة إلى الإمارة[١].

وقد كان لخروج القوات اليمنية أثر كبير عل السلطة السياسية في اليمن حيث اقتنعت بصعوبة إعادة فرض السلطة اليمنية على مكة، وأخذت تسعى إلى كسب ود أشرافها من آل قتادة بالهبات والهدايا، وتقديم الأموال مقابل الدعاء لسلاطين اليمن على منابر المسجد الحرام، وفي نفس الوقت قام الأشراف بتحقيق رغبة سلاطين اليمن في هذا الجانب نظراً لحاجتهم لما يرسل إليهم من أموال[٢]، ولرغبتهم في عمل توازن في علاقاتهم بين الوحدات السياسية في مصر واليمن، ويبدو أن الأشراف لم يعتبروا أن الدعاء لسلطان من السلاطين يعني التبعية له، بل

= ٣١٥، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٦، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٧٨.

(١) اليماني: بهجة الزمن، ص: ٨٤، العقود اللؤلؤية ١/ ١١٥، الفاسي: العقد الثمين ٢/ ١٤٩، ٣/ ١٧٦، ٥ / ٢٤٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٧٧، ٧٦، ابن فهد: غاية المرام ٢/ ٤٥، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٣١٧، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٦٥.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ١٣٣، الفاسي: العقد ٢/ ١٥٤، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٤٠٥، المقريزي: الذهب المسبوك، ص: ٨٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٨١، ١٢٩، ٩١، الجزيري: الدرر ١/ ٦١٢، ٦٠٠، العصامي: سمط النجوم ٤/ ٢٣٧، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٣٠.

كان فيما يبدو لسببين الأول اكتفاء شرهم، والثاني الحصول على الهبات والعطايا، لهذا كان الدعاء في المسجد الحرام يضم عدداً من الزعماء في بعض الأوقات مثل زعماء اليمن ومصر والخليفة العباسي وشريف مكة المكرمة[١].

(١) مما يدل أن أمراء مكة كانوا يدعون لأي سلطان أو ملك يدفع لهم مبالغ مالية وهبات وعطايا أن أبا نمي لم يوافق أن يدعو للخليفة الحاكم بأمر الله العباسي عندما حج في عام ٦٩٧هـ.



المذاهب الفقهية في الحجاز

في صدر الإسلام كان للعلوم الدينية بمكة والمدينة شأنًا، كبيرًا، فأما مكة فلأنها كانت منبع الإسلام، وبها نشأ النبي الكريم (ﷺ)، ودعا أهلها إلى الإسلام، وتعرض لمناهضتهم له، ومقاومتهم للدعوة، وبها كان التشريع المكي.

أما المدينة المنورة فدار هجرة الرسول (ﷺ) وأصحابه وبها كان التشريع الإسلامي وبها حدث النبي (ﷺ) أكثر حديثه وكانت مركز الخلافة أيام أبي بكر الصديق وعمر وعثمان، وبها كان كثير من كبار الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبي (ﷺ) وسمعوا ما قال، وكانوا شركاء في بعض ما وقع من أحداث كغزوات وفتوح، فهم يحدثون بما سمعوا وشاهدوا فلا غرو إذن أن كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية في صدر الإسلام لقصدهما طلاب الحديث والفقه والتاريخ[١].

ففي مكة كان معاذ بن جبل يفقه أهلها ويقرئهم القرآن، وكذلك علم

---

(١) عمر كحالة: مقدمة ومباحث في حضارة العرب والإسلام، ص: ١٣٦.

بمكة عبدالله بن عباس في أخريات أيامه، فكان يجلس في البيت الحرام يعلم التفسير والحديث والفقه، وإلى عبدالله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية، وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح وطاووس ابن كيسان، واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى العلم فيها طبقة عن طبقة[١].

أما مدرسة المدينة فكانت أكثر علماً وأوفر شهرة حيث اشتهر فيها كثير من الصحابة كعمر وعلي، وامتاز بالعلم فيها زيد بن ثابت الأنصاري، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وعلى أمثال هؤلاء العلماء تخرج كثير من علماء التابعين من أشهَرهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام، وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشي[٢].

وقد ظلت الحركة العلمية في مكة والمدينة في العصر العباسي سائرة سيرها في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، وكان أكثر ما عرف عن مدرستي مكة والمدينة الحديث والفقه[٣].

وفي المدينة نشأ الإمام مالك بن أنس إمام أهل المدينة فاعتنق بعض الحجازيين المذهب المالكي[٤]، كما انتشر بينهم أيضاً المذهب الشافعي[٥].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق، ص: ١٣٧.
(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص: ٧٣.
(٤) السيد عبيد مدني: رسائل في تاريخ المدينة، ص: ٦١.
(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية ١/٢٩٦.

أما في العهد الفاطمي فقد كان حكام مكة من الأشراف الحسنيين يعتنقون المذهب الزيدي[١].

فقد ذكر ابن جبير عند رحلته للحجاز أن «للحرم أربعة أئمة سنية، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف هذه البلدة - يقصد مكة - على مذهبهم، وهم يزيدون في الآذان «حي على خير العمل» إثر قول المؤذن «حي على الفلاح» وهم روافض سبئيون»[٢].

كما ذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة ٤٧٢هـ أن صاحب مكة كان رافضياً خبيثاً[٣]، ويبدو أنهم كانوا من إحدى فرق الزيدية الذين طعنوا في الصحابة طعن الإمامية[٤] مما جعل بعض المصادر تصفهم بأنهم روافض.

---

(١) اعتنق المذهب الزيدي بعض الأشراف العلويين منهم الإمام الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد استطاع إقامة دولة زيدية في صعدة باليمن سنة ٢٨٠هـ-٨٩٣م، والداعي إلى الله الإمام الناصر للحق الحسن بن علي بن الحسن بن زيد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والذي كان يلقب بالأطروش واستطاع هو الآخر أن يقيم دولة في بلاد الديلم والجبل سنة ٣٠١هـ-٩١٣م، وفي نفس العام قام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي ابن أبي طالب بالاستقلال بمكة عن العباسيين، ويذكر ابن خلدون أنه كان يعتنق المذهب الزيدي، انظر ابن حزم: أنساب العرب، ص: ٤٣-٤٤، ابن النديم: الفهرست، ص: ٢٧٣-٢٧٤، الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥٤-١٥٧، ابن الأثير: الكامل ٦/ ٤٨١، ابن خلدون: العبر ٣/ ٤٥٧-٤٥٨، ٤/ ١٢٨-١٤٢، أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ١/ ٢١١، ٢٦٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٠٩.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥٧.

ومما يدل على ذلك معاملتهم الشديدة لأهل السنة، بل وقتل بعض أئمتهم فقد ذكر ابن فهد في حوادث سنة ٤٧٢هـ أنه جرى بين أهل السنة والروافض بمكة نزاع فبادر الروافض بالشكوى إلى أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني أمير مكة فأخذ فقيه الحرم هياج الحطيني وجماعة من الصحابة مثل أبي محمد الأنماطي، وأبي الفضل بن قوام فضربهم ضرباً شديداً فمات الاثنان في الحال، وحمل فقيه الحرم هياج الحطيني إلى زاوية حيث مات هو الآخر[١]، وفي سنة ٦٠٧هـ قام شريف مكة قتادة ابن إدريس الحسني بقتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة[٢].

كان أشراف المدينة الحسينيون من الشيعة الاثنى عشرية[٣] ويروي السمهودي أن المدينة لم يكن لها من يعرف مذهب الإمامية حتى جاءها القيشانيون[٤]، من العراق وكانوا أصحاب ثروة ومال كثير فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال، ويعلمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به[٥]، وتأخر أهل العلم والسنة ولم

---

(١) عمر بن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤٨٠.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٧/ ٤٧.

(٣) ابن خلدون: العبر ٤/ ١٤٢، السيد محسن الأمين: مستدركات أعيان الشيعة ١/ ٢٠٠، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٤) الأسرة القاشانية (الكاشانية) جاءت من مدينة قاشان (كاشان) الفارسية التي تقع بين قم وأصفهان وأهلها كلها شيعة إمامية، وقد استقرت هذه الأسرة بالنجف في العراق، ثم انتقلت إلى المدينة المنورة ونشرت مذاهب الشيعة الاثنى عشرية، هناك، انظر: القرماني: أخبار الدول، ص: ٣٧١، الحميري: معجم الأقطار، ص: ٤٤٧، السمهودي: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى، ص: ١٤٩، آغا بزرك الطهراني: طبقات أعلام الشيعة ٢/ ٤٧، المطبعة العلمية بالنجف ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م، السيد محسن الأمين: مستدركات أعيان الشيعة ١/ ٢٠٦.

(٥) السمهودي: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى، ص: ١٤٩.

يكن لهم آنذاك بالمدينة الشريفة كلمة، وكانت الأمور كلها بيد الشيعة الإمامية فكان القضاء والخطابة لسنان الحسيني وأهل بيته توارثوا ذلك من زمن الفاطميين وحتى نهاية الدولة الأيوبية[١].

ولقد بدأ مذهب الشيعة يمد ظله في مكة والمدينة بتأثير الفاطميين الذين كانوا يساعدون أشراف الحجاز، ويشدون من أزرهم، خاصة أنهم يعتنقون المذهب الشيعي.

ولقد تأثر الحجازيون بالفاطميين في مصر بإضافة قولهم «حي على خير العمل» إلى الأذان في منائر المسجد الحرام، وهو تقليد شيعي كان الفاطميون يعملون به[٢].

فلما زالت الدولة الفاطمية وجاء الأيوبيون إلى الحكم خضعت مكة في بعض الأحيان للأيوبيين خضوعاً مباشراً، بينما لم يحدث أن خضعت لهم المدينة مباشرة، وكان من نتائج ذلك الوضع في مكة أن أصبح للمذاهب السنية أهمية كبيرة بها، وصار كبير أئمة الحرم شافعياً[٣].

وكان للحرم المكي خمسة أئمة أربعة من السنة والخامس زيدي[٤]. يتقدمهم إمام الشافعية وكان مقدماً من العباسيين والأيوبيين. ومما ساعد على انتشار المذهب الشافعي بمكة آنذاك أن الأيوبيين كانوا يعتنقون هذا المذهب وقد عملوا منذ قيام دولتهم في مصر على انتشاره في كافة أنحاء مملكتهم وبالإضافة إلى أن كبير أئمة الحرم كان شافعياً فقد وجد بمكة عدد

---

(١) المصدر السابق، ص: ١٤١.

(٢) أحمد السباعي: تاريخ مكة ٢١٦/١.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٨.

(٤) المصدر السابق.

كبير من الفقهاء والقضاء والعلماء الذين يعتنقون هذا المذهب ويعملون على نشره[١].

وكان إمام الشافعية أول من يصلي في الحرم خلف مقام إبراهيم (عليه السلام)[٢] ويليه الإمام المالكي ويصلي قبالة الركن اليماني[٣]. أما الإمام الحنفي فيصلي قبالة الميزاب[٤] والحنبلي يصلي في موضع يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، وتتم صلاته في وقت واحد مع صلاة الإمام المالكي[٥].

وكان الأئمة الأربعة يصلون المغرب في وقت واحد مجتمعين بسبب ضيق وقتها، وكيفية صلاتها أن يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة ثم يقيم من بعده مؤذنو سائر الأئمة[٦].

ونتيجة لذلك كان المصلون يصابون بالسهو والغفلة أحياناً للتكبير في الحرم من كل جهة، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، أو الحنفي بركوع المالكي، أو يسلم أحدهم بغير سلام إمامه، لذا كان المصلون ينصتون باهتمام شديد لصوت إمامهم أو مؤذنهم خوفاً من السهو[٧].

---

(١) جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: ١٦٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٨.

(٣) المصدر السابق، ص: ٧٩.

(٤) يخرج الميزاب من أعلى منتصف الحائط الشمالي الغربي للكعبة ويقال له ميزاب الرحمة وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطح الكعبة (الخربوطلي: تاريخ الكعبة، ص: ١٨٦).

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٩.

(٦) المصدر السابق.

(٧) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٩.

ولم تشر المصادر إلى المكان الذي كان يصلي فيه إمام الزيدية، وإنما اكتفت بالقول بأنهم لا يصلون الجمعة مع الناس، وإنما يصلون الظهر أربعاً ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة السنية من صلاتهم[١].

وبعد فراغ المصلين من صلاة المغرب يقف المؤذن في سطح قبة زمزم رافعاً صوته بالدعاء للخليفة العباسي ولأمير مكة، ثم لصلاح الدين الأيوبي، ويصل ذلك بالدعاء لأمراء اليمن الأيوبيين، ثم سائر المسلمين والحجاج والمسافرين[٢].

أما خطبة الجمعة فكان يتولاها الخطيب الشافعي[٣].

وفي شهر رمضان كان أهل مكة يصومون ويفطرون بأمر أمير مكة على حساب لهم كما كان الفاطميون يفعلون في مصر، واستمر ذلك طوال العصرين الفاطمي والأيوبي.

ويخبرنا ابن جبير عند زيارته للحجاز سنة ٥٧٩هـ-١١٨٣م أن صيام أهل مكة لشهر رمضان كان يوم الأحد بدعوى في رؤية الهلال لم تصح، لكن الأمير أمضى ذلك، ووقع الإذن بالصوم بضرب الدبادب ليلة الأحد المذكور لموافقته مذهبه، ومذهب الشيعة العلويين لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً حسبما يذكر[٤].

وأثناء صلاة التراويح كان الأئمة يتفرقون فرقاً فالشافعية تتقدم وقد نصب لها إماماً في ناحية من نواحي المسجد، ثم الحنبلية، والحنفية، وكذلك الزيدية[٥].

---

(١) جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: ١٦٤؟

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص: ٨٠.

(٣) جميل حرب: الحجاز واليمن، ص: ١٦٥.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص: ١٢٢.

(٥) المصدر السابق.

أما المالكية فكانوا يجتمعون على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، وكان إمام الشافعية في التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً لأنه يصليها لهم عشرون، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون، بينما سائر الأئمة لا يزيدون في صلاتهم عن عشر ركعات[١].

وقد كان أهل السنة يتعرضون أحياناً للعداء من أشراف مكة ففي سنة ٤٧٢هـ-١٠٧٩م توفي هياج بن عبيد مفتي أهل مكة وفقيه الحرم، وكان سبب موته أن بعض الشيعة شكو إلى أمير مكة محمد بن جعفر الحسني أن أهل السنة يستطيلون عليهم بهياج بن عبيد فأخذه الأخير وضربه ضرباً شديداً حتى مات[٢].

وفي المدينة المنورة كان الوضع مختلفاً عن مكة فالإمامة والخطابة والقضاء بها للشيعة، وخاصة سنان الحسيني، وأهل بيته من الأشراف الحسينيين يتوارثها الأبناء عن الآباء منذ العصر الفاطمي وطوال العصر الأيوبي[٣].

وكان لأهل السنة إمام شافعي يصلي بالناس الصلوات الخمس[٤] فحسب لأن الأمر بيد الشيعة، وهل السنة في ضعف عظيم معهم بالمدينة ولا يستطيعون قراءة كتبهم أو سماع الأحاديث النبوية إلّا خفية[٥].

ومما ساعد تمادي أنصار الشيعة بالمدينة في أفعالهم اشتراك أمرائهم

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ١٢٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠٩/٥، الذهبي: العبر ٣٣١/٢.

(٣) السمهودي: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى، ص: ١٤١.

(٤) المصدر السابق، ص: ١٤٢.

(٥) المصدر السابق.

مع صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين فكان يتبرك بهم ويستشيرهم في كثير من الأمور[١]، ولا يعرف ما يفعلونه بأهل السنة.

ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يجعل لأهل السنة مكانة في المدينة فاستمال أشرافها وأغدق عليهم الأموال والهدايا حتى سمحوا له بأن يعين جماعة من قبله لإدارة المسجد النبوي فأرسل إليهم في عام ٥٦٩هـ-١١٧٣م أربعة وعشرين خادماً يرأسهم شيخ الخدام بدر الدين الأسدي، وأوقف عليهم ناحية نقادة من عمل قوص وقبالة بالصعيد وثلثي ناحية سندبيس بالقليوبية[٢].

ورغم ذلك لم يصبح لأهل السنة نفوذ قوي بالمدينة، بل بقوا على ما كانوا عليه من ضعف وظلت السيادة لأصحاب مذهب الشيعة وصار إمامهم علي بن سنان الحسني يخطب ويصلي ويتولى كافة الأمور الدينية بالمدينة[٣]، وكان إذا عقد في البلد عقد نكاح بغير إذن علي بن سنان وأمره طلب من فعلوا ذلك وعزرهم ودفع شرفاء المدينة لمعاقبتهم[٤].

ولم يكن أهل السنة المجاورون يستطيعون عقد نكاح أو الفصل في أي قضية بين المتخاصمين إلّا بعد الرجوع إلى علي بن سنان الحسيني إمام الشيعة الذي كان يصدر أوامره إلى إمام السنة في كتاب يقول فيه اعقد نكاح فلانه على فلان أو أصلح بين فلان وفلانة[٥].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٤-١٧٥.

(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٥٧، ق١، ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٢٤٣، ق١.

(٣) السمهودي: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى، ص: ١٤٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

ولقد توارث الشيعة الخطابة بالمدينة منذ عهد الفاطميين وطوال عصر الأيوبيين حتى أخذت منهم في العصر المملوكي[(١)].

وكان من عادتهم أن يجمع للخطيب في الموسم المال الجزيل، والهدايا الكثيرة ولا يتم الخطيب خطبتة حتى يحصل على ما يريد[(٢)]، وقد وصف ابن جبير ذلك حين ذكر في رحلته أنه شاهد عند دخوله المدينة الشريفة بعد رجوعه من مكة صحبة الحاج العراقي في يوم الجمعة السابع من المحرم سنة ٥٨٠هـ-١١٨٤م أمراً يندى له الإسلام فقد وصل الخطيب وصعد منبر النبي (ﷺ) وهو كما يذكر على مذهب غير مرضي، فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة حتى قام الخدام التابعون له باختراق الصفوف وتخطي الرقاب يجمعون ما يتبرع به الحاضرون لهذا الخطيب الذي لا يهمه سوى جمع المال والذهب والثياب، ولو كان ذلك على حساب الدين[(٣)].

فقد كان منهم من يقدم له الثوب النفيس الغالي ومنهم من يأتي بالقطعة الثمينة من الحرير فيعطيها له ومنهم من يخلع العمامة ويلقيها إليه ومنهم من يخلع بردته ويقدمها له، ومنهم من يدفع القراضة من الذهب، ومنهم من يمد يده بالدينار أو الدينارين وهو جالس يراقب ذلك بنظرات كلها طمع ورغبة في الاستزادة حتى كاد الوقت أن ينقضي وتضيع الصلاة، وضج أصحاب الدين، وصاحوا في وجه الخطيب وهو جالس ينتظر دون خجل أو حياء حتى تجمع أمامه كومة كبيرة من هذه الأشياء، وحينئذ شعر بالرضا فقام وأكمل الخطبة[(٤)].

---

(١) المصدر السابق، ض ص: ١٤٨. (٢) المصدر السابق، ص: ١٤٩.
(٣) ابن جبير: الرحلة، ص: ١٧٩. (٤) المصدر السابق، ص: ١٨٠.

النشاط العلمي والقضاء
في عهد حكم الشيعة في الحجاز

كانت المدينتان المقدستان مكة المكرمة والمدينة المنورة مركزين هامين من مراكز العلم والثقافة في الدول الإسلامية، وبعد فتح مكة المكرمة عين الرسول (ﷺ) معاذ بن جبل ليعلم الناس دينهم الجديد، وأصبح بذلك المسجد الحرام يزدحم برجال الحديث والقراء[1]، وكلما مرت السنون ازداد الناس إقبالاً على العلم في المسجد الحرام، لذلك نجد أن كثيراً من العلماء وصلوا إلى مكة - خاصة في عصر بني أمية - لبعدها عن الفتن السياسية، واستمرت مكة المكرمة كما كانت في عهد الأمويين مركزاً هاماً للعلم والثقافة في أيام الخلافة العباسية، وظل العلماء يتلقون العلم طبقة عن طبقة، حتى حفل المسجد الحرام بعدة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس، يلقي الدرس، وأصوات الطلاب يسألون ويناقشون.

وبحلول القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بدأ ضعف النشاط العلمي بمكة واضحاً، نظراً لكثرة من رحل من علمائها إلى سائر الأقطار الإسلامية لنشر العلم ورواية الحديث، واستمر هذا

(١) عبد الرحمن صالح عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص: ٣٨.

الضعف فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/ العاشر والثاني عشر الميلاديين[١].

ولم يكن العلماء يتقاضون راتباً من أمراء مكة لقاء الدروس التي يقومون بتدريسها في المسجد الحرام، وكذلك فإنهم كانوا لا يأخذون من الطلبة صدقة أو زكاة لأن تعليمهم كان لله وفي سبيل الله، يضاف إلى ذلك أنه لم تقتصر فائدة الدروس التي كانت تلقى بالحرم على المكيين أنفسهم، بل نهل من هذه الحلقات التي كانت تعقد داخل المسجد الحرام علماء من شتى أنحاء ديار المسلمين[٢]، وكانت هناك بيوت مشهورة في مكة المكرمة تخصص بعض أبنائها في طلب العلم، وتوارثوا ذلك كما تتوارث خطب الجمعة والإمامة في المسجد الحرام، ومن أشهر هذه البيوت في أواخر العهد الفاطمي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بيت الطبري[٣].

والطبريون ينسبون إلى قريش، وقد هاجر أجدادهم في غمرة من هاجر في العصر العباسي، ثم ما لبث الأحفاد أن عادوا إلى مكة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وأول من قدم منهم في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي رضي الدين بن أبي بكر، ظل أحفاد هذا البيت يخدمون العلم في مكة إلى أن انقرضوا في القرن الثاني عشر الهجري، بعدما ظلوا رواد علم وعمالقة تعليم طيلة ستة قرون متتالية[٤].

---

(١) أحمد السباعي: تاريخ مكة ١/ ٢١٧.

(٢) عبد الرحمن صالح عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص: ٤١.

(٣) أحمد السباعي: تاريخ مكة ١/ ٢١٧.

(٤) عبدالله مرداد: المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/ك - ل - م - ن.

وقد رأى ابن جبير حينما زار مكة المكرمة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حلقات المدرسين التي كانت تعقد في الحرم المكي في هذه الفترة وعبر عن كثرتها بقوله: «والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم...»[١].

ومن الثابت أنه كان يتخرج من الحرمين الشريفين الألوف في كل عام ومنه في: التفسير والحديث والفقه، والأصول واللغة، وعلم القراءات وعلوم اللغة، وشتى ألوان المعرفة والعلوم، وتجدر الإشارة إلى أن حلقات العلم في الحرمين الشريفين لم تكن تقتصر على المدرس؛ بل كان يتم فيها مناظرة العلماء من المجاورين والوافدين عليهم من شتى أقطار العالم الإسلامي، وهكذا كانت تعقد في الحرمين المكي والمدني في أوقات موسم الحج حلقات مختلفة من جميع العلوم الفقهية والعقلية ومختلف المعارف[٢].

وعرفت أركان المسجد الحرام والمسجد النبوي حلقات العلم، حيث كانت تعقد في الجزء المكشوف أو في الأروقة، قد كان القرآن الكريم هو المنبع والمصدر الأساسي للنشاط العلمي والثقافي في المجالات الأخرى، كما كان الحديث النبوي الشريف يقوم في المقام الثاني بعد القرآن الكريم حيث يعتبران مصدران هامان لما ظهر من العلوم[٣] والفنون، وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة في حلقات الحرم

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٦٠، انظر أيضاً: سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص: ١٨٦، ١٨٧.

Abdullatif: DoHaish, History of Education, p. 33

(٢) سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص: ١٨٩.

(٣) انظر محمد حسين يوسف: رسالة المسجد في العالم عبر التاريخ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م، ص: ٤٦٦، منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص: ٥٠-٥١.

المكي والحرم النبوي الشريف لم تنهج منهجاً مقرراً أو محدداً، فالمدرس هو الذي يقرر ما يريد تدريسه لطلابه، وهو الذي يختار المنهج الملائم لهم، والدرس يعقد يومياً من قبل هذا الشيخ في الحرم، وتضم الحلقات الجميع بلا تفرقة، جاعلاً البساطة والتواضع الواجب الأساسي تجاه طلبته، وكان لكل مذهب من المذاهب ركن خاص به في المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف(١).

أما دور الكتاتيب في الحياة العلمية والثقافية في مكة والمدينة في العصر الفاطمي فمن المعروف أن الكتاب ظهر كمؤسسة تعليمية منذ أوائل العهد الإسلامي، لتقوم بتربية صغار المتعلمين، وسمي الكتاب بهذا الاسم نظراً لأن الطفل كان يتعلم فيه الكتابة، ثم استخدم هذا الاسم بحيث أصبح يشمل كل مؤسسة تعليمية تعنى بتربية الصغار، حتى ولو لم تكن القراءة والكتابة مادتها الدراسية الوحيدة، وأطلق هذا الاسم على مؤسسات تعليمية كان همها الأول تعليم الطفل وتحفيظه القرآن الكريم(٢).

ولقد وجد الكتاب جنباً إلى جنب مع المسجد، ليسهم في نشر العلم والمعرفة، وكان الكتاب يتخذ من المسجد مقراً له في بعض الأحيان، وينطبق هذا القول على الكتاتيب في مكة المكرمة خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة، إذ إن بعض معلمي الأطفال كانوا يقومون بتأدية رسالاتهم العلمية في المسجد الحرام(٣). قد كان منهج الكتاب يتركز في تعليم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن ومع القراءة والكتابة كان

---

(١) انظر سليمان مالكي: بلاد الحجاز، صك ١٨٧-١٨٨.

(٢) عبد الرحمن صالح عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص: ٤٩-٥٠، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز، ص: ١٣٠، وانظر أيضاً: Abdullfit dohaish, op. cit, pp. 19 -20.

(٣) عبد الرحمن صالح عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص: ٥٢، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز، ص: ١٠٣، وانظر أيضاً: Abdullfit dohaish, op. cit, pp.20.

التلاميذ يتعلمون قواعد اللغة العربية وقصص الأنبياء، وخاصة أحاديث الرسول محمد (ﷺ)[١].

وفي المسجد تعقد حلقات مختلفة من الدروس وكان المتعلم حراً في أن يذهب إلى أي حلقة من الحلقات، وإلى أي شيخ من الشيوخ فإذا أتم علم شيخ، انتقل إلى علم شيخ آخر وهكذا ويرجع سبب ذلك إلى أن التعليم كان حراً يعتمد على ما يمنحه الخلفاء والأمراء والأغنياء لمن اتصل بهم من العلماء، لم تكن هناك أيضاً درجات علمية يمنحها من أتم الدراسة بعد امتحان، إنما كان الامتحان الرأي المحيط به من علماء ومتعلمين، فمن آنس من نفسه القدرة على أن يجلس مجلس المعلم جلس وتعرض لجدال العلماء ومناقشتهم[٢].

أما عن المدارس في مكة والمدينة في العصر الفاطمي، فقد قامت المدارس - في المجتمعات الإسلامية- إلى جانب المسجد والكتاب، تسهم في تربية وتعليم المسلمين، ويربط المؤرخون بين الوزير السلجوقي نظام الملك وبين نشأة المدارس في الإسلام، رغم أن بعض المدارس وجدت قبل نظام الملك.

وقد عرفت هذه المدارس باسم المدارس النظامية، ولعل سبب شهرة نظام الملك ومدارسه، كونه أول من جعل التعليم مجانياً، وفرض للطلاب الأرزاق والأموال[٣]، وإذا كانت المدارس في العواصم والمدن

---

(١) أحمد شلبي: التربية الإسلامية، ص: ٤٦، عن دور الكتاتيب في الحياة العلمية والثقافية في بلاد الحجاز، انظر سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص: ١٩٨-١٩٩.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام ٣/ ٦٧-٦٨.

(٣) عبد الرحمن صالح عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص: ٥٩، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز، ص: ١٠٣، سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص: ١٨٩-١٩٠، وعن نظام الملك انظر ما سبق، ص: ١٧٥، حاشية ٤.

الإسلامية قد بدأت في التطور في منتصف القرن الخامس الهجري/ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي فإن ظهورها في مكة المكرمة لم يبدأ إلّا في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي(١).

أما عن دور أئمة الحرم المكي والمدني في الحياة العلمية والثقافية فقد كان لهم دوراً كبيراً، واشتهر معظمهم بالعلم، وصنفوا مؤلفات وتصنيفات كثيرة، وتعلم على أيديهم آلاف من طلاب العلم، الذين لعبوا دوراً هاماً في الحياة العلمية والثقافية في مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية، ومن أهمهم:

❑ إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبدالله بن يوسف الجويني

ولد سنة ٤١٠هـ ١٠١٩م وتوفي سنة ٤٧٨هـ-١٠٨٥م ويعتبر الجويني إمام العلماء في وقته، وكتب عدة مصنفات منها (نهاية المطلب في دراسة المذهب)، سافر إلى بغداد ثم عاد إلى الحجاز، وأقام بمكة المكرمة والمدينة المنورة أربع سنين يدرس ويفتي ويصنف، وأم بالناس في الحرمين الشريفين فسمي بذلك إمام الحرمين، ثم رجع إلى نيسابور، وجعل إليه الخطابة ومجلس الذكر والتدريس وبقي على ذلك ثلاثين سنة(٢).

---

(١) عبد الرحمن صالح عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص: ٥٩، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز، ص: ١٠٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/٩، أبو الفدا: المختصر ١٩٦/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢٨/١٢، الفاسي: العقد ٥٠٧/٥-٥٠٨، ابن العماد: شذرات الذهب ٣٥٨/٣-٣٥٩.

❑ **الجمال أبو عبدالله بن عبدالله بن الفتوح المكناسي المالكي**

ولي في سنة ٤٨٨هـ-١٠٩٥م إمامة مقام المالكية بالمسجد الحرام، وأوقف الجمال المكناسي كتاب المغرب لابن أبي زمنين المالكي ستة مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة، وجعل مقره بخزانة المالكية[١].

❑ **أبو بكر محمد بن عمر بن عثمان بن عبد العزيز بن طاهر البخاري الحنفي**

إمام الحنفية بالحرم الشريف، جاور بمكة سنين، وكان إماماً لأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الحرام، وكان شيخاً فاضلاً صالحاً متديناً مكثراً من الحديث توفي سنة ٥٢٥هـ-١١٣٠م[٢].

❑ **أبو الحسن رزين بن ماوية بن عمار العبدري الأندلسي السرقسطي**

إمام المالكية بالحرم سمع بمكة من ابن مكتوم بن أبي ذر الهروي كتاب صحيح البخاري، ومن الحسين بن علي الطبري صحيح مسلم وحدث، كان إمام المالكية في الحرم، وله مصنفات منها: كتاب جمع فيه ما في الصحاح الخمس والموطأ، ومنها كتاب في أخبار مكة، وتوفي سنة ٥٢٥هـ-١١٣٠م[٣].

❑ **سعيد بن أحمد الأنصاري الحنفي إمام الحنفية بالمسجد الحرام**

كان ممن شهد على رامشت لوقفه رباطه بمكة سنة ٥٢٩هـ-١١٣٤م[٤].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤٨٧-٤٨٨.

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٢٥هـ، الفاسي: العقد الثمين ٢/ ٢٢٦-٢٢٧.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ورقة ٣٠، الفاسي: العقد ٤/ ٣٩٨-٣٩٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٠٢-٥٠٤.

(٤) الفاسي: العقد ٤/ ٥٤٩.

❑ برهان الدين البلخي الزاهد الحنفي

قدم دمشق سنة بضع عشر وخمسمائة فنزل بالمدرسة الصادرية بباب البريد، ومدرسها يومئذ أبو علي بن مكي الكاساني، فعقد لهما مجلس مناظرة، وجلس برهان الدين للوعظ، وكان عنده صدق، فوقع له القبول في قلوب الناس، فحسده الكاساني وتعصب عليه الحنابلة لأنه أظهر خلافهم، فعزل نفسه عن المقام بدمشق، ومضى إلى مكة وجاور بها، وفي مكة أصبح برهان الدين البلخي إمام الحنفية في المسجد الحرام، وحاز على شهرة كبيرة، ثم ندم الكاساني على خروج برهان الدين البلخي من دمشق فكاتبه بالعودة إليها، فخرج من مكة وجعل طريقه على بغداد، فلما وصل دمشق سلم إليه الكاساني المدرسة الصادرية عن تراضٍ منه، وظل برهان الدين البلخي يدرس في دمشق حتى وفاته سنة ٥٤٨هـ-١١٥٣م[١].

❑ أبو بكر بن أبي الحسن الطوسي إمام مقام إبراهيم الخليل بمكة

شهد على رامشت بوقفه لرباطه بمكة سنة ٥٢٩هـ-١١٣٤م، توفي سنة ٥٦٣هـ-١١٦٧م[٢].

❑ أبو محمد مبارك بن علي بن الحسن بن عبدالله بن محمد البغدادي

المعروف بابن الطباخ الحنبلي إمام الحنابلة بالمسجد الحرام، سمع كتاب (دلائل النبوة للبيهقي) كان يؤم الناس بحطيم الحنابلة، وتوفي سنة (٥٧٥هـ-١١٧٩م)[٣].

---

(١) العيني: حوادث سنة ٥٤٨هـ.

(٢) الفاسي: العقد ٨/ ١٢، ولم تذكر المصادر المتداولة شيئاً عن شخصية رامشت.

(٣) المصدر السابق٧/ ١١٩-١٢٠.

ولعب القضاة في مكة المكرمة والمدينة المنورة .وراً هاماً لا يقل عن أهمية أئمة الحرمين الشريفين في الحياة العلمية والثقافية في الحجاز، ونظراً لأهمية مكة المكرمة والمدينة المنورة فكان للقاضي مكانة عظيمة في بلاد الحجاز، حيث كان بمثابة نائب أمير مكة المكرمة أو المدينة المنورة، فوظيفة القاضي الثانية بعد الأمير خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة[١].

والقضاة الذين تولوا القضاء بمكة المكرمة والمدينة المنورة منهم من أهل المدينتين الذين كان لهم دور هام في محيط القضاء والفتيا، ومنهم من قدم إلى مكة نظراً لما عرفوا به من العلم والأدب والفقه، وتولى هؤلاء القضاة منصب القضاء لمدد محدودة، ثم عادوا إلى بلادهم، وهم المجاورون الذين وفدوا إلى بلاد الحجاز، واستقروا بها حيناً من الزمن ومن أشهر القضاة:

❏ أحمد بن أبي الحسين النيسابور قاضي الحرمين، وشيخ الحنفية في عصره

ولي قضاء الحجاز مدة، ثم رحل نيسابور وتولى قضاءها سنة ٣٥١هـ-٩٦٢م[٢].

❏ يحيى بن عبد الرحمن القرشي الزهري

ولي قضاء مكة للمقتدر، وكان محموداً في ولايته من أهل الحزم والنفاذ في الأمور كله، وكانت له ضياع وتوفي سنة ٤٧٠هـ-١٠٧٧م[٣].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٣/ ٤٨٤.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٧-٨.

(٣) الفاسي: العقد ٧/ ٤٣٨-٤٣٩.

❑ **قاضي الحرمين أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد الشيعي الإسماعيلي**

فوَّض له المعز لدين الله الفاطمي القضاء مستقلاً سنة ٣٦٦هـ-٩٧٦م، وكان في سجله القضاء بالديار المصرية والشامية والمغرب وجميع مملكة المعز، والخطابة والإمامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل، ولم يزل مستمراً على أحكامه عند الخليفة العزيز ابن المعز إلى أن توفي سنة ٣٧٤هـ-٩٨٤م.

الفصل الرابع

ثورات أمراء الشيعة الزيدية
في منطقة الحجاز في العصر الأيوبي

• أثر الثورات على الأوضاع الأمنية والدينية والسياسية ••••••

❑ ثورة الأمير مكثر[1] بن عيسى بن فليته ٥٧١هـ-١١٧٤م:

عندما قامت الدولة الأيوبية في مصر والشام على يد السلطان صلاح الدين[2] يوسف بن نجم الدين أيوب عام ٥٧٠هـ-١١٧٥م[3] كان يحكم

---

(١) هو الأمير مكثر بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد الحسني المكي، نازع أخاه الأمير داود في إمارة مكة فكانا يتداولان الحكم فيها، وهو آخر الحكام من بني فليته من أسرة الهواشم، انتزع منه قتادة بن إدريس بن مطاعن إمارة مكة عام ٥٩٧هـ، توفي في وادي نخلة عام ٦٠٠هـ.
الفاسي: العقد الثمين ٦/ ١٢١، الزركلي: خير الدين الأعلام، ط/ ١٥، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م، ٧/ ٢٨٤.

(٢) صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، الملك الناصر من أشهر ملوك المسلمين، ولد ببلدة تكريت سنة ٥٣٢هـ، كان على درجة كبيرة من العلم الشرعي، زالت على يده الدولة الفاطمية، حارب الصليبيين وانتصر عليهم في عدة مواقع أشهرها موقعة حطين ٥٨٣هـ، ثم فتح بيت المقدس، توفي في دمشق عام ٥٨٩هـ، ابن خلكان: أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، ط/ ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ، ٥/ ٣٩٣، الذهبي: محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، ط/ ١١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٧هـ، ٢١/ ٢٧٨، حسن =

مكة الأمير عيسى[(١)]، بن فُليته بن هاشم الحسني، وقد توفي في الثاني من شعبان من نفس السنة بعد أن حكم ما يقارب ثلاث عشرة سنة فتولى بعده ابنه الأمير داود بن عيسى بن فليته[(٢)]، وذلك بوصية من والده الأمير عيسى قبيل وفاته، ويبدو أن الأمير عيسى بن فليته رأى في تولية ابنه داود خيراً لمكة وأهلها، وذلك لما يتمتع به من صفات حسنة تبينت منذ توليه الأمر حيث ذكر أنه بعد توليه الحكم بعد وفاة والده «أحسن السيرة وعدل بين الناس»[(٣)]، ويبدو أن الأمير عيسى لم يعين خلال مدة حكمه ولياً للعهد من أبنائه إلّا في العامين الأخيرين من حكمه لذا دعم توليه بعهد منه قبيل الوفاة حيث ما ذكر: إن تعيين الأمير داود كان بعهد من والده قبيل

= إبراهيم حسين: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط/١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٧م، ٤/ ١٠٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٣٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٥١٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٧٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٨.

(١) هو عيسى بن فليتة بن قاسم الحسني المكي أمير مكة ولي الإمارة في آخر سنة ٥٥٦هـ، بعد ابن أخيه قاسم بن هاشم بن فليتة، كان كريم النفس كثير الحلم يجالس أهل الخير والصلاح، توفي في شعبان سنة ٥٧٠هـ، ابن الأثير: الكامل ٩/ ٧٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٣، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٣٧، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٢٧.

(٢) هو داود بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر، يعرف بأبي هاشم الحسني المكي تولى الإمارة بمكة عام ٥٠٧هـ، لم تستقر له الأمور للنزاع مع أخيه مكثر على السلطة توفي عام ٥٨٩هـ، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٤، عارف عبد الغني: تاريخ أمراء مكة المكرمة، ط/١، دار البشائر، دمشق ١٤١٣هـ، ص: ٤٥١.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث ٥٧١، ٥٨٠، ص: ٧٧، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٤.

وفاته، فلو كان الأمير داود ولياً للعهد منذ مدة طويلة في عهد والده لما احتاج إلى عهد من والده قبيل وفاته، ولهذا يتبين أن موضوع خلافة الأمير عيسى لم تحسم إلّا في العامين الأخيرين من حكمه وتم تأكيدها في الأيام الأخيرة من حياته، ويكون قصد الأمير عيسى بعدم تعيين ولياً للعهد إلّا في العامين الأخيرين من مدة حياته هو خوفه من حصول خلاف بين أبنائه على السلطة قد يستغلها بعض أصحاب المصالح في إذكاء نار الفتنة بين الأخوين مما يؤدي إلى انقسام المؤيدين للأمير عيسى وضعفه أمام خصومه، كما أن المصادر لم تبين أيهما الأكبر بين الأخوين ولكن يبدو من تولية داود أنه هو الأكبر سناً من أخيه مكثر، كما أن ما حدث من معارضة للأمير عيسى من أخيه الأمير مالك[1] بن فليته وما صاحبها من صدام مسلح استمر إلى وفاة الأمير مالك بتيماء[2] عام ٥٦٧هـ-١١٧١م[3]، كانت كافية في إشغال الأمير عيسى بن فليتة عن الحسم في

(١) هو الأمير مالك بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسني المكي المعروف بابن أبي هاشم، عارض أخاه الأمير عيسى بن فليتة في إمارة مكة، وقامت بينهما حروب كثيرة انتهت بانتصار أخيه الأمير عيسى واستقر له الأمر بعد وفاة أخيه الأمير مالك في تيماء سنة ٥٦٧هـ، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ٢٢، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٣.

(٢) تيماء: تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية كانت قديماً واحة خصبة تنتشر بها الزراعة وتشتهر بتمرها الجيد تقع في منتصف الطريق بين تبوك والمدينة المنورة، وهي اليوم محافظة كبيرة تتبع منطقة تبوك إدارياً.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٧هـ، ٢/ ٤٧١، المنجد في اللغة والأعلام، ط/١٢، دار المشرق، بيروت، ص: ١٩٩، شرف الدين، أحمد حسين: المدن والأماكن الأثرية في شمال وجنوب الجزيرة العربية، ط/١، مطابع الفرزدق، الرياض ١٤٠٤هـ، ص: ٢٢.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ٦/ ٢٢، ٥/ ٤٣٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٢، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٣.

موضوع ولاية العهد قبل وفاته بمدة طويلة. وتكون بداية ولاية الأمير داود هو يوم الثاني من شعبان عام ٥٧٠هـ-١١٧٤م، وهو اليوم الذي توفي فيه والده الأمير عيسى بن فليته[١].

ومع بداية تولي الأمير داود قام باستمالة رعيته وذلك بحسن السيرة وإقامة العدل مما يدل على أنه كان يعمل على كسب ودّ رعيته إليه ومع هذه الجهود لم ينته عامه الأول حتى قام أخوه الأمير مكثر بثورة عليه كانت على مستوى عالٍ من التنظيم والسرعة يدلنا على هذا سرعة إنهاء الصراع وحسم النتيجة في ليلة واحدة وخروج الأمير داود من مكة حيث قام الأمير مكثر بالإطاحة بحكم أخيه وانتزاع الإمارة منه في ليلة واحدة هي ليلة النصف من رجب سنة ٥٧١هـ-١١٧٥م[٢] ومع هول المفاجأة وقوة الثورة خرج الأمير داود إلى وادي نخلة[٣]، حيث يكون في مأمن لكي يتمكن من التفكير بعمق في الطريقة التي يعود بها إلى إمارته، وقد سنحت الفرصة للأمير داود بن عيسى في محاولة لإنهاء الصراع بينه وبين أخيه الأمير مكثر بعد شهر واحد من بداية النزاع وتولي أخيه الأمير مكثر وذلك عندما

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٣٧، ٤/٦٧، ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/٥٣٥، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٢٧.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٤/٦٧، ٦/١٢١، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٣٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٣٩، الجزيري: الدرر ١/٥٧٠، عبد الفتاح راوه: تاريخ أمراء البلد الحرام، ص: ١٤٦.

(٣) نخلة: هما نخلتان نخلة الشامية و نخلة اليمانية وهما: واديان لقبيلة هذيل، تبدأ الشامية من جبال هدأة الطائف ثم تنحدر إلى أن تصل إلى المضيق وهو للأشراف، ونخلة اليمانية تبدأ من منطقة البهيتة عند بلدة السيل الكبير، وتنحدر حتى تلاقي نخلة الشامية عند المضيق، ويسكن بأسفل نخلة اليمانية قبيلة القناوية وهم من قبائل الأشراف ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/ ٣٨٠، عاتق بن غيث البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية، ط/٢، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٣هـ، ص: ٢٩٩.

استغل مرور الأمير شمس الدولة توران شاه الأيوبي[١] بمكة في طريقه من اليمن إلى الشام فاجتمع به الأخوان في وادي الزاهر[٢]، وأثمر اللقاء عن عقد صلح بين الأخوين[٣]، ولكن يبدو أن الأمير داود كان يهدف إلى أن يساعده الأمير توران شاه على أخيه ويعيده إلى الإمارة، ولكن لم يثمر اللقاء إلّا عن عقد صلح بين الأخوين حتى أنه لم يتجاوز ذلك إلى شراكة في الإمارة حيث لم تدل المصادر على هذا فيكون ما تم في اللقاء هو صلح فقط بين الأخوين مما يدل أن الأمير توران شاه حاول أن يتجنب الدخول في صراع سياسي وعسكري في المنطقة.

ويؤيد ما سبق أن الأمير داود بن عيسى تم تنصيبه أميراً بمكة من قبل أمير الحاج العراقي طاشتكين[٤] في نفس العام[٥] أي بعد ثلاثة شهور من

---

(١) شمس الدولة: الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذي، أخو السلطان صلاح الدي، جهزه السلطان صلاح الدين بجيش إلى اليمن في رجب سنة ٥٦٩هـ، فضمها إلى سلطنته، كان كريماً أريحياً، عاد من اليمن سنة ٥٧١هـ، فاستخلفه السلطان بدمشق، ثم انتقل إلى مصر وتوفي في مدينة الإسكندرية سنة ٥٧٦هت، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٢٩٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٣.

(٢) الزاهر: موضع بمكة المكرمة وهو وادي فخ يمر بين حراء ومكة ويذهب إلى الحديبية، وهو اليوم حي كبير من أحياء مكة المكرمة يقع في شمال غرب الحرم، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٦/ ٤١٦، عاتق بن غيث: معالم مكة التاريخية والأثرية، ص: ١٣.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: اتحاف الورى ٣٢/ ٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٩، الجزيري: الدرر ١/ ٥٣٩، / ٥٧٠، فريال: محمود قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٧٧.

(٤) هو: طاشتكين بن عبدالله المقتفوي مجير الدين، أمير الحرمين، حج بالناس ستاً وعشرين سنة، وكان يسير في طريق الحج مثل الملوك، كان جواداً شجاعاً سمحاً قليل الكريم، حليماً توفي سنة ٦٠٢هـ، الفاسي: العقد الثمنين ٤/ ٢٩١.

(٥) المصدر السابق ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٥٣٧، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٤١، عبد الفتاح راوه: تاريخ أمراء البلد الحرام، ص: ١٤٦.

الصلح الذي تم على يد توران شاه بين الأخوين مما يدل على أن الأمير داود كان غير راض بالصلح فقط مع أخيه، وأيضاً لم يشارك أخاه في صراعه ضد أمير الحاج العراقي طاشتكين مما يدل أن الصلح السابق بين الأخوين لم يتجاوز أيام وجود الأمير توران شاه بمكة.

ومع أن الأمير داود قد عاد إلى منصبه في الإمارة بمساعدة أمير الحاج العراقي إلّا أن الأمير مكثر لم يستكين لذلك فقد استعاد الإمارة من أخيه في العام التالي أي عام ٥٧٢هـ-١١٧٦م مما يدل على أنه قد دار صراع بين الأخوين بمجرد خروج قوات الأمير طاشتكين أمير الحاج العراقي، انتهى بسيطرة الأمير مكثر، ومما يؤيد ذلك أيضاً أن السلطان صلاح الدين الأيوبي سلطان الدولة الأيوبية كتب للأمير مكثر سنة ٥٧٢هـ-١١٧٦م يأمره بالترفع عن الناس بمكة[١].

وقد استمر الأمير مكثر في الإمارة، مع معارضة من أخيه الأمير داود؛ لأنه عاصر قدوم ابن جبير في رحلته إلى مكة حيث ذكر ابن جبير أن الأمير الذي كان يدعو له الخطيب على المنبر «يدعى مكثر بن عيسى بن فليتة» وذلك عام (٥٧٨هـ-١١٨٢م)[٢]، ولذا يبدو أن النصيب الأكبر من الولاية كان للأمير مكثر حيث لم ترد الأحداث بإمارة الأمير داود إلّا في عام ٥٨٧هـ-١١٩٠م حيث أقدم على أخذ ما في الكعبة من الأموال وطوقاً كان يمسك الحجر الأسود ثم غادر مكة إلى وادي نخلة لما علم بقدوم أمير الحاج بولاية أخيه الأمير مكثر، والراجح أن الأمير داود قام بهجوم

(١) الفاسي: العقد الثمين ٤/٦٧، ٦/١٢٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٤٠، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٤٣.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ط/ بدون، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ، ص: ١٢٤.

سريع، القصد منه الحصول على قدر كبير من الأموال لذا نراه يقدم على أخذ مال الكعبة وما يطوق الحجر الأسود من الفضة التي قيل إن وزنها كان ثلاثة آلاف وسبعة وتسعون درهما وهذا العمل بدوره يفقده تعاطف المسلمين عامة وخصوصاً بين أتباعه في البلد الحرام لذا فقد اكتفى بما أخذ وهرب تاركاً منصب الإمارة، وبقى بوادي نخلة حتى توفي عام ٥٨٩هـ-١١٩٢م وبوفاته استقرت الأمور أكثر للأمير مكثر فتولى إمارة مكة عشر سنين متوالية منذ عام ٥٨٧هـ-١١٩٠م حتى عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠م[١].

❏ ثورة[٢] الشريف قتادة[٣] بن إدريس الحسني ٥٩٧هـ-١٢٠٠م:

استمر الأمير مكثر بن عيسى بن فليته في حكم مكة حتى أطاح بحكمه قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠م على

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث سنة ٥٧١-٥٨٠هـ، ص: ٧٧، الفاسي: العقد الثمين ٤/٦٨، ٦/١٢١، الجزيري: الدرر ١/٥٧٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٥٧، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٣٥، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٦٩، السنجاري: منائح الكرم، ص: ٢٦٥.

(٢) تم اعتبار هجوم قتادة بن إدريس ثورة على إمارة مكة حيث إنه أحد أفراد البيت الحسني، وحكام مكة من أبناء البيت الحسني، وكان قتادة يتزعم عدد من العشائر التي أغلبها من الأشراف في منطقة ينبع النخل، وقد ساعده في ثورته عدد من قادة حكام مكة.

(٣) هو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم الحسني الينبعي المكي، أبو عزيز استطاع توحيد القبائل حوله في منطقة ينبع ويبسط نفوذه على المنطقة، ثم انتزع مكة من حكامها الهواشم سنة ٥٩٧هـ/ حاول توسيع حدود إمارته فدخل في صراعات عسكرية كثيرة، كان شجاعاً مهيباً، قتل على يد ابنه حسن سنة ٦١٧هـ.

الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/١٥٩، الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٦٣، الزركلي: الأعلام ٥/١٨٩.

الرأي الأرجح وقد اختلف المؤرخون في نهاية حكمه وتاريخ قيام ثورة قتادة عليه حيث ذكر بعضهم أنها عام ٥٩٨هـ-١٢٠١م وبعضهم أنها عام ٥٩٩هـ-١٢٠٢م، ولكن ما ذكره الفاسي نقلاً عن الميورقي(١) نقلاً عن القاضي عثمان ابن عبد الواحد العسقلاني المكي(٢) أنها كانت في عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠م يكون الأقرب للصحة، حيث ذكر المؤرخون أن مدة حكم الأمير مكثر بعد إخراج أخيه داود عام ٥٨٧هـ-١٢٠٠م كانت عشر سنوات واتفقوا عليها فيكون نهايتها عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠م، كما أن القاضي عثمان بن عبد الواحد العسقلاني المكي كان الأقرب في حياته ووفاته من غيره من المؤرخين للحدث وقد ذكر أن مولده كان في بداية تولي قتادة الحكم في مكة وهو الأقرب للصحة(٣)، وبهذا تكون بداية ثورة قتادة بن إدريس على حكام مكة من الهواشم وزعيمهم الأمير مكثر في عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠م.

وقتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم هو أحد أبناء البيت العلوي ويتصل نسبة بالخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ولكن ليس من أسرة الأمي مكثر (الهواشم)، وإنما من فرع آخر من فروع البيت العلوي سُمي بني مطاعن(٤)، أراد الله له أن يلي أمر مكة وتبدأ بولايته أسرة جديدة يتعاقب أبناؤها على تولى الإمارة مدى الزمن.

---

(١) هو: أحمد بن علي بن أبي بكر عيسى بن العبدري الميورقي، كان عالماً فاضلاً سكن الطائف ثم مكة وأخذ عن فضلائها كان مشهوراً بالخير والصلاح توفي ٧٧٨هـ، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٦٥.

(٢) هو عثمان بن عبد الواحد بن إسماعيل العسقلاني المكي: القاضي فخر الدين، ولد سنة ٥٩٧هـ، كان عالماً كبيراً أخذ عنه الميورقي كثيراً من مروياته، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ١٧٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ١٧٠، ٤٦٤، ٤٦٣، ٦/ ١٢١.

(٤) يتصل نسبه مع الهواشم في جدهم محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبدالله الرضي بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي =

وقد كان قتادة بن إدريس بن مطاعن يسكن مع قومه بني مطاعن في وادي ينبع[١]، وكان غالبهم بادية يمتهنون حرفة الرعي، وبعضهم كان يعمل بالزراعة بالأخص في مكان يسمى نهر العلقمية بوادي ينبع[٢]، وقد استطاع قتادة أن يوحد صفوف قبائل الأشراف مبتدئاً بقومه بني مطاعن ثم بني أحمد وبني إبراهيم وبني علي وغيرهم من القبائل المجاورة لهم في وادي ينبع وبعد أن حقق انتصاراً على المناوئين له واستمالة البعض الآخر ثم تملكه لوادي الصفراء [٣]،[٤] ترأس على

= طالب، أبو عنبة الأصغر: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ط/١، مكتبة الثقافة الدينية ١٤٢١هـ، ص: ١٠٧، ١٠٩.

(١) ينبع: منطقة واسعة فيها قرى وأودية وعيون ماؤها عذب وهي الآن محافظة كبيرة من محافظات المدينة المنورة وبها مدينة صناعية حديثة، وسميت ينبع قديماً لكثرة ينابيعها والمقصود هنا ما يسمى اليوم ينبع النخل ويتبعها مدينة ينبع البحر الميناء، ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص: ٤٠، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط/بدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٤٠٨هـ، ص: ٨٣، السمهودي علي بن أحمد: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ٤/١٣٣٤، ط/٤، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤٠٤هـ، حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص: ٢٢.

(٢) ليس في ينبع نهر جار وإنما اشتهرت منذ القدم بمياه العيون الجارية حيث ذكر أنه كان بها قديماً ما يقارب ١٧٠ عيناً جارية، وبهذا تكون منطقة نهر العلقمية هي عين كبيرة تتدفق في الوادي فأطلق عليها نهر لكبرها وكثرة مائها، وهي قرية لا زالت معروفة ينبع النخل، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/٥١١، عبد الكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص: ٢٢٣.

(٣) وادي الصفراء: من أودية الحجاز الكبيرة كثير القرى في طريق الحاج سلكه رسول الله (ﷺ) غير مرة، وهو يصب في البحر موازياً لوادي ينبع عند بلدة الجار التاريخية، وتكثر به مزارع النخل، وتكثر به عيون الماء. =

الجميع، وبهذا يكون قتادة على قدر عال من التجربة العسكرية والقوة بجمعه لصفوف هذه القبائل، وعلى أهبة الاستعداد للدخول في أي صراع عسكري يحقق له كسباً سياسياً لذا نراه يتطلع إلى انتزاع إمارة مكة من سادتها أبناء عمومته الهواشم. ويتحين الفرصة للدخول في صراع عسكري معهم وقد تحقق له ذلك عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠م، وقد ذكر المؤرخون عدداً من الأسباب التي دفعت بقتادة للثورة على أبناء عمومته الهواشم منها: أن الهواشم انغمسوا في اللهو والترف واعتزازهم بسلطانهم وممارستهم للظلم، وإعراضهم عن صون مكة وحراستها وكره بعض قادتهم لهم بسبب ظلمهم، كما ذكر المؤرخون أن بعض التجار استغاث بقتادة حين تعرض لظلم من الهواشم فقام قتادة بحملته نصرة للمستجير به[١].

ويتضح من خلال الأحداث التاريخية أن الظلم قد انتشر بشكل أكبر في مكة في عهد حكومة الأمير مكثر على أهلها وعلى زوارها من الحجاج والمعتمرين، ويدلنا على هذا كتاب السلطان صلاح الدين الأيوبي لمكثر

= سكانه قديماً من كنانة وغفار، سكانه اليوم بنو سالم من حرب، وهو على بعد ٥١ كيلو من المدينة المنورة. الحموي: معجم البلدان ٣/١٩٣، عاتق بن غيث البلادي: معجم معالم الحجاز، ط/١، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٠هـ، ص: ١٥٠، عاتق بن غيث البلادي: المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ط/١، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ، ص: ١٧٧.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٣٥، الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٦٤، ٤٦٣، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن١/١٠٨، عبد الكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص: ٢٢٣، ٢٢٤، ابن حوقل: صورة الأرض، ص: ٤٠.

(١) الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٦٣، ٤٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٦٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٥١، الجزيري: الدرر ١/٥٧٧.

ينهاه فيه عن الظلم ويتهدده بالقدوم عليه وتنحيته عن الحكم[(١)]، وهذا يدل على أن شكوى الناس من حجاج ومعتمرين وتجار قد وصلت إلى السلطان في مصر.

وقد أدى تمادي حكومة مكثر في الظلم[(٢)] أن لحق ظلمهم بعض قادتهم العسكريين مما جعل قوة الحكومة تصاب بالشلل والضعف في مواجهة القوة المهاجمة، وذلك أن بعض القادة العسكريين قد استمالهم قتادة إلى صفه وطلب مساعدتهم له إذا هاجم مكة، وقد وفى له هؤلاء

---

(١) نص الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم: اعلم أيها الأمير الشريف أنه ما أزال نعمة عن أماكنها وأبرز الهمم عن مكامنها وأثار سهم النوائب عن كنائنها كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله والجور الذي لا يفرق في الإثم بين قائله وقابله، فإما رهبت ذلك الحرم الشريف وأجللت ذلك المقام المنيف، وإلّا قوينا العزائم ثم أطلقنا الشكائم، وكان الجواب ما تراه لا ما تقرأه وغير ذلك فإنا نهضنا إلى ثغر مكة المحروسة في شهر جمادى الآخرة طالبين الأولى والأخرى في جيش قد ملأ السهل والجبل وكظم على أنفاس الرياح فلم يتسلسل بين الأسل وذلك لكثرة الجيوش وسعادة الجموع، وقد صارت عوامل الرياح تعطي في بحار الدر.

الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٤، ٦/ ١٢٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٦٦.

(٢) لا يمكن أن تدوم حكومة تتبع منهج الظلم لأن الله لا يقبل الظلم على خلقه جميعاً، فكيف بسكان بلده المحرم وضيوفه من الحجاج والمعتمرين، ولهذا لم يكن الله لينصر الأمير مكثر وقومه ضد الشريف قتادة الثائر الجديد لأن الظلم من أبغض المعاصي إلى الله عز وجل، وقد توعد الله الظالمين بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال الرسول (ﷺ) فيما يرويه عن ربه عز وجل بتحريم الظلم بين الناس: «قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».. إلخ الحديث، الإمام مسلم، أبو الحسين بن الحجاج: صحيح مسلم، ط/٢، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٤هـ، ١٦/ ١٠٨.

القادة بما وعدوه حيث لم يلاق قتادة مقاومة عسكرية تجبره على التراجع، وكان لموقف هؤلاء القادة أن أصبح موقف الأمير مكثر ضعيفاً، فقرر الخروج إلى وادي نخلة دون مقاومة تاركاً حكم مكة لسيدها الجديدة.

وتذكر بعض المصادر أن قتادة قد أرسل ابنه حنظلة على رأس القوة التي دخلت مكة وأنهت حكم الأمير مكثر وقومه ثم قدم هو بعد أن خرج الأمير مكثر واستقرت الأمور[١]، سواء كان القائد قتادة أو ابنه حنظلة فإن النصر كان باسم قتادة حيث لا يعتبر حنظلة سوى قائد من قادة والده نفذ خطة مرسومة له.

وتبين لنا من خلال الأحداث السابقة بين مكثر وأخيه داود بن عيسى أن حكومة الهواشم قد أنهكها الصراع الداخلي مما جعلها ضعيفة في مقاومة أي ثورة تملك من المقومات ما تملكه ثورة قتادة، فقد كان قتادة يمتلك قوة فتية ناشئة كثيفة العدد متماسكة الأعضاء متوحدة الهدف كاملة التسليح، كيفتها البيئة الصحراوية على تحمل المشاق العسكرية، بالإضافة لقيادة حكيمة متمرسة، تطمح لكسب مادي وسياسي.

ونستشف مما سبق أن قتادة بن إدريس عندما قرر الزحف على مكة شاور أتباعه فأجابوه بالسمع والطاعة، ولكن بينوا له ما تحتاجه الحملة من التكلفة المادية الكبيرة مما يدل على أنهم كانوا يريدون أن يعرفوا ما لهم وما عليهم من هذه الحملة فأجابهم بأن لديه من الخيل كذا ومن النفقة كذا وأن لكم كذا مما جعلهم يطمئنون ويستعدون للخروج معه.

كما يتضح من الأحداث أن قتادة قد اتبع عنصر المفاجأة لخصومه

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٦٦، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٧، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥١، المقريزي: السلوك ١/ ٢٧٤، ك سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، مكتبة دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤١٩هـ، ص: ١٧١.

الهواشم حيث كتم أمر حملته وسار بشكل سريع حتى أنه فاجأ الأمير مكثر وقومه بهجوم مباغت دخل على أثره مكة في مناسبة دينية عند السكان وهو يوم ٢٧ من شهر رجب وهو اليوم الذي يخرج الناس فيه إلى التنعيم[١] للعمرة[٢]، فيخرج غالبية أهل مكة وأعيانها[٣]، وبهذا أحسن التوقيت، فقطع على الهواشم الفرصة في تجميع القوات واستنفار الأتباع، فكانت المقاومة بسيطة جداً مما يؤكد وجود خلل في صفوف قواتهم العسكرية وبعد وفاة الأمير مكثر قام ابنه الأمير محمد بن مكثر بمحاولة لاسترداد الإمامة عام ٦٠٠هـ-١٢٠٣م بعد وفاة والده بثلاث سنوات فلم يحقق نجاحاً حيث تصدت له قوات قتادة بقرب المتكأ[٤] وكسرته فكانت نهاية مقاومة الهواشم لحكومة قتادة بن إدريس بن مطاعن[٥].

---

(١) التنعيم: موضع شمال مكة به مسجد يحرم منه أهل مكة، أمر النبي (ﷺ) السيدة عائشة أم المؤمنين بالإحرام منه على ثلاثة أميال من مكة، وهو أدنى الحل وهو حد الحرم من جهة المدينة المنورة، الأزرقي، محمد بن عبدالله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق، رشدي الصالح ملحس، ط/٦، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ٢/٢٠٢، الطبري: أحمد بن عبدالله: القرى القاصد أم القرى، ط/٢، دار الفكر، ١٤١٣هـ، ص: ٦٢١، الفاسي: شفاء الغرام ١/٥٤٠.

(٢) كان أهل مكة يكثرون من العمرة في هذا الشهر، وكانت هذه العمرة في هذا اليوم تسمى لديهم عمرة الأكمة لأنهم يحرمون بالعمرة من جوار جبل صغير أمام مسجد أم المؤمنين السيدة عائشة في التنعيم، وقد ذكر هذه العمرة ابن جبير في رحلته وذكر أن الشائع بين الناس في ذلك الوقت أنها تقليد لعبدالله بن الزبير حيث اعتمر بعد أن أعاد بناء الكعبة من ذلك الموضع، ابن جبير: الرحلة، ص: ١١٤.

(٣) السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٦٦، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/١٠٨، فريال محمود قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ٢٠١.

(٤) هو مسجد بأجياد الصغير وموضع فيه يقال له المتكأ، يروي البعض أن النبي (ﷺ) اتكأ فيه، الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ٢/٢٠٢، الفاسي: شفاء الغرام ١/٣٨٠.

(٥) ابن عنبة الأصغر: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ص: ١٠٩، الفاسي: =

ويلاحظ أن القيادة السياسية في العراق المتمثلة في الخلافة العباسية لم تعترض على ثورة قتادة بن إدريس، فقد استمرت قوافل الحجيج في القدوم على مكة دون اعتراض على الحدث السياسي بها مما يؤكد أن الخلافة كانت تترقب الوضع دون تأييد أو معارضة، مترقبة ما تفصح عنه الأيام من سياسة جديدة للحكام الجدد ويبدو أن سياسة قتادة بن إدريس جعلتها تسلك هذا المسلك حيث خطب قتادة للخليفة العباسي الناصر لدين الله[١] على منبر المسجد الحرام منذ أن قضى على دولة الهواشم مما يدل على دهاء قتادة في عدم الاصطدام مع الخلافة العباسية في وقت الصراع مع حكام مكة ورغبة منه في تحقيق أطماعه بعيداً عن تدخل القوى السياسية والعسكرية القوية في مصر والعراق، كما أن الخلافة العباسية كانت تراقب قوة قتادة بشيء من الحذر فقد كانت ترسل له الهدايا المتمثلة في الخلع والذهب في كل سنة مما يؤكد رغبة الخلافة في كسب ولاء قتادة لها وكذلك في تهدئة الأوضاع في مكة مكتفية بالدعاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله على منبر المسجد الحرام وموسم الحج[٢].

= العقد الثمين ٥/ ٤٦٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥١، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٦، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٧.

(١) الناصر لدين الله: هو أحمد بن أبي العباس بن المستضيء بأمر الله العباسي، بويع بالخلافة سنة ٥٧٥هـ، حكم الدولة العباسية ٤٧سنة، كان شديد الاهتمام بمصالح الخلافة، كان حسن الخلق شهماً، توفي سنة ٦٢٢هـ، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ١٨، السيوطي: جلال الدين: تاريخ الخلفاء، ص: ٤١٣، ط/ ١، دار الفكر - بيروت.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٥، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٧، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٠.

❑ ثورة الشريف حسن[١] بن قتادة ٦١٧هـ-١٢٢٠م:

منذ أن استقرت الأمور لقتادة بن إدريس في حكم مكة لم يحسم موضوع ولاية العهد من بعده لأحد من أفراد أسرته وقد شغل نفسه بتثبيت إمارته وتوسيع دائرة ملكه. وفي عام٦١٧هـ-١٢٢٠م أرسل قتادة حملة عسكرية هدفها القضاء على حكام المدينة النبوية وضمها إلى ملكه وجعل أخاه الحسن بن إدريس قائداً لها ويساعده ابنه حسن بن قتادة، وكان سبب ترك قتادة قيادة الحملة بنفسه لمرض ألم به عندما وصلت الحملة إلى وادي الفرع[٢] في طريقها إلى المدينة النبوية، فترك القيادة لأخيه وابنه وقفل راجعاً إلى مكة، ويبدو أن أخاه قائد الحملة اغتر بتولية قتادة له قيادة الجيش وفكر في الإمارة بعد وفاة أخيه قتادة من مرضه الذي ألم به، فأقدم على عمل ينقصه الحنكة وبعد النظر حيث طلب من قادة الجيش أن يبايعوه بالإمارة بمجرد وفاة أخيه قتادة ويلحقوا له مسبقاً على هذا الأمر مما يدل أن مرض قتادة كان شديداً وبرؤه ميئوساً منه وما أن علم حسن بن قتادة بالأمر عن طريق مناصريه حتى سارع إلى مقابلة عمه وتعنيفه

---

(١) هو: حسن بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني المكي، تولى حكم مكة ٦١٧هـ، لم يستقر في حكم مكة لمعارضة أخيه راجح له انتهى حكمه بدخول القوات اليمنية عام ٦٢٠هـ بقيادة الملك المسعودي الأيوبي، دخل العراق للاستعانة بالخلافة لاسترداد إمارته فأدركته المنية فيه سنة ٦٢٣هـ، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٢، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٨٠، الزركلي: الأعلام ٢/ ٢١١.

(٢) وادي الفرع: وادٍ كبير من أودية الحجاز يمر على ١٥٠ كلم جنوب المدينة المنورة، كثير العيون، تكثر به مزارع النخيل، سكانه بنو عمرو من حرب، وكان عند البعثة النبوية لقبيلة مزينة، وهو منطقة زراعية كبيرة، وفيها قرى عديدة، ومساجد كثيرة، الحموي: معجم البلدان ٦/ ٤٢٧، عاتق غيث البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص: ٢٣٦، عمر رضا كحالة: جغرافية شبه الجزيرة العربية ط/ ٢، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٣٨٤هـ، ص: ٢٦.

على ما أقدم عليه ثم قتله[١] في خطوة قوية لكي يحسم بها عدم انتقال حكم مكة لغيره بعد وفاة والده، وقد كان لعمه نصيب من القدر لدى أخيه قتادة فكان حسن يخشى نتيجة هذه المودة في إبعاده عن الحكم.

وقد كان لهذا الحادث أثره على الحملة حيث إنها لم تواصل العمل في تحقيق هدفها الذي خرجت من أجله، وقد وصل خبر هذا الحادث بين حسن ابن قتادة وعمه إلى والده قتادة فغضب غضباً شديداً وأقسم على قتل ابنه انتقاماً لمقتل أخيه، وقد كان بجوار قتادة بعض أنصار ابنه حسن فقاموا بإيصال موقف والده له فما كان من حسن بن قتادة إلّا العودة إلى مكة لمقابلة والده والتأكد من موقفه وفي نفس الوقت كان على حذر شديد حيث قرر في نفسه القضاء على والده إذا تأكد له غضبه لمقتل أخيه وذلك خوفاً من والده إذا برئ من مرضه أن يحقق قوله فيه، فقدم حسن بن قتادة في قلة من أتباعه ودخل إلى دار والده بعد أن فرق الجموع التي كانت محتشدة تترقب نهاية قتادة، وما أن رآه والده حتى انهال عليه تأنيباً وتهديداً لما فعله بعمه فما كان من حسن بن قتادة إلى أن قضى على والده بشكل سريع[٢].

وقد اختلف المؤرخون في طريقة قتل قتادة حيث ذكر بعضهم أن حسن بن قتادة قام بخنق والده واستعان على ذلك بجارية من جواري أبيه وغلام له ثم قتلهما بعد ذلك ليخفى طريقة نهاية والده[٣]، وقيل أيضاً إن

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٦١٨، الفاسي: العقد الثمين ٣/٤٠٤، ابن فهد: إتحاف الورى٣/٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٨٥، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٦٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٦١٨، الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٧٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٨٥.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٢٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٧٥، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٨٥.

حسن قتل والده بالسم، ثم خرج إلى علية القوم من أهل مكة والأشراف بالمسجد الحرام وأخبرهم أن والده قد طلب منهم أن يحلفوا له بالحكم من بعده لشدة مرضه وضعفه، فحلفوا له وبعد أن استوثق له الأمر من الأشراف وعلية القوم أخرج لهم تابوتاً يزعم أن فيه جسد والده قتادة المتوفى وقام بدفنه ليتأكد للناس وفاته، وكان قد دفن والده سراً في مكان آخر حتى لا يتم نبشه سواء من أحد أفراد الأسرة أو من عدو في المستقبل[1].

وموضوع إخفاء جسد قتادة بن إدريس يتأكد أن القتل لم يكن بالسم أو بالخنق حيث إن كلتا الطريقتين لا يتبين لهما أثر في جسد المتوفى، مما يجعلنا نجزم بأن القتل كان بآلة حادة تؤثر في الجسد يمكن ملاحظتها ممن يشاهد جسد المتوفى، لذا أخفى حسن بن قتادة جسد والده عن أقاربه ومشيعيه وأخفى قبره أيضاً[2].

وقد تبين ما فعله حسن بوالده من إخفاء قبره وذلك عندما قدم مكة الملك المسعود[3] صاحب اليمن صحبة راجح بن قتادة وهزيمة حسن بن

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٦١٨، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص: ٢٠٦، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٥، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٦، ابن فهد: غاية المرام١/ ٥٧٥، السنجاري: منائح الكرام ٢/ ٢٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٦١٨، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٧٥، العاصمي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٩، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦.

(٣) الملك المسعود: هو يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، جهزه والده الملك الكامل سنة ٦١١هـ إلى اليمن فملكها سنة ٦١٢هـ، كان شهماً مقداماً، جباراً سفاكاً للدماء، تنسب إليه الدراهم المسعودية، توفي سنة ٦٢٦هـ في مكة المكرمة وهو في طريقه إلى بلاد الشام، وهو آخر ملوك بني أيوب في اليمن، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٤٢، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ٢٥٥، الزركلي: الأعلام ٨/ ٢٤٨.

قتادة عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م فأمر الملك المسعود بنبش قبر قتادة فعندما نبش قبر قتادة على الأرجح بطلب من ابنه راجح لكي يبين للناس كذب ادعاء أخيه حسن[١].

وقد أقدم حسن بن قتادة على قتل أخ آخر له لم تذكر المصادر اسمه كان قائداً لحامية ينبع في عهد والده، بخطة ماكرة حيث أرسل له خطاباً بلسان والده قتادة يستدعيه للحضور إلى مكة وما إن وصل حتى قبض عليه وقتله[٢]، وبهذا يكون قد قضى على أكثر إخوته شوكة حيث كان هذا الأخ يقود حامية عسكرية في حصن ينبع يخشى منها حسن بن قتادة التمرد عليه.

وقد اختلف المؤرخون في سنة ثورة حسن بن قتادة ومقتل أبيه قتادة ابن إدريس فأغلب المصادر تذكر أن مقتل قتادة كان عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م ما عدا ابن الأثير الذي يذكر أن تاريخ هذا الحادث كان عام ٦١٨هـ-١٢٢١م في جمادى الآخرة ويوافقه على ذلك ابن الوردي في تاريخه[٣]. هذا ومع أن ابن الأثير كان معاصراً للحدث إلّا أن عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م هو الأقرب للصحة، وذلك أن الفاسي عندما ذكر ترجمة الأمير آقباش ذكر في بداية الترجمة أنه حج بالناس عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م وهو العام الذي توفي

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٨٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٦١٨، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص: ٢٠٦، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٦١٨، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٦، ناصر البركاتي، بنو رسول وعلاقتهم بالبيت الأيوبي، ص: ١٤٦.

فيه ثم ذكر في نهاية الترجمة أنه قرأ في شاهد [١] قبره الذي وجده بمقبرة المعلاة أنه توفي في خامس عشر من ذي الحجة ولم يذكر العام مما يؤكد أنه لم يذكر عام الوفاة الذي من البديهي أن يكون مسجلاً على الشاهد لأنه ذكره في بداية الترجمة وهو ٦١٧هـ-١٢٢٠م[٢].

❑ ثورة الشريف راجح[٣] بن قتادة الحسني الأولى ٦١٧هـ-١٢٢٠م:

لم يتمتع حسن بسلطة الحكم في مكة حيث لم ينته عامه الأول حتى ظهر أحد إخوته مطالباً بالإمارة وهو راجح بن قتادة، وتذكر المصادر أن راجح ابن قتادة أكبر سناً من أخيه حسن[٤]، وبهذا يكون هو الأحق بوراثة العرش، وكان مقيماً في البادية خارج مكة[٥] يجمع الأنصار ويحالف المناوئين مما يدل أنه نفذ من خطط أخيه حسن في تصفية منافسيه على الحكم.

---

(١) هو حجر يكتب فيه معلومات عن المتوفى وتاريخ الوفاة يوضع على القبر، يُعرف بصاحب القبر، والشاهد تكتب بخطوط مختلفة، ويقوم بعملها أناس ماهرون في الكتابة والنقش على الأحجار.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٢٠٣.

(٣) هو راجح بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم الحسني المكي: طمع في حكم مكة فعارض ولاية أخيه حسن بعد وفاة والده، واستنجد بقوات خارجية لتحقيق هدفه، عاصر النزاع بني الدولتين الأيوبية والرسولية على مكة، وكان له دور كبير فيه، توفي عام ٦٥٤هـ، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٧٨، ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق/ محمد شلتوت، ط/ بدون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة ١/ ٣٠٣.

(٤) كان للشريف قتادة عدد من الأبناء منهم: راجح، وحسن، وإدريس وعلي، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧٥، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٨٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٣٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٨، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦١٧، ٥٧٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٦.

ويبدو أن حسن بن قتادة قد استطاع أن يكسب أكبر عدد من الأتباع بحيث لم يبق مع أخيه راجح أحد يعتمد عليه مما جعل راجح بن قتادة يلتجئ إلى حملة الحجاج العراقية التي قدمت عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م لكي يطلب مساعدة أمير الحملة آقباش الناصري[١]، في تحقيق أطماعه شارحاً له أحقيته في الإمارة وباذلاً له وللخليفة ما يرضيهم من المال، وهذا الإجراء يؤكد لنا دور الخلافة السياسي في إمارة مكة لذا أراد راجح أن يكسب الموقف لصالحه قبل أن تصل الحملة إلى مكة ويتقابل قائدها مع أخيه حسن بن قتادة.

وقد استطاع راجح بن قتادة أن يوجه قوات الحملة لصالحه في محاربة أخيه حسن إلّا أن النتيجة كانت غير سارة له حيث انتهى الوضع بهزيمة ساحقة له وللحملة العراقية مات فيها أمير الحملة العراقية وتفرق جنده[٢]، مما جعل راجح بن قتادة يولي وجهه تجاه حكام اليمن من بني أيوب يستنصرهم لاستعادة ملكه السليب بعد أن تأكد لديه أن الخلافة في بغداد غير قادرة على مساعدته، وأن بعد المسافة منها مرة أخرى فرحل إلى اليمن واجتمع بملكها الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبي بكر الأيوبي، واستطاع أن يقنع الملك المسعود بوجهة نظرة في أحقيته

---

(١) هو آقباش بن عبدالله الناصري: كان من أكابر الأمراء عند الخليفة العباسي، الناصر لدين الله وأخلصهم عنده، كان حسن السيرة، ولاه الخليفة إمرة الحاج سنة ٦١٧هـ، فكان كثير الحماية للحجاج قتل في مكة المكرمة في نفس السنة، في الصراع بين أبناء قتادة على الحكم، فحزن عليه الخليفة حزناً شديداً، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٣٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٢، المقريزي: السلوك ١/ ٣٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٨، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٧٨، ٦١٧، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٦، ٥٨٧، ناصر البركاتي: بنو رسول وعلاقتهم بالبيت الأيوبي، ص: ١٤٦.

بالحكم، مع ما كان يحمله الملك المسعود من رغبة في توسيع دائرة حكمه فزحف على مكة واستطاع أن ينهي حكم حسن بن قتادة بعد مواجهة عنيفة عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م، وقيل ٦٢٠هـ-١٢٢٣م[١].

وقد استطاع راجح بن قتادة أن ينهي حكم أخيه حسن بتحالفه الخارجي مع حكام اليمن الأيوبيين، ولكنه خسر في نفس الوقت منصب الإمارة بمعنى أنه فقد الحكم الذي كان يناضل من أجله وأصبح أحد أمراء سلطان اليمن، وخلال صراع حكام اليمن مع سادتهم سلاطين الدولة الأيوبية على مكة أصبح راجح أحد القادة العسكريين في الصراع، في محاولة منه للحصول على الإمارة، هذا وقد كان الملك المسعود الأيوبي من الذكاء بمكان حيث أبعد راجح عن مكة مقر الزعامة الدينية والسياسية للحجاز وجعله والياً على منطقة حلي[٢] والسرين[٣] ونصف

(١) النويري: نهاية الإرب ٢٩/ ١٢١، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص: ٢٠٧، الفاسي: العقد الثمين ١/ ١٢٠، ٣/ ٤٠٣، المقريزي: الذهب المسبوك، ص: ٧٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٩٠، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٨هـ، ص: ٤١٠.

(٢) حلي: مدينة صغيرة يتبعها مجموعة من القرى الواقعة على امتداد وادي حلي الذي يأتي من مرتفعات عسير، تقع جنوب القنفذة على بعد ٦٠ كلم، وهي اليوم أطلال ولم يبق بها سوى بعض القرى في الوادي، تعرف قديماً بحلي بن يعقوب، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٧٨، عبد الرحمن صادق الشريف: جغرافية المملكة العربية السعودية، دار المريخ، ط/ ١ ١٤٠٤هـ، الرياض ٢/ ٢٠٨، دائرة المعارف الإسلامية ٨/ ٥٧، عاتق بن غيث: بين مكة واليمن ط/ ١، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ، ص: ١٧٦.

(٣) السرين: ميناء على ساحل البحر الأحمر الشرقي يبعد عن الليث ٤٣كم جنوباً، وهو بين مكة وحلي، كان من المدن التجارية الهامة في صدر الإسلام، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ٤٥، القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ١٤، أبو إسحاق الحربي: =

المخلاف[١] الذي يقع من حدود منطقة حلي إلى منطقة الشرجة[٢] في ساحل اليمن، وبهذا يكون قد جعله مراقباً لمنطقة الساحل من اليمن إلى مكة مما يدل على اهتمام الملك المسعود بالتجارة القادمة من اليمن إلى الحجاز، ثم أقام بمكة نائباً عنه مع قوة عسكرية للدفاع عنها ضد أي قوة مهاجمة.

أما حسن بن قتادة فقد عاد إلى منبع حكومته الأساسي في وادي ينبع بعد الهزيمة وأخذ يجمع الأنصار ويحشد القوات وزحف لاسترداد ملكه، ولكن استطاعت القوات اليمنية الموجودة في مكة أن تنزل به هزيمة ساحقة عام ٦٢٠هـ-١٢٢٣م[٣].

= المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩هـ، ص: ٦٤٦.

(١) المخلاف هي: المنطقة والناحية والأطراف، قيل: في كل بلد مخلاف وهو عند أهل اليمن تعني المنطقة الواسعة التي ينزل بها الناس، والمقصود هنا: المخلاف السليماني نسبة إلى أحد أمرائه وهو سليمان بن طريف الحكمي من أهل النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، الذي وحد مخلاف حكم ومخلاف عثر تحت إمرته باسم المخلاف السليماني، وظل بعد ذلك علماً على المنطقة الممتدة من الشرجة في ساحل الموسم جنوباً إلى بلاد حلي بن يعقوب شمالاً، ابن منظور: لسان العرب، ط/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ١٤١٩هـ، ٤/١٩١، محمد أحمد العقيلي: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ط/بدون دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ، ١/١٤.

(٢) الشرجة: مدينة تجارية بساحل اليمن، وهي مدينة صغيرة وبيوتها من الشجر والقصب وهي من أراضي اليمن في المملكة العربية السعودية الجنوبية على ساحل البحر الأحمر، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص: ٨٥، القلقشندي: صبح الأعشى ٥/١٢، محمد العقيلي: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ص: ١٢٤.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٤١، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٦، ابن فهد: غاية المرام، ١/٥٨٣، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤١٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٩٠، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨.

لم يستطع بعدها أن يقوم بأية محاولة عسكرية من داخل شبه الجزيرة فقرر الاستعانة بالقوى الخارجية فزار الشام فلم يجد قبولاً ثم سافر إلى العراق ولم يجد قبولاً أيضاً، وذلك لما سبق منه في معاملته لحجاج العراق ومقتل أمير حملته عام ٦١٨هـ-١٢٢١م، وكاد أهل العراق قتله لمواقفه السابقة من قتل أمير الحج العراقي عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م، ولكن وافاه الأجل في العراق ودفن فيه ٦٢٣هـ-١٢٢٥م[1].

• أثر ثورات الأمراء الشيعة على الوضع الديني في الحجاز •••••

كان للثورات الداخلية التي قامت بين أبناء الأسرة الحاكمة في مكة أثر كبير على الوضع الديني، فمكة قبلة العالم الإسلامي يفد إليها على مدار العام ملايين المسلمين بقصد العبادة في أقدس بقعة على وجه الأرض، فقيام ثورة بها تشتبك فيها القوات المسلحة في صدام عسكري لا شك أنه يحدث أثراً على وضع الناس الديني في هذا البلد المقدس.

وكان أكبر ضرر للثورات الداخلية على الجانب الديني ما يحدث في موسم الحج، فعندما تتزامن الثورة الداخلية مع قدوم الحجاج ووجودهم في البقاع الطاهرة، يمتد أثر الثورة إلى حجاج بيت الله الحرام، فيحدث لهم ما يعيق أداء بعض جوانب النسك أو يعطل أداء النسك بالكامل، ومما يساهم في ذلك انشغال السلطة بالتصدي للثورة يجعلها في حاجة إلى وقت طويل حتى تتمكن من بسط سيطرتها وتوفر للمسلمين المناخ الملائم لأداء

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤١، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٩٦، ٥٨٣، السنجاري: منائح الكرم٢/ ٢٩٠، المقريزي: السلوك ١/ ٣٣٣، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٧٠، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١١٩، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص: ٤١٠.

العبادات، ومن ذلك ما حدث أثناء ثورة الأمير مكثر بعد وفاة والده الأمير عيسى بن فليته سنة ٥٧٠هـ-١١٧٤م، حيث لم يستطع الحجاج المبيت بمزدلفة[(١)]، وباتوا بعرفة وقضوا أيام التشريق[(٢)] بمنى وهم في خوف ورعب، وعندما دخل الحجاج لطواف الوداع هم ضعاف الإيمان ممن كان في مكة أن يفتكوا بهم وسبب ذلك ما حصل من منازعات بين المؤيدين للأمير داود بن عيسى وبين المعارضين له وهم أنصار أخيه مكثر، مما يدل أن الحجاج كانوا يدافعون عن أنفسهم ضد من يحاول الاعتداء عليهم من الخارجين عن السلطة، واستطاع أمير الحاج طاشتاكين أن يخرج سالماً من البلد بحنكته العسكرية، وعندما خرج الحجاج إلى خارج مكة حصل قتال بين بعض أهل مكة وبين الحجاج سقط فيه عدد من الحجاج قتلى[(٣)] كل هذا والسلطة السياسية غائبة عن الحدث، مما يدل أنها كانت مشغولة بثورة الأمير مكثر التي اندلعت بعد أن اشتد أمرها في شهر رجب من عام ٥٧١هـ-١١٧٥م، بمعنى أن

---

(١) مزدلفة: هي مكان بين بطن محسر والمأزمين، وهي ثاني منازل الحاج بعد الوقوف بعرفة يبيت بها الحاج ليلة العيد الأكبر وهي المشعر الحرام المذكور في القرآن، وهي تقع في الحرم سميت مزدلفة لمزدلفة الناس عنها، وأنهم لا يقيمون بها يوماً كاملاً، الفاكهي: محمد بن إسحاق: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق د/ عبد الملك بن دهيش، ط/٣، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت ١٤١٩هـ، ٤/ ٣١٢، الحموي: معجم البلدان ٧/ ٢٦٠، الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٣١٥.

(٢) أيام التشريق: هي أيام بقاء الحاج بمنى لأداء ما تبقى من مناسك الحج وهي ثلاثة أيام، وسميت أيام التشريق لأن الناس كانوا يشرقون القديد، ابن القيم: محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق/ محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية ١/ ٤٩٦، الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ٢٦٠.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام٢/ ٣٩١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٦.

الأمير داود بن عيسى كان مشغولاً بحماية نفسه، والمؤكد أن ما حصل من اعتداء على الحجاج لم يكن بعيداً عن تخطيط الأمير مكثر الذي كان يطمع في الإمارة بدل أخيه داود حيث إن الاعتداء على حاج العراق وأميرهم يعني أن صاحب السلطة في مكة لا يستطيع حماية الحاج في الأماكن المقدسة حتى يقضوا مناسك حجهم في يسر وسهولة وأمن، لذا يحتمل أن تفكر السلطة السياسية في بغداد[١] في تغيير هذا الأمير بمن هو أفضل منه فيتم تعيين الأمير مكثر.

وقد كان الحجاج في فترة الصراع بين الأخوين داود ومكثر في حالة من الخوف من المتربصين بهم من الأعراب الذين كانوا يقطعون عليهم الطريق بين المشاعر المقدسة وخصوصاً بين مزدلفة وعرفات، مما يدل أن الأمير لم يستطع أن يفرض سلطته على منطقة مكة والقرى المحيطة بها لوجود الخلاف بينه وبين أخيه، فكل منهما يتربص بالآخر مما جعل لقطاع الطريق واللصوص والمفسدين من القبائل البدوية وغيرهم فرصة في عدم تمكين الحجاج من أداء النسك كاملة، ومن ذلك أنه في عام ٥٧٩هـ-١١٨٣م لم يتمكن حجاج بيت الله الحرام من المبيت بمنى، وصعدوا إلى مشعر عرفات خوفاً من غارات الأعراب عليهم[٢] مما يدل على غياب الأمير مكثر على رجال البادية القاطنين حول مكة، وأن هؤلاء الأعراب استغلوا فترة ثورة الأمير مكثر في تحصيل الكسب الحرام من

---

(١) بغداد: عاصمة الدولة الإسلامية، بناها الخليفة أبو جعفر المنصور على الضفة الشرقية لنهر دجلة في العراق، لتكون حاضرة الدولة العباسية، وقد استقدم لبنائها أمهر البنائين من شتى الأقطار، وهي اليوم عاصمة جمهورية العراق، حسن الباشا: المدخل إلى الآثار الإسلامية، ص: ٧٣.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ١٧٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٠.

الهجوم على حجاج بيت الله الحرام، ولولا أن الله سهل للحجاج قدوم الأمير عثمان الزنجيلي[١] من اليمن وقيامه بحماية الحجاج حيث وقف هو وأصحابه لابسين السلاح على طريق الحاج إلى عرفات حتى تم صعودهم لحلت بالحجاج الكارثة من الأعراب المفسدين[٢]، ولم يستطع الحجاج الوقوف بعرفة وبهذا يكون الحج قد تعطل نهائياً في ذلك العام، وعندما نزل الحجاج إلى مكة تعرضوا للأذى من العبيد الموجودين بها حيث اشتبك العبيد مع حامية الحج العراقي، ونتج عنها نهب أمتعة الحجاج، وتعرضهم لإصابات وجروح من جراء استخدام السلاح للدفاع عن أنفسهم وأمتعتهم[٣]، كل هذا وسلطة الأمير غائبة عن تسهيل أداء المناسك لحجاج بيت الله الحرام، وتعدى العبيد على الناس يوحي بأن أسيادهم من رجال أهل مكة راضون عن فعلهم، مما يوحي بأن السلطة كانت لا تستطيع أن تغضب علية القوم خوفاً من ميلهم إلى الجانب المعارض لها فتغاضت عن تعديهم على حجاج بيت الله الكريم، وتعطيل نسك فريضة الحج ونهب الأمتعة.

استمر الصراع بين الأخوين الأمير داود وأخيه مكثر على الإمارة طيلة حياة الأمير داود، ووصل أثر صراعهما السيء على الإمارة إلى

---

(١) هو الأمير عثمان بن علي الزنجيلي، كان نائباً بمدينة عدن للسلطان صلاح الدين الأيوبي، خرج هارباً من اليمن إلى مكة خوفاً من الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب لما سمع بخروجه إلى اليمن، بنى في مكة مدرسة ورباطاً عند باب العمرة، توفي سنة ٥٨٣هـ، بدمشق، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٩، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ١٧٣.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ١٧٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٠.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤.

الكعبة المعظمة قبلة المسلمين، حيث قام الأمير داود في عام ٥٨٧هـ-١١٩٠م باقتحام الكعبة المعظمة ونهب ما بها من أموال، والطوق الفضة الذي كان يحيط بالحجر الأسود[١]، وغادر مكة إلى وادي نخلة حيث بقي به حتى وفاته في عام ٥٨٩هـ-١١٩٢م[٢]، وهذا يدلنا على أثر الصراع السياسي على السلطة على الناحية الدينية لدى الحكام أيضاً، حيث لم يتورع عن اقتحام الكعبة المشرفة ونهب ما بها من أموال قد وضعها المحسنون من المسلمين يبتغون بها وجه الله فحب الإمارة أنساه قدسية الكعبة المعظمة بيت الله الشريف الذي يقصده جميع المسلمين من شتى أرجاء الأرض ويبذلون في سبيل الوصول إليه الغالي والنفيس، وكثير من قاصديه يكلفه قصده حياته في ذلك الوقت من المشقة وخطر الطريق، فنجد الأمير الذي ينتسب إلى بيت رسول الله (ﷺ) والذي هو أولى من يحافظ على مخصصات البيت الحرام يقتحم الكعبة المشرفة ويأخذ ما لها من أموال، ويغادر إلى وادي نخلة حيث بقي به حتى وفاته عام ٥٨٩هـ-١١٩٢م.

ويدلنا تصرف الأمير داود هذا أن الأمير مكثر قد ضيق على أخيه داود بعد نجاحه في ثورته ضده، فلم يسمح له بشيء من المال يصرفه في معيشته، ومن المؤكد أنه صادر جميع أملاك الأمير داود التي كان من

---

(١) كان يحيط بالحجر الأسود طوق من الفضة عمل لمنع تساقط أجزاء الحجر الأسود بدبوس، كان وزن الفضة ثلاثة آلاف وسبعة وتسعون درهماً، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣١٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٤، باسلامة: حسين عبدالله: تاريخ الكعبة المعظمة، ط/ ٢، تهامة للنشر، ١٤٠٢هـ، ص: ١٥٨.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ٧٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٦، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٧، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٥.

الممكن أن تكفيه عن المال الحرام ولم يخصص له ما يكفيه من واردات الإمارة مما دفع الأمير داود إلى هذا التصرف المشين وهو الذي اشتهر بعدله عندما تولى الإمارة بعد وفاة والده سنة ٥٧٠هـ-١١٧٤م[١].

وكان من الثائرين على السلطة السياسية في مكة من يستخدم موسم الحج والحجاج ورقة ضغط على الخصم، ويحاول الحصول على مكاسب سياسية باستغلال قدوم الحجاج، وبهذا يكون تصرفه وبالاً على الجانب الديني، حيث يصبح موسم الحج موسم صراع عسكري يفقد الحجاج فيه الفرصة لأداء شعائر حجهم، هذا إذا لم يتعرضوا للقتل والنهب ومن ذلك مثلاً عندما قام راجح بن قادة بثورته على أخيه حسن بن قتادة في عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م قام بقطع الطريق بين مكة وعرفة في أيام موسم الحج[٢]، وهو بهذا يقصد الضغط على أخيه حسن بن قتادة، ويرسل بتصرفه هذا رسالة لأمراء الحاج من شتى الأقطار أن أمير مكة لا يستطيع حماية الحجاج مما يدفعهم لمفاوضة الثائر فيحصل على أمرين: أحدهما الظهور الإعلامي بطلبه لدى السلطات السياسية في العالم الإسلامي، والثاني: إمكانية الحصول على مبالغ مالية لكي يكف أتباعه عن التعرض للحجاج بسوء وإعطاء الحجاج الحرية في أداء النسك، كما أن تمركزه على طريق الحاج يمكنه من الاتصال بأمراء الحاج الذي يمكن أن يستميل منهم

(١) الفاسي: العقد الثمين ٦٧/٤، ١٢١/٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٥٣٥/٢، ابن فهد: غاية المرام ٥٣٩/١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٤٥/٩، اليافعي، عبدالله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط/٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ١٤١٣هـ، ٣٦/٤، الفاسي: العقد الثمين ٤٠٢/٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٢٨/٣، العصامي: سمط النجوم العوالي ٢٣٠/٤.

من يتبنى رأيه ويساعده في تحقيقه هدفه من ثورته، وهذا ما تم فعلاً في ثورة راجح بن قتادة حيث استطاع أن يستميل أمير الحاج العراقي الأمير آقباش الناصري إلى صفه ويهاجم بقواته أخاه حسن بن قتادة في مكة، وطبيعي أن تتأثر تأدية الحجاج للنسك في وضع القتال العسكري، وقد كادت أن تحصل كارثة بنهب وقتل الحجاج بعد هزيمة راجح والأمير آقباش، ومن معهم، لولا لطف الله ثم ما قام به حسن بن قتادة.

وكان من أثر الثورات الداخلية أن بعض حكام مكة يمنعون الناس من الدخول إلى الكعبة المعظمة(١)، ولا يسمحون لأحد بالدخول إليها إلّا بمبلغ من المال، وقد حاول سلاطين المماليك أن يمنعوا هذا الأمر المشين، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بأن يجعلوا دخول المسلمين للبيت الحرام سبيلاً في أيام موسم الحج بدون مقابل، كما خصوا المبالغ المالية لهم لكيلا يطمعوا في أخذ أموال الناس من هذا الوجه منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس عندما حج عام ٦٦٧هـ(٢)، ثم جدد العهد والميثاق على أبي نمي بن أبي سعد في سنة ٦٨١هـ-١٢٨٢م في عهد السلطان قلاوون الصالحي(٣).

وقد وصل أثر الثورات الداخلية إلى ظهور المذهبية الدينية في مكة،

---

(١) كان الناس يرغبون في الدخول إلى داخل الكعبة المعظمة والصلاة فيها اقتداء برسول الله (ﷺ) عندما دخل الكعبة المعظمة وصلى فيها في عام الفتح.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص: ٣٥٤، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٥/ ٤٤٧، النويري: نهاية الأرب ٣٠/١٦٦، الفاسي: شفاء الغرام٢/٤٠٦، ابن فهد الورى ٣/٩٦.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ٢/١٥٤، المقريزي: السلوك ٢/١٥٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/١١٣، ابن فهد: غاية المرام ٢/١٨.

فقد كان حكامها من الأشراف على المذهب الزيدي[١] ومنذ أن دخلت البلاد تحت سيادة حكام مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٠هـ-١١٧٤م فقد حرصت السلطة السياسية في مصر على عدم ظهور شعائر المذهب الزيدي، منذ عام ٥٨١هـ-١١٨٥، عندما قدم الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين[٢] بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين إلى مكة، ومنع شعار المذهب الزيدي من الأذان في المسجد الحرام، وهو قول حي على خير العمل[٣]، في محاولة لطمس تعاليم الشيعة من جميع البلاد التي تسيطر عليها الدولة الأيوبية[٤].

---

(١) المذهب الزيدي: هو أحد مذاهب الشيعة وأتباعه يقولون بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان قد خرج زيد بن علي في خلافة هشام بن عبد الملك، وهم ينقسمون إلى ثلاث فرق: الجارودية، والسليمانية، والنبوية، و أتباع المذهب الزيدي هم أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة، حيث تتصف بالاعتدال والقصد والابتعاد عن التطرف والغلو، البغدادي: عبد القاهر: الفرق بين الفرق، ص: ١٦، ابن الأكوع، إسماعيل: الزيدية نشأتها ومعتقداتها، ص: ١١، الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ٢٥٧.

(٢) هو الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي، دخل اليمن سنة ٥٧٩هـ، فملكه جميعاً، وحارب الزيدية، ملك أربع عشر سنة، ودخل مكة المكرمة سنة ٥٨١هـ، فاستولى عليها، ومنع الأذان بحي على خير العمل، وضرب الدراهم باسم السلطان صلاح الدين، ثم عاد إلى اليمن، ومات في شوال سنة٥٩٣هـ، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٣٣، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٤.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٤، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٠، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٣، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٤٧.

(٤) السلطانه صلاح الدين أخذ على عاتقه القضاء على المذهب الشيعي في المناطق التي كانت تسيطر عليها الدولة الفاطمية بعد قضائه على سلطتها السياسية والدينية في مصر، وقد كانت الدولة الفاطمية في عصر قوتها تسيطر على الشام ومصر =

● أثر ثورات الأمراء الشيعة في الحجاز على الوضع السياسي ●●●●

عندما قامت الدولة الأيوبية عام ٥٧٠هـ-١١٧٢م، كانت إمارة مكة في يد الأمير عيسى بن فليته وقد توفي في الثاني من شعبان من نفس السنة فتولى الحكم بعده ابنه الأمير داود بن عيسى وكان هذا بعهد من والده الأمير عيسى[(١)]، وهذا يدل أن إمارة مكة كانت شبه مستقلة استقلالاً ذاتياً حيث إن الأمير يختار من يخلفه في منصب الإمارة دون إذن من الخلافة العباسية في بغداد أو السلطان صلاح الدين في مصر مما يدل أن أمراء مكة حاولوا أن يكونوا بمنأى عن التدخل الخارجي المباشر للقوى السياسية الكبرى سوءاً في بغداد أو في مصر، وقد تجنبوا التدخل المباشر بالدعاء على منبر المسجد الحرام للسلطان صلاح الدين وللخليفة العباسي وخصوصاً بعد حملة الملك المعظم توران الشاه التي قدمت إلى مكة في

= والحجاز وجزء من شمال إفريقيا، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٤/١٩٦. كان لطائفة الزيدية بمكة إمام يصلي بأتباعه بين الركن اليماني والحجر الأسود في فترات متقطعة، وكان إذا صلى صلاة الصبح والمغرب دعا بدعاء مبتدع وجهر به صوته وهو «اللهم صل على محمد وعلى آل بيته المصطفين الأطهار، المنتخبين الأخيار، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، اللهم انصر الحق والمحقين واخذل الباطل والمبطلين، ببقاء ظل أمير المؤمنين، ترجمان البيان، وكاشف علوم القرآن، الإمام محمد بن المطهر يحيى بن رسول الله (ﷺ) الذي بالدين أحيا، إمام المتقين وحجاب الضالين، اللهم انصره وشعشع أنواره، واقتل حساده، واكبت أضداده»، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٢١٤، المقريزي: السلوك ٤/ ١٨٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٨٠، ابن حجر: الدرر الكامنة، ٢/ ٦٦، التنجي: مستفاد الرحلة، ص: ٢٩٧.

(١) الفاسي: العقد٥/ ٤٣٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٢٧، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٦٩، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٠، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص: ٣١، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٤٢.

طريقها إلى اليمن في عام ٥٦٩هـ-١١٧١م[١] ومع هذا لم يحاول الأيوبيون التدخل المباشر في شئون الإمارة حيث اكتفوا بإعلان أمراء مكة بالتبعية لهم وللخلافة العباسية فالملك المعظم توران شاه في حملته التي كان هدفها الأول ضم اليمن لم يغير في وضع مكة السياسي وعند عودته من اليمن إلى مصر في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م وجد ابني الأمير عيسى بن فليته مختلفين حول منصب الإمارة فاكتفى الملك المعظم توران شاه بأن جمع الأخوين الأمير داود والأمير مكثر وأصلح بينهما دون أن يتدخل في شئون الإمارة[٢]، وهذا يدل أن صلاحيات الملك المعظم لم تكن تشمل العزل والتعيين في الإمارات التابعة للدولة الأيوبية، ويدل أيضاً أن أمراء مكة كانوا يحظون بتقدير كبير من رجال الدولة الأيوبية، وذلك لقدسية المكان الذي يحكمونه.

وفي الوقت الذي لم يتدخل بنو أيوب في شئون مكة بشكل مباشر، نجد أن الخلافة العباسية تحاول التدخل في شئونها بشكل أكثر فقد كانت تصدر التعيين لأمير مكة، ويقوم بتنفيذه أمير الحاج العراقي، فقد أمر الخليفة العباسي بعزل الأمير مكثر بن عيسى بن فليته في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م وتعيين الأمير قاسم بن مهنا الحسيني، ولكن الأمير قاسم بن

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣٠١، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٧٦، الفاسي: العقد ١/ ٣٤٢، فاروق فوزي: المدخل إلى تاريخ آل البيت، ص: ٢٩٢، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٢٩، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٧٥.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٩، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص: ٣١، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٧٧.

مهنا عرف أنه لن يستطيع البقاء في محيط لا يكن له بالولاء فيه، وليس له به أنصار فترك الإمارة بعد ثلاثة أيام مما جعل أمير الحاج العراقي يعين الأمير داود بن عيسى بعد أخذ العهود والمواثيق عليه(١).

لقد كانت ثورة الأمير مكثر بن عيسى بن فليته ضد أخيه الأمير داود ابن عيسى عام ٥٧١هـ-١١٧٥م(٢)، السبب المباشر لتدخل الخلافة العباسية بهذا الشكل في الجانب السياسي من تولية وعزل، ويبين لنا هذا أن الخلافة العباسية لم تعترض على تعيين الأمير داود في بداية ولايته بعد وفاة والده في شعبان سنة ٥٧٠هـ-١١٧٢م فعندما قدم ركب الحجاج العراقيين في نفس العام لم يتدخل في أمورها السياسية، ولكن ما حدث من اختلال أمني في موسم حج عام ٥٧٠هـ-١١٧٢م بسبب التنازع على الحكم أدى إلى إلحاق الضرر بالحجاج(٣)، ثم ما تلاه من

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/٥٣١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/١٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، ص: ٧، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ٢/١٢٣، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٣٩، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٣٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٦، الجزيري: الدرر ١/٥٧١، ابن ظهيرة الجامع اللطيف، ص: ٢٦٩، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٥٦، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/١٠٦.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٤/٦٧، ٦/١٢١، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٣٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٣٩، الدرر ١/٥٧٠، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/١٠٦.

(٣) حدث في موسم حج عام ٥٧٠هـ أن هوجم مخيم الحاج العراقي عندما كانوا يستعدون للعودة إلى العراق بعد انتهاء شعائر الحج، وقتل بعض الحجاج وجرح بعضهم، ويبدو أن المهاجمين كانوا من اللصوص الذين كانوا يريدون نهب أموال الحاج وأمتعتهم، ويدل هذا على ضعف الناحية الأمنية بسبب خلافات الأسرة الحاكمة مما جعل الأمير داود ينشغل بها عن توفير الحماية الكافية للحجاج، وأدى هذا إلى غضب الخلافة العباسية، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/٥٧٠.

ثورة من قبل الأمير مكثر بن عيسى في العام التالي دفع الخلافة العباسية إلى التدخل بشكل مباشر في أمر تولية أمير مكة من قبلها.

ويبدو أن الخلافة العباسية قبلت بتولية الأمير مكثر بعد أن تغلب على أخيه الأمير داود للمرة الثانية لأنها تيقنت أن الأمير مكثر أقوى في إدارة البلاد من الأمير داود يدل على هذا أن الخلافة العباسية لم تعد تتدخل في شأن إمارة مكة بعد عام (٥٧١هـ-١١٧٥م)، فقد ركب الحاج العراقي في عام (٥٧٢هـ-١١٧٦م) و(٥٧٣هـ-١١٧٧م) وأمير مكة الأمير مكثر[١] الذي سبق أن عزلته الخلافة العباسية ولم يحدث صدام بين الطرفين مما يدل أن الخلافة العباسية كان يهمها في المقام الأول سلامة حجاج العراق والدعاء للخليفة على منبر المسجد الحرام، فعندما يتحقق هذا لا تفكر في تغيير الأمير، ويبدو أن الأمير مكثر قد تعهد بهذا فقد استقبل الخليفة المستضيء (٥٦٦-٥٧٥هـ) في بغداد ابن أمير مكة في شهر رجب عام ٥٧٣هـ-١١٧٧م، وخلع عليه[٢] وأكرمه[٣] ومن المؤكد أنه ابن الأمير مكثر لأن والده الأمير مكثر بن عيسى كان أميراً لمكة في ذلك العام، حيث إنه أرسل ابنه إلى الخليفة العباسي لتوثيق العلاقات

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٤٥١، ٥٤٠.

(٢) خلع عليه: بمعنى ألبسه خلعه وهي صفة للرضا والتكريم وهي كسوة من الخليفة أو السلطان أو الأمير تعطى للشخص دليل الرضا عنه وكانت تعطى عادة لأصحاب المناصب في الدولة، وكانت بداية تسميتها بهذا الاسم أن الخليفة أو السلطان يخلع رداءه ويعطيه الشخص الذي يريد تكريمه دليلاً على رضاه عنه ومكافأة له، ثم أصبحت عادة تعمل لكل الأمراء وأصحاب الوظائف الحكومية، ماير: الملابس المملوكية، ص: ١٠١، ابن منظور: لسان العرب ٤/ ١٧٩، أنيس منصور: المعجم الوسيط، ص: ٢٧٣.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٣١.

وتحسينها بين الطرفين، مما يدل أن الأمير مكثر قد أخذ درساً قوياً من تصرف الخلافة العباسية في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م، وأن العلاقة بدأت تتحسن بين الطرفين.

لم يقم قتادة بن إدريس بن مطاعن الذي استولى على إمارة مكة من الأمير مكثر في عام ٥٩٧هـ-١٢٠٠[١]، بتغيير ولاء الإمارة عن السيادة العباسية فقد أُعلن التبعية الاسمية للخلافة العباسية عندما خطب باسم الخليفة الناصر العباسي[٢] (٥٧٥-٦٢٢هـ) ويعتبر تصرف حسن من قتادة حتى لا يثير ضده الخلافة العباسية فيكسب عداءها مما قد يفقده إمارة مكة، كما أن الخلافة العباسية لم تنظر إلى قتادة على أنه خارج على الدولة ومعتد على أمراء مكة عندما علمت بموقفه منها مما يدل أن الخلافة العباسية كانت تقبل بالسلطة الاسمية على الحرمين الشريفين للمحافظة على مكانتها في نظر العالم الإسلامي ثم على سلامة حجاج العراق.

وقد أحدثت ثورة قتادة اتساع نطاق إمارة مكة حيث شملت جميع المناطق الممتدة من مكة حتى منطقة ينبع موطن قتادة التي قدم منها عندما قرر ضم مكة إلى منطقة نفوذه كان أهل ينبع جميعاً قد قدموا له الولاء

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٥، ابن عنبة: عمدة الطالب، ص: ١٠٩، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٠، الفاسي: العقد ١/ ٣٢٩، ٥/ ٤٦٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٦٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥١، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٧، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٠٨، عبد الكريم: تاريخ ينبع، ص: ٢٢٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٥، القلشندي: صبح الأعشى ٤/ ٢٧٧، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧١، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٣، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٣٧.

والطاعة قبل أن يقوم بثورته[١] وبعد أن استقر حكمه قام بتحصين ينبع حيث بنى قلعة لحمايتها من أي غزو خارجي[٢]، ويبدو أنه أراد بتصرفه هذا أن يجعل من ينبع حصناً منيعاً يلتجئ إليه عندما يتعرض لخطر كبير في مكة.

وكان قتادة واسع الطموح فقد حاول أن يوسع نطاق إمارته فقام بمحاولات عسكرية لضم لمدينة المنورة، وذلك لأن المدينة المنورة أصبحت بين أملاك قتادة في ينبع ومكة وجدة، فقام بمهاجمتها والدخول مع أمرائها في مصادمات عسكرية دامية، وكاد أن يستولي عليها ويضمها إلى أملاكه وقد استماتت أمير المدينة المنورة الأمير سالم بن قاسم الحسيني وخلفائه في الدفاع عن المدينة المنور[٣] مما جعل محاولات قتادة تبوء بالفشل، ومع هذا لم يتوان قتادة عن محاولاته حتى كان آخرها قبيل وفاته بأيام بسيطة[٤].

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٥، ابن عنبة: عمدة الطالب، ص: ١٠٩، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٠، الفاسي: العقد ٥/ ٤٦٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٧٠، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٣، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٦، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٠٨، عبد الكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص: ٢٢٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٣٤٥، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٨٤، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١١٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٢٦٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٤١، الفاسي: العقد ٥/ ٤٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥١، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٩، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٩.

(٤) هاجم قتادة المدينة المنورة في عام ٦٠١هـ، وفي عام ٦١٢هـ، ثم عاود الهجوم عليها حتى كانت آخرها التي توفي بعد أن خرجت الحملة لمهاجمة المدينة المنورة ولم يعيقه عن مرافقتها إلّا المرض الذي بعده كانت نهايته، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٩، الفاسي: العقد ٥/ ٤٦٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥، ابن فهد: إتحاف =

كما أنه قام بمهاجمة مدينة الطائف عام ٦١٣هـ-١٢١٦م واستطاع أن يضمها إلى أملاكه بعد أن فتك بأهلها من رجال قبيلة ثقيف في معركة دامية، ووضع عليها نواباً له يقومون بحفظها[١].

كما أنه استطاع أن يمد نفوذ إمارته إلى منطقة حلي في جنوب مكة[٢]، وبهذا نستطيع القول أن قتادة كان لا يفتر عن توسيع دائرة ملكه الذي كان يمتد من ينبع إلى منطقة حلي ومن الطائف إلى المدينة المنورة.

مع ما كان يتمتع به قتادة من طموح زائد ورغبة جامحة للاستقلال الكامل بإمارة مكة وتوسيع دائرة نفوذه[٣]، إلّا أنه كان يخشى غضب الخلافة العباسية من تصرفاته في توسيع دائرة ملكه فتتخذ ضده إجراء عسكرياً يحد من تصرفاته ويفقده ما حققه من كسب سياسي في منطقة الحجاز يدلنا على هذا موقف قتادة من الخلافة العباسية بعد الأحداث

= الورى ٣/٢٦، ٢٠، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٢٨، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٨٥، سليمان المالكي: بلاد الحجاز من بداية عهد الأشراف حتى سقوط الدولة العباسية، ص: ٥٧، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص: ٤٠.

(١) الفاسي: العقد ٥/٤٦٧، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٥٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٢٢، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٧٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٤٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٣٥، الفاسي: العقد ١/٣٢٩، ٥/٤٧١، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٤٠، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/١١٦.

(٣) كان قتادة معتزاً بنفسه كثيراً لم يسافر لمقابلة أحد من الخلفاء أو السلاطين، وكان يقول أنا أحق بالخلافة من الناصر العباسي، مما يدل على أنفته واعتزازه بنفسه، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٧١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٢٤٩، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٢٩.

المأساوية التي تعرض لها حجاج العراق في عام ٦٠٨هـ-١٢١١م، وذلك أنه في عام ٦٠٨هـ-١٢١١م حدث أن اعتدى أحد رجال ركب الحاج العراقي على أحد الأشراف بمنى وكان الشريف شبيهاً بقتادة فقتله، وقام أهل مكة وجند قتادة بمهاجمة الحجاج العراقيين وقتل عدد كبير منهم وقتل القاتل ثم نهبوا أموال الحجاج، فكانت كارثة كبيرة على الحجاج العراقيين[1]، فمع أن قتادة قد أحل لنفسه مهاجمة الحجاج العراقيين وقتل عدد كبير منهم ونهب أموالهم بعد المحاولة الفاشلة لقتله، إلّا أنه بعد ذلك تخوف من تصرف الخلافة العباسية ضده بإرسال حملة عسكرية تفقده مكاسبه السياسية فوافق في العام التالي على استعطاف الخلافة العباسية بإرسال أحد أبنائه وعدد من وجهاء قومه إلى بغداد لكي يطلبوا من الخليفة العباسي العفو عن حكومة مكة عما ارتكبوه بحق الحجاج العراقيين من أضرار ومآسٍ في عام ٦٠٨هـ-١٢١١م[2]، إلّا أن الخلافة العباسية قابلت إجراء قتادة بالتجاهل فقامت بالعفو الكامل عن جميع ما حدث من تصرفات ضد حجاج العراق وأن ما حدث سوى نهب بسيط في أطراف الركب، كما أنها أرسلت لقتادة بالخلع والهدايا مما يدل أن

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٢، الفاسي: العقد ٥/ ٤٧١، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١١، ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٢، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١٧، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٦، السنجاوي: منائح الكرم ٢/ ٢٧٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، الفاسي: العقد ٥/ ٤٦٩، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٣، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٣، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٧٠، السباعي: تاريخ مكة ١/ ٢٢٥، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص: ٣٩.

الخلافة العباسية كانت تسعى دائماً لعدم الدخول في صراعات عسكرية كبيرة[١] في مكة حفاظاً على السيطرة الاسمية على الحجاز لحفظ مكانتها إسلامياً ولكي تضمن قبول تعليق كسوة البيت الشريف التي كانت ترسلها كل عام[٢]، فقد كان إرسال قتادة أحد أبنائه وعدد من وجهاء الحجاز إعلاناً واعترافاً من قبل قتادة بسلطة الخلافة العباسية على إمارة مكة، فكان هذا كافياً من وجهة نظر الخلافة، فطوت صفحة الخلاف مع قتادة.

كان من أثر الثورات الداخلية أن يلتجئ أحد المتنازعين على السلطة إلى قوة سياسية خارجية تساعده على نيل مراده هذا إذا لم يستطع أن يحقق ما يصبوا إليه عن طريق جمع الأعوان المؤيدين له من أهل الحجاز، وكان في الغالب أن يلتجئ أكثر الثائرين إلى أمراء ركب الحجاج سواء القادمين من العراق أو اليمن أو مصر أو الشام ويقومون بمحاولات لإقناعهم في مساعدتهم في تحقيق أطماعهم السياسية، وكان هؤلاء الأمراء يمثلون وحدات سياسية خارجية، فاشتراكهم في الصراع الدائر في الحجاز على السلطة يقحم وحداتهم السياسية التي يمثلونها في هذا الصراع، فمن ذلك أن راجح بن قتادة عندما قام بثورته ضد أخيه حسن بن قتادة في عام٦١٧هـ-١٢٢٠م التجأ إلى أمير ركب حاج العراق الأمير آقباش الناصري مما جعل الأمير يدخل في الصراع وينتهي بقتله وقتل عدد من

---

(١) من المؤكد أن الخلافة العباسية عفت عن تصرف الشريف قتادة لأنها كانت وراء التخطيط لقتله في حج عام ٦٠٨هـ، لذا لم تحرك ساكناً مع أن المصاب كان كبيراً على حجاج العراق، وعلى الخلافة العباسية وسمعتها العالمية.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٩، الفاسي: العقد ٥/ ٤٦٩، ٤٧١، الفاس: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٣، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٣.

رجال الركب فكان هذا الحدث مؤلماً للخليفة العباسي الناصر حتى أنه لم يخرج لملاقاة الركب في عودته ولولا أن حسن بن قتادة أتبع الركب برسل من قبله يقدمون اعتذاراً للخليفة الناصر(١) لكان للخلافة موقف آخر من حسن بن قتادة، ولكن قبلت الخلافة العباسية اعتذار حسن بن قتادة وعفت عنه، ومن المؤكد أنها رأت أن تتريث حتى ترى ما يسفر عنه الصراع السياسي في مكة بين الأخوين، فيتبين لها موقف المستنصر من الخلافة وسلطتها الاسمية على مكة.

أما راجح بن قتادة فقد ولى وجهه تجاه القوة الأيوبية في اليمن مستنداً إليها لمساعدته في استعادة حقه السليب بشكل مباشر في عهد أسرة قتادة، فما كان من سلطة اليمن السياسية إلّا أن زحفت على مكة وقامت بدخولها بعد معركة حامية الوطيس مع قوات حسن بن قتادة، وخرجت منتصرة وأعلنت دخول مكة تحت سيادة الدولة الأيوبية بإشراف مباشر من الملك المسعود الأيوبي حاكم اليمن سنة ٦١٩هـ-١٢٢٢م، وبهذا لم يتحقق لراجح ما كان يصبوا إليه من الإمارة حيث أصبح أحد قادة الملك المسعود فولاه منطقة حلي ونصف المخلاف في

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٢، المقريزي: السلوك ١/ ٣٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٧، سليمان مالكي: بلاد الحجاز من بداية عهد الأشراف حتى سقوط الدولة العباسية، ص: ٥٨، ناصر البركاتي: بنو رسول وعلاقتهم بالبيت الأيوبي، ص: ١٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٥٠، النويري: نهاية الأرب ٢٩/ ١٢٥، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٣، المقريزي: السلوك ١/ ٣٣٣، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦١٧، ٥٨٣، ابن ظهيرة الجامع اللطيف، ص: ٢٧٠، يحيى بن الحسن: غاية الأماني، ص: ٤١٠، العاصمي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٠.

جنوب مكة[١]، وبهذا كانت نتيجة ثورة راجح بن قتادة أن قضى على استقلال أمراء مكة الذاتي وسمح بدخولها تحت حكم خارجي.

في الوقت الذي غادر حسن بن قتادة مكة محاولاً البحث عن قوة سياسية خارجية تسانده في رد إمارته عليه حتى انتهى به المطاف في أحضان الخلافة العباسية في العراق، فحاول العراقيون من العامة قتله بالأمير آقباش الناصر الذي قتل على يديه ولكن عاجلته المنية قبل أن يقتله العراقيون في سنة ٦٢٣هـ-١٢٢٥م[٢].

بقيت مكة تحت حكم الملك المسعود ملك اليمن حتى وفاته فيها وهو في طريقه إلى بلاد الشام في الثالث عشر من جمادى الأولى عام ٦٢٦هـ-١٢٢٨م[٣]، ثم أصبحت مسرحاً عسكرياً للنزاع بين السلطة الرسولية في اليمن، والسلطة الأيوبية في مصر فقد حرصت كل من السلطتين على فرض الهيمنة عليها، فعانت من جراء هذا الصراع الكثير من المشكلات على مختلف الأصعدة حتى عام ٦٤٧هـ-١٢٤٩م عندما قام أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة بانتزاع إمارة مكة من يد الأمير ابن المسيب الوالي اليمني[٤]، فكانت ثورته هذه إعلاناً بعودة

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٤٢، ٣٦، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩٠، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣١، جميل حرب الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٥، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص: ٤٥.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٢٩/ ١٥٧، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ٢٥٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٤٥، ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ١٢٠.

(٣) الخزرجي: العقود: اللؤلؤية ١/ ٧٧، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٤، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٣٩٧، المقريزي: السلوك ١/ ٤٣٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٦٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩٦.

الإمارة إلى يد أبناء الأشراف من أسرة آل قتادة الحسنى بعد ٢٨ عاماً من البعد عنها.

كان أبو سعد الحسن بن قتادة من الذكاء بمكان حيث إنه منذ أن استلم الحكم في مكة دعا على منبرها للسلطتين الرسولية في اليمن والأيوبية في مصر[١]، وبهذا استطاع أن يرضي الطرفين ويتجنب زحف إحدى القوتين عليه، كما يبدو أن ثورة أبي سعد كانت من القوة والتنظيم، ما حدا بالقوى السياسية في اليمن ومصر تجنب الصدام معها والقبول بما قام به أبو سعد من الخطبة والدعاء لها على منبر الحرم المكي الشريف.

● أثر ثورات أمراء الشيعة في الحجاز على الوضع الأمني ●●●●●●

عندما تحدث الثورات الداخلية في مكة من البديهي أن يضطرب الأمن ويختل الاستقرار ويصبح الناس في حالة من الخوف والهلع حيث تصبح المدينة المقدسة عرضة لقدوم ضعاف الإيمان من المفسدين واللصوص من أبناء البادية المحيطين بمكة، وأيضاً ممن يقيم بمكة من أبنائها المفسدين من الذين ضعف الإيمان في قلوبهم وتمكن منهم الشيطان فلم يعطوا للمكان قدسيته وللبيت حرمته واحترام زائريه، فيستغلون اضطراب الأمن فيقومون بأعمال تنافي مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، فيهاجمون الآمنين ويسرقون الأموال والأمتعة، ويستخدمون مع من يقاومهم من أصحاب الأملاك كل أنواع القسوة من قتل وتعذيب لا تردعهم مبادئ دينية ولا خلق كريم.

وكان غالب من يتعرض للقتل والتعذيب والسرقة والنهب الكامل هم زوار البيت الحرام من حجاج ومعتمرين من سائر أرجاء المعمورة، فهم

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ١/ ١٢٣.

قدموا لكي يتشرفوا بلقاء سكان الحرم وجيران البيت العتيق ويؤدوا مناسك الحج وفرائض العمرة فتحل بهم الكوارث وتحيط بهم المصائب.

أما النصف الآخر الذين تحل بهم الكوارث فهم عامة الناس من التجار والمجاورين والسكان فما أن تقوم الثورة حتى تصبح حوانيت الباعة ومخازن التجار، ومنازل الناس عامة ومنازل علية القوم خاصة من القضاة والعلماء عرضة للسرقة والنهب، ومن يقاوم من هؤلاء يكون القتل والتنكيل مصيره.

مما هو ملاحظ أن أمراء مكة قد تركوا أمن الحاج في المشاعر المقدسة لأمراء الحاج القادمين مع حجاجهم حيث إن كل حملة حجاج قادمة من العراق أو من اليمن أو من مصر أو من الشام كان يصاحبها فرقة من الجند كاملة التسليح مهمتها حفظ الحاج من المفسدين وقطاع الطرق واللصوص طوال طريق الرحلة المباركة، ويبدو أن أمراء مكة قد تركوا أمن الحاج لهذه الفرقة العسكرية المصاحبة للحجاج، لذا عندما تقوم الثورة بين أبناء البيت الحاكم ويتعذر خروج الأمير إلى المشاعر المقدسة في مصاحبة الحجاج المكيين، يتعرض المفسدون وقطاع الطرق واللصوص للحجاج، وكان ممن يتعرض للنهب هم الحجاج المكيون الذين يخرجون دون حماية عسكرية، أما الحجاج القادمون من سائر البلاد الإسلامية فيهاجمهم اللصوص والمفسدون من أهل مكة ومن بعض رجال القبائل البدوية في الطرق بين مكة والمشاعر المقدسة، وقد يشتبكون مع القوة العسكرية الحامية للحجاج[١].

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٤٣٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٩٥، ٦٢٤، الجزيري: الدرر ١/ ٧١٢، ٦٩٥.

ومما حدث من أثر الثورات الداخلية على الجانب الأمني خلال العصرين الأيوبي والمملوكي نورد ما يلي:

بعد وفاة الأمير عيسى بن فليتة في الثاني من شعبان سنة ٥٧٠هـ-١١٧٢م، وقيام أخيه مكثر بمناوأته، اضطرب الأمن في مكة، وحيث إن كلًّا من الأخوين منشغل بترصد الآخر ويحاول القضاء عليه كان في مقدور كل فاسد وسارق أن يهاجم الآمنين بمكة سواء أكان من أهلها أم من الحجاج والمعتمرين، وقد حدث أن هاجم عدد من المفسدين بمكة حجاج العراق في حي الزاهر بعد أن استعدوا للخروج إلى بلادهم بعد إكمال نسكهم في تلك السنة، وقد كانت حصيلة هذا الهجوم عدد من القتلى والجرحى من الطرفين[١]، وهذا يدل أن المفسدين كانوا في مأمن من تعقب السلطة الحاكمة، وقد قرروا مهاجمة حجاج العراق بعد أن تزود الحجاج بما يحتاجونه في سفرهم من طعام ومتاع من الأسواق، فقرروا نهبهم وأخذ ما معهم من أموال وأمتعة.

ومع أن الأمير مكثر كان له نصيب الأسد في حكم مكة إذا قورن بأخيه الأمير داود إلّا أنه لم يكن يستطيع أن يفرض الأمن على منطقة المشاعر المقدسة فقد كان الحجاج في خوف مستمر من قطاع الطرق واللصوص الذين يتربصون بهم أثناء تنقلهم بين المشاعر المقدسة والمسجد الحرام يدلنا على هذا أنه في حج عام ٥٧٩هـ-١١٨٣م قام الأمير عثمان الزنجيلي[٢] الذي قدم من اليَمن في تلك السنة بحماية

---

(١) المصدر السابق ٢/٣٩١، المصدر السابق ٢/ ٥٣٥، المصدر السابق ١/ ٥٧٠، السنجاري: منائح الكرم٢/ ٢٥٦.

(٢) كان الأمير عثمان الزنجيلي على درجة كبير من الثراء حيث قدم إلى مكة وهو في طريقه إلى الشام خوفاً من الملك المسعود طغتكين عندما قدم اليمن وكان معه مبالغ =

الحجاج في صعودهم من منى إلى عرفات حيث خرج بحاشيته وقام بمراقبة المنطقة التي يهاجم فيها قطاع الطرق الحجاج وهي تقع بين مزدلفة وعرفات فعسكر بها حتى أكمل الحجاج صعودهم[1]، وهذا يدلنا أن الصراع بين الأخوين مكثر وداود جعل سلطة أمير مكة محدودة جداً، فالأمير لا يستطيع أن يحمي الحجاج القادمين إلى المشاعر المقدسة من اللصوص وقطاع الطرق يدل على نقص وضعف كبيرين في صفوف الجند التابعين لأمير مكة وهذا سببه في الغالب وجود منافس للأمير هو أخوه داود.

في عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م حدثت ثورة راجح بن قتادة ضد أخيه الحسن بن قتادة، وحيث إن حسن قد استطاع أن يصفي أغلب معارضيه من الأسرة الحاكمة إلّا أن أخاه راجح قد استطاع الإفلات من قبضته، وبما أن راجح لم يتمكن من جمع عدد كافٍ من الأتباع لكي يواجه بهم أخاه الحسن في معركة حاسمة أخذ ينتقل في المنطقة المحيطة بمكة مع عدد من أتباعه مما شكل تهديداً مستمراً للسكان والقادمين إليها من حجاج ومعتمرين، ففي نفس العام قام راجح بقطع الطريق على الحجاج بين منى ومكة، مما جعل أمير الحاج العراقي يوافق على مساعدته في قتال أخيه الحسن بن قتادة[2].

= طائلة تمكنه من شراء العبيد وتجنيد المرتزقة في حماية الحجاج، وقد كان بصحبته عدد من الأتباع الذين قدم بهم من اليمن، أبو شامة: الروضتين ٢/٩٦، ابن واصل: مفرج الكروب ٢/١٠٦.

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٤٩، الجزيري: الدرر١/ ٥٧٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٥، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٢، المقريزي: السلوك ١/ ٣٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٨، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦١٧، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٦، ٥٨٧، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٠.

كان بمكة طائفة كبيرة من الرجال سود البشرة، وسماهم المؤرخ العبيد وذلك لسواد بشرتهم وأيضاً، كان بعضهم من الذين ما زالوا أرقاء للأمراء مكة وللأشراف عموماً من البيت الحاكم وغالبتهم من العتقاء كثر عددهم بمرور الزمن وكانوا يشكلون قوة من الجند غير النظاميين، وعبئاً على حكام مكة حيث كان عددهم كبير ويحملون الأسلحة ولهم مهارة عالية في استخدامها، فإذا ما حدثت ثورة داخلية نجد أن هؤلاء القوم يكون لهم دور في ترجيح إحدى القوى المتصارعة[١]، مما يجعل كلًّا من المتصارعين على السلطة يسعى لكسب ودهم لصالحه مما يجعله يغض الطرف عن تصرفاتهم غير النزيهة، وفي نفس الوقت كانوا يشكلون فرقاً من اللصوص المتربصين بكل آمن من أهل مكة من التجار ومن زوارها من حجاج ومعتمرين[٢]، ومن تصرفاتهم في مهاجمة حجاج بيت الله الحرام أنه في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة عام (٥٧٩هـ-١١٨٣م) قام هؤلاء العبيد بمهاجمة حجاج العراق وذلك بقصد الكسب والنهب فقد كان حجاج العراق في ذلك الموسم على قدر كبير من الكثرة والثراء، ونتج عن هذا الهجوم نهب أمتعة الحجاج والتجار[٣]، وهذا بمرأى ومسمع من الأمير مكثر الذي لم يحرك ساكناً مما يدل أنه لم يكن يستطيع أن يغضب هؤلاء الطبقة من المجتمع المكي خوفاً أن ينضموا إلى أخيه الأمير داود الذي كان معارضاً له.

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٥٠، ٤٤٨، ٤/ ١٠٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٤٨٣، ١٥٨، ابن فهد: غاية المرام ٢/ ٦٤، الجزيري: الدرر ١/ ٦٢٣.

(٢) المقريزي: السلوك ٢/ ٤٢١، ٣٦٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٩، ٣/ ١٣٨، ١٥٨، ١٤٥، الجزيري: الدرر ١/ ٦١٦، ٥٧٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦١.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٩، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦١.

في سنة (٧٠٣هـ-١٣٠٣م) شكل العبيد خطراً على سكان مكة والقادمين إليها من حجاج ومعتمرين مستغلين الخلاف بين أبناء أبي نمي عطيفة وأبي الغيث، وحميضة ورميثة فكان هذا الوضع الأمني المضطرب مناخاً ملائماً لهؤلاء العبيد في التصرف بحرية في أذية الناس بالقتل والنهب[١].

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٣/١٣٨، الجزيري: الدرر ١/٦١٦، المقريزي: السلوك ٢/٣٦٩.



الفصل الخامس

الحملات العباسية على حكام الحجاز الشيعة

حرص خلفاء الدولة العباسية في العصر الأيوبي على أن يكون الحجاز تابعاً لهم وذلك لما يتمتع به الحجاز من مكانة روحية لدى جميع المسلمين في شتى أرجاء المعمورة، فحرص خلفاء بني العباس على أن يدعى لهم على منبر المسجد الحرام بصفة أن الخليفة العباسي الرمز الديني للعالم الإسلامي، وقد كانت ترسل كسوة الكعبة المشرفة وتعين قاضي مكة وخطيبها من بغداد[١]، لكي تضمن نفوذها الروحي على الأماكن المقدسة.

وكانت تحاول السلطة السياسية في بغداد أن يكون لها شيء من النفوذ في تسيير أمور الحجاز السياسية، مع ما أصاب السلطة السياسية في بغداد من ضعف في فترات معينة من تاريخها الطويل، وذلك عن طريق ما تقدمه لحكام الحجاز من هبات مالية[٢]، في محاولة لكسب

---

(١) ورد أن الخليفة العباسي الناصر قد أرسل إلى مكة في عام ٥٧٩هـ، من بغداد أبا جعفر محمد بن جعفر بن أحمد العباسي قاضياً وخطيباً لمكة، فوصل مع ركب الحاج وعين في منصبه، الفاسي: العقد الثمين ٢/ ١٣١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٩.

(٢) كانت السلطة السياسية في بغداد تحرص على أن يكون حاكم مكة المكرمة تابعاً لها، =

قادتها وتجنب الصدام معهم لما للمنطقة من مكانة روحية لدى العالم الإسلامي.

وعندما ترى الخلافة العباسية أن أحد أمراء مكة يحاول التمرد على سلطة الخليفة في بغداد، ويمتد أثر تمرده على الحاج العراقي كانت تبادر بإرسال حملاتها العسكرية التي تحاول من خلالها إعادة الأمور إلى نصابها لكي تضمن سلامة حاج العراق، واستمرار التبعية الاسمية لها على الأماكن المقدسة، ومن هذه الحملات العسكرية التي قدمت إلى مكة خلال فترة الدراسة ما يلي:

● حملة الأمير طاشتكين عام ٥٧١هـ-١١٧٥م ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

حدث في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م أن أرسلت الدولة العباسية حملة عسكرية إلى مكة كان الهدف منها القضاء على الوضع السياسي المضطرب، منذ وفاة الأمير عيسى بن فليته عام ٥٧٠هـ-١١٧٤م فبعد وفاة الأمير عيسى بن فليته تولى ابنه الأمير داود[١]، فعارضه أخوه الأمير مكثر بن عيسى، حيث قام الأمير مكثر بثورة على أخيه داود في النصف من

= فكانت تقدم له الهبات المالية والاقتطاعات الزراعية، فإذا ما غضبت عليه تصادر أملاكه، كما فعلت بإقطعات الأمير مالك بن فليته بعد أن حدث الخلاف بينه وبين أخيه الأمير عيسى فقامت بمصادرة أملاكه في العراق سنة ٥٦٧هـ، تضامناً مع أخيه الأمير عيسى، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ٢٢، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٣.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث ٥٧١-٥٨٠، ص: ٧، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، الفاسي: العقد ٤/ ٤٣٧، ٦٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٦، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٠٦.

رجب عام ٥٧١هـ-١١٧٥م، فاستطاع أن ينتزع الإمارة منه[١]، ويبدو أن الأمير مكثر قد حصل على مساندة الخلافة العباسية في بغداد، لأن الخلافة العباسية المتمثلة في الخليفة العباسي المستضيء[٢]، كانت غير راضية عن الأمير داود بن عيسى بسبب ما حدث لحجاجها في موسم حج عام ٥٧٠هـ-١١٧٤ من مضايقة وتعد بالنهب والقتل[٣]، فتم تنصيب الأمير مكثر بن عيسى أميراً، ولكن يبدو أن الأمير مكثر قد قام بتصرفات أغضبت الخلافة العباسية في بغداد تمثلت في فرض المكوس الباهظة وبناء تحصينات عسكرية في مكة فقررت عزله وتعيين الأمير قاسم بن مهنا الحسيني[٤] أميراً لمكة بالإضافة لإمارة المدينة المنورة، وقد أوكلت الخلافة العباسية إلى أمير الحاج العراقي طاشتكين القيام بهذه المهمة في موسم الحج، فقدم الأمير طاشتكين بعد أن أكمل استعداداته الحربية من

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، الفاسي: العقد ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٩، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٦، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٠٦.

(٢) هو الخليفة أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي محمد الهاشمي العباسي، بويع بالخلافة بعد وفاة والده ٥٦٦هـ، كان حليماً رحيماً شفيقاً ليناً، كثير السخاء، كان مناصراً لأهل السنة قامعاً لأهل البدع توفي في شوال ٥٧٥هـ، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٨.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٥، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٦، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠.

(٤) هو الأمير قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة المنورة، تولى إمارة المدينة المنورة في زمن الخليفة العباسي المستضيء وأقام أميراً ٢٥ سنة قدم إلى مكة المكرمة في موسم ٥٧١هـ مع الحاج، وسلم له أمير الحاج إمارة مكة ثلاثة أيام، ثم سلمت إلى الأمير داود بن عيسى بن فليته، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٥٩.

العتاد والجنود[١]، وذلك لمعرفته وتجربته السابقة في الصراع العسكري في مكة، ورغبة في تحقيق ما رسمت به الخلافة العباسية ويبدو أنه أراد أن يأخذ بثأره من أهل مكة لمواقفهم السابقة من حملة الحجاج التي كان يقودها في عام ٥٧٠هـ-١١٧٤م والتي نجح بصعوبة في خروجها سالمة بأقل الخسائر البشرية والمادية فزحف بركب الحاج وحملته العسكرية، وقد سمع الأمير مكثر بن عيسى بخبر خروج الحملة وتسليحها، وتنصيب أمير المدينة المنورة الأمير قاسم بن مهنا الحسيني أميراً على مكة فقرر المواجهة وأخذ في حشد الجنود من الأشراف وأهل مكة والقبائل المحيطة بها وتسليحها والاستعداد للقتال، وقدم الأمير طاشتكين إلى مشعر عرفة وأقام الوقوف بعرفة للحاج وكان أغلب سكان البلد الحرام لم يخرجوا للحج خوفاً من القتل، ثم زحف الأمير طاشتكين إلى منى ثم إلى مكة في يوم النحر الأول، وحدثت المواجهة بين القوات العراقية والقوات المكية في الأبطح[٢]، واستمر القتال بقية يوم النحر واليوم الثاني والثالث، فكانت حرباً شديدة انهزم على أثرها أهل مكة بعد أن صمدوا

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث ٥٧١-٥٨٠، ص: ٧، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، الفاسي: العقد ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧١، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٦٩، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٦، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٠٦، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٤٤.

(٢) الأبطح: أحد المواضع المشهورة بمكة، منذ القدم، وهو بين دار جعفر بن برمك التي كانت تقع بفوهة أجياد إلى سوق ساعة الذي يقع بفوهة شعب عام، وقيل هو المحصب، وهو مسيل الوادي وهو عند أهل مكة اليوم من المنحنى إلى الحجون ثم البطحاء من الحجون إلى المسجد الحرام، الفاكهي: أخبار مكة ٣/ ٧٥، حاشية، ص: ٧٥، ٧٦، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز ١/ ٣١.

صموداً شديداً لمدة ثلاثة أيام، ودخلت القوات العراقية مكة، وعندما رأى الأمير مكثر الهزيمة حلت بقواته، صعد إلى حصنه الذي أنشأه على جبل أبي قبيس[١] فتبعته القوات العراقية، وحاصرته به واستطاع الأمير مكثر أن يخلص من حصار القوات العراقية، ويهرب من مكة، فقامت القوات العراقية بهدم الحصن المذكور[٢]، ثم قامت بنهب الناس، واقتحام الدور عليهم وإحراق بعضها وأخذ كل ما يجدونه من أموال ومتاع، وبعد نهاية المقاومة قام الأمير طاشتكين بتنصيب الأمير قاسم بن مهنا الحسيني أميراً على مكة، فبقي أميراً ثلاثة أيام ثم عين الأمير طاشتكين بدلاً منه الأمير داود بن عيسى بن فليته[٣] وهنا يبدو لنا أن الأمير قاسم بن مهنا الحسيني عرف أنه لن يستمر في الحكم وذلك لما وقع على أهل مكة من النهب والقتل من هذه الحملة فلن يتركوه وشأنه بعد خروج القوات

---

(١) جبل أبي قبيس: هو أحد أخشبي مكة، وهو الجبل المشرف على الصفا ويمتد إلى السويداء وإلى الخندمة، وكان يسمى في الجاهلية الأمين لأن الركن الأسود كان مستودعاً فيه يوم الطوفان، وقيل يسمى بأبي قيس لأن رجلاً أول من نهض بالبناء فيه كان يقال له أبي قيس، وقيل إن جبل أبي قبيس أول جبل وضعه الله في الأرض حين مادت، الفاكهي: أخبار مكة ٤/ ٤٥، الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٦٦.

(٢) قام الأمير مكثر بإعادة بناء الحصن من جديد حيث ذكر أن الأمير مكثر التجأ إليه في عام ٥٨١هـ عندما هاجم الملك العزيز طغتكين بن أيوب مكة المكرمة، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٠، الفاسي: العقد ٤/ ٢٩٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٢، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث ٥٧١-٥٨٠، ص: ٧، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ٦/ ١٢٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧١، العاصمي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٠.

العراقية، وأيضاً خروج الأمير مكثر بن عيسى سالماً من القتل، فهذا الأمر لوحده كفيل بأن وضع ولاية الأمير قاسم بن مهنا لن يدوم طويلاً لأن الأمير مكثر سوف يقوم بحشد الجنود والهجوم المستمر على مكة فيكون الأمير قاسم بين نارين قوات مهاجمة من الخارج بقيادة الأمير مكثر، وقوات متربصة في داخل مكة متمثلة في أهلها تترقب الفرصة في الوثوب على القيادة الجديدة، لذا فقد دار بين الأمير قاسم بن مهنا الحسيني وأمير الركب العراقي حديث حول حمايته بعد سفر الحاج، بمعنى أنه كان يرغب في بقاء قوة عسكرية من الحملة العراقية تسانده في الحكم فهو في بلد ليس له به أعوان، وهذا هو المقصود بقوله للأمير طاشتكين: «لا أتجاسر أن أقيم بعد الحج»[1] وبقاء قوة عسكرية في مكة أمر لم يكن يرغب فيه الأمير طاشتكين فوجد أن من الحكمة أن يولي الإمارة أحد أبناء أسرة الأمير عيسى بن فليتة، بعد أن يأخذ عليه العهود والمواثيق التي تجعل الخليفة في بغداد يرتاح لهذا الإجراء، وكان الرجل المناسب لتولي الإمارة هو أميرها السابق الأمير داود بن عيسى بن فليته، لأنه الخصم السابق لأخيه الأمير مكثر الذي انتزع منه الإمارة فسوف يقاوم عودة أخيه الأمير مكثر بكل السبل، ونحن لا نستبعد أن الأمير داود بن عيسى قد قدم مساعدة للأميرة طاشتكين في حربه لأخيه الأمير مكثر، مما جعل الأمير طاشتكين يحقق انتصاراً عسكرياً، ويستطيع اقتحام حصن الأمير مكثر على جبل أبي قبيس، لذا رأى الأمير طاشتكين بعد تخوف الأمير قاسم بن مهنا من عواقب توليه إمارة مكة أن يوليها الأمير داود،

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٣١، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٦٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧١.

فقام الأمير طاشتكين بتولية الأمير داود الإمارة وأخذ عليه العهود والمواثيق بإسقاط جميع المكوس التي فرضها والرفق بالرعية[١]، وهنا يتبين أن السبب الأول والرئيسي لهذه الحملة كانت القضاء على المكوس التي كانت مفروضة على الناس وخصوصاً الحجاج [٢]، عند قدومهم إلى المشاعر المقدسة، وقد عرف عن الخليفة المستضيء العباسي كرهه للمكوس التي تفرض على الناس في الدولة الإسلامية، وكان وقد رفع المكوس التي كانت مفروضة على الناس في العراق عندما تولى الخلافة سنة ٥٦٦هـ-١١٧٠م، ورد المظالم، وأظهر العدل والإحسان إلى الناس[٣]، فمن باب أولى أن يرفع المكوس المفروضة على سكان حرم الله الآمن وحجاج بيته الطاهر، لذا نقول بأن الحملة العسكرية العراقية قد

---

(١) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٣، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ١٢٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٣٥، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٦٩، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧١، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٨٠، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٣٠.

(٢) كانت المكوس التي يفرضها أمراء مكة على الحجاج مقلقة لزعماء العالم الإسلامي وخصوصاً زعماء مصر والعراق، وقد أمر السلطان صلاح الدين عام ٥٦٩هـ، أمير مكة بإلغاء المكوس وعوضه باقطاعات بالديار المصرية، وكمية من القمح تصله سنوياً إلى مكة، أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط/١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٨هـ، ٣/ ٩، ١٠، النويري: نهاية الأرب ٢٨/ ٣٦٥، الكردي: التاريخ القويم ٢/ ٢٢٠، مالكي، سليمان عبد الغني: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، ص: ٩٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٤٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٤.

نجحت في تحقيق هدفها بنسبة كبير، ولكن ما زال خطر الأمير مكثر بن عيسى قائماً لأن الحملة لم تفلح في القضاء عليه، مما جعل الأمير مكثر يعاود الكرة وينتزع الإمارة من أخيه الأمير داود من جديد ومما يؤيد هذا أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أمر الأمير مكثر عام ٥٧٢هـ-١١٧٦م بأن يسقط المكوس[١] التي كانت تفرض على الحجاج[٢]، وهنا يظهر أن تصرف السلطان صلاح الدين هذا كان بإيعاز من الخلافة العباسية[٣]،

(١) أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي أمير مكة الأمير مكثر بأن يسقط المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج ومن لا يسلم ما رسم عليه يحبس ويعذب حتى يؤدي ما طلب منه أو يفوته الحج، فألغاها السلطان صلاح الدين وعوض أمير مكة المكرمة ألفي دينار، وألف إردب قمح وقيل ثمانية آلاف، وإقطاعات بصعيد مصر واليمن، وقيل إن إلغاء المكوس، كان بمشورة من الشيخ علوان الأسدي الحلبي الذي حج سنة ٥٧٢هـ، وقد كانت هذه المكوس منذ العصر الفاطمي حيث كانت تجبى من ميناء عيذاب في جنوب مصر أو من ميناء جدة، ابن جبير: الرحلة، ص: ٣٠، ٧٤، أبو شامة: الروضتين ٣/ ٩، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٢، الفاسي: العقد الثمين ١/ ٣٤١، المقريزي: السلوك ١/ ١٧٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٧٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٨، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٤٢، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٢، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٨، الزهراني: غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص: ٢٩، ك سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص: ١٦٦.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ١/ ٣٤١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٨، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٨، الزهراني: غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص: ٢٩.

(٣) كانت الخلافة العباسية قد طلبت من السلطان صلاح الدين إرسال حملة عسكرية إلى اليمن للقضاء على الداعية عبد النبي بن علي الذي تزعم الدعوة للمذهب الشيعي في اليمن، وقتل عدداً كبيراً من الناس، وكان ذلك عام ٥٦٩هـ فأرسل السلطان صلاح الدين حملة بقيادة أخيه توران شاه ضمت اليمن وأعادت الخطبة لبني العباس به وقد كان السلطان صلاح الدين مظهراً لتعاليم السنة، ومطيعاً للخليفة العباسي في محاولة لكسب رضاه وهذا ما تم فعلاً، يحيى بن الحسين: غاية الأماني ١/ ٣٢٢.

لأن الخلافة العباسية المتمثلة في شخص الخليفة المستضيء لم تعاود إرسال حملة عسكرية إلى مكة في عام ٥٧٢هـ-١١٧٦م وهو العام التالي لحملتها السابقة مع أن قائد ركب الحاج العراقي كان قائد الحملة العسكرية السابقة[١]، ولم يحدث بين الركب العراقي والأمير مكثر وأهل مكة صدام في موسم الحج مما يؤيد أن الخلافة العباسية أوكلت إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي تتبع موضوع إلغاء المكوس من مكة وعدم إرسال حملات عسكرية من بغداد لهذا الغرض.

● حملة عام ٦٠٨هـ-١٢١١م ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

في عام ٦٠٨هـ-١٢١١م أرسلت الخلافة العباسية حملة سرية عمادها عدد بسيط من الأفراد الذين كانوا مرافقين لركب الحجاج بهدف قتل الشريف قتادة بن إدريس فإنه من المؤكد أن خلافاً بدأ في الظهور بين الخلافة العباسية وأمير مكة قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني منذ أن أقدم قتادة على قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة، ونهب الحاج اليمني في عام ٦٠٦هـ-١٢١٩هـ[٢]، ويبدو أن هذا الخلاف كان يأخذ منحى دينياً فقتادة كان على المذهب الزيدي[٣]، وقتله لإمام الشافعية والحنفية يبدو

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/١٤٣، الفاسي: العقد الثمين ٤/٢٩١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٨.

(٢) أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي، تراجم الذيل على الروضتين، تحقيق/ محمد زاهد الكوثري، ط/١، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤م، ص: ٧٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٦٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٩، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٠، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٠، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٧٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٢، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧١، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٢٩.

أنه بسبب مذهبي، ولم تذكر المصادر التي ذكرت هذه الحادثة سبب قتل الإمامين كما أنها لم تذكر اسميهما، ولكن الذي تبين أن قتادة قد ساءت سيرته بعد أن استتب له الأمر فقام بتجديد المكوس على الناس ونهب الحاج[١]، ويحتمل أن الإمامين كان لهما موقف ناقد لتصرفات قتادة المخالفة لتعاليم الدين الإسلامي فقام بالتخلص منهما[٢]، والظاهر أن قيام قتادة بتجديد المكوس هو عدم حصوله على ما كان مخصصاً لأمير مكة في عهد إمارة الأمير مكثر من مخصصات مالية ومواد غذائية التي أمر بها السلطان صلاح الدين الأيوبي كما ذكر سلفاً، ويبدو أن خلفاء صلاح الدين لم يهتموا بأمر الحجاز لانشغالهم بصد الحملات الصليبية[٣] على بلاد الشام ومصر، وخلافاتهم الداخلية[٤]، فقام قتادة بإعادة فرض المكوس لتغطية احتياجات الإمارة من النفقات، كما أن موسم الحج

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٥، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧١، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٨.

(٢) كان الشريف قتادة معجباً بشخصه كثيراً فكان يرى أنه أحق بالخلافة من الخليفة الناصر لدين الله العباسي، وبهذا ليس غريباً أن يقدم على قتل كل من يعارضه في الرأي، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧٣.

(٣) الحملات الصليبية: هي حملات عسكرية أوروبية قدمت على بلاد المسلمين في الشام ومصر، وآسيا الصغرى، وقد كلفت العالم الإسلامي الكثير من التضحيات، وقد ناضل المسلمون في جهادها كثيراً من أشهرهم السلطان نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بعده، وأكملت الدولة المملوكية تعقب الصليبيين حتى تم طردهم أخيراً من بلاد الشام في العصر المملوكي، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ٤/ ٢٤٣.

(٤) الغامدي: علي محمد علي عودة: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ط/١، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ، ص: ٤٠، ٥١.

أصبح لقتادة مورداً خصباً للكسب، فيقوم أتباعه بنهب الحاج إذا قدموا إلى مكة، كما أن الخلافة العباسية أغضبها ما حصل لحجاج العراق في العام السابق ٦٠٧هـ-١٢١٠م من مواجهة مع عسكر قتادة في مشعر منى، فأرادت أن تنتقم من شخص قتادة فخططت لقتله بمفرده، ولكن لم ينجح تخطيط الخلافة العباسية في القضاء على قتادة بن إدريس فكانت المحاولة وبالاً على حجاج العراق خاصة والمسلمين عامة في موسم الحج.

كان ذلك أنه اجتمع في عام ٦٠٨هـ-١٢١١م عدد كبير من الحجاج من شتى أرجاء المعمورة ومن العراق خاصة عدد كبير منهم، وقد كان أمير الحاج العراقي الأمير علاء الدين محمد[١] بن ياقوت وهو صبي صغير ينوب في إمارة الحاج عن والده الأمير مجاهد الدين ياقوت[٢] الذي ولاه الخليفة العباسي الناصر في ذلك العام، وكان معه مسانداً ومعلماً ابن أبي فراس الحلي[٣] وعندما كان الحاج بمنى في يوم النحر الأول هجم أحد رجال الحاج العراقي من طائفة الإسماعيلية[٤] على أحد

---

(١) هو الأمير علاء الدين ابن الأمير مجاهد الدين ياقوت استنابه والده على إمارة الحج سنتي ٦٠٧، ٦٠٨هـ، ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥.

(٢) هو الأمير مجاهد الدين ياقوت مولى الخليفة الناصر لدين الله ولاه الخليفة على خوزستان بعد عصيان سنجر على الخلافة العباسية، كما ولاه إمارة الحج أيضاً في سنة ٦٠٧هـ، ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٣.

(٣) هو الأمير أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلي، أحد أمراء الدولة العباسية في خلافة الناصر لدين الله قدم مع الأمير علاء الدين بن ياقوت مساعداً له على إمارة الحج سنتي ٦٠٧-٦٠٨هـ، ثم ولي إمارة الحج في سنة ٦١٠هـ، بأمر الخليفة الناصر لدين الله، ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٧.

(٤) الإسماعيلية وهي طائفة من طوائف الشيعة ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومؤسسها الحسن الصباح، وقد اشتهرت باغتيال المعارضين لها عن طريق رجالها الذين كانوا على درجة عالية من التضحية والفداء لما يوكل إليهم، وكانوا يسمون =

الأشراف يظنه قتادة لأنه كان شبيهاً[١] به فأراده قتيلاً، فلما سمع قتادة بن إدريس بما حدث، عرف أنه هو الذي كان مقصوداً بالقتل، وأن هذا الأمر تم بعلم أمير الحج العراقي، فاستغلها فرصة للنهب والقتل فخرج بقواته وجميع أنصاره لمهاجمة حاج العراق، وصعدوا على جبال منى الواقعة بقرب الجمرة الكبرى، وأخذوا يضربون الحاج بالحجارة والنبال، وقتل عدد كبير من الحاج، وقتل الرجل الذي قام بعملية القتل ونهب الحاج بمنى نهباً فاحشاً، كما تم الاعتداء بالقتل والنهب على الحجاج الذين كانوا بمكة وفي داخل المسجد الحرام في الطواف، الذين لا علم لهم بما حدث في منى والحجاج الذين وصلوا إلى مكة يوم العيد وليلته، وحلت الكارثة بوفد الرحمن في البلد الأمين، وعندما رأى أمراء الحاج العراقي ما أصابهم قرروا الانتقال إلى محل إقامة الحاج الشامي، فعندما تحركوا للانتقال تمكن منهم اللصوص، وخصومهم من أصحاب قتادة فتم نهب الحاج العراقي عن آخره، وقد كان الناهبون يأخذون الجمال بأحمالها كاملة بعد قتل أصحابها، ولم يسلم من الحاج العراقي إلّا قليل لجأوا إلى مخيم الحاج الشامي بعد المشقة الكبيرة، وهم بأسوأ حال

= بالحشاشين، كان في هذا الموسم قد حجت والدة الأمير جلال الدين، زعيم الإسماعيلية بقلعة آلموت أشهر قلاعهم في بلاد فارس، وكانوا في هذا العام قد عادوا عن معتقداتهم السابقة في عدائهم لأهل السنة وأقاموا شعائر الدين، ومن المؤكد أنه كان بصحبتها عدد من الحراس والأعوان من نفس الطائفة، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٩، الشهرستاني محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق/ عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة ١٩٧٧م، ص: ١٩٨، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ٤٣.

(١) كان هذا الرجل أحد الأشراف ويسمى هارون، ويتوافق مع الشريف قتادة في الكنية حيث يكنى بأبي عزيز، وقد كان كثير الشبه به، ولهذا التبس على منفذ عملية الاغتيال فتم اغتيال هذا الرجل، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٩، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٧٢.

واستجاروا بخيمة الأميرة ربيعة[١] خاتون فأرسلت الأميرة ربيعة خاتون إلى قتادة، تطلبه بكف الاعتداء عن الناس وتهددته[٢]، فكف قتادة أصحابه عن الحجاج بعد أن تم الاتفاق على أن يدفعوا له ١٠٠ ألف دينار فجمعوا له ٣٠ ألف دينار من حجاج العراق، فأقام الناس بعدها ثلاثة أيام حول مخيم الأميرة ربيعة خاتون وهم بأسوأ حال، بعد أن نهبت جميع ممتلكاتهم، وقيل إن ما نهبه قتادة في هذه الحادثة يعادل مليون دينار ذهباً، ثم أذن قتادة لمن يريد دخول مكة من الحجاج، فلم يستطع الدخول إلّا عدد قليل جداً من الأصحاء الأقوياء من الركب العراقي، فقضوا ما تبقى لهم من نسك وهم في خوف ووجل، ثم عاد ركب الحجاج إلى ديارهم وهم في غاية الكسرة والنكال[٣].

---

(١) هي الأميرة ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد ابن نجم الدين أيوب، أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي، كانت فاضلة تقية من ربات البر والإحسان، بنت المدرسة الحنبلية في جبل الصالحية بدمشق، وجعلت لها أوقافاً، وكان يحترمها الملوك من أولاد إخوتها وأولادهم توفيت بدمشق سنة ٦٤٣هـ، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤/ ٦٧، رضا كحالة: أعلام النساء ١/ ٤٤٣.

(٢) أرسلت الأميرة ربيعة خاتون إلى الشريف قتادة تقول له: «ما ذنب الناس؟! قد قتلت القاتل وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء والأموال في الشهر الحرام، والبلد الحرام»، وقد عرفت من نحن والله لئن لم تنته لأفعلن فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده وقال له: ارجع عن هذا وإلّا قصدك الخليفة من العراق ونحن من الشام الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٢، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ١٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٣/ ٦٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٨، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١١، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٧٢، ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٢.

كان تصرف قتادة غاية في السوء فهو بعد قتل القاتل استغل الفرصة في جمع أكبر قدر من الغنائم واعتبر ما يملكه الحجاج من مال ومتاع مكسب له ولأتباعه، بل ولم يكتف بهذا فقد منع الحجاج من دخول مكة حتى يتم دفع مبلغ (١٠٠) ألف دينار، وهذا أكبر دليل على أن قتادة لم يكن يعطي للأماكن المقدسة حقها من التقدير والحماية بما يتطلبه الدين الإسلامي الحنيف بتأمير من يفد إليها من حجاج ومعتمرين، وعمارتها بما يحتاجه بل كان همه الأول والوحيد جمع أكبر قدر من المال بأية وسيلة كانت ومن أي شخص كان.

يتبين هنا مستوى العداء بين الخلافة العباسية والشريف قتادة، ومن المؤكد أن ما حدث من عملية اغتيال ليس بعيداً عن تخطيط الخلافة العباسية يدل على ذلك عدم رضى الخلافة العباسية عن قتادة، فكان هذا تدبيراً للانتقام لما حل بالحجاج كما مر سلفاً، فيكون تدبير الخلافة العباسية هذا يهدف للتخلص من قتادة بأقل الخسائر حيث يتم اغتياله في مشعر منى، كما يؤكد اغتيال الشخص المشابه له في الخلق والكنية أن هناك تدبيراً مسبقاً لاغتيال قتادة، ومن المؤكد أيضاً أن أمير الركب العراقي لم يكن له علم بهذا التخطيط، فقد كان صغيراً غير ممكن أن يقوم بمثل هذا العمل، ويحتمل أن الخلافة العباسية قد أوكلت القيام بهذه المهمة إلى بعض العناصر الفدائية لتنفيذ هذه العملية دون علم أمير الركب ولا الأمير حسام الدين بن أبي فراس الذي كان يدير أمير الركب، فلو كانا على علم بما خططت له الخلافة العباسية كان قد أخذا حذرهما من قبل، وعملا كل الاستعدادات لتفادي ما يحل بالحجاج من قتل ونهب على أيدي أتباع أمير مكة.

ومما يؤكد أن عملية الأغتيال كانت بتدبير من الخلافة العباسية لأن الخلافة لم تتخذ موقفاً قوياً في الرد على قتادة في العام التالي للحادثة بل

أرسلت إليه الأموال والهدايا ولم تظهر أي تصرف يدل على غضبها من تصرف قتادة مع الحجاج العراقيين، بل تجاهلت ما حدث وأعلنت أن ما حدث هو نهب لأطراف الحجاج العراقيين من قبل الأعراب الخارجين على سلطة أمير مكة[1]، وهذا يدل أيضاً على أنها شعرت بالألم لدورها في ما حدث للحجاج من تدبير مسبق انعكست نتيجته عليها، فلو كانت الخلافة بعيدة عن تدبير الحدث لكان لها شأن آخر مع أمير مكة، فقد كانت الخسارة كبيرة والأثر فاحش على حجاج العراق يصعب السكوت عليه من دولة مثل الخلافة العباسية.

كما قامت الدولة العباسية بتسيير ركب الحاج في العام التالي للحادث عام ٦٠٩هـ-١٢١٢م تحت قيادة الأمير حسام الدين بن أبي فراس، وهو الأمير الذي كان مدبر أمر الركب في إمارة ابن ياقوت في العام السابق، وطلب منه أن يحاول إقناع الأمير قتادة بن إدريس بالقدوم على الخلافة العباسية والاعتذار عن ما حدث في حج عام ٦٠٨هـ-١٢١١م في محاولة من الخلافة للقبض على قتادة والانتقام منه بشكل فردي، ولكن مثل هذه المحاولة ليست خافية على قتادة ومن الصعوبة أن يصدق هذه الحيلة ويبدو أن الخلافة العباسية كانت عارفة بموقفه مسبقاً ولكنها تريد أن يقوم بعمل يحفظ لها ماء الوجه أمام العالم الإسلامي وخصوصاً أمام الرأي العام في العراق، حيث إن أمير الركب أشار على قتادة بأن يرسل وفداً من علية القوم بمكة فيهم أحد أبنائه بحيث يقدمون اعتذاراً عن السلطة في مكة للخلافة العباسية، وأكد له بأنه لن يحصل لهم

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٣، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٣، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٧٩.

مكروه مما يدل أن الأمير حسام الدين كان ينفذ رغبة الخلافة ومتأكد من عدم المساس بوفد قتادة بسوء، وكان هذا ما تم فعلاً حيث أرسل ابنه راجح مع وفد جهزه من وجهاء الأشراف، فقدموا إلى بغداد مع ركب الحجاج وقدموا الاعتذار للخليفة العباسي الناصر لدين الله، فقوبلوا بالتكريم والعفو والصفح والمنح والهدايا الفاخرة ثم أرسلوا مكرمين إلى مكة[(١)].

• الحملات اليمنية الأيوبية على حكام الحجاز الشيعة •••••••

كانت اليمن قد انضمت إلى الدولة الأيوبية بعد الحملة التي أرسلها السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٩هـ-١١٧٣م بقيادة أخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه، فاستطاع أن يدخل منطقة اليمن تحت النفوذ الأيوبي[(٢)]، وبهذا يكون السلطان صلاح الدين الأيوبي قد سيطر على الشريط الساحلي بكامله من مصر إلى اليمن بما فيه الحجاز، ولكنه مع نفوذه هذا على المنطقة بكاملها كان يحترم الخلافة العباسية وينفذ رغباتها، ويقيم الخطبة باسمها في جميع المناطق التي دانت إليه ولا يتدخل في تصرفات الخلافة العباسية في الحرمين، وكان قد بدأ هذا الأمر منذ أن سيطر على الأمور في مصر فقام بالخطبة للخليفة العباسي، وعندما دخلت قواته المتجهة إلى اليمن في عام ٥٦٩هـ-١١٧٣م مكة

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٣، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٣، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ٢/ ٢٧١، النويري: نهاية الأرب ٢٨/ ٢٧٣، يحيى بن الحسين: غاية الأماني ١/ ٣٢٢، فوزي فاروق عمر: المدخل إلى تاريخ آل البيت منذ فجر الإسلام وحتى مطلع العصر الحديث، منشورات جامعة آل البيت ١٤١٩هـ، ص: ٢٩٢.

بقيادة أخيه توران شاه خطب على منبر المسجد الحرام للخليفة العباسي المستضيء[١].

وبهذا نستطيع القول إن السلطان صلاح الدين الأيوبي كان قد وضع جميع إمكانياته العسكرية والمادية في خدمة الدولة العباسية، ويدلنا على هذا التشابه في الأوامر التي كانت تصدر من دار الخلافة العباسية، ومن دار السلطنة الأيوبية في مصر، وأكبر دليل على هذا ما صدر بخصوص المكوس التي كانت مفروضة في الحجاز وموقف الخلافة العباسية، والموقف المشابه من السلطان صلاح الدين مما يدل أنه كان يعمل على تنفيذ أوامر الخلافة العباسية التي كانت تمثل الرمز الروحي للعالم الإسلامي.

● حملة الملك العزيز طغتكين[٢] بن أيوب سنة ٥٨١هـ-١١٨٥م ●●●●

في شهر رمضان من عام ٥٨١هـ-١١٨٥م قدم إلى مكة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ملك اليمن بحملة عسكرية كثيرة العدد قادماً من اليمن فدخل مكة، وخطب لأخيه الملك الناصر صلاح الدين

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٢٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٣، المقريزي: الذهب المسبوك، ص: ٧٠، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٠، فاروق عمر فوزي: المدخل إلى تاريخ آل البيت، ص: ٢٩٢، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٤١.

(٢) هو طغتكين بن أيوب بن شاذي الملك العزيز سيف الإسلام، صاحب اليمن، أرسله السلطان صلاح الدين إلى اليمن فملكها من نواب أخيه المعظم توران شاه سنة ٥٧٩هـ، ثم قدم إلى مكة سنة ٥٨١هـ، فدخلها، وضرب الدنانير باسم أخيه صلاح الدين، توفي في اليمن سنة ٥٩٣هـ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٣٣، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٤.

الأيوبي، وضرب الدنانير باسم أخيه، وقتل جماعة من العبيد الذين كانوا يؤذون الناس وخصوصاً حجاج بيت الله الحرام، ومنع الأذان بحي على خير العمل[١].

يتبين لنا من خلال ما ذكر عن الحملة أن الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين لم يقدم إلى مكة إلّا بطلب من أخيه السلطان صلاح الدين لإرساء الجانب الأمني للبلد الحرام، ويدل على هذا أن الملك العزيز لم يكن هدفه ضم مكة إلى ملكه رغبة في توسيع دائرة نفوذه ولو كان قصده هذا لكان استولى عليها عندما مر بها وهو في طريقه إلى اليمن عام ٥٧٩هـ-١١٨٣م، بل دار بين الملك العزيز طغتكين والأمير مكثر أحاديث الود وحسن الاستقبال والضيافة، وتبادل الهدايا الأمر الذي يدل على أن الأمير مكثر بن عيسى كان تحت سلطة السلطان صلاح الدين الأيوبي الأمر الذي جعل الملك العزيز لم يغير السلطة السياسية في مكة.

وفي هذه الحملة عام ٥٨١هـ-١١٨٥م لم يقدم الملك العزيز طغتكين على تغيير السلطة السياسية في مكة، ولكنه ضمن تبعيتها المطلقة لإدارة أخيه السلطان صلاح الدين الأيوبي بتعهد أمير مكة بذلك، وخير دليل على ذلك ما قام به من ضربه للعملة[٢] باسم أخيه الملك الناصر صلاح الدين

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٣/ ٢٧١، الفاسي: العقد ٤/ ٢٩٤، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٢، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٤٧، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢١، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦٢، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٠٧، سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص: ١٦٦.

(٢) ضربت النقود في مكة المكرمة منذ العصر الأموي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان، الزهراني: غباش: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص: ٩٤.

في دار الضرب بمكة[١]، مما يؤكد أن الملك المسعود أراد أن يحقق الأمن بإنعاش الاقتصاد المكي حيث تتوفر العملة بسهولة مما يجعل التبادل التجاري ميسراً، وتخف وطأة تعدي أصحاب النفوذ من المفسدين على الآمنين في البلد الحرام.

ومما يؤكد أن قدوم حملة الملك طغتكين كانت بطلب من أخيه الملك الناصر صلاح الدين تنفيذاً لطلب الخليفة الناصر العباسي في بغداد من السلطان صلاح الدين لإرساء الأمن وتعقب العبيد الذين كانوا يؤذون الناس فقام بتعقبهم، وقتل عدداً كبيراً منهم، ومن سلم منهم من القتل أخذ عليهم العهود بألا يؤذوا الحجاج، وذلك لأن العبيد قاموا في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة عام ٥٧٩هـ-١١٨٣م، بنهب الحاج العراقي، وحدث من جراء النهب حدوث اشتباك مسلح بينهم وبين حاج العراق أسفر عن إصابات دامية في صفوف الحجاج العراقيين[٢]، وبهذا لم تحدث مواجهة بين مكثر وجنده، وجيش الملك العزيز طغتكين لأنهم لم يكونوا هم المقصودين، فلو كانوا هم المقصودين لتعقبت قوات الملك العزيز طغتكين الأمير مكثر في حصنه على جبل أبي قبيس وحاصرته وقضت على أنصاره وجنده، ويبدو أن خبر حملة الملك العزيز طغتكين لم يخف على الأمير مكثر منذ قدومها وخصوصاً عندما اقتربت من مكة، ولكن عندما تبين له أنه غير مقصود بهذه الحملة لم يخرج لملاقاتها وقتالها، ولم يحشد لها الجيوش، وذلك لمعرفته المسبقة بهدفها وهو

---

(١) بهذا يكون أول ضرب للنقود في العصر الأيوبي في مكة هو عام ٥٨١هـ، ويكون من أهداف الملك المسعود في حملته هذه إنعاش الاقتصاد المكي بضرب النقود في مكة لحاجة الناس للعملة.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٤٩، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٦١.

تعقب العبيد والمفسدين، ويبدو جلياً أن العبيد كانوا يشكلون قوة عسكرية كبيرة خارجة عن سيطرة الأمير مكثر ولكنها غير منظمة، ويحتمل أن مكثر كان راغباً في كسر شوكتهم، فلم يمد لهم يد المساعدة.

كما قام الملك العزيز طغتكين بمنع المؤذنين في مكة من ذكر شعار الزيدية، وهو ذكر حي على خير العمل، في الأذان مما يدل أن الملك العزيز كان يرغب في إظهار شعائر السنة لوحدها في المسجد الحرام وقطع دابر التشيع من المناطق التي تتبع السلطة الأيوبية والدولة العباسية، ومع تصرف الملك العزيز هذا إلّا أن الأمير مكثر لم يعترض عليه مع أنه كان على المذهب الزيدي[١] مما يدل على أن حكام مكة كانوا متسامحين في موضوع المذهبية بشكل كبير، وذلك لغلبة المذاهب السنية في منطقة الحجاز بكثرة أتباعها من عامة الناس، وسياسية جيدة لكسب ولاء الدولة العباسية السنية في بغداد والأيوبية السنية في مصر، ومع هذا بقي المذهب الزيدي في مكة له أتباعه ومعتنقيه حتى بعد زوال إمارة الأمير مكثر وتولي الأمير قتادة بن إدريس بن مطاعن فقد عاد ذكر شعار مذهب الزيدية في المسجد الحرام[٢].

● حملة الملك المسعود ٦١٩هـ-١٢٢٢م: ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

ولكن عن طريق البحر فوصل إلى اليمن في ذي الحجة سنة ٧٥٢هـ-١٣٥١م[٣]، وهنا يتبين لنا أن السلطة السياسية في مصر لم تعتقل الملك

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٨، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ١٦٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٧١.

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ٢/ ٨٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدن ٥/ ٥١١، =

المجاهد في المرة الثانية وإنما خشيت عليه من أشراف مكة وخصوصاً أميرها عجلان بن رميثة أن يصيبه بأذى، وإنما أمرت ببقائه فترة من الزمن، حتى تهدأ الأوضاع السياسية في الحجاز بين الشريف عجلان وإخوته، يدلنا على هذا أن السلطة السياسية في مصر أمرت بأن يسافر الملك المجاهد في هذه المرة عن طريق البحر، وهذا من المؤكد رغبة في تجنيبه المرور بالحجاز خوفاً عليه، فتم سفره عن طريق البحر حتى وصل إلى اليمن دون أن يرسو في موانئ الحجاز.

= الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٢٥٨، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٤١٨، المقريزي: الذهب المسبوك، ص: ١١٤، المقريزي: السلوك ٤/ ١٣٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٥٤، ٢٥٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٢٦، الجزيري: الدرر ١/ ٦٥٣، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٣٥٨، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٥٦.



الحروب الحجازية بين مكة والمدينة

■ ١ - حملة الأمير سالم[1] بن قاسم الحسيني ٦٠١هـ-١٢٠٤م:

في عام ٦٠١هـ-١٢٠٤م تعرضت مكة لهجوم عسكري بقيادة أمير المدينة المنورة الأمير سالم بن قاسم الحسيني، وكانت هذه الحملة عبارة عن رد اعتداء من قبل أمير مكة قتادة بن إدريس الحسني الذي كانت أطماعه ليس لها حدود في السيطرة على بعض المناطق المهمة وضمها تحت حكمه.

كان سبب هذه الحملة العسكرية المدنية أن الشريف قتادة بن إدريس الحسني أراد أن يستولي على المدينة المنورة، ويضمها تحت حكمه فسار بقوات عسكرية كثيفة إلى المدينة المنورة في بداية عام ٦٠١هـ-١٢٠٤م، واستطاع أن يهزم قوات الأمير سالم بن قاسم الحسيني التي خرجت لملاقاته ثم حاصرها في داخل المدينة المنورة، وفي أثناء الحصار

---

(١) هو الأمير سالم بن قاسم بن مهنا الحسيني، أمير المدينة النبوية، عاصر الشريف قتادة أميرة مكة ودارت بين الطرفين حروب قوية كانت سجالاً بينهما، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣، عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط/ ١ ١٤١٤هـ، ٢/ ١٩٧.

استطاع الأمير سالم بن قاسم الحسيني أن يستميل كبار قادة قتادة ويؤثر في قناعاتهم في حربه وحصار المدينة المنورة دار الهجرة النبوية مما جعل همتهم في الحرب تضعف كما أغرى بعضهم بالمال[١]، وكان هذا تصرف حسن منه وذلك لكي يعيد بناء قواته من جديد، وينتظر قدوم مساعدات خارجية من القبائل المجاورة للمدينة المنورة، فلما أكمل استعدادته ووصله المدد الخارجي من قبيلة بني لام[٢] خرج لملاقات قتادة الذي لم يكن يتوقف معاودة الأمير سالم للحرب ولم يأخذ استعداده فحلت الهزيمة عليه في معركة حامية الوطيس، دارت رحاها بين الطرفين بذي الحليفة[٣] سميت وقعة المصارع[٤] وقتل عدد كبير من قوات قتادة وأسر عدد منهم من أشهرهم وزيره سالم بن سليمان بن عبد

---

(١) عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة ٢/١٩٨.

(٢) **قبيلة بني لام**: هي إحدى القبائل العربية اليمنية وهم بنو لام بن عمر بن علي بن مالك ابن جدعان بن ذهل إحدى بطون قبيلة طيّئ العربية الشهيرة، تقع ديارهم قديماً بين المدينة وجبلي طيئ كثر عددها حتى كان يضرب بكثرتها المثل، نزح قسم كبير منهم إلى العراق، عاتق بن غيث: معجم قبائل العرب، ص: ٤٥٢.

(٣) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، وهي ميقات أهل المدينة، وهي بظاهر المدينة المنورة تقع بوادي العقيق، وتعرف اليوم بأبيار علي وهي عامة اليوم وبها سكان، وبها مساجد ومدارس. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/١٧٧، عاتق ابن غيث: معجم معالم الحجاز ٣/٤٩.

(٤) سميت بهذا الاسم لأن الشريف قتادة ندم فيما يبدو على من قتل من أهل بيته في المعركة فأنشد:

مصارع آل المصطفى عدت مثلما بدأت ولكن صرت بين الأقارب

الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٦٥، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٥٣، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٦٩.

المحسن التميمي[١] وعندما رأى قتادة هزيمة جيشه عاد منهزماً إلى مكة، فما كان من الأمير سالم بن قاسم الحسيني إلّا أن زحف يتعقب قتادة حتى وصل إلى مكة وقام بضرب حصار شديد عليها، ومثل ما استخدم الأمير سالم خطة استمالة كبار قادة قتادة أثناء حصاره للمدينة المنورة استخدم قتادة نفس الأسلوب معه كبار قادة الأمير سالم فاستطاع استمالتهم في ترك الحرب ورفع الحصار، فحالفوه على ذلك، وهنا يبدو أن غالبية جيش الأميرين وكبار قادتهم كانوا من القبائل البدوية التي لا تهتم إلّا بمصالحها فعندما يبدي أحد الطرفين عطاءً أكبر مما يدفعه الخصم نجدها تغير ولاءها بسرعة، عند هذا الموقف اكتفى الأمير سالم بن قاسم الحسيني بهزيمة الشريف قتادة وحصاره في مكة مثل ما تم عليه من حصار في المدينة المنورة، وقفل راجعاً إلى المدينة المنورة، ويبدو أن الأمير سالم قد كبد قتادة بن إدريس خسائر جسيمة يدلنا على هذا تحديه لقتادة عندما قفل راجعاً عن حصار مكة بقوله: «يا ابن العم كسرة بكسرة وأيام حصار بمثلها والبادئ أظلم، فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى يثرب من قابل»[٢].

---

(١) هو سالم بن سليمان بن عبد المحسن التميمي الدارمي كان وزيراً للشريف قتادة وأحد قادة جنده، كان أسود البشرة ضخم الجثة، وقع في أسر الأمير سالم بن قاسم الحسيني عندما زحف الشريف قتادة للاستيلاء على المدينة المنورة، بعد هزيمة الشريف قتادة في وقعة المصارع، عفى عنه الأمير سالم بن قاسم فأطلقه، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣، الجزيري: الدرر ١/٥٧٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٢٦٩، ابن كثير البداية والنهاية ١٣/٤١، الفاسي: العقد الثمين ٥/٣٦٥، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٥٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣، الجزيري: الدرر١/٥٧٩، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٢٥، عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة ٢/١٩٨.

■ ٢ - حملة الأمير قاسم بن جماز[١] الأولى عام ٦١٢هـ-١٢١٥م:

لم يهدأ بال الشريف قتادة بعد هزيمته على يد الأمير سالم بن قاسم الحسيني وحصاره لمكة ولم ينس عداوته له، وكان سالم بن قاسم الحسيني لا يستطيع أداء مناسك الحج خوفاً من قتادة، وفي عام ٦١١هـ-١٢١٤م قدم إلى الحج الملك المعظم عيسى[٢] ابن الملك العادل[٣] بن أيوب وزار في طريقه المدينة المنورة، فاستغلها الأمير سالم فأكرم وفادة الملك المعظم غاية الإكرام وأنزله في منزله وقدم له كل ما يحتاجه في إقامته وسفره ثم رافقه في حجه فدخل صحبته إلى مكة والمشاعر المقدسة[٤]، فلم يستطع قتادة بن إدريس أن يصيبه بأذى، وقد

(١) هو الأمير قاسم بن جماز الحسيني: تولى إمارة المدينة بعد وفاة عمه الأمير سالم بن قاسم الحسيني، ودخل في صراع عسكري مع الشريف قتادة بن إدريس الحسني، أمير مكة، قتل في معركة مع نواب الملك المسعود على مكة سنة ٦٢٢هـ، المقريزي: السلوك ١/ ٣٤١، ابن فهد: إتحاف الورى٣/ ٣٩، عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل، ص: ٢٠٤، ٢٠٩.

(٢) هو الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، صاحب دمشق، كان عالي الهمة، حازماً شجاعاً مهيباً، حج سنة ٦١١هـ، كان محباً للأدب مقرباً للعلماء، توفي سنة٦٢٤هـ، بدمشق، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٣٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١١٥.

(٣) هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن نجم الدين أيوب، كان أصغر من صلاح الدين بعامين، كان ذا عقل ودهاء وشجاعة وتؤدة وخبرة بالأمور، كان السلطان صلاح الدين يعتمد عليه ويحترمه، استنابه بمصر ثم ولاه حلب توفي سنة ٦١٥هـ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٣٢٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١١٥.

(٤) النويري: نهاية الإرب ٢٩/ ٦٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٧، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٧، المقريزي: الذهب المسبوك، ٧٥، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٧، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٩، ابن =

أثار قدوم الأمير سالم مع الملك المعظم غضب قتادة مما جعله يقصر في مقابلة وخدمة الملك المعظم[١]، فكانت فرصة للأمير سالم لكي ينتقم من الشريف قتادة حيث يضم إلى جانبه السلطة السياسية في بلاد الشام ومصر المتمثلة في الملك المعظم وأبيه الملك العادل سلطان مصر، وفعلاً عاد الأمير سالم بن قاسم الحسيني مع الملك المعظم ووفد معه على أبيه الملك العادل بمصر، وقدم له ما اصطحبه معه من هدايا للملك الكامل، واشتكى من تهديدات الشريف قتادة المستمرة له، وهنا ظهر أن قتادة بتصرفه مع الملك المعظم قد أخذ يتمرد على السلطة الأيوبية التي قدم لها الولاء والطاعة في عام ٦١١هـ-١٢١٤م، عندما مر الملك المسعود على مكة في طريقه إلى اليمن، فقد خطب للأيوبيين وقدم كل ما يحتاجه الملك المسعود من مساعدات لسفره إلى اليمن[٢]، لذا أمر الملك العادل بتزويده بقوات عسكرية تكون تحت قيادة الأمير سالم بن قاسم لمحاربة قتادة فزحف بها الأمير سالم مع قواته التي كانت بالمدينة بالمنورة وعندما

= فهد: غاية المرام ١/ ٥٥٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٨٣، عبد الكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص: ٢٢٦.

(١) ذكر أن الملك المعظم سأل الشريف قتادة عن المكان الذي سوف ينزل فيه فأشار بسوطه إلى الأبطح فغضب الملك المعظم كون أن الشريف قتادة لم ينزله في بيته في مكة أو دار الضيافة في الوقت الذي أنزله الأمير سالم في داره في المدينة المنورة فكانت خطوة غير موفقة أقدم عليها الشريف قتادة مع الملك المعظم، ابن كثير البداية والنهاية ١٣/ ٦٧، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٧، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٩، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٨٣، عبد الكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص: ٢٢٦، سليمان المالكي: بلاد الحجاز، ص: ٤٣.

(٢) النويري: نهاية الإرب ٢٩/ ٦٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢١٠، ٢٣٤، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٠٣.

سمع قتادة بخبر هذه القوات، خرج من مكة ولم يلاقهم[1]، وكان هذا تصرف ذكي من قتادة حيث أضاع على الجيش الغازي تحقيق الهدف الذي كان يقصده، مما جعل القوات تعود إلى المدينة المنورة دون تحقيق هدفها، وما أن تفرقت القوات الغازية حتى هاجم الشريف قتادة المدينة المنورة في تاسع صفر من سنة ٦١٢هـ-١٢١٥م، ويبدو أن الأمير سالم بن قاسم الحسيني قد خرج من المدينة بصحبة القوات التي ساعدته إلى الشام، مما جعل قتادة يغتنم الفرصة ويستطيع محاصرة المدينة المنورة، ويقوم بالإضرار بأهلها حيث أقدم على قطع أشجار النخيل في المزارع التي تقع خارج المدينة، ولكنه لم يستطع اقتحامها لاستماتة المدافعين عنها وقتل عدد من رجاله، ويبدو أنهم حاولوا اقتحام سور المدينة مما جعل قتادة يعود عن حصارها خاسراً، وقد كانت هذه المحاولة من جانب قتادة دافعاً للملك العادل أن يرسل قوات مع الأمير سالم بن قاسم الحسيني لتأديب قتادة فزحف بها في الثالث من شعبان سنة ٦١٢هـ-١٢١٥م، ولكنه توفي قبل أن يصل إلى المدينة المنورة، فتولى القيادة من بعده ابن أخيه الأمير قاسم بن جماز، فلما سمع قتادة بزحف أمير المدينة ومن معه من القوات خرج على رأس قواته لملاقاتهم والتقى الطرفان في وادي الصفراء ودارت بينهما معركة قوية انتهت بانتصار قوات الأمير قاسم ابن جماز وقتل عدد كبير من قوات قتادة، وهرب قتادة ومن سلم من قواته إلى ينبع، وذلك فيما يبدو لكثرة أنصاره بها، وخوفاً من زحف القوات المدنية إلى مكة، وتحصن بها، فتبعه الأمير قاسم بن جماز وقواته وحاصر قتادة في قلعة ينبع، ولكن يبدو أن القوات التي قدمت مع الأمير قاسم بن

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٧، العقد الثمين ٥/ ٤٦٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٩، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥٤.

جماز من الشام قد ملت القتال فقفل راجعاً بقواته وترك حصار قتادة بعد أن غنموا غنائم وفيرة[١] أراد قاسم بن جماز الحسيني أن يضع حداً لهجمات قتادة بن إدريس الحسني على المدينة المنورة، فرأى أن الهجوم على المناطق التابعة لقتادة خير وسيلة لرد هجومه عن المدينة المنورة، ويبدو أن قاسم بن جماز كان على درجة كبير من الشجاعة جعلته لا يتخوف من المواجهة مع قتادة، فقام في عام ٦١٣هـ-١٢١٦م بهجمات عسكرية على المناطق التابعة لقتادة أثمرت عن سيطرته على وادي القرى[٢] ونخلة، وبدأ يهدد ينبع، لذا خشي الملك الكامل صاحب مصر من ازدياد نفوذ الأمير قاسم بن جماز على طريق الحاج، والطريق التجاري من اليمن إلى مصر ويمر بميناء ينبع وجدة، وزاد من مخاوفه أن قاسم بن جماز قام بمهاجمة مدينة جدة بهدف حصار قتادة اقتصادياً وإضعافه فتم الاتفاق مع قتادة على أن يسلم قلعة ينبع إلى نواب الملك الكامل الأيوبي صاحب مصر مقابل أربعة آلاف مثقال ذهب[٣] مما جعل الملك الكامل يوقف دعمه لأمير المدينة المنورة ضد أمير مكة، ويبدو هنا أن ملوك بني أيوب كانوا حريصين على إقامة شيء من التوازن في القوى بين أمراء مكة وأمراء المدينة حتى لا تظهر قوة سياسية قوية في المنطقة تستقل عن سيادتهم

---

(١) النويري: نهاية الإرب ٢٩/ ٦٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٩، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٥، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٧، المقريزي: الذهب المسبوك، ص: ٧٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٠، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥٥.

(٢) وادي القرى: هو واد بين المدينة المنورة وتبوك وبه مدينة العلا وبه عيون كثيرة، وهو واد كثير القرى، ولذا سمي بهذا الاسم، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/ ٤٣٣، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز/٧/ ١٠٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٩، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥٧، المقريزي: السلوك ١/ ٣٤١.

وتنافسهم في السيادة على الحرمين، ومن ثم الزعامة في العالم الإسلامي، وخدمة الأماكن المقدسة والإشراف عليها في مكة والمدينة.

أما قاسم بن جماز فقد قام بمهاجمة مدينة جدة لفرض حصار على قتادة فما كان من قتادة بن إدريس إلى أن خرج بقواته لملاقاة قاسم بن جماز الذي بدأ يهدد اقتصاد مكة وتقابل الطرفان في معركة قوية في منطقة الحميمة(١) في يوم عيد النحر من عام ٦١٣هـ-١٢١٦م، ومنيت قوات قاسم بهزيمة ساحقة أجبرته على العودة إلى المدينة المنورة(٢)، وهنا يتبين حرص قتادة على موارد إمارته المالية واستماتته في الدفاع عنها.

ويبدو أن ما وصل قتادة من الدعم المادي من الملك الكامل مقابل تخليه عن قلعة ينبع استطاع به أن يغير موازين القوى ويصرف عدداً كبيراً من قوات قاسم بن جماز التي كانت في معظمها من القبائل البدوية(٣) التي يهمها أولاً وآخيراً رما تحصل عليه من مبالغ مالية، فتسليم حصن ينبع لنواب الكامل لا بد أن يكون له مردود مالي على قتادة استفاد منه في حربه لقاسم بن جماز فحصلت الكسرة على قاسم وعاد خاسراً إلى المدينة المنورة، ولم تنته رغبة قتادة عن مهاجمة المدينة المنورة حتى

---

(١) الحميمة: منطقة غير مرتفعة: يفترق عندها وادي قديد غرب وادي البحول تحتها آبار تقوم عليها زراعية تسمى باسمها وهي تبعد عن مكة المكرمة ١٤٥ كلم شمالاً على الطريق من جدة إلى رابغ، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز ٣/٦٦.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٥/٤٦٦، المقريزي: السلوك ١/٣٤١ ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٢٣، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٥٧.

(٣) كانت القبائل التي تساند أمراء المدينة هي قبائل طيّى وقبيلة كلب، وهي قبائل بدوية تقطن شمال المدينة المنورة، وتمتد إلى بلاد الشام، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٠.

توفي وهو قد أعد العدة لغزو المدينة المنورة في عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م وسار على راس جيشه ولما وصل وادي الفرع أحس بالمرض فعاد إلى مكة، ومن رغبته في مواصلة حربه أمر بالجيش بالمسير إلى المدينة تحت قيادة ابنه الحسن وأخيه حسن بن إدريس، ولكن قدر الله اختلف القائدان فقتل الحسن بن قتادة عمه الشريف حسن بن إدريس فاضطربت أحوال لجيش وعاد دون أن يحقق غرضه[1].

■ ٣ - حملة الأمير قاسم بن جماز الثانية عام ٦٢٢هـ-١٢٢٥م:

قام قاسم بن جماز الحسيني أمير المدينة المنورة بحملة عسكرية على مكة في عام ٦٢٢هـ-١٢٢٥م حيث زحف بقواته واستطاع أن يفاجئ القوات اليمنية التي كانت بمكة بقيادة الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول، مما جعل القوات اليمنية تغلق أبواب مكة وتستسلم للحصار العسكري الذي استمر شهراً كاملاً[2] رغبة منها في إعادة تنظيم أمورها والتخطيط السليم للمواجهة، وهذا يدل على مهارة قائد القوات اليمنية العسكرية، حيث إنه لم يدخل في صراع مع القوة المهاجمة منذ البداية ولكن تحصن في مكة وأخذ يدرس ظروف الغزو المفاجئ وتبعاته، وثم أخذ يخطط لعملية صد القوات الغازية، ويبدو أنه استمال أهل مكة في مساعدته، وبعد أن أتم الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول تعبئة قواته خرج بهم لقتال الأمير قاسم بن جماز الحسيني واستطاع بفضل الله وقدرته

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٢٦، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٢٨، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٨٦، ك. سنوك: صفحات من تاريخ مكة ١/١٧٧.

(٢) المقريزي: السلوك ١/٣٤١، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٩، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ص: ٢٠٩، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٦.

أن يحقق انتصاراً كاسحاً على القوات الغازية ويسقط قائدها قاسم بن جماز صريعاً ويتفرق جيشه بعد أن سقط أكثرهم قتلى في أرض المعركة[١]، وبها يتبين لنا مهارة الأمير نور الدين في قيادة المعركة العسكرية.

ثم يتبين لنا أن سبب هذه الحملة هو التنافس بين أبناء البيت الأيوبي منذ الصراع السابق بين قتادة بن إدريس وسالم بن قاسم الحسيني عام ٦١٢هـ-١٢١٥م، حيث اتضح لنا أن أمراء المدينة المنورة كانوا يميلون إلى الملك المعظم الأيوبي حاكم دمشق الذي سبق أن حج بصحبته سالم بن قاسم الحسيني عام ٦١١هـ-١٢١٤م، وقدم له مساعدات عسكرية ضد قتادة كما مر سلفاً، وعندما تولى الملك الكامل حكم مصر بعد وفاة والداه الملك العادل سنة ٦١٥هـ-١٢١٨م[٢]، ظهر التنافس بين أبناء البيت الأيوبي بشكل أكبر حيث كان الملك المعظم في دمشق والملك الكامل في مصر، وكل منهما يهدد باحتلال بلاد الآخر[٣]، ويكون من المؤكد أن الملك المعظم قد ساءه استيلاء الملك المسعود ملك اليمن على مكة لأن استيلاءه عليها يعتبر ضمها إلى أملاك والده الملك الكامل الأيوبي في مصر فقد تم رفع علم الملك الكامل الأيوبي في مكة والمشاعر المقدسة وأصبح خادم

---

(١) المقريزي: السلوك ٣٤١/١، ابن فهد: إتحاف الورى ٣٩/٣، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ص: ٢٠٩، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٢٦/٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١٥/٢٢.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص: ١٣٣، ابن واصل: مفرج الكروب ١٢٧/٤، المقريزي: السلوك ٣٣٧/١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٥٥/٦، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ٢٤٧.

الحرمين الشريفين[١]، فقام بالإيعاز إلى حليفه حاكم المدينة المنورة بالزحف على مكة وانتزاعها من نواب الملك المسعود، وقد وجد هذا الطلب قبولاً لدى الأمير قاسم بن جماز الذي كان يأمل في القضاء على إمارة مكة التي كانت تهدده باستمرار ولكن لم تنجح المحاولة وباءت بالفشل الذريع، ولو نجح أمير المدينة المنورة في انتزاع مكة من نواب الملك المسعود، لكان باستطاعة الملك المعظم أن يساوم أخاه الملك الكامل على إيقاف تهديداته له، وذلك لتحكمه في التجارة في البحر الأحمر لأن الذي يسيطر على مكة يسيطر على ميناء مدينة جدة التجاري الميناء الأول في البحر الأحمر.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٨، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٥/٣٩٨، الفاسي: العقد الثمين ٣/٤٠٣، المقريزي: السلوك ١/٣٣٣، المقريزي: الذهب المسبوك، ص: ٧٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٤، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٩٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٩٠.



الحملات وأثرها على الوضع الديني

والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأمني في الحجاز

كان للحملات العسكرية على مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي أثر على الناحية الدينية من عدة جوانب من أشهرها ما كان مرتبطاً بالناحية الأمنية فعندما يحدث الصدام العسكري في مكة يختل الأمن فيصعب على كثير من المسلمين أداء الشعائر الدينية سواءً كان ذلك في موسم الحج أو في غير موسم الحج، ولكن كان واضحاً اختلال أداء الشعائر في موسم الحج لأن أغلب الحملات العسكرية كانت تقدم بمصاحبة ركب الحجاج من أي جهة كانت ومن ذلك ما يلي:

في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م عندما قدم الأمير طاشتكين بحملته من العراق في موسم الحج كان بهدف تغيير أمير مكة الأمير مكثر بن عيسى ابن فليتة، وقد وصل خبر حملته قبل قدومه إلى الأماكن المقدسة مما كان سبباً في عدم خروج عدد كبير من أهل البلد إلى المشاعر لأداء فريضة الحج، أما الحجاج من شتى أقطار الأرض الذين خرجوا لأداء الفريضة لم يستطيعوا أن يكملوا أداء مناسك الحج حيث باتوا بعرفة ولم يبيتوا بمزدلفة، ولم ينزلوا منى ولم يرموا الجمرات، ومن رمى منهم وهو

سائر مستعجل في سيره خوفاً من القتل سواء كان من جند الحملة أو من غيرهم من الناس[(١)].

وهذا يدل دلالة كبيرة على ما أصاب الناس من خوف وهلع حيث يصبح عامة الناس في غاية الخوف حتى أنهم لا يستطيعوا أن يؤدوا مناسك حجهم وبهذا يتعطل الكثير من أركان الحج الذي لا تتم حجة المسلم إلّا بأدائه فالمسلم الذي تحمل المشاق بالسفر من بلده في ذلك الوقت يفوته تأدية الحج على الوجه الأكمل، والمسلم المقيم بالبلد الحرام الذي يتحين الفرصة لأداء مناسك الحج لا يستطيع أداءه بسبب قدوم الحملة العسكرية فهذا يعتبر من أكبر الكوارث على المسلم في دينه، وبهذا تكون الحملات العسكرية سبباً رئيسياً في بعض السنين في تعطيل شعائر الحج.

وفي عام٦٠٨هـ-١٢١١م عندما قام رجال الحملة العراقية الفداويون بتنفيذ عملية الاغتيال الخاطئة في منى بقصد قتل الشريف قتادة كان من أثر هذه الحملة أن حدثت الكارثة على الحجاج جميعاً فأصبح من الصعب أداء مناسك الحج كاملة حيث تعرضوا للنهب والسلب، وقتل منهم عدد كبير وذلك أن جند قتادة قد اغتنموا الفرصة بعد أن أذن لهم الشريف قتادة بمهاجمة الحجاج العراقيين فأخذوا يهاجمون الحجاج جميعاً دون رادع من دين أو قيادة في جميع أنحاء المشاعر حتى وصل بهم الأمر أن تعدوا على الحجاج في الطواف حول الكعبة بالقتل والسلب، مما كان سبباً في الإخلال بأداء الشعائر الدينية لحجاج بيت الله الحرام، ومن سلم منهم تحمل الجوع والخوف والأذى ولم يكمل الحج إلّا الأقوياء من الحجاج

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٣١، ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلة حوادث سنة ٥٧١-٥٨٠، ص: ٧، الفاسي: شفاء الغرام٢/ ٣٩١، الفاسي: العقد الثمين ١/ ٣٤١، ٦/ ١٢٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦.

الذين سلموا من القتل، وكان أدائهم لطواف الوداع بخوف ووجل من تعقب رجال قتادة لهم[١].

وفي عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م عندما قدم الملك المسعود سلطان اليمن بحملته لقتال الشريف حسن بن قتادة، كان بصحبته عدد كبير من الجند، وقد وصل القتال بين جنده وجند حسن بن قتادة إلى داخل المسجد الحرام وبين الصفا والمروة مما يدل أن الشعائر الدينية من صلاة وطواف وسعي وغيرها قد توقفت لاشتباك القوات المسلحة للطرفين في داخل المسجد الحرام، واستمر تضرر الناس من جند الحملة كثيراً، حتى بعد انتهاء القتال بين القوات المتصارعة وقد وصل أذاهم إلى ضرب الناس في المسعى بالسيوف في أرجلهم حتى لا ينغصوا على الأمير نومه بالتكبير والتهليل أثناء سعيهم حيث إنه كان نائماً في دار بجوار المسعى[٢]، مما يدل أن المسلمين في المسجد الحرام كانوا لا يستطيعون أن يقوموا بأداء عباداتهم بسبب تصرفات جنود الحملة اليمنية، كما أن الحملة قد أثرت على أداء الحجاج لشعائر حجهم فقد صعدت قوات الحملة إلى عرفات بلباس الحرب لتزعم وفود الحجيج[٣]، وكادت أن تصطدم مع حامية

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٢، الذهبي: العبر ٣/ ١٤٨، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٩.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٢٩/ ١٢٥، ١٢١، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٩، ٣٤١، المقريزي: الذهب المسبوك ٧٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٦، ٣٤.

(٣) أمر الملك المسعود أتباعه بمنع أعلام الخلافة العباسية من الصعود على جبل عرفات، وإذا حاول رجال الحامية العباسية رفع علم الخلافة فعليهم تحطيمه، ورفع أعلام الدولة الأيوبية وهذا يعني تزعم وفود الحجيج، وقد غضب الخليفة العباسي الناصر من تصرف الملك المسعود وأرسل إلى والده الملك الكامل في مصر يشتكي من تصرف ابنه فأرسل الملك المسعود عتاباً شديداً لابنه على تصرفه السابق، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٩٨، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٣.

الحجاج العراقيين في صعيد عرفات، وقد تصرف قائد ركب الحجاج العراقيين الأمير حسام الدين بن أبي فراس بحكمة وروية حتى أنه تفادى وقوع الحرب وحرص على ظهور شعائر الخلافة العباسية بعد التلطف بالملك المسعود والتوسل إليه[١]، وبهذا نقول أن الحملة كادت أن تفسد على الحجاج حجهم في ذلك العام لو حدث تصلب في موقف أمير الحجاج العراقي، ومع أن الملك المسعود قد تصرف هو وجنده تصرفات لا تليق بمقام الحرم الشريف، فقد كان لحملته بعض الآثار الإيجابية حيث إنه ورد أن نائبه على مكة الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول قام بأعمال دينية جليلة فقد عمر مسجد التنعيم[٢]، وبنى قبة على مقام إبراهيم (عليه السلام)، وأخرج من مكة أتباع المذهب الزيدي، وسهل للحجاج دخول الكعبة المعظمة حيث أعطى سدنة البيت مبلغاً من المال في مقابل تسهيل دخول الناس إلى الكعبة للصلاة بها ليلاً ونهاراً[٣].

وفي عام ٥٨١هـ-١١٨٥م قدم الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين ابن أيوب والي اليمن إلى مكة بحملة عسكرية كان هدفها تأييد المذهب

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٨، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٢، السنجاري: منائح الكرم ٢/٢٩٠.

(٢) كان يسمى مسجد الهليجة، ورد أن السيدة عائشة (رضي الله عنها) اعتمرت من موضع هذا المسجد، الفاسي: شفاء الغرام ١/٥٠٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٩٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٩، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٤٠٠، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٤٥، ٤١، ٣٦، ابن العماد: شذرات الذهب ٥/١٢٠، ناصر البركات: بنو رسول وعلاقتهم، ص: ١٤٨.

السني والقضاء على شعائر المذهب الزيدي[١] الذي كان يعتنقه أمراء مكة في ذلك الوقت، وذلك أن الملك العزيز عندما قدم بحملته قام بأعمال جليلة في إقرار الأمور السياسية والأمنية والدينية فمنها أنه منع المؤذنين بالمسجد الحرام من النداء بشعار المذهب الزيدي في الأذان وهو: «حي على خير العمل» بعد النداء حي على الفلاح في الأذان[٢]، وقد استمرت الدولة الأيوبية في التصدي للمذهب الزيدي ففي عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م عندما قدم الملك المسعود الأيوبي بحملته من اليمن قام بالتصدي لأتباع المذهب الزيدي وإخراجهم من البلد الحرام[٣].

كانت الحملات العسكرية التي قدمت إلى مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي تهدف في الغالب إلى تصحيح الوضع السياسي والأمني والاقتصادي، وذلك أن الدولة الأيوبية أبقت على حكام مكة الذين كانوا يتولون إمارتها من الأشراف فلم تعمل على تغيير وضعها السياسي واكتفت بالدعاء لسلاطين بني أيوب بعد الدعاء للخلافة العباسية على منبر المسجد الحرام، وقد كان للخلافة العباسية في بداية العهد الأيوبي الإشراف المباشر على الوضع السياسي لمكة، حيث إن

---

(١) في المذهب الزيدي يذكر المؤذن بعد قوله حي على الفلاح «حي على خير العمل» وكان هذا يذكر في الأذان في مكة منذ العصر الفاطمي، وذلك أن حكام مكة كانوا على المذهب الزيدي، ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص: ٧٨، التجيبي: القاسم بن يوسف: مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق/ عبد الحفيظ منصور، ط/ بدون، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ص: ٢٩٧.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٢٧١، التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص: ٢٩٧، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٢، حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٣٣، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٧٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٩.

الخليفة هو الذي يصدر أوامره بعزل وتولية أميرها، أما السلطنة الأيوبية فقد أخذت تتدخل شيئاً فشيئاً في شئون الحجاز مع المحافظة على عدم الاصطدام مع الخلافة العباسية التي تكن لها كل تقدير واحترام.

ومما يدل أن الخلافة العباسية كانت هي التي تقرر الوضع السياسي لإمارة مكة في بداية حكم الدولة الأيوبية أن هدف الحملة العسكرية عام ٥٧١هـ-١١٧٥م كان تغيير الوضع السياسي للإمارة وتم ذلك بتولية الأمير داود بن عيسى بعد أن تعهد بتحقيق ما تطمح إليه الخلافة العباسية من إلغاء المكوس، وإقامة شعار الخلافة العباسية على منبر المسجد الحرام وتأمين الحجاج القادمين إليها [١]، أما السلطة الأيوبية في مصر فلم تعترض على تصرف الخلافة السابق ولم يكن لها دور في فرض رأي على الوضع السياسي للإمارة فقد سبق حملة عام ٥٧١هـ-١١٧٥م أن قدم إلى مكة الملك المعظم توران شاه في طريقه من اليمن إلى مصر في شهر شعبان من نفس العام فلم يتدخل في الشئون السياسية [٢].

وفي عام ٥٧٢هـ-١١٧٦م يبدو أن الخلافة العباسية تركت للدولة الأيوبية شيئاً من الإشراف المباشر على إمارة مكة بدليل أن الأمير مكثر قد طلب منه السلطان صلاح الدين أن يلغي المكس الذي كان يأخذه من

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/٥٣١، ابن الأثير: الكامل ٩/١٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث سنة ٥٧١-٥٨٠، ص: ٧، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ٣٢/١٢٣، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٩١، ٣٣٩، الفاسي: العقد الثمين ٦/١٢٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٦، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٠، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٧٩.

(٢) الفاسي: العقد الثمين٤/ ٦٧، ٦/ ١٢١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٣٥، ٥٣٩، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٧٦، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٤٣.

الحجاج في العام التالي لحملة الأمير طاشتكين سنة ٥٧٢هـ-١١٧٦م، مما يدل أن الخلافة العباسية قد أوكلت إلى السلطان صلاح الدين أمر الإشراف على الحرمين الشريفين، وذلك لسهولة الاتصال بين الحجاز ومصر، حيث يقع بين مناطق نفوذ السلطة الأيوبية في اليمن ومصر فقام السلطان بدوره خير قيام، حيث أرسل إلى الأمير مكثر تهديداً شديداً يطلب منه رفع المكس عن الحجاج ويحدد له مبلغاً من المال يحمل إلى الحجاز مع كمية من القمح كل عام[١] مما يؤكد أن السلطان صلاح الدين لم يكن يتصرف هذا التصرف مع أمير مكة دون أن يكون له مطلق الحرية من الخلافة العباسية التي يكن لها كل تقدير واحترام، ويدل أيضاً على هذا أن الخلافة العباسية لم يظهر منها أي تصرف يدل على غضبها من تدخل السلطان صلاح الدين في أمر مكة مما يدل أنها كانت على علم بتصرفه مسبقاً وأنها قد أطلقت له العنان فيه.

وبهذا نستطيع القول أن دخول مكة تحت النفوذ الأيوبي كان منذ عام ٥٧٢هـ-١١٧٦م وبرضا من الخلافة العباسية وبطريقة سليمة سهلة، هدفها حماية الحرمين الشريفين وخدمة ضيوفهما من جميع أرجاء المعمورة.

ومع نفوذ الدولة الأيوبية على إمارة مكة كانت الخلافة العباسية تحاول فرض إرادتها أحياناً وخصوصاً إذا حدث تصرف يغضبها من أمير مكة مما يدل على استمرار النفوذ العباسي يدلنا على هذا محاولة اغتيال

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٣٠، ٧٤، ٥٥، أبو شامة: الروضتين ٩/٣، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٣٦٩/٨، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٩٩/١٢، الفاسي: العقد الثمين ١٢٣/٦، ٣٤١/١، الجزيري: الدرر ٥٧٢/١، السنجاري: منائح الكرم ٢٥٨/٢، الكردي: التاريخ القويم ٢٢٠/٢، الزهراني: غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص: ٢٩.

قتادة بن إدريس في الحملة السرية العراقية عام ٦٠٨هـ-١٢١١م[1] إلّا أن الحملة قد أعطت الشريف قتادة درساً في التعامل مع الخلافة في بغداد وأن ما تم تدبيره من عملية اغتيال قد يتم تدبير ما هو أكبر منه ولهذا استجاب قتادة بن مطاعن لمشورة أمير حجاج العراق الأمير ابن أبي فراس الحلي، الذي قدم في العام التالي ٦٠٩هـ-١٢١٢م في تقديم الاعتذار للخلافة العباسية وطلب العفو والصفح من مقام الخليفة العباسي[2].

وقد كانت بعض الحملات العسكرية لا توفق في تحقيق أهدافها التي قدمت من أجلها أو تحقيق الأهداف التي جعلت الظروف في مكة من الحملة أن تتبناها ففي عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م لم توفق حملة أمير الحاج العراقي أقباش الناصري في عزل حسن بن قتادة وتولية أخيه راجح بل حلت الكارثة بالحملة وقتل قائدها، ولولا لطف الله سبحانه وتعالى لحل بحجاج العراق كارثة كبيرة، ولكن أراد الله أن يتصرف حسن بن قتادة بحكمه عندما حرص على الإبقاء على حبل المودة بينه وبين الخلافة

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ١٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٩، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٠، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨١، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٧، ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ١٤، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٣، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٧، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٤٥، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٥٨، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة المكرمة في العصر المملوكي، ص: ٣٩.

العباسية عندما لم يسمح لأحد من أتباعه بالتعدي على حجاج العراق مما جعلهم يؤدون نسكهم في أمن وطمأنينة، ويعودون إلى العراق سالمين كما أردف فعله هذا برسل إلى الخلافة العباسية يقدمون الاعتذار عن حسن بن قتادة عما حدث لركب الحاج بمكة [١]، وبهذا نستطيع القول إن الخلافة العباسية بتسييرها هذه الحملة وما قام به قائدها من تصرف عسكري، كما أن تصرف حسن بن قتادة الاعتذار للخلافة يدل أنه ما زالت للخلافة العباسية كلمة نافذة في الوضع السياسي لإمارة مكة.

في عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م كان أثر الحملة العسكرية التي قدمت من اليمن بقيادة الملك المسعود كبيراً على الناحية السياسية لمكة، فقد قدم الملك المسعود بنية مساعدة راجح بن قتادة الذي التجأ إليه طالباً المساعدة له على نيل حقه السليب في الإمارة، وبعد نجاح حملة الملك المسعود قام بضم إمارة مكة إلى سلطته في اليمن التي تتبع سلطة والده الملك الكامل، وعين عليها أميراً من قبله وولى راجح منطقة حلي ونصف المخلاف [٢]، وبهذا يكون الملك المسعود قد غير الوضع السياسي لإمارة مكة بانتزع الإمارة من أبناء الشريف قتادة، وضمها إلى أملاكه معلناً بذلك نهاية السيادة العباسية على الوضع السياسي لمكة ولأسرة بني قتادة وعندما بدأ

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد ٣/ ٤٠٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٧، المقريزي: السلوك ١/ ٣٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٨، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٧٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٦.

(٢) الفاسي: العقد ٦/ ٢٥٥، المقريزي: السلوك ١/ ٣٣٣، ابن فهد: إتحاف الورى ١/ ٥٨٣، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٩٠، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤١٠، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٣، ناصر البركاتي: بنو رسول، ص: ١٤٨، ١٤٦.

التنافس بين الدولة الرسولية في اليمن والأيوبية في مصر والشام كان هدف الحملات تغيير الوضع السياسي لإمارة مكة فنتيجة الحملة اليمنية عام ٦٢٩هـ-١٢٣١م كانت إزاحة النفوذ الأيوبي عن مكة وضمها إلى أملاك بني رسول في اليمن وقد تم استخدام راجح بن قتادة قائداً من قادة الحملة مما يدل على التعامل بحذر مع أشراف مكة آل قتادة ومحاولة استخدامهم لتنفيذ الأهداف السياسية لدولة بني رسول دون تقليدهم منصب الإمارة(١).

وبهذا نستطيع القول أن مكة انتقلت من حكم بني أيوب حكام مصر إلى حكم بني رسول حكام اليمن، وأصبحت منطقة تنافس بين الدولة الأيوبية والدولة الرسولية، فالدولة الرسولية تحاول أن تبرز أمام العالم الإسلامي بقوتها الفتية، والدولة الأيوبية لا تريد أن تفقد زعامتها للعالم الإسلامي بعد أن حقق سلاطينها أمجاداً عسكرياً إسلامية كبيرة(٢).

وبهذا استمرت الحملات في قدومها إلى البلد الحرام ففي عام ٦٢٩هـ-١٢٣١م قدمت حملة مصرية استطاع أن تعيد مكة إلى النفوذ الأيوبي(٣).

---

(١) الخزرجي: العقود الؤلؤية ١/ ٤٩، العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، ٥/ ٣٦٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤١، ابن فهد: غاية المرام١/ ٦٢٠، ٦١٣، ٦٠١، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٩٧، ٢٩٤، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٢٠، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٧١.

(٢) كان من أشهر هذه الإنجازات الانتصار على القوات الصليبية في معركة حطين، واسترداد بيت المقدس عام ٥٨٣هـ، ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٧، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٢٠.

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، ٥/ ٣٦٢، الفاسي: شفاء الغرام٢/ ٣٤١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢٠، ٦١٩، ٦١٣، ٦٠١، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩١، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٢٠.

لم تستقر أوضاع مكة السياسية حيث إن السلطة الأيوبية في مصر والسلطة الرسولية في اليمن أخذتا تتصارعان على السيادة فتكررت الحملات العسكرية لكلا الطرفين، فمنذ عام ٦٣٠هـ-١٢٣٢م إلى عام ٦٣٢هـ-١٢٣٤م شهدت مكة حملات عسكرية متابعة لكلا الطرفين ولا تخلو سنة حتى يقدم فيها حملة عسكرية واحدة من اليمن وأخرى من مصر وجميع الحملات لم يجر بينها قتال لأنه ما أن تسمع القوة العسكرية المصرية بقدوم الحملة اليمنية حتى تغادر مكة وكذلك القوة اليمنية[١]، وهذا يدل أن كلا القيادتين في مصر واليمن كانتا تحاولان الحفاظ على أمن وسلامة أهل مكة لكسب ولاءهم في صفها لذا نستطيع القول أن أهلها قد لزموا الحياد في هذا الصراع، ولم ينضموا إلى أحد الطرفين بمعنى لم يكن لهم دور في الوضع السياسي.

كان للحملات العسكرية على مكة أثر واضح على الجانب الاقتصادي سلباً أو إيجاباً يتحكم فيه هدف الحملة والوضع الناتج للصدام العسكري مثال ذلك أن بعض الحملات العسكرية عندما تقدم يكون من أهدافها تحقيق الاستقرار الاقتصادي للإمارة، وذلك لأن حكام مكة دأبوا على أخذ المكوس من القادمين إليها من جميع الطوائف سواءً كانوا زواراً أو حجاجاً أو تجاراً مهما كانت تجارتهم قليلة أو كثيرة، وقد أرهقت هذه المكوس كواهل الناس جميعاً، وقد كان للحملات العسكرية دور في رفع المكوس التي كان يأخذه الأمراء فترة من الزمن ثم لا تلبث أن يعود الأمراء إلى جمع المكوس من جديد بدوافع كثيرة كان من أبرزها

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٥٤، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٨٠، المقريزي: السلوك ١/ ٣٦٧، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢١، ٦١٩، العاصمي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٢، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن١ / ١٢٠.

رغبة كل أمير يصل إلى السلطة في جمع أكبر عدد من المال لتغطية نفقات جنده ومعاونيه، ومن ذلك أن الأمير مكثر بن عيسى بن فليته عندما تولى الحكم قام بفرض مكوس جديدة على الناس بمكة فعندما قدمت حملة الأمير طاشتكين في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م كان من شروط تعيين أخيه الأمير داود أميراً أن تعهد برفع جميع المكوس عن كاهل الناس[(١)].

ومع ما قام به أمير الحملة العسكرية العراقية من تحقيق للاستقرار الاقتصادي من جراء رفع المكوس عن الناس عامة فقد تضرر اقتصاد مكة أثناء الصراع بين قوات الحملة وقوات الأمير مكثر وقد كان القتال في أيام الحج التي هي الأيام التجارية في الموسم وبهذا تعطل البيع والشراء في المشاعر المقدسة وداخل البلد، ومما زاد في تردي الوضع الاقتصادي أنه أثناء الاشتباك بين القوات العسكرية يحدث النهب والسلب من أصحاب النفوس الدنيئة الذين كانوا يرافقون الحملة في دور مكة وخصوصاً منازل التجار بها والمنازل التي في أطراف البلد حيث تعرضت للنهب والسلب والحرق، مما يدل أن ما فقده التجار والسكان من مؤن وأموال كان وبالاً على الاقتصاد المكي بشكل عام[(٢)].

وفي عام ٥٨١هـ-١١٨٥م ساءت أحوال مكة الاقتصادية وذلك

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/٥٣١، الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث سنة ٥٧١-٥٨٠، ص: ٧، الفاسي: العقد الثمين ٦/١٢٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٣٩، الجزيري: الدرر ١/٥٧١، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٤٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/٥٣١، ابن الأثير: الكامل ٩/١٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث سنة ٥٧١-٥٨٠، ص: ٧، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩١، الفاسي: العقد الثمين ٦/١٢٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٥٣٩، الجزيري: الدرر ١/٥٧١.

بتعدي جند الأمير مكثر على الناس من أهلها ومن القادمين عليها ويبدو أن هذا الوضع السيئ قد وصل إلى أسماع القيادة الأيوبية في مصر، فأرسلت إلى واليها على اليمن الملك العزيز طغتكين بتصحيح الأوضاع في مكة، فزحف بقوات كثيفة وقام بالقضاء على المفسدين بالبلد الحرام، كما قام بسك عملة جديدة تحمل اسم السلطان صلاح الدين مما يدل على رغبة الدولة الأيوبية في استقرار الوضع الاقتصادي، وأن العملات السابقة قد أصابها النقص والتزوير من جراء التصرفات السيئة من جند الأمير مكثر الذين كانوا يعاملون الناس معاملة سيئة[١].

وقد كانت بعض الحملات العسكرية وبالاً على الاقتصاد المكي وذلك نتيجة تردي الوضع من جراء الصدام العسكري، ونتيجة للوضع الميداني، وذلك أن موسم الحج كان موسم التجارة بمكة فالحجاج كانوا يحملون السيولة المالية بالإضافة لبعض السلع التي يتاجرون بها في الحج والتجار يستغلون الموسم في البيع والشراء على وفود بيت الله الكريم في شتى أنواع السلع التجارية، فإذا حدث به صدام عسكري واختلال أمني يضطرب الجانب الاقتصادي فتحدث الكوارث على الحجاج والتجار ويفقد الكثير من الناس أموالهم وأمتعتهم فتتعطل التجارة، وينتشر النهب والسلب ومن ذلك مثلاً ما حدث في عام ٦٠٨هـ-١٢١١م عندما قدمت الحملة السرية العراقية التي كان قصدها القضاء على الشريف قتادة باغتياله في مشعر منى كان تصرف رجال الحملة وبالاً على الناس فقد أخطأوا في تنفيذ عملية الاغتيال، فقام

(١) أبو شامة: الروضتين ٣/ ٢٧١، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٠، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٢، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، الزهراني: غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص: ٩٤، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٥٥.

رجال قتادة بمهاجمة الركب العراقي فوقع القتل والسلب في المشاعر المقدسة وانتشر اللصوص يستغلون الفرصة في نهب الحجاج من كل طرف حتى أن الجمال كانت تؤخذ بأحمالها، وأصبحت المشاعر المقدسة مثل الغابة يأكل القوى فيها الضعيف وأصاب الحجاج كارثة كبيرة، حيث إن الذين سلموا من القتل فقدوا أموالهم بكاملها، وكان موقف قتادة سيئاً أيضاً فعندما طلب منه أن يكف رجاله عن قتل الناس ونهبهم طلب مبلغ (١٠٠) ألف دينار فجمع له من الحجاج ما يعادل (٣٠) ألف دينار[١]، وبهذا نستطيع القول إن قتادة كان على درجة كبير من الطمع والجشع حتى أنه لم يرحم ضعف الحجاج الذين لا حول لهم ولا قوة وليس لهم دخل في تصرفات القيادات السياسية في ذلك الوقت، كما أن اقتصاد مكة تضرر من هذه الحملة حيث إن كل ما يحمله التجار من تجارة قد ذهب نهباً وسلباً وأصبح في أيدي اللصوص، أما التجارة التي كانت في أيدي تجار مكة فلم يعد لها من يشتريها من الحجاج الذين فقدوا كل ما معهم من أموال جراء النهب والسلب والقتل، وبهذا نستطيع القول إن تصرف قتادة وتصرف الخلافة العباسية بهذه الحملة السرية كانت وبالاً على اقتصاد مكة.

وفي عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م كان أثر الحملة العسكرية التي قدمت من اليمن بقيادة الملك المسعود كبيراً على الناحية الاقتصادية، فقد قدم الملك المسعود بنية مساعدة راجح بن قتادة وبعد انتصاره قام الجند بنهب مكة، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها وقد شمل النهب عدداً كبيراً من المنازل بمعنى

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ١٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٩، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٠، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨١.

أن أهلها قد طردوا أو قتلوا، كما شمل النهب والسلب المزارع التي تقع بالقرب من مكة، وأخذوا من كثرة النهب والسلب ملابس الناس من على أجسادهم، بمعنى أن القوات اليمنية كانت كبيرة العدد فشمل نهبها القرى والمزارع، ويعني هذا أن مكة تعرضت في هذه الحملة إلى نكسة اقتصادية كبيرة، وعندما شعر الملك المسعود بفداحة الكارثة التي حلت على السكان، أمر برد جميع ما أخذه الجند من الأموال والمزارع بعد أن نادى بالأمان[١]، وهذا بالطبع لم يتم تنفيذه بشكل كامل، حيث إنه من غير المعقول أن يرد الجند ما أخذوه من الذهب والفضة أما ما كان واضحاً مثل الدور التي اتخذها الجند سكناً لهم والمزارع فيمكن رده بعد أن عاثوا به ونهبوه ودمروا غرسه.

ومع ما قام به الملك المسعود من أعمال شنيعة من قتل ونهب في بلد الله الحرام إلّا أن الأمور قد استقرت بعد انتهاء القتال في فترة حماه بمعونة أميرها عمر بن علي بن رسول فقد استقر الأمن فنشط الجانب الاقتصادي فجلبت إليها الأقوات وراجت حركة البيع والشراء[٢]، وذلك بحكم أن البلاد أصبحت من اليمن إلى مكة تحت سلطة واحدة، ولقوة الملك المسعود وجرأته على سفك الدماء قل التعدي على الأموال

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٣/٤٠٣، ٦/٢٥٥، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٤١، المقريزي: السلوك ١/٣٣٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٢، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٣٠، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٣، ناصر البركاتي: بنو رسول، ص: ١٤٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٨، الفاسي: العقد الثمين ٦/٢٥٥، ابن فهد: غاية المرام ٢١/٥٩٠، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٤، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية في مكة المكرمة في العصر المملوكي، ص: ٤٤.

والممتلكات من قبل المستغلين لفترات الفوضى السياسية والأمنية حيث كان القتل مصير كل من يتعدى على أحد بنهب ماله أو قتله، وبهذا ازدهر الجانب الاقتصادي بشكل جيد.

كان من أثر الحملات العسكرية على الوضع الاقتصادي أن بعض الحملات العسكرية كانت تقوم لمحاصرة مكة، حتى يتسنى لها الدخول وتحقق هدفها الذي قدمت من أجلها، ولهذا عانت مكة من الحصار الاقتصادي حيث تتوقف القوافل التجارية القادمة إليها سواءً من داخل الحجاز أو من خارجه، وتنقص المؤمن وتقل الأقوات وترتفع أسعار السلع التجارية في الأسواق بشكل كبير، ويصبح التجار في حالة من الخوف والفزع من اقتحام القوات الغازية للبلد ونهب أموالهم ومتاجرهم، وهذا ما حدث في الحصار الذي فرضته الحملة العسكرية في عام ٦٠١هـ-١٢٠٤م عندما قدم الأمير سالم بن قاسم الحسيني بعد أن هزم الأمير قتادة وحاصره في مكة حتى اضطر الأمير قتادة إلى اللجوء إلى الحيلة في استمالة كبار قادة الأمير سالم لكي يفك الحصار الذي ضربه الأمير سالم، ولكي يأمن على نفسه وعلى أموال السكان من تجار وغيرهم، وقد نجح في ذلك فما أن شعر الأمير سالم بتغير مواقف كبار أنصاره حتى رفع الحصار وعاد أدراجه إلى المدينة النبوية[١].

وفي حملة الأمير قاسم بن جماز الحسيني على مكة عام ٦١٣هـ-١٢١٦م أراد الأمير قاسم أن ينهك قوة الشريف قتادة، وقد عرف أن قوة قتادة تكمن في قطع المورد الاقتصادي للإمارة، لذا قام الأمير قاسم بمهاجمة المناطق الزراعية القريبة من مكة كما قام بمهاجمة مدينة جدة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢٦٩/٩، ابن كثير البداية والنهاية ٤١/١٣، الفاسي: العقد الثمين ٤٦٤/٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣، ابن فهد: غاية المرام ٥٥١/١.

وكانت هذه الهجمة هي الأولى على مدينة جدة في العصرين الأيوبي والمملوكي، وقد فزع قتادة لهذا التصرف وخرج إلى ملاقاة الأمير قاسم واستمات في القتال حتى تحقق له انصر [(١)]، واستطاع بانتصاره هذا أن يرفع عن مكة حصاراً اقتصادياً كاد أن يضر بإمارتها ضرراً بليغاً.

عندما قدمت الحملة العراقية في عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م مع راجح بن قتادة قامت بحصار مكة، بعد أن أغلق حسن بن قتادة أبواب مكة وعندما قدمت الحملة إلى أبواب مكة خرج الحسن بن قتادة بأتباعه وقاتل أمير الحملة وجنده واستطاع التغلب عليه، ودارت بعد ذلك حركة البيع والشراء بعد أن منع حسن بن قتادة التعرض للحجاج بأي أذى وسمح بله بدخول مكة [(٢)]، وبهذا نستطيع القول إن حصار الحملة لمكة وخصوصاً في موسم الحج قد أضر بالاقتصاد حيث إن جميع التجارة القادمة إلى مكة توقفت عن القدوم، كما أن تواجد القوات التي جمعها حسن بن قتادة في مكة بحاجة إلى تموين فيكون هذا وبالاً على السكان والاقتصاد لذا خرج حسن ابن قتادة للقتال ولم يفضل الدفاع من خلف الأسوار لأن طول فترة الحصار لن تزيده إلّا ضعفاً.

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٦، المقريزي: السلوك ١/ ٣٠٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٣، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٤٠، مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة المكرمة في العصر المملوكي، ص: ٤١، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٦١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد ٣/ ٤٠٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٧، المقريزي: السلوك ١/ ٣٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٨، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٧٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٦.

في عام ٦٢٢هـ-١٢٢٥م تعرضت مكة لحصار عسكري أثر على اقتصاده بشكل كبير، وذلك أن أمير المدينة المنورة قاسم بن جماز الحسيني قدم بحملة عسكرية بهدف فرض سيطرته عليها، ولكن نائب الملك المسعود الأمير عمر بن علي بن رسول استطاع أن يتحصن بها مما جعل الأمير قاسم ابن جماز يفرض حصار عسكرياً عليها استمر شهراً كاملاً[(١)] وبهذا نستطيع القول إن مكة قد عانت من هذا الحصار اقتصادياً حيث إنه يصعب على كل الواردات من المؤن، وغيرها الدخول إليها أثناء فترة الحصار، ومع أن مكة واد غير ذات زرع فإن السكان قد عانوا من قلة المؤن ونفاذ الأقوات، مما جعل الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول يقرر الخروج إلى قتال الأمير قاسم لإنهاء الحصار الذي ضربه عليه وقد نجح في ذلك حتى تم قتل قاسم بن جماز[(٢)]، وتم رفع الحصار نهائياً.

في عام ٦٢٩هـ-١٢٣١م قدمت حملة الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول ملك اليمن بقصد إزاحة النفوذ الأيوبي عن مكة وضمها إلى أملاكه في اليمن، وقد كان لهذه الحملة أثر إيجابي على اقتصاد مكة حيث كانت تحمل مبلغاً كبيراً من المال كما أن قادة الملك المنصور وعدوا أهل مكة بالخير الجزيل إذا ما انضموا إليهم وتركوا مساعدة القوة الأيوبية، وقد استطاعت الحملة أن تدخل مكة[(٣)]، دون

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٩، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٦.

(٢) المقريزي: السلوك ١/٣٤١، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٩، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٦.

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/٢٩٥، ٥/٣٦٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٤١، المقريزي: السلوك ١/٣٦٦، ابن فهد: غاية المرام ١/٦٢٠، ٦١٣، الجزيري: الدرر ١/٥٩١، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٣٢.

أن يصيب الجانب الاقتصادي أي ضرر بل تحسن بما كانت تحمله الحملة اليمنية من مال وفير من الطبيعي أن يعود نفعه ويعود خيره على اقتصاد البلد.

لم يدم الوضع الاقتصادي المزدهر لمكة وذلك لقدوم حملة عسكرية مصرية في شهر رمضان سنة ٦٢٩هـ-١٢٣١م، وقام أميرها بالتنكيل بأهل مكة، حيث قتل عدداً كبيراً منهم وسمح لجنده بالنهب والسلب مدة ثلاثة أيام(١)، وبهذا الفعل نستدل أن الجانب الاقتصادي قد أصيب بنكسبة كبيرة عندما يقوم رجال الحملة بقتل عدد كبير من السكان لموقفهم.

كان الوضع الأمني لإمارة مكة في العصرين الأيوبي والمملوكي يتذبذب بين الاستقرار والهدوء والفوضى والاضطراب فعندما تكون الأوضاع السياسية مستقرة يتحسن الوضع الأمني لمكة والمشاعر المقدسة، وعندما يضطرب ذلك الوضع يختل معه الجانب الأمني، وظهر ذلك واضحاً بما يصيب الحجاج من كوارث تعيقهم عن أداء النسك ويسقط عدد كبير منهم بين قتيل ومنهوب من عسكر الطرفين المتنازعين ومن اللصوص والمفسدين وقطاع الطرق الذين يستغلون الوضع المضطرب لتحقيق أطماعهم الدنيئة.

وقد كان للحملات العسكرية التي تقدم إلى مكة بهدف تهدئة الوضع السياسي دور على الناحية الأمنية للإمارة، وأحياناً يكون توطيد الأمن هو الهدف الرئيسي للحملة، وفي بعض الأوقات يكون دور الحملات العسكرية سلباً على الناحية الأمنية، ويكون كذلك في الغالب أثناء الصراع العسكري مع المقاومين، ولكن في الغالب ما يتحسن الوضع

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤١، المقريزي: السلوك ١/ ٣٦٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢٠، ٦١٩، ٦١٣، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٢٠.

بعد الاستقرار السياسي فيصبح الدور إيجابياً بشكل ملحوظ، ومن ذلك نذكر ما يلي:

في عام ٥٧٠ هـ-١١٧٤م كان الوضع الأمني لمكة مضطرباً بسبب الخلاف بين الأخوين مكثر وداود ابني الأمير عيسى بن فليته، وكان نتيجة هذا الوضع أن تعرض حجاج العراق للنهب والقتل في نهاية موسم الحج[١]، وكان هذا سبباً رئيساً في قدوم حملة عسكرية في العام التالي ٥٧١هـ-١١٧٥م بقيادة طاشتكين أمير الحاج العراقي كانت تهدف إلى تغيير الوضع السياسي وذلك بتغيير بيت الإمارة في مكة وتنصيب أمير من غيرها، وعندما قدمت الحملة العسكرية استعد الأمير مكثر لها بكل ما يستطيع وجمع عدداً كبيراً من الأتباع، وبعد أن اشتبك الطرفان في القتال اختل الجانب الأمني بشكل كبير حيث أصبح القتل والسلب هدفاً لكل رجال الطرفين، ومن شارك معهم من اللصوص الذين استغلوا انفلات الأمن، فأغلب الحجاج لم يكملوا مناسكهم خوفاً من القتل، ولم يحج من أهل مكة إلّا العدد القليل خوفاً على أنفسهم ومنازلهم من النهب، وأصبحت منازل السكان، وخصوصاً منازل التجار والمنازل الواقعة في أطراف البلد غنيمة لكل طامع، وقد وصل الأمر ببعض جنود الحملة أنهم كانوا يرمون المنازل بالنفط فتشتعل المنازل دون تفريق بين من فيها، هل هم من المحاربين أم من عامة الناس الضعفاء[٢].

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٥، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٥٦.

(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٣، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ١٢٢، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٣٦، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧١، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ١٨٠، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ط/ ١، تهامة للطباعة والنشر، جدة ١٤٠٥هـ، ٣٠.

ومع ما قامت به الحملة من إنجاز عسكري تمثل في انتصار قواتها على القوات الحجازية لكنها لم توفق في تحقيق ما أرادت الخلافة العباسية من تغيير الأسرة الحاكمة ولكنها أثمرت في تعيين الأمير داود بن عيسى الأمير السابق لمكة وعزل أخيه مكثر، وقد تعهد الأمير داود لقائد الحملة العراقية بأمن الحجاج وإسقاط المكوس والتخلي عن بناء التحصينات العسكرية وخدمة ضيوف الرحمن بما يليق بهم[١].

وفي عام ٥٨١هـ-١١٨٥م ساءت أحوال مكة الأمنية حيث يظهر أن الأمير مكثر بن عيسى كان يغض الطرف عن تصرفات جنده الذين كان غالبهم من العبيد، سود البشرة، فقدم كانوا يسيئون معاملة أهل مكة، والحجاج القادمين إليها، فقد الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب والي اليمن للسلطان صلاح الدين بقوات عسكرية، ويبدو أن قدومه هذا بطلب من أخيه السلطان صلاح الدين، وقام بتأديب هؤلاء المفسدين من عسكر الأمير حيث قتل عدد كبير منهم، وشرط على من سلم من القتل عدم إيذاء أحد من السكان سواء من أهلها أو من القادمين إليها[٢].

وقد كانت الحملات العسكرية تؤثر على الناحية الأمنية في مكة فما أن تقدم حملة عسكرية إلى الأماكن المقدسة حتى يستغل قدومها عدد من

(١) الفاسي: العقد الثمين ٦/ ١٢٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٣٩، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٣٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٣٥، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٦٩، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٤٤.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٣/ ٢٧١، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٢، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢١، الزهراني، غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص: ٩٤.

اللصوص، وقطاع الطرق الذين هدفهم استغلال الفرصة لكي يحققوا أطماعهم فعندما يشتبك الطرفان في القتال يكون همّ هؤلاء السلب والنهب، والقتل لكل من يقاومهم من أهل مكة، وقد كان مجرد الحصار على مكة من أي حملة عسكرية يجعل أهلها جميعاً في قلق مستمر على مصيرهم فعندما تدخل القوات المدينة تحل الكارثة على أهلها فيصبح الناس بين قتيل ومنهوب من قبل المفسدين واللصوص حتى تضع الحرب أوزارها، وقد تعرضت مكة للعديد من الحصار العسكري من قبل الحملات العسكرية الخارجية منها: في عام ٦٠١هـ-١٢٠٤م عندما هاجم مكة الأمير سالم بن قاسم الحسيني بعد هزيمة الشريف قتادة له في نفس العام وضرب الأمير سالم حصاراً على مكة جعل أهلها في خوف مستمر فقد وقع بينهم الاضطراب، ولم يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم من توقع اقتحام المدينة لولا لطف الله سبحانه وتعالى ثم جنوح قتادة لرفع الحصار عن مكة عن طريق الحيلة حيث عمل على استمالة كبار قادة الأمير سالم مما جعله يشك في نوايا كبار مساعديه ويرفع حصاره ويعود راجعاً إلى المدينة النبوية[1].

وفي عام ٦٠٨هـ-١٢١١م عندما قدمت الحملة السرية العراقية التي كان قصدها القضاء على قتادة باغتياله في مشعر منى كان تصرف رجال الحملة وبالاً عليهم وعلى أمن مكة والمشاعر المقدسة فبعد أن فشلت الحملة في تحقيق هدفها، قام رجال قتادة بمهاجمة حجاج العراق فاختل الجانب الأمني فوقع القتل والسلب في المشاعر المقدسة وانتشر

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٦٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٤١، الفاسي: العقد الثمين ٥/ ٤٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٥١، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٩.

اللصوص يستغلون الفرصة في نهب الحجاج من كل طرف وأصبحت المشاعر المقدسة مسرحاً للفوضى الأمنية وأصاب الحجاج كارثة كبيرة حيث إن الذين سلموا من القتل منهم فقدوا أموالهم بكاملها، وكانوا في رعب مستمر خوف القتل[١].

وبهذا نستطيع القول إن قتادة قد أخذ منه الغضب حيث إنه لم يعد يهتم بأمن الحجاج وغيرهم من أهل مكة وإنما يحاول التنكيل بالحجاج العراقيين مع أن رجاله قد قتلوا القاتل لم يرحم ضعف الحجاج الذين لا حول لهم ولا قوة وليس لهم دخل في الصراعات السياسية، واعتبر جميع ركب الحاج العراقي مذنبين فحل التنكيل بهم.

ففي عام ٦١٧هـ-١٢٢٠م اضطرب الجانب الأمني لمكة بسبب قدوم حملة أمير الحاج العراقي أقباش الناصري، وقصده عزل حسن بن قتادة عن إمارة مكة وتولية أخيه راجح، وذلك أنه ما إن سمع حسن بن قتادة بقدوم الحملة بصحبة أخيه راجح حتى جمع أكبر عدد من أتباعه وقام بإغلاق أبواب مكة ومنع الحجاج العراقيين من دخولها[٢]، وهذا يدل على مدى الخوف الذي أصاب حسن بن قتادة من الحملة وبهذا نستدل أن المجتمع المكي أصابه الخوف أيضاً عندما أغلقت أبواب مكة وانتشر خبر قدوم

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ١٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٦٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، المقريزي: السلوك١/ ٢٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٩، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٩٢، الفاسي: العقد ٣/ ٤٠٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٧، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٢٨، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٦.

الحملة وأصبح يتوقع في كل وقت اقتحام القوات الغازية لأسوار المدينة وتعرضهم للقتل والنهب، ولكن فرج الله عن الناس عندما قرر حسن بن قتادة الخروج لملاقاة عدوه خارج أسوار البلد وقد نصره الله عليه، وتم قتل أمير الحملة وبمقتله هرب راجح بن قتادة وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم، بعد أن قرر حسن بن قتادة عدم التعرض للحجاج العراقيين بأذى[١] مما جعل فرص المتربصين بأمن مكة معدومة.

في عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م كان أثر الحملة العسكرية التي قدمت من اليمن بقيادة الملك المسعود كبيراً على الناحية الأمنية، فقد كانت في بدايتها وبالاً على أهل مكة حيث قام جند الملك المسعود بعد هزيمة جند حسن بن قتادة وفراره بسفك دماء الناس بمكة حتى كان القتل في داخل المسجد الحرام ونهبهم جميع ما يملكون حتى أنهم أخذوا الملابس من على بعض عامة الناس[٢]، مما يدل أن قوات الحملة لم تفرق بين المحاربين من صفوف حسن بن قتادة وغيره من عامة الناس وأن الكثير من جند الحملة كان همه ما يجمعه من مال ومتاع، وقد استغل الكثير من اللصوص الذين كان همهم السلب والنهب فترة الانفلات الأمني.

بعد أن استقرت الأمور للملك المسعود الأيوبي في مكة ساد الأمن

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان ٤/٣٦، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٢، الفاسي: العقد ٣/٤٠٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٩٧، المقريزي: السلوك ١/٣٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٢٨، الجزيري: الدرر ١/٥٨٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٥٠، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٩، الفاسي: العقد ٣/٤٠٣، ٦/٢٥٥، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٤١، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٣٤، الجزيري: الدرر١/٥٨٨، ناصر البركاتي: بنو رسول، ص: ١٤٦.

وأصبح الناس في طمأنينة وراحة ولم يعد يهددهم شيء، فأصبحت الطرق آمنة يسافر فيها الناس بأمن وراحة بال وذلك أن الملك المسعود الأيوبي، كان على درجة كبيرة من النجدة وشدة البأس فلم يجرؤ أحد في فترة حكمه لمكة أن يخل بالجانب الأمني أو يتعمد إثارة الفوضى والاضطراب[١]، كما أنه استناب على مكة الأمير عمر بن علي بن رسول وكان قيادياً وأميراً محنكاً استطاع أن يوفر لمكة بعد رعاية الله الأمن والطمأنينة بتعقب المفسدين والقضاء عليهم.

في عام ٦٢٩هـ-١٢٣١م قدمت حملة الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول ملك اليمن بقصد إزاحة النفوذ الأيوبي عن مكة وضمها إلى أملاكه في اليمن، وقد كان لتصرف قادة الملك المنصور أثر إيجابي على الناحية الأمنية حيث إن هذه الحملة لم تصطدم مع القوات المصرية الموجودة في مكة حيث استخدم قائدها الحيلة في استمالة زعماء أهل مكة وذكروهم بالتصرفات الحسنة للملك عندما كان أميراً عليهم في عهد الملك المسعود، فمال الناس إلى تأييد الحملة اليمنية مما اضطر الحامية المصرية إلى مغادرة مكة دون قتال[٢]، وسهل بهذا دخول القوات اليمنية التي لم تتعرض لأحد بسوء، وهذا يدل على حنكة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول الذي كان يرغب في تأييد السكان له لذا تصرف قادته مع السكان بكل لطف ولين وكسبوا دخولها بدون قتال.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٩٨، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ٢٥٥، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٩٠، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٤.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، ٥/ ٣٦٢، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢٠، ٦١٣، ٦٠١، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٢٠، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٢٩٧، ٢٩٤، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٥٨، ناصر البركاتي: بنو رسول، ص: ١٥٤.

لم يدم الاستقرار الأمني طويلاً وذلك لأن السلطان الملك الكامل الأيوبي ما أن علم بخروج قواته حتى أمر بتجهيز حملة عسكرية لاستعادة السلطة الأيوبية على مكة، وقد كانت هذه الحملة شديدة الوطأة على السكان بالبلد الحرام فبعد أن دخلت المدينة في شهر رمضان سنة ٦٢٩هـ-١٢٣١م، قام قائدها بالتنكيل بالسكان انتقاماً منهم لموقفهم السابق في الميل لصالح القوات اليمنية فقتل عدداً كبيراً منهم وسمح لجنده بالنهب والسلب مدة ثلاثة أيام[١]، وبهذا نستطيع القول إن مكة أصبحت في حالة بائسة من الانفلات الأمني، فالقوات الغازية كثيفة العدد وسمح لها بالقتل دون تورع فحلت الكارثة بالسكان حيث قتل منهم خلق كثير جداً وهم بذلك الاختلال الأمني فقدوا أنفسهم وأموالهم.

شهدت مكة منذ عام ٦٣٠هـ-١٢٣٢م إلى عام ٦٣٢هـ-١٢٣٤م قدوم عدد من الحملات العسكرية لكلا الطرفين المتنازعين على السيادة على مكة مما جعل أهل مكة يعيشون في حالة من الرعب المستمر، وذلك أنه من الطبيعي أن يخاف الناس من قدوم أي حملة عسكرية ولو أن الحملة لم يكن لها نتائج سيئة على السكان، فمجرد العلم بوصول حملة عسكرية تهدف إلى إخراج قوات عسكرية أخرى كان كفيلاً بإحداث الرعب في قلوب السكان لتخوفهم من تصرف بعض الجند، وقد جنب الله سبحانه وتعالى سكان مكة آثار الصدمات العسكرية، وذلك لخروج القوات التي كانت مقيمة لحفظ البلد إذا سمعت بقدوم القوات المعادية، ويدل هذا على أن قوات كلا الطرفين كانت لا تفضل المواجهة وغير

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، المقريزي: السلوك ١/٣٦٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢٠، ٦١٩، ٦١٣، ٦٠١، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩١، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٢، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص: ٢٧١، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، الطبري: إتحاف فضلاء الزمن ١/ ١٢٠.

مقتنعة بأهداف القيادتين، كما أنها مجرد قوات بسيطة أبقتها الحملات العسكرية لكلا الطرفين لحفظ الأمن فقط[١]، وبهذا نستطيع القول إن كلا القيادتين في مصر واليمن كانتا تحاولان كسب ولاء أهل مكة بالمحافظة على أموالهم وأنفسهم، وقد كان بقاء حامية عسكرية بعد خروج الحملات العسكرية كفيلاً بحفظ الأمن مما ساعد في استقرار هذا الجانب، نستخلص أيضاً أن أهل مكة تجنبوا الاشتراك في هذا النزاع مما جعلهم في مأمن من مهاجمة القوات العسكرية لهم وتتبعهم بالقتل والتنكيل، لذا نستطيع القول إن الجانب الأمني لمكة في هذه الفترة لم يتأثر.

في شهر رجب عام ٦٣٥هـ-١٢٣٧م كان لحملة الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول على مكة أثر كبير على الجانب الأمني فقد قدم الملك المنصور بقوات كثيرة واستطاع دخول مكة بدون قتال، وقد كانت كثرة جيش الملك المنصور، كفيلة بتحقيق النصر على الحامية المصرية وبالقضاء على أي تصرف غير حسن قد يقوم به اللصوص والمتربصون بأمن مكة، كما أنه أطلق لكل جندي من جنود الدولة الأيوبية يترك المقاومة وينضم إليه ألف دينار وحصاناً وكسوة، وبهذا جعل كثير من الجند يميل إليه تاركاً ما كان سوف يحصل عليه من مال لو حدث قتال، ويكون بهذا الفعل قد قضى على الفوضى الأمنية التي قد

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٥٤، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٨٠، المقريزي: السلوك ١/ ٣٦٧، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢١، ٦١٩، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٢، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٦٠، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٧٣، ٧٢.

تصيب البلد في حالة دخول القوات بشكل حربي، وقد استطاع أن يدخل مكة بيسر وسهولة والناس في أمن وطمأنينة[١].

من البديهي أن يكون للحملات العسكرية الخارجية على مكة أثر على الناحية الاجتماعية، فالمجتمع المكي في غالبه مجتمع مسالم يغلب عليه التأثير الديني نظراً لوجود المسجد الحرام وسيادة جو العبادة الدائم به، وحيث إن جميع زوار مكة من جميع أرجاء الدنيا يكون دافعهم للقدوم إليها هو الرغبة في رضا الخالق سبحانه وتعالى فهو مجتمع يكره القتل بغير وجه شرعي، ومع هذا كان بمكة من بعض الطوائف من ضعف الإيمان في قلوبهم يستغلون الاضطرابات السياسية والفوضى الأمنية فينضمون لكل محارب بهدف السلب والنهب وهؤلاء في معظمهم قليل، أما بقية المجتمع فهم من الناس العزل أصحاب العبادات والتجار القادمين للتجارة بغية الربح الوفير حيث إن تجمع الناس بكثرة في منطقة واحدة من شتى أرجاء المعمورة جعل منها سوقاً رائجاً يدر الكثير من الأرباح على التجار، وبهذا عندما تقدم حملة عسكرية وتواجهها مقاومة من أعوان أمراء مكة يحدث أن تعم الفوضى الأمنية في أرجاء البلد الحرام فيتعرض السكان للنهب والسلب والقتل، وبهذا نستطيع القول إن كل حملة عسكرية تصطدم بمقاومة ينتج عنها نقص في المجتمع المكي من جراء القتل الذي يحل بالسكان الآمنين، وفي الوقت الآخر يغادر بعض السكان الذين يستطيعون المغادرة ويسلمون من المواجهة إلى خارجها ومن ذلك نذكر ما يلي:

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٦١، الفاسي: العقد الثمين٥٤/ ٣٦٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٣، ، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٠١، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٢٣، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٣، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٣٠٠.

في عام ٥٧١هـ-١١٧٥م عندما قدمت حملة الأمير طاشتكين أمير الحاج العراقي بهدف تغيير الوضع السياسي للإمارة قام جنود الحملة العسكرية بقتل عدد كبير من السكان كما قاموا بسلب ونهب العديد من المنازل وخصوصاً التي كانت تقع في أطراف البلد حيث يسهل اقتحامها ويبدو أن أهلها قد تركوها وخرجوا خوف القتل فكانت عرضة للنهب أكثر من غيرها، كما قاموا بإحراق الكثير من المنازل، وذلك أن الحملة كان يصاحبها عدد من الجنود النفاطين، الذين كان عملهم إلقاء النار في المباني ليسهل اقتحاهما فتم استخدامها بشكل عشوائي فقد ألقيت على عدد كبير من المنازل دون تمييز[١]، بالإضافة إلى من سقط قتيلاً من السكان الذين انضموا إلى صفوف جند الأمير مكثر بن عيسى بن فليته[٢]، فحرق المنازل ونهب أموال أهلها وقتل الرجال يعني تشريد عدد كبير من النساء والأطفال وتشتت الكثير من الأسر حيث أصبحوا بدون مأوى مما يدل أنهم سوف يتجهون إلى المسجد الحرام ويتخذونه سكناً لهم، وبهذا يكون المجتمع المكي قد حلت به كارثة اجتماعية كبيرة من جراء تصرفات جنود الحملة الذين كانوا لا يفرقون بين المقاتلين والمسالمين، فأصبح فيه عدد كبير من الأيتام والأرامل، وعدد كبير من الفقراء بالإضافة إلى عدد من المعوقين الذين أصيبوا بإصابات بليغة من جراء القتال سواء كانوا من جند الأمير

---

(١) من ذلك أن أحد جنود الحملة أحرق داراً لأيتام كانوا يؤجرونها في الموسم على الحجاج، حيث رماها بقارورة نفط فاحترقت الدار وهلك من فيها من الأيتام، وهذا يدل أن جنود الحملة كانوا لا يتورعون عن إحراق أي دار في مكة المكرمة، ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٣١، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ١٢٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٥٣١، ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد حوادث سنة ٥٧١-٥٨٠ هـ، ص: ٧، الفاسي: العقد الثمين ٦/ ١٢٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩١، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦.

مكثر أو من عامة الناس، وبهذا يصبح المجتمع المكي في حالة بائسة يرثي لها.

وفي عام ٥٨١هـ-١١٨٥م ساءت أحوال مكة الاجتماعية فقد كان الوضع الاجتماعي غير سليم حيث إن المجتمع كان يعاني من جند وحاشية الأمير مكثر فكان لهم نفوذ على السكان حيث كانوا يعيشون على ما يحصلون عليه من الأهالي بالنهب والسلب، وبهذا يكون المجتمع عبارة عن قسمين قسم من العاطلين أصحاب النفوذ، وقسم من العامة الذين لا حول لهم ولا طول وعرضة للنهب والسلب، وبهذا يكون من الصعوبة العيش في مناخ اجتماعي بهذا الشكل فسوف ينتج عن هذا الاضطراب خلل في تركيبة السكان وذلك أن جميع الأقوياء من السكان سوف ينضمون لا محالة إلى صفوف هذه الفئة للتخلص من الأذى فتنعدم وظائف المجتمع الأخرى، وبهذا يصبح المجتمع المكي عبارة عن مجموعة كبيرة من المفسدين والذين سوف يصل فسادهم لحجاج بيت الله الحرام، وقد أراد الله تصحيح هذا الوضع الاجتماعي عندما أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي بتسيير حملة عسكرية بقيادة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب واستطاع أن يتعقب المفسدين ويعيد استقرار الوضع الاجتماعي للبلد الحرام[(١)]، وبهذا نؤكد أن حملة الملك العزيز قد نجحت في تحقيق الاستقرار الاجتماعي والقضاء على أسباب تزعزعه.

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٣/ ٢٧١، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٢/ ٥٥٢، الجزيري: الدرر ١/ ٥٧٤، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢١، الزهراني غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ص: ٩٤، عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص: ٥٥.

كان من جراء الحملات العسكرية التي تقدم إلى مكة إذا لم تحقق أهدافها، وتحافظ على سلامة أفرادها أن يتخلف عدد كبير من الذين كانوا يرافقون الحملات العسكرية، من الذين ليس لهم دراية بأهدافها، حيث إن غالبية الحملات كانت ترافق مواكب الحجيج فعندما تنهزم الحملة وتحل الكارثة بأفرادها يصل الضرر إلى جميع من كانوا يرافقون الحملة من حجاج ومعتمرين، فيفقدون أموالهم وأمتعتهم ويصبحون لا حول لهم ولا طاقة على السفر والعودة إلى أوطانهم فيبقون في مكة تحت حسنة المحسنين وبهذا يزيد عدد العاطلين البائسين في المجتمع المكي[١]، ومن ذلك أنه في عام ٦٠٨هـ-١٢١١م عندما قدمت الحملة السرية العراقية التي كان قصدها القضاء على الشريف قتادة باغتياله في مشعر منى كان نتيجة الحملة أنها لم تحقق أهدافها فوقع القتل والسلب في المشاعر المقدسة، وأصاب الحجاج كارثة كبيرة حيث إن الذين سلموا من القتل منهم فقدوا أموالهم بكاملها، وكانوا في رعب مستمر خوف القتل[٢]، وبهذا نستطيع القول إن غالبية الحجاج أصحبوا معدمين لا يستطيعون العودة إلى أوطانهم وبهذا سيبقى عدد كبير منهم في حالة من

---

(١) يدل على ذلك كثرة الأربطة التي انتشرت بالقرب من المسجد الحرام لإيواء البائسين، ومن ذلك ما ذكر عندما أوقف الخواجا بدر الدين حسن بن محمد بن قاسم الطاهر وقفه عند باب سويقة عام٨٤٣هـ جعله على الفقراء والمساكين الغرباء المتعطلين الرجال دون النساء الذين لا سكن لهم ولا يقدرون على أجرة مسكن وليس لأحدهم بيت، ابن فهد: إتحاف الورى ٤/ ١٥١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٠٥، اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ١٥، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٩، المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٤، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٥٦٠، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨١، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٢٦.

البؤس والشقاء في مكة يتكففون الناس حتى يجمعون من المال ما يكفيهم للعودة إلى أوطانهم وبهذا سيبقون على الأقل مدة عام كامل يأتي ركب الحجاج فيسافر معه من يستطيع السفر، وبهذا نقول إن الحملات العسكرية كانت تعمل خللاً في المجتمع المكي في قتل البعض وتخلف البعض الآخر، فإذا كان القتل في أهل مكة حدث النقص في المجتمع المكي، وإذا كان القتل والسلب في جند الحملات والحجاج، حدثت الزيادة في السكان بشريحة اجتماعية فقيرة وعاطلة تعيش أغلبها على التسول والصدقات.

في عام ٦١٩هـ-١٢٢٢م أصيب المجتمع المكي بنكسة كبيرة وذلك بسبب قدوم حملة الملك المسعود فقد كانت وبالاً على أهل مكة حيث قام جند الملك المسعود بسفك دماء الناس دون تميز حتى كان القتل في داخل المسجد الحرام ونهبهم في جميع ما يملكون، حتى أنهم أخذوا الملابس من على بعض الناس وأخذوا المنازل من أصحابها[1] مما يدل أن قوات الحملة لم تفرق بين المحاربين من صفوف أمير مكة وغيره من عامة الناس، وبهذا يكون المجتمع المكي قد أصيب بنكستين الأولى نقص عدد أفراده بسبب من قتل عدد كبير حيث وصل القتل إلى المسجد الحرام، والثانية أنه من سلم منهم أصبحوا فقراء معدمين من جراء النهب والسلب الذي تعرضوا له، بالإضافة إلى كثرة الأيتام والأرامل والمعوقين.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٥٠، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٩٩، الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٣، ٦/ ٢٥٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٤، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤١٠، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٨، ناصر البركاتي: بنو رسول، ص: ١٤٦.

وعندما أمر الملك المسعود بإعادة ما أخذه جنده من دور أهل مكة ومن المزارع القريبة منها مما يملكه السكان وأهل القرى المحيطة بها[١]، وهذا الإجراء ساعد على الاستقرار الاجتماعي لمن بقي على قيد الحياة من الأهالي.

منذ عام ٦٢٩هـ-١٢٣١م شهدت مكة صراعاً عسكرياً بين الدولة الرسولية في اليمن والدولة الأيوبية في مصر، فكلا القيادتين تحاولان فرض السيادة على البلد الحرام تدفع كلاً منهما دوافعه وأهدافه، ومن ذلك نذكر ما يلي:

في عام ٦٢٩هـ-١٢٣١م قدمت حملة الملك المنصور عمر بن علي ابن رسول وقد استطاعت حملة الملك المنصور دخول مكة، بعد أن خرجت منها الحامية المصرية، وهذا يعني أنها أصبحت من ضمن أملاك الملك المنصور، وبهذا من المؤكد أن المجتمع المكي أصبح مفتوحاً على مصراعية للزيادة السكانية من جهة اليمن حيث إن الحماية اليمنية قد دخلت مكة دون أن تحدث أثراً سيئاً يجعل المجتمع المكي ينفر منها ولا يتعاون معها، وبهذا سوف تقيم وتستقر مما يسهل لها الاندماج في المجتمع المكي مع مرور الزمن[٢].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٣/ ٤٠٣، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤١، المقريزي: السلوك ١/ ٣٣٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٣٤، الجزيري: الدرر ١/ ٥٨٨، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤١٠.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، ٥/ ٣٦٢، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤١، المقريزي: السلوك ١/ ٣٦٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢٠، ٦١٣، ٦٠١، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩١، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٢٠.

وعندما علم السلطان الملك الكامل الأيوبي بخروج قواته من البلد الحرام حتى أمر بتجهيز حملة عسكرية لاستعادة السلطة الأيوبية، فقدمت الحملة، وانضم إليها في الطريق أمير ينبع الشريف أبو سعد بن علي بن قتادة وأمير المدينة المنورة الأمير شيحة الحسيني بقوات عسكرية أخرى، فزحفت الحملة واستطاعت أن تنزل هزيمة ساحقة بالقوات اليمنية ومن شارك معها من أهل مكة في شهر رمضان سنة ٦٢٩هـ-١٢٣١م وقام أمير الحملة بالتنكيل بأهل مكة حيث قتل عدداً كبيراً منهم بسبب مواقفهم السابقة عندما رحبوا بقوات الملك المنصور والشريف راجح ولاشتراكهم في حربه مع القوات اليمنية وسمح لجنده بالنهب والسلب مدة ثلاثة أيام(١)، وبهذا نستطيع القول إن المجتمع المكي أصيب بنكسة كبيرة حيث قتل عدد كبير منه في ساحة المعركة وفي داخل البلد(٢)، ومن البديهي أن عدداً من السكان قد خرج من البلد خوفاً من القتل حيث استمر القتل والنهب مدة ثلاثة أيام، كما أن هذه الحملة أعطت لسكان المنطقة الواقعة من مكة إلى ينبع حرية في القدوم والاستقرار في البلد الحرام بحجة أنهم أنصار القيادة وجند الأمير.

كانت القيادتان في مصر واليمن تقدران مكانة البلد الحرام، وقد أرادت تجنيب مكة وأهلها ويلات الصراع العسكري يدلنا على هذا أن

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٤٩، الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٢٩٥، المقريزي: السلوك ١/ ٣٦٦، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢٠، ٦١٩، ٦١٣، ٦٠١، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩١، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٢٠، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٢.

(٢) لم يكن هذا الفعل من القائد بأمر الملك الكامل الأيوبي فقد غضب من تصرف قائده في أهل مكة المكرمة ولما علم بتصرفه هذا أمر بعزله واستدعاه إلى مصر، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٤٩، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦١٣.

جميع الحملات منذ عام ٦٣٠هـ-١٢٣٢م كانت تتجنب إيذاء السكان بالبلد الحرام فكانت الحملات تخرج سريعاً إذا سمعت بقدوم حملة معادية دون الاصطدام بها في البلد الحرام مم يدل أن هناك توصيات سابقة من القيادات السياسية بعدم الإضرار بالحرم وأهله، وهذا بديهي لأن أي ضرر تتعرض له مكة وسكانها سوف تتأثر به السلطة السياسية التي ينتمي إليها ملحق الضرر وهذا ما لا ترضى عنه السلطة السياسية في مصر واليمن لرغبتهما في كسب ود العالم الإسلامي بالإشراف على الأماكن المقدسة، كما يدلنا أيضاً على هذا التوجه ما كانت تنفقه السلطتان في مكة رغبة في كسب ود السكان[1]، وبهذا يتضح لنا أن الجانب الاجتماعي كان مستقراً فقد سلم الناس من القتل جراء عدم التدخل في الصراع بين القوتين المتصارعتين المصرية واليمنية، ومن الهروب منها، ولكن كان من الطبيعي أن يحدث للمجتمع المكي بعض الزيادة الاجتماعية جراء من يبقى في مكة من المرافقين للحملات العسكرية المصرية منها واليمنية.

في شهر رجب عام ٦٣٥هـ-١٢٣٧م، كان لحملة الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول على مكة المكرمة وأثر كبير على الجانب الاجتماعي، فقد استطاع أن يدخل مكة، وقام بتوزيع الصدقات الكثيرة على السكان في رغبة منه لكسب ولائهم له وفي نفس الوقت كان لها مردود اجتماعي كبير حيث أصبح المجتمع المكي مجتمعاً ثرياً، بسبب ما يوزع عليه من صدقات، وما ينفقه الجند من أموال حيث كانوا

---

(١) الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٨٠، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤١، ابن فهد: غاية المرام ١/ ٦٢١، ٦١٩، الطبري: الأرج المسكي، ص: ١١٨، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٢، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٦٠، ناصر البركاتي: بنو رسول، ص: ١٥٥.

يحصلون على نفقات كبيرة[١]، فمن الطبيعي أن تعود فوائدها على السكان بخلاف لو دخلت القوات العسكرية بالعنف فيحل الفقر وينتشر القتل.

لم تستقر أوضاع مكة الاجتماعي ففي عام ٦٣٧هـ-١٢٣٩م أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي خلف الملك الكامل في حكم الدولة الأيوبية حملة عسكرية كبيرة واستطاعت دخول مكة بعد خروج القوات اليمنية منها، وقد كان لتصرف جنود الحملة الذي أطلق لهم العنان قائدها الأثر السلبي على الناحية الاجتماعية لمكة فقد سمح لجنده ينهب البلد[٢]، وهذا يؤدي إلى أن يحدث مقاومة من الأهالي حيث إن كل فرد سوف يدافع عن ماله ومتاعه مما يجعل فرصة تعرضه للقتل كبيرة، وبهذا سوف يفقد المجتمع المكي عدداً كبيراً من أبنائه جراء هذا التصرف، بالإضافة إلى أن عدداً من القادرين على الهرب سوف يغادرون البلد خوفاً على أنفسهم، فقوة تقدر بـ(١٠٠٠) فارس بالإضافة إلى من انضم إليها من المفسدين المتربصين كفيلة بأن تصيب المجتمع الذي تهاجمه بنكسة كبيرة فيكثر عدد القتلى من الرجال القادرين على العمل، ومن هم في سن الشباب ويبقى من يسلم من كبار السن والعجزة والأيتام ممن فقدوا

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/٦١، الفاسي: العقد ٥/٣٦٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٥٣، العاصمي: سمط النجوم العوالي ٤/٢٣٣، السنجاري: منائح الكرم ٢/٣٠٠، سليمان المالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، ص: ٧٩.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٤/٨١، ٥/٣٦٤، الفاسي: شفاء الغرام ٢/٣٤٣، المقريزي: السلوك ١/٤١٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/٥٦، الجزيري: الدرر ١/٥٩٤، السنجاري: منائح الكرم ٢/٣٠١، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ٢٥٣.

آباءهم وبهذا نستطيع القول إن المجتمع المكي في غالبه أصبح عبارة عن مجموعة من الأسر الفقيرة التي فقدت كل مقومات الحياة.

لم تطل فترة الاضطراب الاجتماعي لمكة حيث قدمت حملة عسكرية يمنية أنفذها الملك المنصور، في نفس العام وكانت كثيرة العدد، فدخلت مكة[١]، ولم يحدث منها أي اضطراب اجتماعي، حيث إنها لم تقدم على أي عمل يمس المجتمع المكي بأي أذى مما جعل الأمور تستقر بعدما أصابها من هزة اجتماعية عنيفة جراء الحملة السابقة.

في عام ٦٣٨هـ-١٢٤٠م أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب حملة عسكرية جديدة، وكانت بقيادة عدد من الأمراء الملتزمين مما يدل أن الملك الصالح لم يرض عن تصرفات قائده في الحملة السابقة حيث أضر بالمجتمع المكي عندما سمح لجند الحملة بنهب الناس، وبهذا دخلت الحملة العسكرية المصرية دون مقاومة[٢]، ولم يتعرضوا للمجتمع المكي بأي أذى مما يدل على أن تصرف قائد الحملة السابقة لم يرض السلطة السياسية في مصر فكان تصرف هذه الحملة مع كثرتها سليماً مع المجتمع المكي.

في عام ٦٣٩هـ-١٢٤١م قدم السلطان عمر بن علي بن رسول بحملة عسكرية كثيرة استطاع بها أن يدخل مكة، وقام بالعمل على استقرار

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ١/ ٦٤، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٣، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٦، الجزيري: الدرر ١/ ٥٩٤، يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٢٣، العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٣٤.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٤/ ٨١، ٥/ ٣٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٦، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٣٠٢، جميل حرب: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص: ٦١، ٦٢، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، ص: ٢٥٤.

الوضع الاجتماعي للسكان برفع الظلم[1] عنهم، وبهذا يكون المجتمع المكي قد نعم بالاستقرار ولم يحدث عليه اعتداء[2]، وقد استمر هذا الوضع الاجتماعي المستقر حتى وفاة السلطان المنصور عمر بن علي بن رسول عام ٦٤٧هـ-١٢٤٩م[3] ومن الملفت للنظر أن المجتمع المكي لم يتعرض لأي أذى من قبل الحملات اليمنية في صراعها مع الحملات المصرية، بل كان يقابل بكل تقدير واحترام، مما يدل أن القيادة الرسولية كانت تقدر وتحترم المجتمع المكي الذي يعيش فيه رحاب أطهر بقعة على وجه الأرض، وقد كان المجتمع المكي في عهد السلطان عمر بن رسول ينعم بالاستقرار والثراء حتى أن الناس عمروا المنازل وظهرت عليهم النعم[4] في مآكلهم ومراكبهم وملابسهم، وهذا بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بما حظى به المجتمع المكي من رعاية من السلطان عمر بن علي بن رسول.

---

(١) قام السلطان عمر بن علي بن رسول بمنع المكوس والضرائب والمظالم التي كانت على أهل مكة، وكتب أمره على جدار بئر زمزم في المسجد الحرام مقابل الحجر الأسود، في مسعى لكسب ود السكان بالبلد الحرام، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٧، الجزيري: الدرر ١/ ٥٦١.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ٣/ ١٢٣، ٥/ ٣٦٤، الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٣٤٣، المقريزي: السلوك ١/ ٤١٦، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٥٧، عبد الكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص: ٢٣٥.

(٣) المقريزي: السلوك ١/ ٤٣٥، ابن فهد: إتحاف الورى ٣/ ٦٨، السنجاري: منائح الكرم ٢/ ٣١١.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأماني، ص: ٤٢٣.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

● المخطوطات ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

١ ● **البياسي**، يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري (ت٦٥٢هـ‍ـ١٢٥٤م)، الأعلام فيما وقع من حروب في صدر الإسلام، مخطوطة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد عن مخطوطة دار الكتب المصرية برقم ٣٩٩ تاريخ.

٢ ● **البلاذري**، أحمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ‍ـ٨٩٢م) أنساب الأشراف، مخطوطة في Suteymaniye Kutyphanest **تحت الرقم** (٥٩٨).

٣ ● **الدرجيني**، أبو إسحق أحمد (توفي في القرن السابع الهجري)، طبقات الإباضية مخطوطة بدار الكتب المصرية، ورقة ٩٢.

٤ ● **العوتبي**، سلمة بن مسلم الصحاري، أنساب العرب، مخطوطة دار الكتب المصرية تحت الرقم (٣٤٦١ تاريخ).

● المصادر ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

١ ● **ابن أعثم**، أبو محمد بن أحمد بن أعثم، (ت٣٣٤هـ-٩٤٦م)، الفتوح تحت مراقبة د. محمد حميد المعيد حان، ط١، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، (الهند - ١٩٧١م).

٢ ● **الأصفهاني**، حمزة بن الحسن، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، مطبعة دار مكتبة الحياة، (بيروت لا ت).

٣ ● **الأنطاكي**، داود بن عمر (ت١٠٠٨هـ) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ويليها ذيل التذكرة لأحد تلاميذ المؤلف، مطبعة المكتبة الثقافية، (بيروت بلا ت).

٤ ● **الإدريسي**، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحموي الحسني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (روما ـ ١٩٧٠م).

٥ ● **الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد**، مسالك الممالك، مطبعة بريل، (ليدن ـ ١٩٢٧م).

٦ ● **الأندلسي، أبو الربيع سلمان بن موسى الكلاعي** (ت٦٣٤ هـ)، الاكتفاء بما نضمنته مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين علي، ط١، مطبعة عالم الكتب (بيروت ـ ١٩٧٧م).

■ **أحمد بن محمد بن عبد ربة الأندلسي** (٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العوبات، مطبعة دار الفكر (لا مكان ـ ١٩٤٠م).

٧ ● **ابن الأثير، الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري**، (ت٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي، ط١، مطبعة دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٩٧٨م).

■ **أسد الغاية في معرفة الصحابة**، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا وآخرون، مطبعة الشعب (القاهرة ـ ١٩٧٠م). اللباب في تهذيب الأنساب، مطبعة دار صادر، (بيروت ـ ١٩٨٠م).

٨ ● **الأشعري، علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن** (ت٣٢٤هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق هاكون ريتر، ط٣، مطبعة دار إحياء التراث العربي، (بيروت ـ لا ت).

٩ ● **البكري، أبو عبيد بن عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي**، معجم ما استعجم

من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ـ ١٩٤٧م).

١٠ ● **البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي**، (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، مطبعة دار الكتب العلمية (بيروت - ١٩٧٨م).

١١ ● **ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إبراهيم**، (ت٧٥٤هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، ط١، مطبعة دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ١٩٨٧م).

١٢ ● **البغدادي، قدامة بن جعفر أبو الفرج بن جعفر الكاتب**، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي، مطبعة دار الحرية للطباعة (بغداد -١٩٨١م).

■ **أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي**، (ت٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق، ترجمة وتصحيح وتحقيق محمد زاهر بن الحسن الكوثري، مراجعة السيد عزت العطار الحسني، مطبعة مكتب نشر الثقافة الإسلامية (بلا مكان ـ ١٩٤٨م).

١٣ ● **ابن تغري، بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف** (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة، (مصر - لا ت).

١٤ ● **الثعالبي، ابن منصور عبد الملك محمد بن إسماعيل الثعالبي**، تاريخ غرر السير، مطبعة مكتبة الأسدي - ميدان بهارستان، (طهران - ١٩٦٣م).

١٥ ● **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر**، (ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة - ١٩٦١م).

■ **رسائل الجاحظ**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، (القاهرة ـ ١٩٦٤م).

١٦ ● **ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ)، صفة الصفوة،

تحقيق محمد فاخوري، وخرج أحاديثه محمد رواس، فلقه جي، ط١، مطبعة دار الوعي (حلب ـ ١٩٩٦م).

■ **القرامطة، تحقيق محمد الصباغ**، ط٣، مطبعة الكتب الإسلامية، (بيروت - ١٩٧٠م).

■ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ط١، مطبعة دار الكتب العلمية (بيروت - ١٩٩٢).

١٧ ● **الجرجاني**، أبو الحسن الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، مطبعة دار الرواد (بيروت - ١٣٠٦هـ).

١٨ ● **ابن حوقل، أبو القاسم بن الحوقل النصيبي**، صورة الأرض، ط٢، مطبعة بديل بديل (ليدن ١٩٣٨م).

١٩ ● **ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو**، المحبر، تصحيح د. اليزه شتيز، مطبعة دائرة المعارف العثمانية (الهند - ١٩٤٢م).

٢٠ ● **ابن حزم، أبو الحسن علي بن الحسين**، أخبار الزمان ومن أباده الحديثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، قام بتصحيحه ومراجعته عبدالله إسماعيل الحاوي، ط١، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، (القاهرة - ١٩٣٨م).

■ **الفصل في الملل والأهواء** والنحل، وبهامشه الملل والنحل للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، مطبعة دار المعرفة (بيروت - ١٩٨٣م).

■ **جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى**، تحقيق د. إحسان عباس، د. ناصر الدين الأسد ومراجعة محمد شاكر، مطبعة دار المعارف (مصر ـ لا ت).

■ **الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله بن ياقوت بن عبدالله** (ت٦٢٦هـ)، المقتضب في كتاب جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، ط١، مطبعة دار العربية للموسوعات.

■ **معجم البلدان**، ط٢، مطبعة دار صادر (بيروت - ١٩٩٥م).

٢١ ● **ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي**، (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٧٣هـ)، ط١، مطبعة دار إحياء التراث العربي.

■ **لسان الميزان، تحقيق دائرة المعارف النظامية**، الهند، ط٣، مطبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت - ١٩٨٦م).

٢٢ ● **الحلبي، علي بن برهان الدين الشافعي**، إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية وهامشه السيرة النبوية والآثار المحمدية للسيد أحمد زيني المشهور بدحلان، مطبعة مصطفى مهدي (مصر ـ لا ت).

٢٣ ● **ابن خرداذبة، أبو القاسم عبدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك، مطبعة مكتبة المثنى (بغداد ـ بلا ت).**

٢٤ ● **ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون** (ت٨٠٨هـ-١٤٠٦م)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مطبعة الأعلمي للمطبوعات، (بيروت ـ ١٩٧١م).

٢٥ ● **ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر**، (ت٦٨١هـ) وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، مطبعة دار الثقافة (بيروت ـ ١٩٦٨م).

٢٦ ● **خليفة، ابن الخياط الليثي العصفري أبو عمر**، (ت٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط٢، مطبعة مؤسسة الرسالة (بيروت - ١٣٩٧هـ).

٢٧ ● **الدينوري، ابن قتيبة، (ت٢٧٦هـ)**، المعارف صححه وعلق عليه إسماعيل عبدالله الصاوي، ط٢، مطبعة إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٩٧٠م).

٢٨ ● **الدميري، الشيخ كمال الدين الدميري**، حياة الحيوان الكبرى وبهامشه عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات للإمام القزويني زكريا بن محمد ابن محمود، مطبعة دار الفكر (بيروت - بلا ت).

٢٩ ● **ابن دريد، أبو بكر بن حسن بن دريد** (ت٣٢١هـ) الاشتقاق تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة السنة المحمدية، (بيروت - ١٩٥٨م).

٣٠ ● **الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان قايماز أبو عبدالله**، (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرناؤوطي ومحمد نعيم العرقسوسي، ط٩، مطبعة مؤسسة الرسالة، (بيروت ـ ١٤١٣).

■ **العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد**، ط٢، مطبعة حكومة الكويت، (الكويت ـ ١٩٤٨م).

■ **الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي**، (ت٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، لاط، مطبعة دار الرسالة، (الكويت - ١٩٨٣م).

٣١ ● **ابن رستة، ابن أبي علي أحمد بن عمر بن رستة**، الأعلاق النفيسة ويليه كتاب البلدان أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، مطبعة بديل (ليدن ـ ١٨٩٣م).

٣٢ ● **الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر** (ت٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، عرف به أمين الخولي، مطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت - ١٩٧٩م).

٣٣ ● **السيرافي، أبو زيد حسن بن يزيد**، أخبار الصين والهند، نشره وترجمه إلى الفرنسية سوفاجية، لاط، (لا مط، لا ت)، (باريس ـ ١٩٤٨م).

٣٤ ● **السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر**، (ت٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة السعادة (مصر - ١٩٥٢م).

٣٥ ● **السهيلي، الإمام عبد الرحمن السهيلي**، (ت٥٨١هـ)، الروض الانف في شرح السيرة النبوية لابن هاشم، تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل، ط١، مطبعة دار النصر للطباعة، (القاهرة - ١٩٢٩م).

٣٦ ● **السالمي، محمد بن عبدالله**، النهضة الأعيان سيرة أهل عمان، (الكويت ـ ١٩٧٤م).

٣٧ ● **سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاد علي بن عبدالله البغدادي** (ت٦٥٤هـ)، مدان الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق ودراسة جنان جليل الهموندي، مطبعة الدار الوطنية (بغداد ـ ١٩٩٠م).

٣٨ ● **ابن سعد، محمد بن سعد** (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، تصحيح د. أوجين منوخ ود. أدورد سخون مطبعة كاثن، مصور من ليدن (بديل ١٩٢٢م).

٣٩ ● **سهراب، أبو حسن بن بهلول،** (ت بعد عام ٢٨٩هـ)، عجائب الأقاليم السبعة في نهاية العمارة، صححه هانس يونقوت مدئيك ودولت هولن هوزن، لاط، مطبعة (فينا - ١٩٢٩م).

٤٠ ● **الشيباني، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر،** (ت٢٨٧هـ)، الآحاد والمثاني، تحقيق د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، ط١، مطبعة دار الراية (الرياض ـ ١٩٩١م).

٤١ ● **شمس الدين، أبو عبدالله محمد أبو طالب،** نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة بيزك، (١٩٢٣).

٤٢ ● **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري** (ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥، مطبعة دار المعارف (القاهرة - ١٩٨٧م).

٤٣ ● **الطوسي، نظام الملك حسين،** (ت٨٥٤هـ)، سياسة نامة أو تسيرا للملوك، تحقيق يوسف حسن بكار، ط٢، مطبعة دار الثقافة (قطر ـ ١٤٠٧هـ).

٤٤ ● **العماني، عبدالله بن حمد بن سلمان بن جميل الحارثي العماني الإباضي،** العقود الفضية في أحوال الإباضية، مطبعة دار اليقظة العربية (لبنان ـ بلا ت).

٤٥ ● **ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله ابن عساكر،** (ت٥٧١هـ)، معجم البلدان، تحقيق مركز جمعة الماجد للتحقيق، ط١، مطبعة دار الفكر (بيروت - ١٤١٣هـ).

٤٦ ● **عبد الباقي، بن قانع أبو الحسن** (ت٣٥١هـ)، معجم الصحابة، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، ط١، مطبعة الغرباء الأثرية (المدينة المنورة ـ ١٤١٨هـ).

٤٧ ● **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد،** (ت٨٠٦هـ)، فضائح الباطنية، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، مطبعة مؤسسة دار الكتب الثقافية، (الكويت ـ ١٩٤٦م).

٤٨ ● **أبو الفداء، الحافظ ابن كثير الدمشقي،** (ت٧٧٤هـ) قصص الأنبياء، ط١ مطبعة المؤسسة الحديثة للكتاب (لبنان - ١٩٩٣م).

■ **عماد الدين إسماعيل بن عمر** (ت٧٣٢هـ) تقويم البدان، تصليح رينود واليارون ماك كوس ريسلان مطبعة دار الطباعة السلطانية (باريس - ١٨٤٠م).

■ **البداية والنهاية** ن ط١، مطبعة مكتبة المعارف، (بيروت - ١٩٦٦م).

٤٩ ● **القزويني، أبو زكريا محمد بن محمود** (ت٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخيار العباد، مطبعة دار صادر (بيروت - لا ت).

٥٠ ● **القلقشندي**، أبو عباس أحمد بن علي القلقشندي، (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشا في صناعة الانشا، مطبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (القاهرة - لات).

٥١ ● **مآثر الإناقة في معالم الخلافة، تقديم صلاح الدين المنجد،** تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت (الكويت - ١٩٦٤م).

٥٢ ● **القرطبي، غريب بن سعد،** صلة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل، ط٢، مطبعة دار المعارف، (مصر - لا ت).

٥٣ ● **القنوجي، صديق بن حسن القنوجي،** أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العيون، تحقيق عبد الجبار زكار، مطبعة دار الكتب العلمية (بيروت ـ ١٩٧٨م).

٥٤ ● **ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة القلانسي،** (ت٥٥٥هـ)، ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨م).

٥٥ ● **الكازروني، ظهير الدين علي محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني،** (ت٦٩٧م)، مختصر التاريخ من أول الدخان إلى منتهى دولة بني العباس،

تحقيق د. مصطفى جواد ووضع فيها فهارسه سالم الآلوسي، مطبعة المؤسسة العامة للطباعة (بغداد ـ ١٩٧٠م).

٥٦ ● **المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن**، مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، مطبعة السعادة (مصر - ١٩٦٤م).

■ **التنبيه والإشراف**، مطبعة مكتبة هلال (بيروت ـ ١٩٩٣م).

■ **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، قام بتصحيحه ومراجعته عبدالله إسماعيل الحاوي، ط١، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، (القاهرة ـ ١٩٣٨م).

٥٧ ● **ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم** (ت٧١١هـ)، لسان العرب، مطبعة دار بيروت للطباعة، (بيروت - ١٣٧٤).

٥٨ ● **المرهوبي، عامر بن علي عمير المرهوبي، عمان قبل وبعد الإسلام**، ط٢، مطبعة وزارة التراث والثقافة (سلطة عمان - ١٩٨٨م).

٥٩ ● **المقدسي، مطهر بن طاهر المقدسي**، (ت٥٠٧هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم مطبعة مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة - بلا ت).

■ **شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري المقدسي**، (ت٣٧٥هـ) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، مطبعة ليدن (بريل - ١٩٠٦م).

٦٠ ● **المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل**، علق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، مطبعة دار النهضة (مصر - بلا ت).

٦١ ● **مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد**، تجارب الأمم، مطبعة مكتبة المثنى (بغداد ـ بلا ت).

٦٢ ● **النبهاني، التحفه النبهانية في تاريخ الجزيرة**، ط٢، مطبعة المحمدية (القاهرة - ١١٤٢هـ) ناصر خسرو، (ت٣٩٤هـ)، سفر نامة، تحقيق د. يحيى الخشاب، ط٣، مطبعة دار الكتاب الجديد، (بيروت ـ ١٩٨٣م).

٦٣ ● **النويري، شهاب الدين بن المجد بن عبد الوهاب** (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية (مصر ـ لا ت).

٦٤ ● **النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري،** (ت٢٦١هـ) صحيح مسلم، تحقيق وتدقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢، مطبعة دار إحياء التراث العربي (بيروت ـ ١٩٧٢م).

٦٥ ● **الهمذاني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود،** صفة جزيرة العرب، قام بنشره وتصحيحه ومراجعته محمد بن عبدالله بلهيل النجدي، مطبعة السعادة (مصر - بلا ت).

■ **محمد بن عبد الملك،** تكملة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، مطبعة دار المعارف (مصر بلا ت).

٦٦ ● **ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن قريب بن هشام المعافري** (ت٢١٨هـ) تحقيق وضبط وشرح مصطفى السقا وإبراهيم الايساري وإبراهيم الشلبي، مطبعة دار الفكر (بيروت - ١٩٨٦م).

٦٧ ● **ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر** قديرة العجائب وقديرة الغرائب، (القاهرة - ١٨٩٨م).

٦٨ ● **ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر،** (ت٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي، مطبعة الحيدرية، (النجف ـ ١٩٦٩م).

٦٩ ● **اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي،** (ت٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي علق عليه ووضع حواشيه خليل منصور، ط١، مطبعة دار الكتب العلمية (بيروت - ١٩٩٩م).

٧٠ ● **أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم،** (ت١٨٢هـ)، كتاب الخراج، ط٣، مطبعة السلفية (القاهرة - ١٣٠٢م).

• المراجع الحديثة ••••••••••••••••••••••••••••••••

١ • **إبراهيم، شريف**، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، (بغداد - لا ت).

٢ • **الأحمد، سامي سعيد**، تاريخ الخليج العربي حتى التحرير العربي، مطبعة مركز دراسات الخليج العربي (البصرة - ١٩٨٥م).

٣ • **أمين، سعيد**، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ومصادر الكتاب العربي (لا مكا - لا ت).

٤ • **أرنولد، سير تماس**، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط٢، مطبعة النهضة المصرية (القاهرة - ١٩٥٧م).

٥ • **أنتوني**، نتنج، العرب انتصاراتهم وأمجادهم في الإسلام ترجمة راشد البلداوي، مطبعة الأنجلو المصرية (مصر - ١٩٧٤م).

٦ • **آرثر، كريستينسن**، إيران في عهد الساسانيين ترجمة يحيى الخشاب ومراجعة عبد الوهاب عزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة - ١٩٥٧م).

٧ • **أحمد**، الشناوي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، ط٢، مطبعة وزارة المعارف العمومية المصرية (القاهرة - ١٩٤٢م).

٨ • **إسماعيل**، المير العلي، القرامطة والحركة القرمطية، ط١١، مطبعة دار ومكتبة والهلال للمنشورات (بيروت - ١٩٨٣م).

٩ • **أطفيش، محمد بن يوسف**، رسالة شافية في بعض التواريخ، مطبعة دار الكتب المصرية (الجزائر - ١٢٩٩هـ).

١٠ • **بندلي، جوزي** من تاريخ الحركات الإسلامية في الإسلام، مطبعة دار الروائع (بيروت - لا ت).

١١ • **البصير، عبد الرزاق**، تسميته الخليج العربي بحث مقدم إلى مؤتمر الأدباء العرب الخامس، مطبعة العاني (بغداد - ١٩٦٥م).

١٢ • **البشيبشي، محمود علي** الفرق الإسلامية، ط١، مطبعة الرحمنية (مصر - ١٩٣٢م).

١٣ • **الجميلي، رشيد**، تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية، ط١، (بيروت ـ ١٩٧٢م).

١٤ • **جواد، علي** المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط١، مطبعة دار العلم للملايين (بيروت - ١٩٧١م).

١٥ • **حوراني، جورج فضلو**، العرب في المحيط الهندي العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ترجمة د. السيد يعقوب بكر، مطبعة دار الكتاب العربي (القاهرة - ١٩٥٨م).

١٦ • **حميد الله، محمد حميد الله**، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، مطبعة دار الإرشاد (بيروت - بلا ت).

١٧ • **حسين، عبدالله** هوية البحرين، بحث على الإنترنيت على ست صفحات (١٩٩٩م).

١٨ • **حسن، إبراهيم حسن**، تارخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٢٨ مطبعة النهضة المصرية (القاهرة ـ ١٩٦٤م).

١٩ • **حلمي، أحمد كمال الدين حلمي**، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ط١، مطبعة دار البحوث العلمية (الكويت - ١٩٧٥م).

٢٠ • **حامد، غنيم أبو سعيد** العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين، ط١، مطبعة دار النشر الثقافية (مصر - ١٩٧١م).

٢١ • **حنين، د. عبد المنعم محمد**، سلاجقة إيران والعراق، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ـ ١٩٥٩م).

٢٢ • **خطاب، محمود شيت**، السفارات النبوية، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد ـ ١٩٨٩م).

٢٣ ● **خالد، يحيى العزي**، الواقع التاريخي والحضاري لسلطنة عمان، مطبعة الاقتصاد (بغداد ـ لا ت).

٢٤ ● **الدهان، د. نجم قمر**، أسماك العراق والخليج العربي، مطبعة الإرشاد (بغداد - ١٩٧٧م).

٢٥ ● **دكسن، عبد الأمير عبد**، الخلافة الأموية، ط١، مطبعة دار النهضة العربية (بيروت - ١٩٧٣).

■ **عُمان في كتب الجغرافيين** في القرنين الثالث والرابع الهجري بحث مستل من البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات التاريخ شرف الجزيرة العربية (الدوحة ـ ١٩٧٦م).

٢٦ ● **الدجيلي**، فرقة الأزارقة، مطبعة النعمان (النجف ـ ١٩٧٣م).

٢٧ ● **الدوري، عبد العزيز**، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة الريان (بغداد ـ ١٩٤٥م).

٢٨ ● **زكار، د. سهيل** تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، ط٤، مطبعة دار الفكر للطباعة والنشر (دمشق - ١٩٨٢م).

٢٩ ● **سالم، د. السيد عبد العزيز**، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مطبعة مؤسسة شباب الجامعة (مصر ـ ١٩٩٣م).

٣٠ ● **السامرائي، د. عبدالله سلوم** الغلو والفرق الغالية والحضارة الإسلامية، ط٣، مطبعة الدار العربية (بغداد ـ ١٩٧٢م).

٣١ ● **سالم بن، حمود السيابي**، أنساب أهل عُمان، مطبعة المكتب الإسلامي (بلا مكا ـ بلا ت).

٣٢ ● **شكري، فيصل**، حركة الفتح الإسلامي، الفتح الإسلامي في القرن الأول، ط٣، مطبعة دار العلم للملايين (بيروت ـ ١٩٧٢).

٣٣ ● **شلبي، د. أحمد شلبي**، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط٣، مطبعة النهضة المصرية (القاهرة ـ ١٩٨٥م).

٣٤ ● **الشكعة، مصطفى**، إسلام بلا مذاهب، تقديم شلتوت، مطبعة دار القلم (بلا مكا ـ ١٩٦١م).

٣٥ ● **عاقل، د. نبيه عاقل**، انتشار الإسلام في الخليج زمن الرسول الكريم، بحث مقدم إلى مؤتمر دراسات الشرق الجزيرة العربية، مطبعة لجنة تدوين تاريخ قطر (قطر ١٩٦٦م).

٣٦ ● **عوض، خليفات**، نشأة الحركة الإباضية، مطبعة تعضيد من اتحاد المؤرخين العرب (عمان ١٩٧٨م).

■ **النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا**، ط١، مطبعة شركة المطابع النموذجية (عمان - ١٩٨٢م).

٣٧ ● **عارف، تامر**، القرامطة، مطبعة الحياة (بيروت - لا ت).

٣٨ ● **عادل، رضا**، عُمان والخليج العربي ومناقشات مطبعة دار الكتب العربي (مصر - ١٩٦٩م).

٣٩ ● **العقيلي، د. محمد أرشد**، السفارات النبوية إلى ملوك العالم وأمراء أطراف الجزيرة العربية، مطبعة المحتسب (عمان ـ بلا ت).

٤٠ ● **العلي، صالح أحمد**، محاضرات في تاريخ العرب ط٣، مطبعة الأرشد (بغداد ١٩٦٤م).

٤١ ● **أبو العلاء، محمد طه**، جغرافيا شبه جزيرة العرب، ط٣، مطبعة مصر (مصر - ١٩٦٦م).

٤٢ ● **العاني، عبد الرحمن عبد الكريم** النجم، عُمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي في الملاحة والتجارة الإسلامية، مطبعة القبة الحديثة (بغداد - ١٩٧٣م).

■ **البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج**، مطبعة الجمهورية (بغداد ١٩٦٩م).

٤٣ ● **العبيدي، خضير نعمان**، البحرين من إمارات الخليج العربي، ط١، مطبعة المعارف (بغداد - ١٩٦٩م).

٤٤ ● **عبد العليم، عبد الرحمن خضر**، الإنسان والأرض في الخليج العربي عن الجغرافيين المسلمين، ط١ (الرياض - ١٩٨٧م).

٤٥ ● **فوزي، فاروق عمر**، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ط٢، مطبعة الدار العربية (بغداد ـ ١٩٨٦م).

٤٦ ● **القلعجي، قدري**، الخليج العربي، مطبعة الغد (بيروت ـ ١٩٦٥م).

٤٧ ● **كي، ليسترنج**، بلدان الخلافة الشرقية نقله إلى العربية بشير فرنسيس وعواد كوركيس، مطبعة الرابطة (بغداد - ١٩٥٤م).

٤٨ ● **كاشف**، سيرة عُمان في فجر الإسلام (عمان - ١٩٧٩م).

٤٩ ● **كلود**، كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القسام، ط٣، مطبعة دار الحقيقة (بيروت - ١٩٨٣م).

٥٠ ● **كحالة، عمر رضا**، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط٧، مطبعة مؤسسة الرسالة (بيروت ـ ١٩٩٤م).

٥١ ● **لوريمر، ج ج**، دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، مطبعة علي بن علي (الدوحة - بلا ت).

٥٢ ● **المعاضيدي**، د. خاشع عيادة، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ط١، مطبعة دار الحلية للطباعة، (بغداد - ١٩٧٦م).

٥٣ ● **معمر، علي يحيى**، الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات عند القديم والحديث، ط٤، مطبعة دار الحكمة (لندن ـ ١٤٢٢هـ).

٥٤ ● **محمد، متولي**، حوض الخليج العربي، المطبعة الفنية الحديثة (القاهرة - ١٩٧٠م).

٥٥ ● **الملاح، د. هاشم**، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة دار الكتب للطباعة (الموصل ـ ١٩٩٤م).

٥٦ ● **المسلم، محمد بن سعيد**، ساحل الذهب الأسود، مطبعة دار مكتبة الحياة (بيروت ـ ١٩٣٠م).

٥٧ ● **محمود، بهجت سنان**، البحرين درة الخليج العربي، ط١، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد، ١٩٦٣م).

٥٨ ● **مصطفى، مراد الدباغ**، جزيرة العرب، موطن العرب ومهد الإسلام، ط١، مطبعة دار الطبيعة (بيروت - ١٩٦٧م).

٥٩ ● **ناجي، د. عبد الجبار** وآخرون، دراسات في تاريخ العرب والجزيرة العربية، مطبعة مركز دراسات الخليج العربي، جامعة (البصرة -١٩٨٥م).

٦٠ ● **النصر، عبد المنعم عزيز**، جذور حركة القرامطة، ط٨، مطبعة أسعد (بغداد - ١٩٨٦م).

٦١ ● **الهيتي، د. صبري فارس** وآخرون، جغرافيا الخليج العربي، مطبعة المكتبة الوطنية (بغداد - ١٩٧٩م).

٦٢ ● **يوسف، محمد الجميط**، الخليج العربي، دراسات في أحوال سكانها، مطبعة الأنجلو مصرية (القاهرة ـ لا ت).

● البحوث والمقالات في الدوريات ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

١ ● **التكريتي، د. بهجت كامل**، عرب الخليج والفتح الإسلامي، مجلة الخليج العربي، العدد الثاني، السنة الثانية ١٩٧٥م.

٢ ● **الحديثي، د. قحطان عبد الستار**، البحرين في المصادر الجغرافية، دراسة في أحوالها الإدارية والاقتصادية، مجلة الخليج العربي، العدد الثاني ١٩٨٤م، مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة.

٣ ● **دكسن، د. عبد الأمير عبد حسين**، من تاريخ عُمان في العصر الأموي مجلة الخليج العربي، العدد الأول، السنة الأولى، ١٩٧٣م.

٤ ● **فوزي، د. فاروق عمر** ببلوجورافيا في تاريخ عُمان، مجلة الخليج العربي، العدد الثاني، بغداد ١٩٧٥م.

■ **مقدمة في دراسة التاريخ العماني** مجلة المؤرخ العربي (نشر اتحاد المؤرخين العرب) بغداد ١٩٧٩م.



فهرس المحتويات